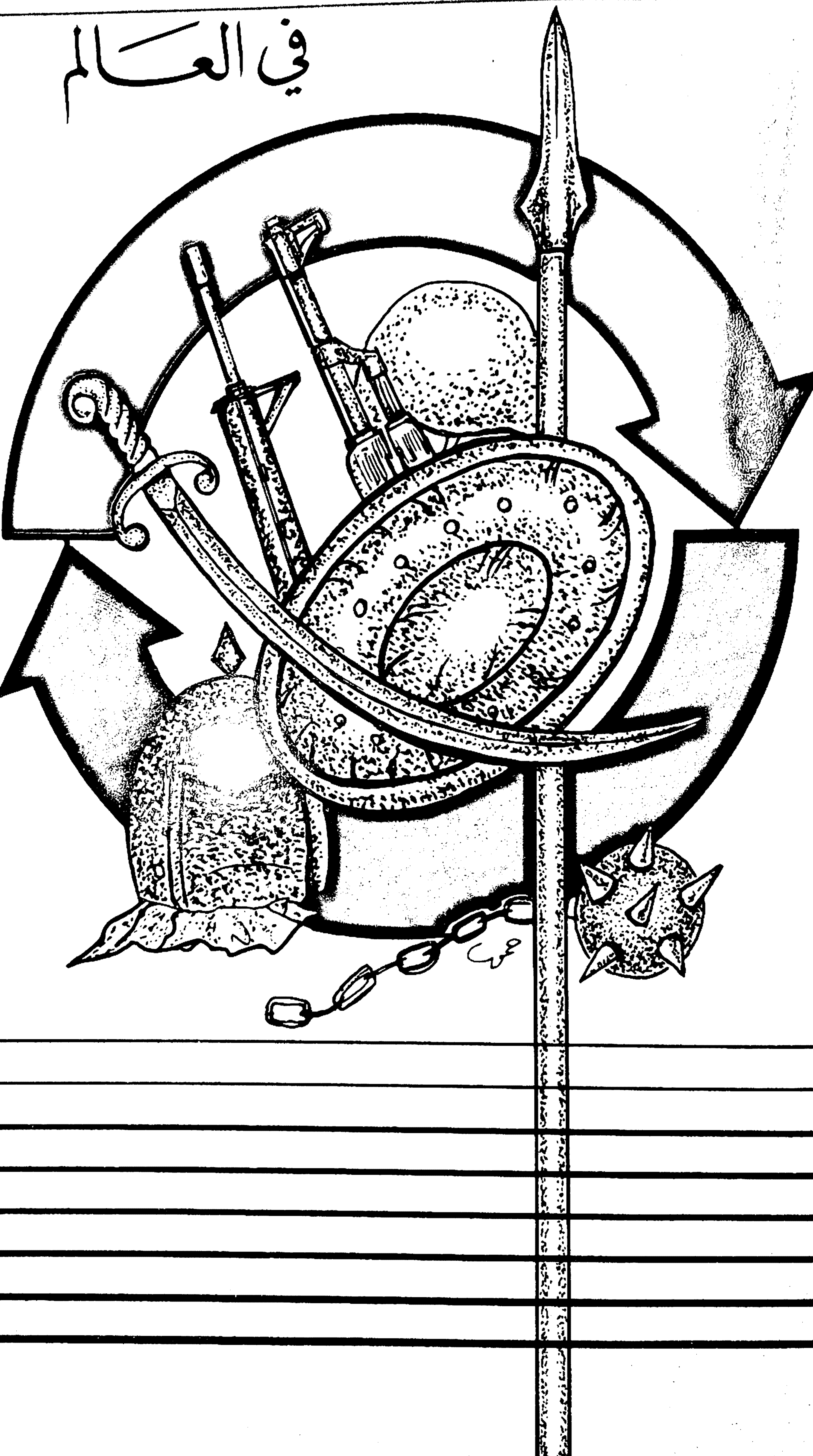
المذاهب العسكرية

في العالم

(دراسات مقارنة)



بسّام العسلي

دار النفائس

المحتوى

بِسْمِ اللَّهِ ٱلرَّحمنِ ٱلرَّحِيمْ

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾

صَدَق ٱللَّهُ ٱلْعَظيم
(البقرة ــ ٢١٦)

المقدمة

يتكون كل مذهب عسكري من المذاهب وفقاً لمجموعة من المبادئ والأسس التي تعطيه ظاهرته (الخصوصية) المميزة: ولعل أول ما يميز هذه المذاهب بعضها عن بعض، هو مدى ارتباطها بالعقيدة الدينية أو السياسية أو الإيديولوجية ـــ الفكرية الموجهة لأنشطة الحرب وفعالياتها. إذ من طبيعة هذه العقيدة التي تعتمدها الدولة؛ أي دولة، أنها تفرز الأصدقاء والمحايدين والأعداء. فهي التي تحدد نهج العمل لبلوغ الأهداف من الحرب. ثم تأتي بعد ذلك الطبيعة الجغرافية والقدرة البشرية والقدرة الاقتصادية وتطور التقانة لتمارس دورها في تكوين المذهب العسكري. كذلك فإن خبرات الحروب تمارس دورها في دعم المذهب العسكري وتطويره، إذ من طبيعة الأمور أن تعمل قيادة الدولة على استخلاص الدروس من تجاربها الذاتية، فتعالج ما هو سلبي منها، وتعزز ما هو إيجابي فيها. وبذلك يتطور المذهب العسكري من خلال الصراع المسلح وتجارب الحروب. وإذن فالعقيدة الدينية أو الإيديولوجية أو السياسية هي القاعدة الثابتة لبناء المذهب العسكري وتكوينه؛ فعلى هذه القاعدة؛ يتم حشد القوى واستنفار الإمكانات وتجنيد القدرات وإعداد

الشعب للحرب. ويأتي المذهب العسكري لتطبيق أهداف العقيدة الدينية أو الإيديولوجية أو السياسية وتنفيذها. وهو غير مقيد باختيار السبل واتباع الأساليب التي تضمن له بلوغ هذه الأهداف؛ عن طريق الصراع المسلح ـــ إن لم يكن هنـاك مفـر من الاحتكـام للسلاح ـــ.

إن ارتباط المذهب العسكري ارتباطاً وثيقاً بعقيدة الدولة؛ إنما يعني ببساطة ارتباط هذا المذهب بحياة الدولة صاحبة العقيدة، ونموه بنموها، وتطوره بتطورها وذبوله بذبولها وانهياره بانهيارها. وهذا لا يعني بداهة موت هذا المذهب؛ إذ يحتفظ مثل هذا المذهب بوجوده الكامن في وجود الأمة التي اعتمدته والتزمت به وشكلته. وعلى سبيل المثال فالدول ذات الجذور العميقة في التاريخ مثل اليابان والصين قد وضعت مذاهبها العسكرية الحديثة بالاعتماد على ما تمتلكه من تراث قتالي قديم يعود إلى آلاف السنين. كذلك فإن المذهب العسكري الألماني قد اعتمد على تراث (فرسان التيوتون). هذا من ناحية ومن الناحية الثانية فقد تبدل دولة من الدول عقيدتها بعقيدة أخرى، وأوضح مثال لذلك استبدال العقيدة الدينية الأرثوذكسية بعقيدة اشتراكية، في روسيا التي ألغت دور الدين، ثم انطلقت لتكوين مذهبها العسكري الاشتراكي، ولكنها رغم ذلك، لم تتمكن من تجاهل مذهبها العسكري القديم، وليس أدل على ذلك من إحياء ذكرى (معركة بورودينو) التي قادها كوتوزوف ضد نابليون بونابرت سنة ١٨١٢ عند وقوع الغزو النازي للاتحاد السوفييتي ووصوله إلى أبواب موسكو سنة ١٩٤١ وكذلك إحياء ذكرى كبار قادة العهد القيصري (من أمثال سوفوروف وكوتوزوف) واصطناع أوسمة باسميهما لتمجيد انتصارات أبطال الاتحاد السوفييتي في الحرب العالمية الثانية.

إن ذلك لايعني بداهة ثبات المذهب العسكري بأكثر من ثبات العقيدة الدينية للدولة. وإنما يعني وجود ذلك الاتصال بين مجموعة العوامل المكونة للمذهب العسكري عبر الأبعاد الزمنية والمكانية، علاوةً على بقية العوامل المشتركة المتصالبة في قلب المذهب العسكري ـــ أي مذهب عسكري ـــ.

والمذاهب العسكرية ليست معزولة بعضها عن بعض؛ رغم مايتميز به كل واحد منها، ومايتفرد به من الخصوصية. وليس أدل على ذلك من اعتماد هذه المذاهب جميعها على مجموعة من (مبادئ الحرب) التي تكاد تكون واحدة بين كل المذاهب. وهذا مما يفسح المجال لإجراء مقارنةٍ موضوعية فيما بينها. ولئن تم اختيار بعض الأبحاث والموضوعات للدراسة المقارنة، فليس هذا الاختيار إلا لتقديم نماذج، ويبقى المجال رحباً للكثير من المقارنات ـــ بقدر ماهو رحب للمفارقات.

ويبقى الهدف من كل بحث هو التعلم من التجارب الذاتية، ثم من تجارب الآخرين، فالمذاهب العسكرية في نشوئها وتطورها ليست إلا ثمرة لجهد إنساني ضخم، وهل هناك ماهو أثمن من ثمرة أنضجتها سيول الدماء وجموع التضحيات بالأرواح والنفوس، مما يصعب حصراً أو عدداً عبر تجارب الحروب المستمرة.

وعسى أن يكون في هذا العمل رفد للمعرفة
والله أسأل التوفيق

بسام العسلي

الفصل الأول

المذاهب العسكرية

١ ــ المذهب العسكري الإسلامي
٢ ــ المذهب العسكري الصيني
٣ ــ المذهب العسكري الألماني
٤ ــ المذهب العسكري الفرنسي
٥ ــ المذهب العسكري البريطاني
٦ ــ المذهب العسكري السوفييتي
٧ ــ المذهب العسكري الأمريكي
٨ ــ المذهب العسكري الياباني
٩ ــ المذهب العسكري الإسرائيلي

١ ـــ المذهب العسكري الإسلامي

١ العقيدة الدينية والحرب: انفردت العقيدة الدينية الإسلامية عن سائر الديانات السماوية بتعاملها مع الحرب على أنها من طبيعة وجود الإنسان على الأرض. غير أن الدين الإسلامي حدد للقتال شروطاً، وضبطه بنواظم ثابتة، وألزم المسلمين بها. فقد سمح الإسلام للمسلمين بحمل السلاح والقتال دفاعاً عن دين الله ودفعاً للظلم بقوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وإِنَّ اللَّهَ على نَصْرِهِمْ لَقَديرٌ * ٱلَّذِينَ أُخرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بِغَيرِ حَقٍ إِلّا أَنْ يَقُولوا رَبنا ٱللَّهُ..﴾[١]. ونهى الإسلام عن الحروب العدوانية بقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا في سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَاتِلونَكُمْ، وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ ٱللَّهَ لا يُحِبُّ ٱلْـمُعتَدِينَ﴾[٢] والقتال هو في سبيل الله، حتى تكون كلمة الله هي العليا، وليس من أجل مكسب مادي؛ أو مغنم دنيوي، أو من أجل التوسع والسيطرة. وذلك كما في قوله تعالى: ﴿انفروا خِفافاً وَثِقالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَأَنْفسِكُمْ في سَبِيلِ ٱللَّهِ؛ ذَلِكُمْ خَيْـرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُم تَعْلَمونَ﴾ وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرىٰ مِنَ ٱلمُؤْمِنينَ أَنْفُسَهُمْ وأَمْوالَهُمْ بِأَنَ لَهُمُ ٱلْجَنة يُـقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلونَ وَعْداً عَلَيْـهِ حَقاً..﴾[٣]. ويحث الإسلام رجاله المؤمنين على امتلاك القوة، والإعداد لحرب أعداء المسلمين بقوله تعالى: ﴿وَأَعِـدُّوا لَهُمْ ماٱسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُـوَّةٍ وَمِنْ رِباطِ ٱلْخَيلِ تُرْهِبُونَ بِـهِ عَـدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ..﴾[٤] وتبقى غاية

---

(١) سورة الحج ـــ الآيتين ٣٩ و ٤٠.

(٢) سورة البقرة ـــ الآية ١٩٠.

(٣) سورة التوبة ـــ الآية ٤١ والآية ١١١.

(٤) سورة الأنفال ـــ الآية ٦٠.

الحرب في الإسلام هي الوصول إلى السلم: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسلمِ فَاجْنَحْ لها وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ ٱللَّهِ إِنَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[٥] وتطلب الشريعة الإسلامية من المجاهدين — وتأمرهم — أن يخوضوا الحرب بتصميم وعنف بقوله تعالى: ﴿يا أَيُّها ٱلَّذين آمَنُوا قَاتِلُوا ٱلَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلظَةً؛ وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[٦]. ولا تستبعد الشريعة الإسلامية احتمال اقتتال المسلمين بعضهم مع بعض وحددت للمسلمين موقفهم بإلزامهم بقتال الفئة الباغية وذلك كما فرضه تعالى بقوله: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ ٱلْمؤمنينَ ٱقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما، فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُما عَلَىٰ الأُخرى فَقَاتِلُوا ٱلَّتي تَبْغي حَتى تَفِيءَ إِلىٰ أَمْرِ ٱللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحوا بَيْنَهُما بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقسِطِينَ﴾[٧]. وشدَّدت الشريعة الإسلامية على قتال أهل البغي؛ ولتجنب الفتن التزاماً بقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا في سَبيل ٱللَّهِ ٱلَّذينَ يُقاتِلُونَكُم ولَا تَعْتَدُوا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعتَدينَ ★ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُم وَأَخرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَٱلْفِتْنَة أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ..﴾ و ﴿قَاتِلُوهُم حتّى لَا تَكُون فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ للّه، فَإِن ٱنْتَهوا﴾[٨] وقوله تعالى أيضاً: ﴿وقَاتِلُوهُمْ حَتى لَا تكُونَ فِتْنَة وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّه للّهِ فَإِن ٱنْتَهوا فَإِنَّ ٱللّه بما يَعْمَلونَ بَصيرٌ ★ وَإِنْ تَوَلَّوْا فاعْلَموا أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ ٱلْمَوْلَى وَنِعْمَ ٱلنصيرُ﴾[٩].

لم تقف تعاليم القرآن الكريم عند حدود فرض (فريضة الجهاد) على المؤمنين، ولا عند حدود تحديد الأهداف التي يجب على المسلمين معها حمل السلاح وخوض القتال حتى تكون كلمة اللّه هي العليا، بل إنها تجاوزت ذلك إلى تحديد أساليب القتال (الصف) وإلى ما يجب عمله عند اللقاء. وطريقة أداء الحرب. فشكلت القاعدة الثابتة لتكوين المذهب العسكري الإسلامي. وجاءت تطبيقات الرسول ﷺ لتحدد سنن الحرب — مثل الشورى واختيار موقع القيادة والعلاقة بين المجاهدين في سبيل اللّه والاستطلاع وجمع المعلومات واستثمار النصر ومعالجة الروح المعنوية ومعاملة الأسرى. وكانت أحاديث الرسول في أمور الحرب وممارساته العملية رفداً رائعاً في مجال تشكيل المذهب العسكري الإسلامي. وهذا ما أبرزه العماد الركن مصطفى طلاس في مقولته: «**لم يبرز أحد من المؤرخين الأفق الاستراتيجي لغزوات الرسول العربي وأعماله الحربية وإنشائه أول**

---

(٥) سورة الأنفال — الآية ٦١.

(٦) سورة التوبة — الآية ١٢٣.

(٧) سورة الحجرات — الآية ٩.

(٨) سورة البقرة — الآيتين ١٩٠ و ١٩١ والآية ١٩٣.

(٩) سورة الأنفال — الآية ٣٩ والآية ٤٠.

جيش عقائدي في التاريخ.. ونقول بكل فخر أن الرسول العربي هو أول من أدخل السياسة إلى الجيش وكان جيش الثورة الإسلامية يدين بعقيدة الإسلام»[١٠].

لقد كانت العلاقة الراسخة والقوية بين العقيدة الدينية الإسلامية، وبين المذهب العسكري المنبثق عنها، والسنَّة التي رسمها الرسول لصحابته — من خلال أحاديثه وممارساته، هي التي شكَّلت ذاك العدد الضخم من القادة الأكفَّاء الذين لم تنجب الدنيا مثلهم في صدقهم وتجرُّدهم وإخلاصهم وفضائلهم الحربية وكفاءتهم القيادية، وإذ اشتهر الخلفاء الراشدون — عبر التاريخ — بتفوقهم في مجال إدارة الحرب، فإن شهرة صحابة رسول الله على مستوى قيادة الجيوش وقيادة الأعمال القتالية كانت على مستوى كفاءة الخلفاء الراشدين في إدارة الحرب. وقد حفظ تاريخ فنِّ الحرب الإسلامي أسماء أولئك الأعلام الذين أذهلوا الدنيا بإبداعاتهم بداية من الصحابة من أمثال: أبي عبيدة بن الجراح وعمرو بن العاص وخالد بن الوليد ويزيد بن أبي سفيان وأخيه معاوية والمثنى بن حارثة الشيباني وسعد بن أبي وقاص والقعقاع بن عمرو التميمي، ونهاية بالتابعين من أمثال عقبة بن نافع وموسى بن نصير وطارق بن زياد وقتيبة بن مسلم الباهلي ومحمد بن القاسم الثقفي وأمثالهم كثير ممن قادوا حروبهم لا بحثاً عن نصرٍ عابر، ولا رغبة في مكسب أو مغنم زائل، وإنما بحثاً عن إحدى الحسنيين وابتغاء رضوان اللّه تعالى. فقد كانوا يؤمنون أن النصر من عند اللّه؛ وأن اللّه وارث الأرض ومن عليها. وليس عليهم إلا تعريف أهل الدنيا برسالة الرحمن، حتى تكون كلمة اللّه هي العليا.

وعلى هذه القاعدة ذاتها، تشكلت التنظيمات الأولى لجيوش المجاهدين في سبيل اللّه. وكانت جيوشاً صغيرة في حجمها، قليلة في عددها؛ ضعيفة في تسلحها؛ غير أنها كانت تمتلك رصيداً هائلاً من الإيمان لتنفيذ فريضة الجهاد في سبيل اللّه. ولم يكن هؤلاء المجاهدون أقل من قادتهم من حيث تحليهم بالفضائل الحربية: الشجاعة؛ والصدق في القتال، والتجرد عن الغايات الدنيوية — الرخيصة — فلقد كان بلوغ الشهادة أو النصر هي غاية المجاهد. وقد حفظ تاريخ فن الحرب الإسلامي قصصاً مثيرة لا يوجد مثيل لها في تواريخ جيوش العالم من حيث الإعراض عن المغانم؛ ومن حيث التنافس على القيام بالأعمال الخطرة والاستئثار بمواطن الخطر والشدة. ومن حيث الاستعداد الدائم للقتال، والقدرة على احتمال الصعوبات والمشاق.

هكذا التقت العوامل الثلاثة التي لا يمكن لها أن تجتمع في قوة مقاتلة إلا ويكون حظها من النصر كبيراً: قاعدة فكرية توجه الأعمال القتالية وتحدد لها أهدافها ومساراتها. وقيادة تمتلك

---

(١٠) الرسول العربي وفن الحرب (اللواء الركن مصطفى طلاس) الطبعة الثانية بيروت ١٣٩٧هـ — ١٩٧٧م. ص٢١.

رصيداً ضخماً من الكفاءة إن على مستوى إدارة الحرب؛ أو على مستوى قيادة أعمالها القتالية، وقوات تمتلك رصيداً معنوياً هائلاً، وقدراً كبيراً من الفضائل الحربية. فكان المذهب العسكري الإسلامي هو التقاء هذه العوامل الثلاثة الثابتة، التي احتفظت بقيمتها في كل المذاهب العسكرية؛ القديم منها أو الحديث. قد يكون من الصعب تقويم هذا التحول في حياة العرب، أو الإحاطة به، بسبب التقاء هذه العوامل الثلاثة، إلا بمقارنتها بما يعرف باسم (أيام العرب في الجاهلية) وهي الحروب التي خاضها العرب بضراوة — بعضهم ضد بعض — والتي أبيد فيها كثير من القبائل إبادة كادت تكون كاملة. فقد كانت تلك الحروب محرومة من الغاية النبيلة والهدف السامي الرفيع. كانت حروب نهب وسلب، واقتتال على مغانم يتم تناقلها بين القبائل المنتصرة بعضها على بعض في نوبات متتالية، لتنتهي بعد ذلك إلى فناء ودمار. وكان التفاخر والتباهي عاملاً أساسياً في تلك الحروب. فحكاية (البسوس والناقة) وحكاية (داحس والغبراء) التي دفعت بين قبيلتي عبس وذبيان والتي جرَّت قبائل كثيرة إلى الحرب مثل شيبان وأهل هجر وكلب وبني ضبة وبني عامر وتيم الرباب. لم تكن بمجموعها إلا حروباً كانت كل قبيلة فيها تحاول أن تبرهن على أنها الأكثر عدداً والأوفر عزّة، والأقوى عتاداً. وتأكدت القبائل جميعها في النهاية أنها لم تغنم شيئاً من (عزِّ الدنيا) وأن المستفيد الوحيد من هذه الحروب هو أعداء العرب على تخوم الجزيرة — الفرس والروم والأحباش — وقصة غزو الحبشة للبيت الحرام. وقصة (يوم ذي قار) وقصة (امرؤ القيس) من قبل. ليست أكثر من سطور قليلة في ملحمة حروب الجاهلية التي مزقت العرب، وسمحت لأعدائهم باستثمار هذا العداء لتسخير العرب بعضهم ضد بعض، والإفادة منهم في حروب تعود ثمارها لتدعم نفوذ أولئك الأعداء في وسط قبائل العرب[١١]. وجاء الإسلام فقضى على (حمية الجاهلية) وجعل التفاخر (بالتقوى) وليس بالأحساب والأنساب. وآخى بين المسلمين — فالمسلم أخ للمسلم — وكل من اعتنق الإسلام أصبح أخاً للمسلمين — له ما لهم وعليه ما عليهم —. ووجد العرب في الإسلام هدفاً إنسانياً كبيراً، يستحق حمل السلاح لتحقيقه فكان الغضب لله، هو البديل عن أحقاد الجاهلية وهو الوسيلة للارتفاع عن مستوى المشاعر الدنيا والبدائية إلى مستوى الفضائل العليا: العدل والمساواة وحب الخير والإيثار وتوحد العرب على هدف واحد وغاية واحدة. فحلّت القوة محل الضعف، وتوافرت الفرصة للانطلاق بالعرب تلك الانطلاقة الخالدة تحت رايات الجهاد في سبيل الله. وبرهن العرب على أنهم أهل لحمل رسالة السماء. وتشكل المذهب العسكري الإسلامي بداية من نقطة التحول هذه. فقد كان العرب في

---

(١١) انظر: أيام العرب في الجاهلية (الكامل في التاريخ لابن الأثير) دار الكتاب العربي — بيروت — لبنان — ١٣٨٧هـ — ١٩٦٧م (ص٢٩٩ — ٤٢٢).

جاهليتهم يمتلكون قدرات قتالية كبيرة؛ وكانت لديهم خبرات واسعة بالحروب ـــ شأنهم كشأن كل القبائل البدائية التي تعيش بالحرب ومن أجل الحرب ـــ غير أنهم كانوا يفتقرون للهدف الذي يحاربون من أجله ـــ فجاء الإسلام وحدد لهم هذا الهدف وأوضح لهم سبل بلوغه.

[٢] معجزة الفتوحات: انطلقت جيوش العرب المسلمين إلى الفتوح سنة ١٢هـ = ٦٣٣م فعملت على فتح الشام والعراق ومصر ثم تابعت فتوحها شرقاً وغرباً. وما إن جاءت سنة ٩٣هـ = ٧١١م حتى كانت جيوش المسلمين تطرق أبواب الصين شرقاً؛ وتقتحم ما وراء دروب الأندلس إلى بلاد الغال (فرنسا). وحققت جيوش العرب المسلمين خلال فترة ثمانين عاماً فقط من عمر الزمن، ما اصطلح المؤرخون والباحثون على تسميته باسم (معجزة الفتوحات). إذ لم يسبق لا في التاريخ القديم ولا في الأزمنة الحديثة أن تمكنت دولة من الدول من تحقيق مثل هذه الفتوحات في اتساعها وفي فترة زمنية قياسية كمثل تلك الفترة التي أنجز فيها العرب المسلمون فتوحاتهم الرائعة. ولقد حاول بعض الباحثين ـــ المستشرقين بخاصة ـــ الانتقاص من قيمة هذه الفتوحات، فزعموا أن قوات الدولتين العظميين آنذاك (الفرس والروم) كانت ضعيفة مستنزفة بسبب الحروب المستمرة فيما بينهما. أو بسبب ظهور العرب المسلمين خلال فترة كانت فيها الدولتان العظميان تعيشان معاناة صعبة بسبب أزمات داخلية. غير أن هذه الذرائع وأمثالها لا تستطيع حجب الحقائق الثابتة، فقد كانت دولة الروم (البيزنطيين) تسيطر على كل الأقاليم المحيطة بالبحر الأبيض المتوسط ـــ مع ما في هذا البحر من جزر وخلجان وموانىء. وكانت بلاد فارس تمتلك رصيداً هائلاً من التنظيمات المقاتلة ذات الخبرات الواسعة في إدارة الحروب. وليس أدل على ذلك من تلك المعارك الضارية التي خاضها العرب المسلمون عبر مسيرة الفتوح، بالإضافة إلى صمود (بيزنطة) في وجه كل محاولات الفتح طوال ثمانية قرون تقريباً، بحيث لم يتمكن المسلمون من فتح (القسطنطينية) إلا سنة ٨٥٧هـ = ١٤٥٣م (على يد الغازي محمد الفاتح). كما أن الانتكاسات التي أصابت الفتوح في المشرق والمغرب لم تكن إلا برهاناً ثابتاً على تفوق العرب المسلمين وتغلبهم على قوات كبيرة لم تكن بحال من الأحوال لا ضعيفة ولا مستنزفة. وإذن فما هي مصادر قوة العرب المسلمين والتي مكنتهم من تحقيق (معجزة الفتوحات)؟

آ ـــ **الإيمان (الروح المعنوية)**: يتفق الباحثون والمؤرخون، القدماء منهم والمحدثون؛ المسلمون وغيرهم، أن الإيمان الذي ملأ على المسلمين عقولهم وقلوبهم، كان هو المعاوض عن ضعفهم العددي وعن قصورهم في مجال التسلح، وأن ذلك الإيمان هو ما كان يدفعهم لركوب مركب الحرب الخشن، وخوض غمار المعارك بتصميم لا يمكن تحديد مداه ولا قدرته. وفي الواقع فقد أظهر الباحثون (في الحرب) اهتماماً غير قليل في تقويم أهمية الإيمان (أو ما أُطلق عليه بعدئذٍ الروح

المعنوية أو الحالة النفسية) وحاولوا تحديد العوامل التي تزيد من ذاك الرصيد المعنوي أو تعمل على استنزافه وإحباطه. وكان من تلك العوامل: الإيمان بهدف الحرب وعدالتها، والثقة بالسلاح، والثقة بالقادة وكفاءتهم، والثقة برفاق السلاح. وامتلاك مفاتيح التفوق... إلخ. وهذه كلها قد ضمها المذهب العسكري الإسلامي من خلال ارتباطه بالعقيدة الدينية التي حددت للإنسان المسلم هدف حياته في هذه الدنيا، ولكن هل يمكن قياس هذه العوامل بالمقاييس المادية ـــ البشرية المعروفة؟

لقد كان الكاتب العسكري الألماني (كلاوزفيتز)(١٢) في طليعة من تصدى لمسألة الروح المعنوية وأهميتها في الحروب ـــ وأعطاها القوة (س) المجهولة. غير أن القرآن الكريم حدد هذه القيمة بعشرة وذلك في قوله تعالى: ﴿ياأَيُّها ٱلنَّبِيُّ حَرِّض ٱلْمُؤْمِنينَ عَلَىٰ ٱلْقِتَالِ: إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مائتَين. وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مائَةٌ يَغْلِبُوا أَلفاً مِنَ ٱلَّذينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَومٌ لَايَفْقَهُونَ﴾(١٣). وتؤكد دراسة مسيرة الفتوحات وفقاً لأكثر المصادر التاريخية وثوقاً أن نسبة ميزان القوى لم تكن أبداً لمصلحة المسلمين، وأن نسبة التفوق كانت تتراوح بين اثنين وعشرة في غير مصلحة المسلمين. ففي موقعة (بدر الكبرى)(١٤) كان ميزان القوى واحد مقابل ثلاثة. وفي غزوة أُحُد ـ كان عدد المسلمين ٧٠٠ مقابل ٣٠٠٠ من المشركين بينهم ٧٠٠ دارع وفي غزوة الأحزاب كان عدد المسلمين ٣٠٠٠ مقابل ١٠٠٠٠ من المشركين. أما في الفتوحات فكانت الفوارق أكبر. إذ لم يتجاوز عدد العرب المسلمين ٤٥ ألفاً مقابل ٤٥٠ ألفاً من الروم. وفي القادسية، ونهاوند (فتح الفتوح) وفي (بابليون) ومعركة (وادي لكه في الأندلس) كما في سواها من المعارك الحاسمة في التاريخ الإسلامي كانت نسبة تفوق أعداء المسلمين ـ عددياً ـ في حدود عشرة مقابل واحد من المسلمين. وكان الرصيد المعنوي (الإيمان) هو المعاوض دائماً عن الضعف العددي في قوات المسلمين.

ب ـــ الانطلاق من قاعدة قوية ومأمونة: لم يؤذن للمسلمين بالحرب إلا بعد الهجرة إلى المدينة المنورة. فلما صارت المدينة قاعدة قوية ومأمونة ـــ بأهلها المسلمين وبمن هاجر إليها منهم ـــ بدأت مرحلة جديدة من مراحل الجهاد في سبيل الله. فحمل المسلمون السلاح. وأخذ الرسول ﷺ في قيادة الغزوات (التي بلغ عددها ٢٧ غزوة) وإرسال السرايا والبعوث (التي بلغ

---

(١٢) كارل ماري فون كلاوزفيتز ـــ قائد عسكري ألماني ـــ عاش تجربة الحروب النابليونية ـــ كتب مؤلفه (في الحرب) من عشر مجلدات. واعتبر من كبار الكتاب العسكريين في العالم. واحتفظت كثير من نظرياته بقيمتها وأهميتها وعاش في الفترة (١٧٨٠ ـــ ١٨٣١).

(١٣) سورة الأنفال ـــ الآية ٦٥.

(١٤) انظر: (الرسول العربي وفن الحرب) ص ١٦٨ و١٩٠ و٢٣٩.

عددها ٣٨ سرية وبعثاً) فكانت القاعدة في حركة دائمة (إذ كان المعدل الوسطي للأعمال القتالية هو ثلاث عمليات سنوياً في السنوات العشر التي أعقبت الهجرة). وقد أدرك الصحابة أهمية إقامة القاعدة القوية والمأمونة من خلال تجربة الهجرة؛ فعملوا على تطبيق هذه التجربة في فتوحاتهم. وهكذا أصبحت بلاد الشام والعراق بعد الفتح هي القاعدة لإطلاق جيوش الفتح شرقاً ومغرباً، براً وبحراً. وأصبحت مصر بعد فتحها القاعدة المتقدمة في إفريقيا. وأصبح المغرب بعد الفتح هو القاعدة لفتح الأندلس. وكان على هذه القواعد المتتالية أن تقوم بالدور الذي اضطلعت به المدينة المنورة من قبل، من حيث التعريف بالدين الجديد، وتطبيق تعاليمه، وإقامة المجتمع الإسلامي القوي والمتماسك. وبالتالي: اكتساب قدرة قتالية جديدة من أبناء البلاد، وتجييش الجيوش وتوجيهها لتطوير الفتوح. وهذا مما كان يفرض تأمين هذه القواعد ضد أي عدوان خارجي، وحماية المجتمع الإسلامي الجديد وضمان استقراره. فكان لا بد من إشغال أعداء المسلمين بأنفسهم، ونقل الحرب إلى بلادهم. وضرب استعداداتهم القتالية بما يمكن تسميته في الأزمنة الحديثة (بالضربات الإجهاضية المسبقة) وأوضح تعبير عن ذلك هو قول أمير المؤمنين علي كرم اللّهوجهه: «اغزوهم قبل أن يغزوكم. فما غزي قوم في عقر دارهم إلا ذلوا».

ج ــ **الضربات الإجهاضية المسبقة**: ما كان للمسلمين أن ينتظروا أو أن يتمهلوا حتى تغزوهم قوات أعدائهم، ولم يكن (فتح مكة) من الناحية العسكرية إلا نوعاً من الضربات الإجهاضية المسبقة لمنع قوات الكفر من إكمال استعداداتها. كذلك لم يكن توجيه الجيوش (١١ جيشاً) لقتال المرتدين، إلا سبقاً للزمن، لمنع قوى الردة من التجمع وقتال المسلمين بقوات موحدة، تكون لها قدرة على التفوق عددياً على المسلمين. وهكذا كان على المسلمين تأمين الحماية لقاعدتهم بما يعرف اليوم باسم (الضربات الإجهاضية المسبقة). ولقد تطور هذا المفهوم بتطور الفتوح. فلم تعد المسألة مسألة حماية القاعدة في مدينة واحدة، بل أصبحت مسألة حماية إقليم بكامله بشكل قاعدة واحدة تضم مدناً كثيرة وقرى كبيرة. وقد ظهر خطر التهديد واضحاً منذ بداية الفتوح، ففي العام ١٧هـ = ٦٣٨م، ولما تكد قوات العرب المسلمين تستقر في بلاد الشام حتى قام الروم بهجوم كبير ــ مع انصارهم من عرب الجزيرة ــ ووصلت قواتهم إلى مدينة (حمص) في وسط بلاد الشام. وفي سنة ٢٥هـ = ٦٤٥م. قام الروم أيضاً بهجوم كبير على الاسكندرية بتحريض من بقايا الروم فيها، مما حمل (عمرو بن العاص) على إعادة فتحها. وإذ ذاك برزت مجدداً ضرورة (إشغال الروم بأنفسهم) على حد تعبير أمير الشام (معاوية بن أبي سفيان). فنظم عمليات غزو الروم في البر والبحر. وقد أخذت عمليات الغزو هذه اسم (**الصوائف والشواتي**) وكانت عمليات الغزو البري تنطلق عبر ما كان يسمى (بالدروب) وهي الممرات الجبلية في الجبال الفاصلة بين بلاد الشام وبلاد الروم (جبال أمانوس). ولم تلبث هذه الغزوات

المنتظمة أن أخذت شكل حملات كبيرة ـــ كان بعضها يصل حتى أبواب القسطنطينية (مثل غزوة يزيد بن معاوية سنة ٥٠هـ = ٦٧٠م والتي استشهد فيها الصحابي أبو أيوب الأنصاري عند سور القسطنطينية). فكانت الصوائف والشواتي (مدرسة عملية للحرب) وكان يتولى قيادتها أبناء الخلفاء أو إخوتهم. وقد تطورت أحياناً بحيث كان يتم توجيه أكثر من صائفة وأكثر من شاتية في السنة الواحدة. وقد عرف العرب المسلمون أهمية هذه العمليات القتالية، وأدركوا فائدتها التي ضمنت لبلاد الشام أمناً واستقراراً طوال العهد الأموي ـــ إلا في فترات قصيرة ـــ. فلما جاء الحكم العباسي، وانتقل الأمويون إلى الأندلس، وأقاموا دولتهم فيها، أعادوا تطبيق تجربتهم في تنظيم الصوائف والشواتي للمحافظة على أمن بلاد الأندلس واستقرارها، ولإحباط التهديدات التي كان يوجهها الفرنجة (فرنسا) عبر دروب (جبال البيرينّيه ـــ أو البرانس كما كان يسميها المسلمون). كذلك كانت (الصوائف والشواتي) في البحر بمثابة (مدرسة حربية بحرية) طور العرب المسلمون من خلالها قدراتهم البحرية، فأمكن لهم فتح معظم جزر البحر الأبيض المتوسط، خلال فترة الفتوح البرية في أقاليم المغرب ـــ فكانت هذه الجزر هي الحزام الأمني الذي ضمن حماية الفتوحات البرية. وبذلك تم عزل الروم عن قواعد قوتهم. وهذا مما ساعد العرب المسلمين على فتح الأندلس وصقليا وسواها من القواعد المطلة على حوض البحر الأبيض المتوسط. وقد لا تكون هناك ثمة حاجة للبرهان على أن غزوات الصوائف والشواتي (أو الضربات الإجهاضية المسبقة) والتي أمكن بواسطتها ضمان أمن الفتوحات هي التي عملت على استقرار الفتوح، وبالتالي اكتساب المزيد من القدرة القتالية (البشرية) لتطوير عمليات الفتوح ذاتها.

د ـــ **العمليات التشتيتية**: تميزت الفتوحات الإسلامية بظاهرة تكررت في كثير من أعمالها القتالية. وقد برزت هذه الظاهرة بشكلها الواضح تماماً في حروب الردة ـــ وذلك عندما وجه الخليفة أبو بكر الصديق ـــ رضي الله عنه ـــ أحد عشر جيشاً لقتال المرتدين في كل أرجاء الجزيرة. وكان هدفه من ذلك هو حرمان القبائل المرتدة من تنظيم التعاون فيما بينهما ضد قوات المسلمين، ومنعها من دعم بعضها لبعض. وكانت هذه الجيوش تحرص على دعم بعضها بعضاً، بحيث كان الجيش الذي يفرغ من تنفيذ مهمته، يلتحق بأقرب قوة إسلامية ويقاتل معها، وتحت راية قائدها. فأمكن بذلك القضاء على الردة خلال فترة وجيزة، رغم اتساع الردة، وانتشارها في كثير من المناطق ـــ بداية من اليمن ونهاية بالبحرين ـــ. وقد تكررت هذه الظاهرة عندما وجه (الصِدِّيق) أربعة جيوش لفتح الشام، وحدد لكل جيش منطقة أعماله القتالية = فأبو عبيدة بن الجراح لحمص، ويزيد بن أبي سفيان لدمشق، وشرحبيل بن حسنة للأردن وعمرو بن العاص لفلسطين. وكانت هذه الجيوش تتجمع عندما تصطدم بجيوش ضخمة (على نحو ما تجمعت في اليرموك) حتى إذا ما أمكن لها القضاء على تجمعات العدو، عادت لمتابعة الفتوح ـــ فكانت في

عملياتها التشتيتية النموذج الواضح لحرب الحركة الحديثة التي تشبه في حركتها حركة السيل الجارف. يسير في السهوب متمهلاً حتى إذا ما اصطدم بسد قوي تجمعت مياهه وضربت السد بجمع قوتها فأزالته وتابعت مسيرتها عبر المسارات المتوافرة لها. وفي العراق: تحركت قوات المسلمين على محورين من الشمال نحو الجنوب (بقيادة المثنى بن حارثة الشيباني) ومن الجنوب (بقيادة خالد بن الوليد). وعندما حشد الفرس قوات ضخمة (وكان خالد بن الوليد قد غادر العراق والتحق بالشام ومعه نصف جيش العراق) عمل المسلمون على إعادة تجميع قواتهم. وجاءهم الدعم من القاعدة الأساسية للفتوح (المدينة المنورة) وكانت معركة القادسية الخالدة. وتظهر متابعة مسيرة الفتوح أن جيوش الفتوح كانت تتحرك في عملياتها التشتيتية ــ على أساس الطبيعة الجغرافية للأقاليم التي كانت تعمل فيها. ففي فتح فارس ــ تحركت قوات المسلمين على ثلاثة محاور رئيسة ــ محور جنوب بحر قزوين حتى بلاد سيحون وجيحون (أفغانستان حالياً) ومحور أوسط ــ ومحور جنوبي ــ مواز للمحيط الهندي ويصل حتى أبواب الهند. أما في شمال إفريقيا، ونظراً للطبيعة الصحراوية، فقد كان التحرك على محور واحد حتى تونس، ثم يستمر على المحور الساحلي حتى أقصى المغرب ــ مع التحرك أحياناً ولضرورة العمليات على محاور داخلية في (تونس والجزائر حالياً). وفي الأندلس، كان تحرك موسى بن نصير على محور مواز لتحرك طارق بن زياد ــ فتحرك طارق على محور غرناطة ــ قرطبة ــ إشبيليا ــ مدريد ــ طليطلة، فيما تحرك موسى بن نصير على محور البرتغال (حالياً) حتى وصل الشمال. ثم انعطف غرباً والتقى بطارق بن زياد في طليطلة، وتابع معه فتح شمال بلاد الأندلس. ومن الملاحظ أن عمليات (الصوائف والشواتي) كانت تتم بدورها في إطار العمليات التشتيتية، ففي الشام كانت هناك (دروب الجزيرة) على محوري دجلة والفرات. و (الدروب الشامية) عبر مضائق أنطاكية حتى الأناضول. وفي الأندلس ــ كانت الدروب محددة بشرق جبال البيرينيه وغربها ــ وكانت جيوش المسلمين تجتاز لتحركها هذا المحور ــ أو ذاك (بالتناوب) وأحياناً باستخدام (الدروب) المتوافرة في آنٍ واحد.

٣ **الدفاع الاستراتيجي**: لم تتوقف الحروب على جبهات المسلمين رغم اتساع دولتهم التي شملت معظم أرجاء العالم القديم ــ ما بين الصين وبلاد الفرنجة (فرنسا) ــ وكان الصراع أكثر قسوة، وأشد عنفاً على أرض أندلس المسلمين حتى إذا ما كانت سنة ٤٧٨هـ = ١٠٨٥م واستولى الصليبيون على طليطلة، بدأ تحول جديد في غير مصلحة المسلمين، إذ بدأت الكنيسة في استثارة الغرب للحروب الصليبية. وعلى الرغم من استنصار مسلمي الأندلس (المعتمد بن عباد) بإخوانه (المرابطين) في عدوة المغرب الذين أسرعوا لنصرة الأندلس، حيث وقعت معركة (الزلاقة) الشهيرة سنة ٤٨٥هـ = ١٠٩٢م والتي كانت من المعارك الحاسمة في التاريخ الإسلامي، إلا أن ذلك لم يؤخر عجلة التحرك الصليبي. فلما كانت سنة ٤٩١هـ = ١٠٩٧م وصلت طلائع الحملة

الصليبية الأولى إلى أنطاكية ــ شمال بلاد الشام ــ واستولت عليها، وأجرت مذبحة رهيبة في أهلها. وفي السنة التالية وصلت قوات الصليبيين إلى القدس، واستولت عليها وذبحت سكانها. ثم أقام الصليبيون إماراتهم (الرها ــ أنطاكية ــ طرابلس ــ بالإضافة إلى مملكة القدس) وبدأت مرحلة جديدة في التاريخ الإسلامي. إذ أصبح على المسلمين القيام بدفاع شامل (على مستوى استراتيجي) وعلى كل الجبهات من الأندلس ــ مروراً بجزر البحر الأبيض المتوسط والمغرب العربي الإسلامي ــ ونهايةً ببلاد الشام. فهل عـدَّل المسلمون من مذهبهم العسكري، ومن طريقة حربهم على مستوى العمليات ــ وحتى على المستوى التعبوي (التكتيكي)؟ أم أنهم استمروا على نحو ما كانوا من قبل؟

آ ــ **الهجوم ــ في الدفاع**: لقد خاض المسلمون حروبهم الدفاعية ــ على المستوى الاستراتيجي ــ بأعمال هجومية على مستوى العمليات وعلى المستوى التكتيكي أيضاً. ولقد أظهر الفرنج ــ الصليبيون ــ حرصهم على امتلاك القلاع والحصون الممتدة من الرها حتى حدود مصر ــ كما حرصوا على دعم تحصينات أسوار المدن والاعتماد عليها لضمان أمنهم. غير أن المسلمين استمروا في خوض المعارك بأساليبهم التي ضمنت لهم التفوق في الفتوح والتي برهنت على فائدتها دائماً ـ وهي أساليب حرب الحركة ــ. فكان اهتمامهم بمهاجمة القلاع حصون الفرنج هو لإخراج الفرنج منها ولحرمانهم من استثمارها لإزعاج المسلمين في المدن الداخلية التي بقيت ممتنعة على الفرنج، عنيدة في مقاومتهم. وتولى الزنكيون في بداية الأمر مهمة قيادة الجهاد في سبيل الله ضد الفرنج، فانطلقوا من الموصل، وحرروا إمارة الرها وأخرجوا الفرنج من حصونها ومدنها وقراها، ثم وحدوا مدن بلاد الشام الداخلية ما بين حلب ودمشق. وأرسلوا حملة إلى مصر تمكنت من طرد الفرنج منها (سنة ٥٥٩هـ = ١١٦٣م). ثم جاء الأيوبيون فتابعوا نهج الزنكيين بعد أن توحدت لهم مصر والشام (سنة ٥٦٩ هـ = ١١٧٣ م) واستمر الصراع مع الفرنج. وكانت معركة حطين (سنة ٥٨٣هـ = ١١٨٧م) نقطة تحول في الصراع إذ سرعان ما تم طرد الفرنج من القدس ومن كثير من القلاع والحصون. فأكد المسلمون بذلك تفوقهم في الهجوم ــ حتى وهم يخوضون حرباً دفاعية ــ وحدث مثل ذلك في الأندلس. التي انتقلت من المرابطين إلى الموحدين سنة ٥٥٢هـ = ١١٥٧م. وقد قام الموحدون بدفع جيوشهم للقتال في الأندلس مؤكدين حرصهم على الالتزام بالهجوم، وحتى وهم يخوضون حرباً دفاعية على المستوى الاستراتيجي.

ب ــ **حماية أمن المسلمين**: لئن كانت الدول العظمى تتباهى اليوم وتتفاخر بحمايتها لمواطنيها حيثما كانوا، فإن باستطاعة المسلمين أن يفخروا أنهم أول دولة قامت على حماية أمن مواطنيها. ولقد تضمنت الشريعة الإسلامية (الكتاب والسنة) شواهد كثيرة على أخوة المسلمين وتراحمهم وواجب حماية بعضهم بعضاً. ثم جاءت وصايا الخلفاء الراشدين وأمراء المسلمين

ونصوص المعاهدات مع البلاد التي تم فتحها لتؤكد جميعها حرص الدولة الإسلامية على أمن الإنسان المسلم وواجب حمايته ـــ تكريماً له وإعزازاً بما كرمه الله به من حمل الرسالة ـــ فلما جاءت الحملات الصليبية جاءت أقوام من أقصى الشرق ـــ من أتراك سلاجقة وأكراد لمحاربة الفرنج وطردهم من ديار الإسلام. وقد ثارت ثائرة المسلمين عندما انتشرت أخبار مذابح الفرنج في أهل الشام. وقام المرابطون ثم الموحدون ثم بنو مرين في عدوة المغرب بما قام به إخوان لهم في المشرق. وبذلك، وعلى الرغم من غياب تنسيق التعاون بين الجبهات في المشرق والمغرب ـــ إلا أن التزام جميع الأقوام بعقيدة الدولة الدينية، والتمسك بالمذهب العسكري المنبثق عنها والمرتبط بها، تحقق الهدف من تنسيق التعاون. فقامت كل جبهة بتقديم الدعم للجبهة الأخرى ـــ بطريقة غير مباشرة ـــ وذلك عن طريق خوض القتال لحماية أمن المسلمين، في كل دار من ديارهم. وتجدر الإشارة هنا إلى أنه على الرغم من انصراف الجهد الرئيسي لقتال الفرنج على جبهات مصر والشام والمغرب والأندلس. فقد كانت هناك أقوام أخرى تقوم بمحاربة أعداء المسلمين في أقصى الشرق (حيث ظهر الغزنويون الذين اضطلعوا بمواجهة هجمات الهنود ثم المغول من بعد ـــ والذين انتصروا على الغزنويين وفتحوا المشرق حتى وصلوا بغداد وفتحوها (سنة ٦٥٦هـ = ١٢٥٨م) إلى أن كانت هزيمتهم في عين جالوت سنة ٦٥٨هـ = ١٢٥٩م[★]).

ج ـــ **التصميم على بلوغ الهدف**: أعطى الرسول ﷺ المثل الأعلى للتصميم على بلوغ الهدف عندما رفض كل عروض قريش للعدول عن حمل الرسالة وأداء الأمانة عندما قال لعمه ـــ أبي طالب ـ: «يا عم! والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله؛ أو أهلك فيه؛ ما تركته»[١٥]. وأظهر الخليفة الصديق مثل هذا التصميم عندما انتفضت الأرض ـــ بالمسلمين ـــ وارتدت العرب، إما خاصة أو عامة ـــ بعد موت رسول الله فوقف الصديق وقفته الشامخة ـــ وقال: «والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله لأقاتلنهم على منعها. إن الزكاة حق المال، والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة»[١٦]. فذكر الصديق بموقفه هذا جموع المسلمين بأن الإسلام مجموع لا يقبل التجزئة، وأن انتقاص أية فريضة هو (ردة عن الإسلام). وبمثل هذا التصميم على بلوغ الهدف سارت جيوش المسلمين إلى الحرب،

(★) كانت معركة عين جالوت في ٢٥ رمضان ٦٥٨هـ وكان قائدها المظفر قطز. أما فتح القدس فكان في ٢٧ رجب ٥٨٣هـ على يد صلاح الدين.

(١٥) الرسول العربي وفن الحرب ـــ ص١٢٩.

(١٦) نظرية الحرب في الشريعة الإسلامية (الدكتور اسماعيل ابراهيم محمد أبو شريعة) مكتبة الفلاح ـــ الكويت ـــ ١٤٠١ هـ = ١٩٨١ م ص ٣٩.

ترفع راية الإسلام عالياً حتى أضاءت لها الدنيا ما بين مشرقها ومغربها. وجاءت جموع الصليبيين. فأظهر المسلمون وقادتهم تصميماً على طرد الفرنج من ديار الإسلام. ولقد تعاقبت في المشرق والمغرب قيادات كثيرة وأقوام متنوعة كانت جميعها تحمل تصميماً واحداً: هو الانتصار للإسلام وأهله وقتال الأعداء دونما هوادة وعلى كل أرض ــ وبقي هذا التصميم راسخاً كرسوخ الجبال حتى تم طرد الفرنج من آخر معاقلهم في بلاد الشام ــ عكا ــ سنة ٦٩٠هـ = ١٢٩١م.

د ــ **قانون الحروب العادلة**: حددت العقيدة الدينية الإسلامية (هدف الحرب) بوضوح كامل: عبادة الله وحده ــ وإقامة شريعة الله على أرض الله ــ بما تتضمنه هذه الشريعة من مبادئ وأسس هي في البداية والنهاية لخير الإنسان في دنياه وآخرته. فكان الأمن والعدل والحرية واجتناب الظلم والمساواة وسواها من الفضائل هي لتطوير الإنسانية؛ ولهذا لم يكن غريباً أن يعترف بل وأن يجمع الفقهاء في العلوم السياسية والاجتماعية والاقتصادية من علماء المسلمين وغير المسلمين ــ أن الدين الإسلامي قد أسهم إسهاماً لا ينكر في تطوير الحياة البشرية. وكان لا بد لمثل هذا الهدف الرفيع والمقصد النبيل من استخدام وسائل مماثلة في نبلها وسمو مقصدها، فكان المذهب العسكري الإسلامي مقيداً بقيود صارمة من أجل بلوغ الهدف ــ وكانت هذه القيود تهدف إلى تحقيق التوازن بين (هدف الحرب) و (غاية السلم). فالحرب وسيلة لبناء المجتمع الإسلامي. وليست وسيلة لتدمير المجتمعات الأخرى أو القضاء على وجودها. ومن هنا جاء اقتصار العنف على ميادين القتال، وعدم تجاوز القتل لغير المقاتلين. وهذا ما دفع للاعتراف بعدالة الحروب الإسلامية. وكانت هذه العدالة ــ وكما برهنت التجارب القتالية، عاملاً حاسماً في إقبال الشعوب المختلفة على اعتناق الإسلام ديناً، والتنافس على رفع رايته، والتعهد بالدفاع عنه، وحمايته وأهله. وقد جاء الفرنج (الصليبيون) حاملين معهم مشاعر الحقد والكراهية التي عبروا عنها بمذابحهم الرهيبة التي سارت مع مسيرة تقدمهم في بلاد الشام. بداية من أنطاكية وحتى القدس. وكانت هذه المذابح ظاهرة جديدة ومثيرة لم يعرفها المسلمون من قبل. واصطدم المذهب العسكري الإسلامي بهذه الظاهرة: فهل يجب تعديل أسس المذهب العسكري للرد على المذابح الإرهابية بمذابح مماثلة، أم يجب الالتزام (بقانون الحرب العادلة) وقصر العنف على ميدان القتال؟ وعاد المسلمون إلى شريعة الله، وإلى تجاربهم عبر القرون السالفة. فاقتنعوا بفضيلة السمو عن المشاعر الدنيا ــ مشاعر الحقد والكراهية ــ وألزموا أنفسهم بكلمة التقوى. فخاضوا غمار الحروب الصليبية وهم ملتزمون بقانون الحرب العادلة. ولم تجرفهم أحقاد الفرنج الصليبيين بتيارها. وقد ظهر ذلك بوضوح في كل معارك المسلمين الحاسمة. سواء في (حطين) أو (عند فتح المسجد الأقصى) وهو ما سجلته صفحات التاريخ بكلمات مضيئة مشرقة ستبقى إرثاً للإنسانية ولمشرعي الحروب وواضعي قوانينها. ومقابل ذلك، لم يتعلم الفرنج (الصليبيون) من المسلمين شيئاً،

فاستمروا في سياسة (الغدر) و (إقامة المذابح) وكان باستطاعة بقايا الفرنج الاندماج في المجتمع الإسلامي لو لم يستمروا في ارتكاب هذه الجرائم. إذ لم يكن طردهم من عكا ومن الحصون القليلة التي بقيت في أيديهم خلال السنوات الأخيرة من وجودهم على أرض بلاد الشام. إلا بسبب المذبحة التي أقدموا عليها في عكا وكان ذلك سبباً ذكر المسلمين بما تعرضوا له من المعاناة على أيدي الغزاة، ودفعهم لاقتلاع بقايا رموز الشر والعدوان ـــ وهذا ما اعترف به مؤرخو الحروب الصليبية من الفرنج ـــ ويفخر المسلمون أنهم طبقوا في مذهبهم العسكري (قانون الحرب العادلة) قبل أربعة عشر قرناً من ظهور القوانين التي تعطي للحرب بعدها الإنساني (قوانين جنيف).

٤ **الحروب الثورية الإسلامية:** لم تتوقف الحملات الصليبية بإخراج الفرنج من بلاد الشام؛ فقد أخذت هذه الحملات في التوجه نحو أندلس المسلمين (اسبانيا) وإلى شرق أوروبا لمحاربة الدولة العثمانية التي أخذت على عاتقها مجابهة حملات الصليبيين على جبهة الغرب. ولم يكن تدمير (حملة المجر) في فارنا (سنة ٨٤٨هـ = ١٤٤٤م) ومن قبلها تدمير حملة نيقوبوليس الصليبية (سنة ٧٩٩هـ = ١٣٩٦م) إلا بدايات لذاك الصراع المرير والحروب المستمرة التي قادت العثمانيين إلى قلب أوروبا. كذلك كان فتح القسطنطينية (سنة ٨٥٧هـ = ١٤٥٣م) وإخراج المسلمين من غرناطة ـــ ومن سائر ديار الأندلس. (سنة ٨٩٧هـ = ١٤٩١م) إلا حلقات في ذاك الصراع المرير والعنيف. ولقد انفتحت جبهة جديدة على الدولة العثمانية. عندما أخذت روسيا القيصرية ببناء دولتها، وتوسيع حدودها في الشرق ـــ وكانت (القوقاز ـــ أو القفقاس) هي حجر المرتقى الذي صعدته روسيا على طريق التوسع نحو الشرق. وهكذا ومع بداية القرن التاسع عشر، أخذت قوى الدولة العثمانية في التداعي أمام الضربات المتلاحقة. وبدأت الحملات الاستعمارية ـــ عبر مراحل زمنية متعاقبة ـــ في السيطرة على أقاليم العالم الإسلامي.

وجد المسلمون أنفسهم أمام مواقف لم يعرفوها من قبل؛ فقد غاب ظل الدولة الإسلامية التي كانت تضمن لهم الأمن والحماية، وفي الوقت ذاته لم يكن باستطاعتهم التسليم ـــ أو الاستسلام ـــ لحكم غير المسلمين. فكانت المقاومة التي عرفت بعدئذٍ باسم (الحروب الثورية الإسلامية). وقد ظهرت باكورة هذه الثورات على أرض الأندلس؛ وبنتيجة إرهاب (محاكم التفتيش) وغدر (شارلكان) بالمعاهدة التي تم توقيعها مع آخر ملوك الأندلس (عبد الله الصغير) والتي نصت على ضمان حرية العبادة للمسلمين. فثار بقايا المسلمين، وتجمعوا في جبل البشرات جنوب الأندلس ـــ وخاضوا معارك غير متكافئة هددتهم بالفناء. فاستصرخوا النجدة والعون من العالم الإسلامي، ولم يكن هناك من وسيلة لدعمهم. فرفعوا نداءهم: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ

ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾[١٧] . وأسرع أمير البحر (خير الدين بربروس) لنجدة مسلمي الأندلس. وخاض صراعاً يائساً ضد الأسطول الاسباني . وحقق انتصارات رائعة ، غير أنه وجد أنه من المحال اختيار حل أفضل من إجلاء مسلمي الأندلس ونقلهم إلى المغرب ، فأرسل سنة ٩٣٧ هـ = ١٥٣١ م مجموعة من ٣٦ سفينة قادها بنفسه ، ونقل فيها على سبع مرات متتالية سبعين ألفاً من المسلمين استقر معظمهم في سهل ميتجة (متوجة) في الجزائر[١٨] .

كانت الثورة الثانية ـــ التي يمكن الإشارة إليها هي الثورة المعروفة باسم (ثورة الشيخ شامل أفندي) والتي اندلعت سنة ١٨٢٨م في دربند (القوقاز ـــ أو القفقاس) لمقاومة الاحتلال الروسي. وقد اعتمدت هذه الثورة على قبائل (الداغستان) ـــ أي بعد احتلال روسيا لبلاد الداغستان باثنين وعشرين عاماً (حيث تم الاحتلال سنة ١٨٠٦) . وقد تولى الشيخ شامل قيادة الثورة بعد استشهاد قائديها السابقين (غازي محمد) و (حمزة بك) وقد نجح الشيخ شامل في طرد الروس من بلاده سنة ١٢٦٠هـ = ١٨٤٤م. غير أن الروس أعادوا تنظيم قواتهم ، واستعانوا ببعض الأمراء الذين تمكنوا من تجنيدهم لخدمتهم. وتمكنوا من اجتياح (الداغستان) من جديد. ووصلت الثورة إلى نهايتها سنة ١٢٧٦هـ = ١٨٥٩م. وبذلك تكون ثورة الشيخ شامل قد استمرت ٣١ عاماً .

اجتاحت فرنسا الجزائر سنة ١٨٣٠ ، وسرعان ماتصدى شعب الجزائر المجاهد لمقاومة فرنسا . وكانت ثورة الأمير عبد القادر الجزائري في طليعة تلك المجموعة من الثورات التي انتهت بتحرير الجزائر سنة ١٩٦١ . فقد بايع شعب الجزائر (الشيخ عبد القادر) لقيادة الجهاد سنة ١٨٣٢ ، فقاد الشيخ الأمير ثورة الشعب الجزائري بكفاءة عالية ، وحقق انتصارات كبيرة . حتى سنة ١٨٤٨ حيث انتهت هذه الثورة لتفسح المجال أمام ثورات جديدة (ثورة الشيخ المقراني والحداد سنة ١٨٧١) . واستمرت الثورات في التفجر حتى سنة ١٩٣٢ ، حيث تولى الشيخ عبد الحميد بن باديس تنظيم (رابطة العلماء) لتكون قاعدة للثورة ، وكان لهذا التنظيم دوره الأساسي والحاسم في توجيه الجهود التي لم تلبث أن فجرت ثورة التحرير (١٩٥٤ ـــ ١٩٦١) وحصلت الجزائر على استقلالها تحت رايات الجهاد في سبيل الله ، وبتضحيات جموع المجاهدين.عرف المغرب العربي ـــ الإسلامي ثورة إسلامية كبيرة أخرى عرفت باسم (ثورة الريف) وقادها محمد بن عبد الكريم الخطابي الذي رفع راية ثورته التزاماً بقوله تعالى : ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ ؛ قُلْ

(١٧) النساء ـــ الآية ٧٥ .

(١٨) رجال ومواقف ـــ دار الفكر ـــ ١٤٠٢هـ = ١٩٨٣م ص٢٧٨ ـــ ٢٨٢ .

إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ .. ﴾[19] . وقد أعلن الأمير الخطابي (زعيم قبيلة ورياغل) ثورته ضد اسبانيا التي كانت تحتل ريف المغرب (سنة ١٣٣٩هـ = ١٩٢١م) وحقق انتصارات كبيرة .. ولم تخمد الثورة إلا بعد أن تعاونت اسبانيا مع فرنسا فتم تطويق قاعدة الثورة طوال سنة كاملة (١٩٢٥ ــ ١٩٢٦م) وأمكن في النهاية القضاء على الثورة، واعتقل قائدها فتم إبعاده منفياً إلى جزيرة (ريئيينون) في المحيط الهندي. حيث بقي رهن الإبعاد حتى سنة ١٩٤٧ . ولجأ بعدها إلى مصر . وكان استقلال المغرب ــ ثمرة من ثمار تلك الثورة التي اعترف العالم بقوتها وقدرتها رغم فشلها آنذاك .

كانت ثورة السودان (المعروفة باسم ثورة المهدي) نسبة إلى قائدها ومفجرها (محمد بن أحمد بن السيد عبد الله ١٢٦٠ ــ ١٣٠٢هـ = ١٨٤٤ ــ ١٨٨٥م) من أكبر الثورات التي جاءت في نهاية القرن التاسع عشر . فقد كان (الشيخ المهدي) من رجال السودان الذين أدركوا ظلم الإنكليز وعرفوه من خلال سيطرتهم على مصر والسودان، وزاد هذا الظلم والجور وطأة بتعيين غوردون باشا حكمداراً لعموم السودان سنة ١٢٩٤هـ = ١٨٧٧م، مما حمل (الشيخ المهدي) على توجيه رسالة لأتباعه وأنصاره. كان مما تضمنته: «أمرنا جميع المكلفين بالهجرة إلينا لأجل الجهاد في سبيل الله أو إلى أقرب بلاد منكم لقوله تعالى: ﴿قاتلوا الذين يلونكم من الكفار﴾ فهلموا للجهاد في سبيل الله ، ولا تخافوا من أحد غير الله .﴿إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾. واشتعلت أرض السودان بلهيب الثورة ووقع أول صدام في (أبا) يوم ١٧ رمضان سنة ١٢٩٨هـ (١٢ آب ــ أغسطس ــ ١٨٨١م) ونجح أنصار المهدي وعددهم مائتا مجاهد فقط في إبادة قوة الحملة التي أرسلها حاكم الخرطوم . ولما حاول حاكم (فاشودة) الانتقام لهذه الهزيمة، وقاد قوة من رجال القبائل ضمت ألف مقاتل، بالإضافة إلى ٤٢٠ جندياً نظامياً ــ كانت الإبادة التامة تقريباً من نصيب رجال هذه الحملة في (واقعة راشد) يوم ١٦ محرم ١٢٩٩هـ (٩ كانون الأول ــ ديسمبر ــ ١٨٨١م). وعاد حاكم الخرطوم، فأرسل جيشاً من ستة آلاف مقاتل. فهزمهم المجاهدون السودانيون في (واقعة الشلالي) يوم ٣٠ أيار /مايو / ١٨٨٢م. وامتد لهيب الثورة إلى كل أرجاء السودان. وجاء المتطوعون المجاهدون من الهند ومراكش وتونس والحجاز للمشاركة في الثورة . وكانت معركة الاستيلاء على الخرطوم هي أوج انتصارات المهدي، حيث قتل في المعركة (غوردون باشا) يوم ٢٦ كانون الثاني /يناير / ١٨٨٥م. ولم يعمر المهدي بعد هذا الانتصار طويلاً . فقد توفي في ٢٦ حزيران / يونيو / ١٨٨٥ . وخسرت الثورة بذلك قائدها . ورغم

---

(١٩) سورة آل عمران ــ الآية ٧٣.

استمرار الثورة، فقد تمكنت بريطانيا من تنظيم تحالف دولي مضاد للثورة السودانية. فتم حصار السودان، وانتشرت المجاعة، وتقدمت قوات بلجيكية فبسطت نفوذها على حوض النيل من بحيرة ألبرت حتى الخرطوم. وتقدمت قوات إيطالية فاستولت على مصوع وأريتريا، ووجهت فرنسا حملة إلى (فاشودة) للاستيلاء على أعالي النيل. ولتوسيع حدود أوغندا وإنشاء مستعمرة في جنوب السودان. وقام كتشنر بقيادة حملة ضخمة للقضاء على الثورة التي لم تلبث أن خبت نارها بعد قتال مرير وجهاد صادق. وتجدر الإشارة إلى أن ثورة (عرابي باشا) في مصر (١٢٩٩هـ = ١٨٨٢م) لم تكن إلا استطالة لثورة المهدي، واحتجاجاً على سياسة الإنكليز، ولاشتراك قوة مصرية في قمع ثورة السودان إلى جانب القوات البريطانية.

لم تكن الثورات التي عرفتها بلاد الشام (سورية وفلسطين) بدورها إلا ثورات إسلامية، حمل المجاهدون في سبيل الله لواءها ففي الشام كانت ثورة (الشيخ صالح العلي) وفي ثورة الغوطتين (١٩٢٥) برز عدد من الشيوخ (أبرزهم محمد الأشمر) في خوض معارك الثورة وقيادتها. كما وحفظ تاريخ الجهاد في فلسطين (ثورة البراق) ١٩٢٨. ثم ثورة الشيخ عز الدين القسام (١٩٣٤) ثم الثورة الفلسطينية الكبرى (١٩٣٦ ـــ ١٩٣٩) التي تزعمها مفتي فلسطين (الحاج أمين الحسيني) وليست الانتفاضة التي مارست فيها (حماس) دوراً أساسياً منذ سنة ١٩٨٧ إلا استمراراً لتلك الثورات التي قادتها طلائع المجاهدين في سبيل الله. كذلك حدثت في الهند ثورات إسلامية كثيرة. وفي أفغانستان (كانت ثورة سنة ١٣٤٦ ـــ ١٣٤٧هـ/١٩٢٧ ـــ ١٩٢٨م) من الثورات الإسلامية الكبرى التي أرهبت (بريطانيا) يوم كانت بريطانيا دولة عظمى، وإمبراطورية لا تغرب عنها الشمس. وإذن فلا غرابة أن ينصرف رجال الاستعمار ومفكروهم إلى دراسة هذه (الثورات الإسلامية)[٢٠]، التي تشترك بقواسم واحدة، فكلها تنطلق من واجب (الجهاد في سبيل الله) وكلها ترتبط بروابط ضمنية بدعم المسلمين لها بأشكال مختلفة — ليس من أقلها تطوع المجاهدين من أقطار مختلفة — وكلها تنطلق من المساجد والزوايا والتكايا، ويقودها الشيوخ — رجال الدين. ولم تكن الثورة الإيرانية التي تفجرت سنة ١٩٧٩ بدورها إلا نموذجاً من نماذج الثورات الإسلامية.

---

(٢٠) من تلك الدراسات على سبيل المثال انظر: الحرب الثورية (الجنرال بوفر) ترجمة الهيثم الأيوبي ـ أكرم ديري (الحرب الثورية المعاصرة في البلدان الإسلامية ص٢٨٥ ـــ ٣١١) إصدار المؤسسة العربية للدراسات والنشر) بيروت ـــ ١٩٧٣.

⑤ **فن الحرب الإسلامي**: يظهر العرض السابق أبرز خصائص المذهب العسكري الإسلامي وأهمها:

أ ــ **قدم هذا المذهب وأصالته**: فقد ظهر المذهب العسكري منذ بداية الفتوح قبل أربعة عشر قرناً. واستمر في تطوره حتى الأزمنة الحديثة، دونما انقطاع. ولقد عملت بعض المذاهب العسكرية الحديثة على ربط مذاهبها الحديثة بجذور قديمة ولعلها نجحت في ذلك، غير أن هناك انقطاع زمني بين التطبيقات والتجارب القديمة وبين التكوين الحديث لتلك المذاهب العسكرية. في حين بقي المذهب العسكري الإسلامي مستمراً في تطوره عبر البعدين: الجغرافي والزماني.

ب ــ **تنوع تجاربه القتالية**: فقد عرف المذهب العسكري عبر استمراره وتطوره جميع أنواع الحروب: النظامية والأهلية والثورية. وإذا كانت (وقعة الجمل سنة ٣٦هـ = ٦٥٦م) (ووقعة صفين سنة ٣٧هـ = ٦٥٧م) تمثل النموذج المبكر للحروب الأهلية. فإن حرب عبد الملك بن مروان ضد عبد الله بن الزبير سنة ٧٢هـ = ٦٩٢م لم تكن بدورها إلا حرباً أهلية. كذلك لم تكن عملية انتقال الحكم من الأمويين إلى العباسيين إلا نوعاً من الحرب الأهلية. وكان المتحاربون في هذه الحروب يرفعون راية المنافسة لتطبيق شريعة الإسلام على أهل الإسلام وفي ديار الإسلام. فكان المذهب العسكري الإسلامي وتطبيقاته قاسماً مشتركاً بين الأطراف المتحاربة. ولقد عرف العصر العباسي بدوره حروباً أهلية كثيرة. كما عرفها الحكم الأموي في الأندلس. وكما عرفتها الدولة العثمانية بعدئذ (حروب العثمانيين ضد الصفويين في بلاد فارس). وكانت عامة المسلمين تقف إلى جانب السلطة الشرعية حفاظاً على الطاعة والجماعة، والتزاماً بقوله تعالى: ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما﴾. وتجدر الإشارة إلى أن قادة الحروب الثورية في الأزمنة الحديثة، قد حرصوا في معظم الأحيان على تنظيم (المحاكم الشرعية) لمحاكمة المنحرفين عن نهج الثورة الإسلامية، ومحاكمة عملاء العدو وجواسيسه، والحكم وفقاً لشريعة الله، وإحقاقاً للحق والعدل، ولتجنب الظلم.

ج ــ **القدرة على التطور**: والمذهب العسكري الإسلامي بعد ذلك مميز من حيث قدرته على التطور. فقد بدأ تكوين المذهب العسكري في عصر الأسلحة البيضاء (ما قبل الأسلحة النارية) واستمر تطوره عندما ظهرت الأسلحة الحديثة (المدفعية، الهندسة) وظهر ذلك بشكل واضح أيام العثمانيين، حيث أمكن استيعاب التطورات الحديثة في تنظيم الأسلحة البرية والبحرية وقد جرى ذلك التطور أخذاً والتزاماً بالآية الكريمة ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾.

د ــ **الاعتماد على مبادئ الحرب**: لقد اعتمد المذهب العسكري الإسلامي منذ نشأته الأولى وخلال مراحل تطوره على (مبادىء الحرب) وفقاً لما تمت صياغتها والتعبير عنها في الأزمنة

الحديثة. وقد يكون من المثير ملاحظة أن لكل مبدأ من تلك المبادئ جذوره العميقة في معظم التجارب القتالية التي خاضها المسلمون: فالمباغتة، والمبادأة، واستخدام القدرة الحركية للهجوم. والمناورة، وحماية المؤخرات، وأمن القوات، والحرص على الإمداد، تبرز جميعها واضحة خلال عمليات الفتح الأولى. كما تظهر تطوراتها عبر مسيرة الأعمال القتالية خلال كل مراحل التاريخ.

وكان (التاريخ العسكري) هو المدرسة التي حفظت للمذهب العسكري تجاربه بصورة دقيقة، مما سمح للقادة المسلمين الذين كانوا يتناقلون الخبرات في بداية أمرهم عن طريق التواتر، ومن جيل إلى جيل، ثم جاء المؤرخون المسلمون، فسجلوا بأمانة مثيرة دقائق الأعمال القتالية. فكان ذلك عاملاً هاماً في تطوير المذهب العسكري عبر التجارب الذاتية. كذلك كان لأدب الحرب (الشعر بخاصة) دوره في تطوير المذهب العسكري الإسلامي. وهو ما يتطابق في الأزمنة الحديثة مع ما يتم تسجيله في (يوميات الحرب الوثائقية) من جهة، علاوةً على ما تتضمنه المذكرات الشخصية للقادة من جهة أخرى. وما من حاجة للقول إن هذا النهج هو الذي يعتمده الباحثون في الأزمنة الحديثة لدراسة تطور فن الحرب. إذ لم تظهر كتابات وأبحاث (كلاوزفيتز — وجيميني — وليدل هارت — وفوللر — وفوش) وسواهم إلا من خلال (المادة التاريخية) وإلا من خلال ما يمكن استخلاصه من (أدب الحرب) باعتباره تسجيلاً أميناً للأحداث — ولو كان من زاوية خاصة —. تبقى هناك ظاهرة هامة في المذهب العسكري الإسلامي، هي أنه ما من قائد ألزم نفسه بقواعد الشريعة الإسلامية وحرص على تطبيق المذهب العسكري الإسلامي إلا وكان النصر حليفه — وإذا ما أمكن تجاوز الجيل الأول من قادة الفتوح، فهناك أسماء كثيرة تبدو متشابهة في فضائلها، متطابقة في طبيعتها، ومن تلك الأسماء مثالاً — لا حصراً — يمين الدولة محمود بن سبكتكين (ت سنة ٤٢١هـ = ١٠٣٠م) وكانت له فتوحاته الكثيرة في الهند، والسلطان السلجوقي ألب أرسلان (٤٢٠ — ٤٦٥هـ = ١٠٢٩ — ١٠٧٢م) قائد معركة ملازكرد الشهيرة. وأمير المرابطين يوسف بن تاشفين (٤١٠ — ٥٠٠هـ = ١٠١٩ — ١١٠٦م) الذي أنجد الأندلس في معركة الزلاقة. وأمير الموحدين يعقوب المنصور (٥٥٤هـ — ٥٩٥هـ = ١١٦٠ — ١١٩٨م) الذي قاد المسلمين في الأندلس وخاض معركة الأرك الحاسمة. ونور الدين زنكي (الشهير بالشهيد) (٥٠٩ — ٥٦٩هـ، ١١١٥ — ١١٧٣م) الذي أعاد تنظيم المسلمين وحرر إمارة الرها من الفرنج ووحد بلاد الشام ومصر ضد الفرنج الصليبيين. وصلاح الدين الأيوبي (٥٣٢ — ٥٨٩هـ = ١١٣٧ — ١١٩٣م) الذي اشتهر بمعركة حطين الخالدة وبتحرير القدس وكانت له وقائع كثيرة ضد الفرنج. ومن بعده المظفر قطز (ت ٦٥٨هـ = ١٢٥٩م) الذي اقترن اسمه بمعركة عين جالوت وهزيمة المغول — التتار. والظاهر بيبرس (٦٠٧ — ٦٧٦هـ = ١٢١٠ — ١٢٧٢م)

الذي كان له دوره في طرد الفرنج من معظم بلاد الشام. وأمثالهم كثير، كانوا جميعاً أعلاماً في فن الحرب، وفي تطوير المذهب العسكري الإسلامي.

وبعد، ما كان للمذهب العسكري الإسلامي ليأخذ أبعاده الزمنية المستمرة وخصائصه المميزة. لولا تلك الجموع من المجاهدين في سبيل الله الذين تعاقبوا جيلاً بعد جيل وهم يتوارثون فضائل الجهاد، ويلتزمون بفريضتها، ويختارون الشهادة ابتغاءً لرضوان الله وأملاً في مثوبته وتصديقاً بوعده الحق.

٢ ـــ المذهب العسكري الصيني

١ حضارة عسكرية: يقال: «إن سور الصين العظيم هو العمل الإنساني الوحيد الذي يمكن رؤيته من القمر».

هذا السور الذي شيد في عصر الإمبراطورية الصينية الثالثة (أسرة تشيو ١٠٢٨ ـــ ٢٥٦ق.م) قد بني على فترات زمنية متطاولة، إذ إنه يمتد مسافة آلاف الكيلومترات ليشكل سداً قوياً وسوراً منيعاً على طول الحدود الشمالية ما بين منشوريا وتركستان. ولقد تجاوز ارتفاع السور المصنوع من قطع الحجارة الكبيرة، المتماسكة بملاط، عشرة أمتار، وكانت تعلوه كوى على ارتفاع رجل واقف. وعرض الطريق فوق السور خمسة أمتار. وكان يرتفع برج مراقبة كل كيلومتر ونصف، وفي أسفله من الخارج حفرة لا يمكن عبورها إلا بوساطة جسر متحرك فممّ كان يخاف الصينيون حتى أقاموا هذا السد الدفاعي؟ وهل كان قدامى رجال الصين يخشون الحرب (الهجومية) فعمدوا إلى إقامة الحصون؟ إن المعلومات المتوافرة عن فن الحرب الصيني في العصر الأسطوري ـــ أي حتى بداية الألف الثانية قبل الميلاد ـــ ليست إلا نذراً يسيراً وزاداً زهيداً، لا يكفي لإعطاء فكرة واضحة عن فن الحرب الصيني في القديم. ولكن الغزوات الكبرى التي اجتاحت العالم القديم (مثل غزوات الهون في أوروبا). ثم عمليات الاجتياح الضخمة التي قام بها جند جنكيز خان، ثم أعمال تيمورلنك. قد تشكل بمجموعها أساساً لفن الحرب الصيني. وهو بالتأكيد أقدم فن حرب عرفه العالم.

لقد اقترن كل تطور للحضارة الإنسانية بإقامة الإمبراطوريات العظمى. وكان الاعتماد على الجيوش هو الأساس لبناء تلك الإمبراطوريات. وهكذا ارتبط التطور الحضاري بظاهرتين مميزتين هما (تنظيم الجيوش الكبيرة) و (توافر مجال حيوي للتوسع) ولم تخرج الصين عن هذا الإطار العام للتطور. فقد كان على القبائل الصينية المستقرة على ضفاف النهرين الأزرق والأصفر، أن توحد جهودها لتضمن وجودها. ولعل أسرة (هيا) التي حكمت تلك القبائل ووحدتها من سنة ٢٠٠٠ حتى سنة ١٥٠٠ق.م تقريباً هي أول أسرة في دولة موحدة، استطاعت رد إغارات الأقوام

الأخرى التي كانت تهاجم من الشمال. وتعاقبت بعدئذٍ السلالات الحاكمة التي كانت تخضع لسلطانها الممالك المتعددة من إمبراطورية الصين. ويظهر من خلال ذلك أن وحدة الصين لم تكن ثابتة ولا مستقرة، لأن كل ملك كان يحاول الحصول على أكبر قدر من الحرية والاستقلال. فكان لا بد من وقوع الصدامات والحروب الداخلية لتوطيد دعائم المركزية، وتثبيت دعائم وحدة الإمبراطورية، وكانت هذه الحروب الداخلية تتسم بما يمكن أن يطلق عليه صفة (الفروسية) وجاءت فلسفة (لاوتسيو)[١] ومن بعده (كونفوشيوس)[٢] لتهذب من سلوك المقاتلين، ولتحدد للفاعليات القتالية إطاراً إنسانياً. ويذكر أن لقب إمبراطور لم يعرف إلا في وقت متأخر عندما جاءت الأسرة الرابعة لحكم الصين (٢٥٦ ــ ٢٠٩ق.م) وهي الأسرة المعروفة باسم (أسرة تشين) ومؤسسها أول من حمل لقب إمبراطور في العالم.

أدرك الصينيون أهمية العلاقة بين الوحدة الداخلية وبين القدرة على رد الهجمات الخارجية. فقد استطاعت الأسرة الرابعة، بفضل وحدتها (أسرة تشين ٢٥٦ ــ ٢٠٩ق.م)، رد هجمات الأتراك المغول، والسير في سياسة التوسع جنوباً، واحتلال البلاد فيما وراء (السور العظيم)[٣] وانتزاعها من برابرة الشمال وأقامت فيها الجنود فلاحين مستوطنات عسكرية، فكانوا يحرثون الأرض لسد حاجاتهم الخاصة وحاجات الجيوش المعسكرة في تلك المناطق. ورغم ذلك، كان النزوع للاستقلال كثيراً ما يتهدد وحدة الإمبراطورية على نحو ما حدث في القرن الثالث قبل الميلاد. عندما تمزقت الإمبراطورية لأكثر من عشرين مملكة. وجاءت عقيدة (البوذية) الداعية لتجنب استخدام العنف فساعدت على تحقيق السلام والاستقرار. لكن الصين لم تعرف معنى الراحة على حدودها فقد اضطرت لخوض الصراع ضد الأتراك المغوليين في شمال شرقي البلاد، وضد التيبتيين في جنوبها الغربي. وفي النهاية استعادت الإمبراطورية وحدتها وقوتها في عهد أسرة تانغ (٦١٨ ــ ٩٠٦م) مما ساعد الإمبراطور على حشد جيش من خمسين ألف مقاتل، وأخضع الأتراك لحكمه، وجعلهم حلفاء للصين طوال قرن من عمر الزمن، ثم قاد حملات أخرى استعاد بها (تاريم) و (التيبت) و (كوريا) وفرض احترام الصين على معظم أرجاء آسيا. وهنا يظهر مؤشر له أهميته في السياسة الاستراتيجية الصينية، وهو تجنب الحرب إذا كان بالمستطاع تجنبها، وخوضها

---

(١) لاوتسيو: (LAO-TSEUU) فيلسوف صيني عاش في الفترة ٦٠٠ ق. م تقريباً.

(٢) كونفوشيوس: (CONFUCIUS) وباللغة الصينية: (K, ONG FOU TSEU) أشهر فلاسفة الصين (٥٥١ ــ ٤٧٩ ق. م) وضع مذهباً اخلاقياً رفيع المستوى. وأبرز أهمية الفضائل، ورفع قيم التقاليد العائلية والوطنية فوضعها في المقام الأول.

(٣) يمتد سور الصين لمسافة ثلاثة آلاف كيلومتر، ولقد استمر بناؤه وترميمه وإصلاحه مدة عشرين قرناً (من القرن الثالث ق. م)، حتى القرن السابع عشر الميلادي.

بكل ما تتطلبه الحرب من الشدة والضراوة إذا كان لا بد من خوضها. وقد ظهر ذلك واضحاً عندما وصل قتيبة بن مسلم الباهلي إلى «كاشغر» وهي أدنى بلاد الصين (سنة ٩٦هـ ــ ٧١٤م) فقد أرسل إمبراطور الصين إلى قتيبة رسالة جاء فيها: «إبعث إلينا رجلاً من أشراف من معكم يخبرنا عنكم، ونسائله عن دينكم». فأرسل قتيبة وفداً من اثني عشر رجلاً ــ من أفناء القبائل، لهم جمال وأجسام وألسن وشعور وبأس. وأوصى رئيسهم ــ هبيرة بن المشمرج الكلابي ــ بقوله: «إذا دخلتم على ملك الصين فأعلموه أني قد حلفت ألا أنصرف حتى أطأ بلادهم، وأختم ملوكهم، وأجبي خراجهم». وقابل الوفد ملك الصين، وقال لرئيس الوفد ــ هبيرة ــ: «قل لصاحبك ينصرف، فقد عرفت حرصه، وقلة أصحابه، وإلا بعثت عليكم من يهلككم ويهلكه» ورد عليه هبيرة: «كيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله في بلادك وآخرها في منابت الزيتون؟ وكيف يكون حريصاً من خلف الدنيا قادراً عليها وغزاك؟ وأما تخويفك إيانا بالقتل، فإن لنا آجالاً إذا حضرت فأكرمها القتل فلا نكرهه ولا نخافه». وسأل ملك الصين: «ما الذي يرضي صاحبكم؟» وأجابه هبيرة بشروط قتيبة. فقال له ملك الصين: «إنا نخرجه من يمينه. نبعث إليه بتراب من تراب أرضنا فيطؤه، ونبعث ببعض أبنائنا فيختمهم. ونبعث إليه بجزية يرضاها»(٤) وعاد الوفد، وقد حقق ما هو مطلوب منه. وتجنبت الصين حرباً كان ثمنها أفدح يقيناً مما تم دفعه ثمناً للسلام، واحتفظت بقوتها وهي عزيزة مرهوبة الجانب فلم تتعرض لما تعرضت له أقطار آسيوية أخرى من الحروب.

كان لا بد للصين من أن تتأثر بمجموعة العوامل التي مارست دورها في الحياة العسكرية. فقد كانت مسألة الدفاع عن أقاليم شاسعة تتطلب توافر قدرة حركية عالية للمقاتلين. وبرغم اعتماد السلالات القديمة على جند المشاة سرعان ما ظهرت عربات القتال. مع زيادة الاعتماد على الفرسان. وتمكن الصينيون من تطوير سلالات من الخيول بتلقيح خيولهم الضئيلة مع الخيول الرائعة التي كانت متوافرة في حوض التاريم، فحصلوا على خيول أشد قوة وأضخم حجماً وأكثر مقاومة. وصار باستطاعة قواتهم التحرك لمسافات أبعد، فيما وراء السور العظيم. وتمكن الصينيون بذلك من تطوير أساليب حرب الحركة وطرائقها. وإذا كان القوس والسهام والدرع المدعم بالنبال هو السلاح الفردي الأساسي. فقد تمكن الصينيون من تطوير الأسلحة الجماعية، فأتقنوا صناعة آلات الحصار، وسبقوا العالم في استخدام البارود وصناعة بعض القنابل المتفجرة التي يتم رميها بقاذفات السهام، إضافة إلى أنواع الصواريخ أو السهام الملتهبة التي كانوا يشعلونها قبل الإطلاق مباشرة.

---

(٤) انظر قصة هذا الوفد كاملة في تاريخ الطبري.
احداث سنة ٩٦ هـ (فتح قتيبة كاشغر وغزو الصين).

أما العامل المؤثر فهو الطبيعة المناخية الصعبة المتاخمة للصين، منطقة (الهضبة المغولية) في الشمال والممتدة من بحيرة بايكال حتى الصين حول المجرى الأعلى لنهري الأدونون والكيرولين. بينما تنتشر غابات الصنوبر في الشمال، وكانت السهوب الجافة تهيمن على الجنوب، حيث تنخفض درجة الحرارة في الشتاء إلى مادون ٤٥ درجة مئوية وترتفع في الصيف إلى أكثر من ٤٠ درجة مئوية.

المناخ القاسي المتقلب من الشتاء الجليدي إلى الصيف شديد الجفاف، قد أكسبتهم انعكاساته القوية على طبيعة السكان قدراً كبيراً من الشدة والصلابة.

فهم يمارسون ركوب الخيل في كل أعمالهم اليومية، ويعملون في حراسة القطعان، وينتظمون لشن الغزوات والقتال الذي هم على استعداد دائم لممارسته، ويعملون في الصيد بالمزراق أو القوس أو الصقور، فيجعلهم ذلك محاربين أشداء، ومقاتلين أكفاء، لا ينالهم التعب. ولما كان تجميع قبائل كثيرة في تنظيم مقاتل واحد يتطلب إيجاد رابطة أقوى من رابطة القبيلة، فقد ارتفع الانضباط والطاعة في صفوف الجيوش المقاتلة إلى أعلى المراتب فلم يكن من الغريب أن يتمثل المقاتلون جميعاً المثل الذي كانوا يرددونه شعاراً لهم: «إذا كان رفاقك ينهبون بيت أبيك فانهب مع رفاقك». وقد عرف المقاتل الصيني بذكائه وإحساسه، لا يبدأ بالعدوان إلا أنه محب للمغامرة، وهو في القتال جندي رائع لا تأخذه الشفقة وكأنه فاقد الإحساس. فقد كان من الطبيعي إذاً أن تأخذ الحضارة الصينية طابعها الأساسي باعتبارها حضارة عسكرية بالدرجة الأولى.. ورغم توافر ظواهر عن تطورات صناعية وزراعية عبر تاريخ الصين القديم، إلا أن الحضارة العسكرية هي التي هيمنت على كل الظواهر الحضارية وهي التي أعطت الصين طبيعة حضارتها العسكرية.

٢ الغزوات الكبرى: عرف العالم القديم تحرك كثير من الشعوب وانتقالها من أرض إلى أرض أخرى، غير أنه ما عرف غزوات جاءت من عالم بعيد كمثل غزوات (الهون)(٥) الذين خاضوا حروبهم الأولى ضد الصين، ثم توجهوا نحو تركستان سنة ٧٣م. ووصلوا في القرن الميلادي الثاني إلى منطقة بحر الخزر (قزوين) وإلى روسيا الوسطى (حوض الفولغا) ثم انحدروا نحو أوروبا سنة ٣٧٥م. وقد اشتهر الهون بكفاءتهم القتالية العالية، فهم يدربون أطفالهم منذ سن الثالثة على ركوب الخراف ثم يجهزونهم وهم في عمر الخامسة بالأقواس الصغيرة لاصطياد الجرذان الجبلية

---

(٥) الهون: (HIONG-NOU أو HUNS) شعب من أصل تتاري، تحرك من التيبت سنة ٧٣ م. وتقدم بصورة بطيئة حتى غزا أوروبا بقيادة اتيلا (عطيل) في منتصف القرن الخامس الميلادي.

وحجال الرمال. وكانت تجري في كل عام مسابقات لمكافأة مهرة الرماة (الرماة العقبان) الذين يضعون خمسة أسهم وهم على سروج جيادهم، في دريئة بالغة الصغر. وكان فنهم العسكري منسجماً مع طبيعتهم، فكانوا يشنون هجماتهم على شكل غارات وينسحبون بسرعة، وينقضون كالصاعقة ويتقنون استدراج العدو لكمائنهم بعمليات هروب مخادع، وبسرعة لا تصدق في التحرك والانتقال، ويستخدمون الأوهاق (الأنشوطات) بكفاءة عالية، يرفضون المعركة المنظمة التي لا تمثل في نظرهم إلا اشتباكات فردية. ولقد اكتسب الهون، عبر مسيرتهم الطويلة منذ غادروا صحراء غوبي وحتى وصلوا أوروبا ــ كثيراً من عادات الشعوب التي حكموها. فكان جنود قائدهم أتيلا، يرتدون الثياب الجلدية، ويلبسون الأحذية الجلدية الطويلة، ويستخدمون التروس والدروع والخوذ إلى جانب السيف المحني والقوس والكنانة (جعبة السهام). وكان الجيش يصطحب العمال المهرة لصنع السهام وللعناية بالخيول وللقيام بالخدمات المتنوعة الضرورية للمقاتلين. وكانت خيام المحاربين ومنازل القادة المصنوعة من ألواح خشبية جاهزة يمكن فكها، تنظم صفوفاً بترتيب بديع، وتعلوها أعلام قادة الجيش الحمراء، أما العربات فكانت مكسوة بالجلد وهي التي تستخدم لنقل القمح واللحم المملح أو المقدد، إضافة إلى المشروبات والأعتدة. أما إذا كان هناك توقع هجوم مباغت فكانت العربات تربط بالسلاسل وتحمى بأكياس من التراب، وتنظم على شكل دائرة محمية من كل الجهات مشكلة قلعة حقيقية. وكان قائد الجيش يصدر أوامره بالبوق، سواء للاجتماع أو للهجوم أو للتحرك نحو اليمين أو نحو الشمال أو للانسحاب. وقد ضم (أتيلا) إلى قبائله المحاربة (الهون) شعوباً وقبائل شتى من كل الأقوام التي أخضعها الهون لحكمهم. وقد احتفظت هذه الأقوام المحاربة بأسلحتها التي تتقن استخدامها، (الاليون) برماحهم الطويلة و(البيلوس) بنبابيتهم، و(الباسترين) بسهامهم المسمومة، و(القاجاريين) بقسيهم الضخمة القدمية التي كانوا يزيرونها بأرجلهم وهم يستلقون على ظهورهم... إلخ. أقام الهون عندما احتلوا سهول الدانوب (منطقة حرام) بعرض عشرين كيلومتراً، ولا يسمح لأحد في الإقامة فيها لأنها مخصصة لحرس الحدود من المقاتلين الهون. وكانت هذه الطريقة تطبيقاً لأسلوب الصين في حماية حدودها. وقد وصلت قوة إمبراطورية الهون ذروتها سنة ٤٥٠م، إذ امتدت من القوقاز حتى الراين. لكن (أتيلا) مُنِيَ بهزيمة حاسمة في سهول كاتالونيا في السنة التالية. وعندما توفي سنة ٤٥٤م. كان ذلك إيذاناً بتمزق إمبراطوريته وانحلالها. واندمج الهون بسكان البلاد التي كانوا قد سيطروا عليها في (إيطاليا وهنغاريا وفرنسا وحوض الراين). وتذهب الخرافة إلى القول أن رئيس البواقين ضرب عند موت أتيلا بوقه الضخم المنقوش من عاج الفيل على جدار وجعله فتاتاً، ومنذ ذلك اليوم لم يستطع هذا البوق العجيب أن يقود شعب الهون إلى النصر.

مضت سبعة قرون تقريباً، والصين تعيش داخل أسوارها، وتتابع حياتها في ظل سلالات حاكمة عجزت في معظم الأحيان عن توحيد الصين تحت قيادة واحدة، غير أنها لم تعجز عن

تنسيق التعاون فيما بينها لاقتسام الحكم وإدارة البلاد سلمياً إلى أن ظهر الفاتح المغولي (جنكيز خان[٦]) وخليفته (تيمور الأعرج[٧]). فتجدد عهد الغزوات الصينية الكبرى للعالم. وكان جنكيز خان قد نشأ في بيئته المحاربة؛ وفي محيطه الجغرافي الصعب، حيث لم يكن ثمة تقدير ولا احترام إلا لحياة الفروسية والارتباط بالقبيلة مع ما يلزم ذلك من قيم اجتماعية وفضائل حربية. وكان الأسلوب الأمثل ــ أو الوحيد ــ للحرب هو الهجمات السريعة والمباغتة التي لا تترك للخصم أي فرصة للمقاومة، أو تنظيم هجوم مضاد. وقد عرف جنكيز خان بقوته وصبره على احتمال الصعاب منذ نشأته المبكرة، فكان يقطع مع رفاق صباه مئتي كيلومتر في اليوم الواحد. وانفرد بميزات قيادية مكنته من توحيد القبائل تحت قيادته وإخضاعها لحكمه، فصار باستطاعته تشكيل جيوش ضخمة من الصينيين والأتراك وسواهم ممن حمل إليه أسرار صناعة الأسلحة (من مصانع أسلحة الإمبراطورية الصينية المقدسة). من سيوف ودروع ونصال السهام والرماح من الفولاذ المسقى. وبلغ سادة الحرب هؤلاء ــ في ذلك العصر ــ مرتبة متقدمة في مجال تنظيم الجيوش وإدارة الحرب بصورة منهاجية منظمة، وفرض الانضباط الصارم في أثناء مراحل المسير أو المعارك بفضل تعاليم (الياساك) التي كانت قاسية لا ترحم فكان الشعار الشهير الذي يردده المقاتلون: «من لا يطع الياساك يفقد رأسه». وكان الحرس الخاص المشكل من النخبة هو وسيلة جنكيز خان لفرض الياساك على الجيوش. ولقد تطور تسلح الجيوش تطوراً كبيراً بالمقارنة مع ما كان عليه تسلح الهون (أيام أتيلا). فأصبح الفرسان يحملون الرماح، ويلبسون الدروع من صفائح الجلد أو الدروع الفارسية المصنوعة من الزرد، ويضعون الخوذة من الجلد أو من المعدن. وحظي القوس بأعظم التكريم، وكانت تستعمله النساء أيضاً، ولكل فارس قوسان: أحدهما يستخدمه الفارس وهو على صهوة جواده والثاني عندما يترجل. ولكل فارس كنانتان أو ثلاث للسهام المتنوعة ذات الأوزان المختلفة، منها ما هو للرمايات البعيدة أو لخرق الدروع أو لرمي

---

(٦) جنكيزخان (GENGIS-KHAN-TIMOUDJIN) مؤسس الأمبراطورية المغولية، عاش في الفترة (١١٦٢ ــ ١٢٢٧ م). أطلق جيوشه الضخمة التي اجتاحت أوروبا، وآسيا، واشتهرت حروبه بتدمير المدن والسهول، ثم استقر في الصين الشمالية.

(٧) تيمور الأعرج أو (تيمورلنك): (TAMERLAN-TIMOURLENK) مؤسس الأمبراطورية المغولية الثانية. ولد قرب سمرقند، وبها دفن (١٣٣٦ ــ ١٤٠٥ م) اعتنق الاسلام غير أنه شن حرباً ضد الحكام المسلمين في آسيا، وحارب الدولة العثمانية وانتصر على السلطان بيازيد وأسره. غير أن أمبراطوريته تمزقت بوفاته وجاء بعد ذلك (باير) سليل (تيمورلنك)، والذي أعاد وحدة الأمبراطورية التي عرفت باسم (أمبراطورية المغول العظام) وحكم في الفترة (١٥٠٥ ــ ١٥٣٠) ووصلت هذه الأمبراطورية أوج قوتها في عهد أورانزيب (١٦٩٥ ــ ١٧٠٧) ثم أخذت في التمزق والضعف حتى انتهى أمرها إلى الزوال (سنة ١٨٠٦).

لفافات مشتعلة ـــ وقد بقي الرمي بالقوس لدى الصينيين ، أفضل أسلحتهم حتى منتصف القرن التاسع عشر ـــ .

اصطدمت جيوش المغول أثناء زحفها بمدن محصنة كثيرة في آسيا وأوروبا ، فلجأت إلى عزل هذه المدن وتطويقها لتجويع أهلها وإرغامهم على الاستسلام ، مع قطع المياه عنهم . وكان هذا الأسلوب من أكثر الأساليب استخداماً . غير أنهم استخدموا أيضاً أدوات الحصار المعروفة والتي كانت شائعة لدى الشعوب الأخرى مثل : الباليستا والمجانيق والكباش وحفر الأنفاق ـــ السراديب ـــ . ويظهر أنهم استخدموا في حصار (ليغنتز[٨]) صواريخ ومواد مولدة للدخان ونوعاً من النار اليونانية ، كانت لها فاعليتها القصوى ، إضافة إلى السهام ، مما ضمن للقائد المغولي (سوبوتاي) النصر الحاسم . كذلك فقد استخدم المغول في عمليات الحصار مجانيق ذات أوعية تحتوي على مزيج حارق من النفط ومن البارود الذي كان يستخدمه الصينيون في ألعابهم النارية ، فكان صوت هذا المزيج يدوي عند قذفه كالرعد ، فيثير الهلع في صفوف العدو .

اشتهر جنكيز خان بتنظيمه لشبكة فعالة جداً من أجل الاستطلاع وجمع المعلومات (الاستخبارات) عن الأمور السياسية والعسكرية ، فكان ذلك وسيلته الناجعة من أجل التحضير لكل حملة بعناية ودقة . وكانت هذه الشبكات تعتمد في تنظيمها على الصينيين والمغول والأتراك ممن خدموا أو عملوا في البلاد المختلفة ، بالإضافة إلى المرتزقة ، مما ضمن لقادة المغول معرفة جيدة بالبلاد وأهلها وحكامها . فكانت معرفتهم للأقاليم التي يجتاحونها تفوق معرفة أصحابها . وقد ذهل الهنغاريون والبولونيون عندما شاهدوا مغوليين يعرفون عن هنغاريا وبولونيا ما لم يكن يعرفه سكانها وأهلها (سنة ١٢٤١م) . إلى جانب ذلك ؛ فقد عني جنكيز خان بتنظيم الأجهزة الإدارية والتموينية لسد حاجات الجيوش التي انتشرت على امتداد أربعة آلاف كيلومتر ، ما بين العاصمة (قره كو روم) وبين أرال . فكان هذا الجهاز قادراً على تموين بضع عشرات من آلاف الرجال الذين اصطحب كل واحد منهم نحو بضعة من الجياد . وكان يتم إعداد التموين لكل مرحلة بعناية كبيرة : مع العناية بالخيول ومستلزماتها ، وتبديلها إذا ما اقتضى الأمر . وكان هذا المجموع المتماسك من

---

(٨) ليغنتز : (LIGICA أو LIEGNITZ) مدينة بولونيا في سيليزيا وقعت فيها معركة حاسمة يوم ٩ نيسان /أبريل/ سنة.١٢٤١ م . وانتصر فيها المغول بقيادة سوبوتاي على جيش سيليزيا بقيادة ملكها هنري والذي ضم جيوش بولونيا وألمانيا وفرسان طائفة الهوسبيتالية الفرنسية (طائفة دينية نظمت في القدس أثناء الحروب الصليبية) .

المحاربين، الخاضع لانضباط قوي وصلب، تحت قيادة واحدة. ولم يكن الخان ليتخذ أي قرار نهائي إلا بعد استشارة ضباط أركانه الأحد عشر. وكانت الاستراتيجية والتكتيك تراثاً من المحاربين الهون والسيبتين والسارمايتين والعرب. فأخذت هجمات، أو إغارات، الخيالة أشكالاً مختلفة تبعاً لطبيعة الأرض وأوضاع العدو. وكانت الإيعازات أو النداءات، المختلفة هي التي تحدد شكل المناورة أو أسلوب الإغارة مثل «في البرية» و «من البحيرة» و «بالسوط». وكان هناك أسلوب تعبوي — تكتيكي — من النوع التقليدي، هدفه تشتيت صفوف العدو بهجمات الكتائب التي تحرض العدو على مطاردتها، متظاهرة بالهرب، بينما تعمل الكتلة الرئيسة من الجيش (الرمة) على القيام بحركة استدارة واسعة، في الليل على الأغلب، مستفيدة من طبيعة الأرض وما يتوافر فيها من السواتر، لتطويق العدو وتدميره.

لم يكن عدد مقاتلي الجيوش المغولية الثلاثة، وهو ثلاثون ألفاً، كبيراً جداً، في حملتهم على الغرب. وكانت مجموعة الجيوش المنتشرة ما بين سمرقند وتيودوسيا ونهر الدون تضم ٢٥ ألف مقاتل، وقوات الحملة الثانية على الصين تضم مائة ألف. وأضخم حشد قاده جنكيز خان ضم مائتي ألف مقاتل (وهو الحشد الذي اجتاح الإمبراطورية الخوارزمية ودمر بغداد واجتاح بلاد الشام ووصل حتى عين جالوت في فلسطين). وكانت هذه الجيوش بكاملها من الفرسان، ترافقهم عربات الجر وقوافل الجمال لنقل الأثقال والأعتدة. ويظهر من ذلك أن جيوش المغول لم تكن تعتمد على قوتها فقط. وإنما كانت تعتمد على نشر الرعب والإرهاب لتحطيم قوى العدو المعنوية. **أما مذهبهم العسكري فكان يستند إلى مفاهيم حرب الحركة ومبادئها مثل: التحضير الدقيق للعملية، وتجنب الارتجال، وعدم التهور، مع الحصول على المعلومات الدقيقة، واستخدام أساليب التمويه والخداع والمحافظة على السر وإخفاء الاستعداد لمباغتة العدو. لهذا تميزت طرائقهم القتالية بالسرعة الكبيرة في التنفيذ، مقابل التمهل الكبير في التحضير والإعداد — الذي قد يستغرق سنوات —**. وكان المغوليون سادة الهجوم، يتخذون ما هو ضروري من تدابير الحيطة والأمن، يعتمدون على المرونة في تحركهم، ويبذلون جهدهم دائماً لضرب أجنحة العدو ومؤخراته، ويسمون هذه التحركات «الطولوغما» — وهدفها تطويق العدو ومطاردته وتدميره تدميراً تاماً. وكانت طلائع الفرسان الخفيفة تتقدم الكتلة الرئيسة من الجيش إلى أبعد مسافة ممكنة، فتجمع له المعلومات الضرورية، ويتم المسير بنظام منتشر، تبعاً لتوزع المراعي، تنشب المناوشات بقصد إزعاج العدو، والتمهيد للمعركة، يقوم بها رماة السهام الفرسان، مع الانسحاب الخداعي. وتقوم الخيالة الثقيلة بحسم المعركة. وتعطى الإيعازات المختلفة بالأبواق أو بالأعلام. وكانت سرعة التحرك أساس الأعمال القتالية لأولئك الفرسان القادرين على القتال الراجل كأفضل مشاة عرفها العالم، بعد أن يكونوا قد قطعوا مراحل يومية تصل إلى سبعين كيلومتراً. وقد بلغت تلك السرعة في

قطع المسافة، بين جبال الكربات ومدينة (بست) على نهر الدانوب، أربعة أيام فقط. والويل بعد ذلك للمدينة التي تقاوم هجماتهم: فبعد النهب المنظم، تفصل آلاف الرؤوس وتكدس أهرامات، وتذهب طعمة للنار. وقد دمرت مدينة (باميان) ولم يبق فيها على قيد الحياة أحد، انتقاماً لمقتل حفيد جنكيز خان (موتوجين). كما دمرت مدن بأسرها في بلاد فارس. وتحولت أفغانستان إلى صحراء. فكان الدمار ملازماً لحركة جيوش المغول — التتار — التي كانت تنفذ تعاليم جنكيز خان: «إن أعظم متع الإنسان هي أن يهزم أعداءه، وأن يطردهم أمامه، وأن يخرب ما يمتلكون. وأن يرى أعز الأشخاص عليهم وقد غسلت الدموع وجوههم. وأن يركب جيادهم». هكذا كانت أهداف حروبهم السلب والنهب والتدمير وكانت هذه الأهداف التافهة سبباً في عقم الحروب التي لم يعرف فيها العالم إلا الخوف والرعب، والتي أرغمت هؤلاء المحاربين على الانصهار في بوتقة الشعوب التي انتصروا عليها.

٣ **فن الحرب الصيني**: قد تكون الأعمال القتالية الصينية موضوع جدل كبير. وقد تختلف وجهات النظر اختلافاً بعيداً في تقويم نهجها ونتائجها. فبينما يرى الصينيون في الغزوات الكبرى — غزوات جنكيز خان وتيمور الأعرج — مدرسة حقيقية للحرب (الحضارية)، التي تدمر المجتمعات لتفسح المجال أمام بناء مجتمعات جديدة. لا يجد فيها آخرون أكثر من غزوات بربرية همجية، تفتقر إلى الهدف. وغزوات عقيمة لم تقدم للإنسانية عطاءً ما. لكن، ومهما كانت الاختلافات متباينة ومتباعدة، فثمة نقاط اتفق عليها الباحثون والمؤرخون، وهي: أولاً — إن الغزوات الكبرى لم تكن إلا الصورة المبكرة لعمليات الاجتياح الكبرى التي عرفها فن الحرب في الأزمنة الحديثة (وفي الحرب العالمية الثانية خصوصاً). ثانياً — إن تحرك الجيوش في الغزوات الكبرى ما هو إلا الصورة المثلى والمتكاملة لحرب الحركة، التي تشكل مدرسة حقيقية لا بد من التعلم منها، والورود من منهلها. ثالثاً — إن فن الحرب الصيني لم يقتصر في عطائه على تقديم الأمثولات الرائعة في مجال الإعداد للحرب وإدارتها، بل إنه قدم عبر التاريخ عطاءً فكرياً مميزاً. وكان لهذا العطاء دوره في إثراء الفكر العسكري العالمي وفي تطويره.

لقد عرفت أرض الصين عدداً من المفكرين العسكريين والمنظرين الذين وضعوا أسس فن الحرب الصيني. ولعل (صن تزو)، الذي عاش قبل ٢٥ قرناً (وكتب عن فن الحرب سنة ٥٠٠ق.م)، لم يكن أول من عالج قضايا الحرب ونظريتها. كذلك لن يكون (ماوتسي تونغ) الذي عرفه العالم الحديث وعرف نظرياته آخر من قدم عطاءً صينياً مميزاً في مجال فن الحرب ومبادئها تطوراً مستمراً. فما هي الملامح الأولى التي أمكن معرفتها عبر ما قدمه (صن تزو)؟

قد تكون نظريات (صن تزو) بدهية ومعروفة، عندما تدرس في ضوء المعرفة الحديثة للعلم العسكري. لكن وضع هذه النظريات، في إطاريها الزمني والمكاني، هو الذي يعطيها قيمتها الحقيقية. وإن تراكم ٢٥ قرناً من الزمن فوق تلك النظريات واحتفاظها رغم ذلك بألقسها وبريقها ما هو إلا البرهان على ما تميزت به تلك النظريات من الصحة ومن ذلك مفهوم (صن تزو) للحرب الذي عبر عنه بقوله: «الحرب مسألة في غاية الأهمية للدولة، ولهذا يجب أن تدرس بعناية، وإن لقوة الإنسان المعنوية والقدرة الفكرية دورهما الحاسم في الحرب. فإذا استخدمت هذه الصفات بكفاءة، فمن المستطاع شن الحرب بنجاح مؤكد، ويجب أن تتخذ الإجراءات قبل الحرب لجعل الفوز فيها سهلاً. فالفاتح المنتصر هو الذي يحبط خطط عدوه، ويمزق له تحالفه، ويدق إسفيناً بين الحاكم العدو ووزرائه، بين المسؤولين الكبار والصغار، وبين القادة ومعاونيهم. وهو الذي ينظم جواسيسه وعملاءه للعمل الفعال في كل مكان، في جمع المعلومات وإثارة الخلافات، ودعم عمليات التخريب، ليصبح العدو معزولاً، وتتحطم معنوياته وتنهار قدرته على المقاومة، ويصبح الانتصار على جيشه ممكناً بلا معركة وكذلك القيام باحتلال مدنه والقضاء على دولته. ولكن عندما يستعصي القضاء عليه وبهذه الوسائل وحدها، يمكن اللجوء إلى القوة المسلحة التي يجب استخدامها لتحقيق النصر وذلك:

١ ــ في أقصر وقت ممكن.
٢ ــ في أدنى خسارة بالأرواح والجنود.
٣ ــ بإنزال أكبر قدر ممكن من الخسائر بالعدو[٩].

ويمكن هنا ملاحظة التطابق بين نظرية (صن تزو) وبين تطبيق هذه النظرية على أيدي جيوش (جنكيز خان). غير أن هناك نقطة مثيرة. وهي مسألة (ثمن الحرب)، إذ ماذا يحقق المنتصر من مكاسب بتدمير بلاد عدوه؟ لهذا فإن (صن تزو) يوصي بتجنب التدمير قدر المستطاع بقوله: «أفضل سياسة في الحرب، عموماً، هي الاستيلاء على دولة ما بحالة سليمة. أما تدميرها فهو أقل شأناً». غير أن سياسة الحرب لا ترتبط فقط بإرادة طرف واحد، وإنما هي حوار بين إرادات متصارعة، وهذا الحوار هو الذي يحدد مسيرة الحرب وتطوراتها ونتائجها. وهذا ما أبرزه (صن تزو) بقوله: «كان المحاربون المهرة قديماً يجعلون قوتهم ذات مناعة، وينتظرون قابلية العدو للهزيمة. وتعتمد المناعة على الذات، أما قابلية العدو للهزيمة فتعتمد على العدو. هنا يستطيع المحاربون المهرة تحقيق المناعة، لكنهم لا يستطيعون، حتماً جعل العدو قابلاً للهزيمة». ولقد توقع

---

(٩) صن تزو ــ فن الحرب ــ تعريب محمود حداد ــ دار القدس ــ بيروت ١٩٧٥ ص ٢٣.

(صن تزو) أن تكون الجيوش كبيرة في حجمها، مما يفرض بالتالي حل الصعوبات الناجمة عن الشؤون الإدارية للقوات وإدارة الحرب، وقد عبر عن ذلك بقوله: «تحتاج عمليات الحرب عامةً إلى ألف مركبة سريعة، تجر كلاً منها أربعة خيول. وألف عربة مغطاة بالجلد تجر الواحدة أربعة خيول. ومائة ألف جندي مسلح.... وإن إدارة الكثرة لا تختلف بشكل عام عن إدارة القلة، فالمسألة هي مسألة التنظيم». وفي مجال الأعمال القتالية، أبرز (صن تزو) أهمية التنظيم المسبق للمعركة بقوله: «إن الذي يصل إلى ميدان المعركة أولاً، وينتظر عدوه، يكون مرتاحاً. أما الذي يصل بعد ذلك ويسرع في دخول القتال، يكون مرهقاً. لذلك نرى القادة المهرة يستدرجون العدو إلى ميدان المعركة ويقاومون استدراجهم إلى هناك. ولا بد للقائد من إعطاء عدوه بعض المزايا حتى يستدرجه إلى ميدان المعركة الذي كان قد اختاره. كما يمكن إلحاق الأذى بالعدو لمنعه من التقدم على اتجاهات لا تؤدي إلى ميدان المعركة». ومن وصايا (صن تزو) للقادة في مجال إدارة الحرب، يمكن استقراء ما يلي: «يبدأ تنفيذ عمليات استخدام القوات المقاتلة بمجرد تسلم القائد أمر الحاكم بتعبئة الشعب وحشد الجيش. وعلى القائد:

١ ـــ ألا يعسكر في منخفض جغرافي من الأرض.
٢ ـــ أن يلتقي قوات الحلفاء ويتحد وإياها في الأرض التي تتوافر فيها طرق المواصلات.
٣ ـــ ويجب عدم التوقف أو الإقامة طويلاً في الأراضي المقفرة.
٤ ـــ ولا بد من الحصول على الموارد الضرورية في الأراضي المحاصرة.
٥ ـــ وعلى القائد الإسراع إلى خوض المعركة، إذا ما دخل أرضاً كثرت فيها المخاطر والمهالك.
٦ ـــ وأخيراً هناك بعض الطرق التي يجب ألا تسلك، وهناك بعض القوات التي يجب ألا تقاتل، وهناك بعض المدن التي يجب عدم التعرض لها، وتجنب مهاجمتها. وهناك أيضاً بعض الأراضي التي يجب عدم خوض الحرب من أجل كسبها».

وقد أعطى (صن تزو) توجيهات عامة بشأن خوض المعركة وذلك بقوله: «عندما تأخذ مواقعك في مواجهة العدو، بعد أن تكون قد اجتزت الجبال، ابق قريباً من الوديان، وأقم معسكرك على أرض مرتفعة تكون في مواجهة الجانب الذي تصيبه الشمس:

١ ـــ قاتل وأنت تنحدر من التل، ولا تصعد لكي تهاجم.
٢ ـــ وكذلك الأمر بالنسبة لاتخاذ مواقع في الجبال.
٣ ـــ عليك، بعد عبور نهر ما، التقدم لبعض المسافة بعيداً عنه.
٤ ـــ عندما يقوم جيش العدو بعبور نهر أو بحر، عليك تجنب الاشتباك به على حافة مجرى المياه، إذ من الأفضل أن تتركه يعبر بنصف قواته، ثم توجه ضربتك».

لعل بالإمكان تجاوز بقية الكتّاب العسكريين الصينيين الذين قدموا ما استطاعوا من إبداع وعطاء لفن الحرب الصيني، والتوقف عند آخرهم ــ وليس الأخير ــ وهو ماوتسي تونغ الذي اشتهر بمؤلفاته: (حرب العصابات) و (الحرب الطويلة الأمد) و (المسائل الاستراتيجية للحرب الثورية الصينية)، إضافةً إلى عددٍ كبير من المقالات والأبحاث. ومن المعروف أن (ماوتسي تونغ) قد نهل من مورد الإرث الصيني، وتأثر بمن سبقوه من الكتاب العسكريين الذين ظهروا عبر تاريخ الصين الطويل ــ ومن بينهم بداهة (صن تزو). وظهر ذلك في كتاباته وأقواله، من ذلك «**يجب ألا ننتقص من قيمة ما قاله الخبير العسكري العظيم للصين القديمة ــ صن تزو ــ: اعرف عدوك واعرف نفسك، تستطيع خوض مائة معركة دون هزيمة**». وكذلك قوله: «هناك نوع من الناس يحسنون معرفة أنفسهم ولا يحسنون معرفة أعدائهم، وهناك نوع آخر من الناس يحسنون معرفة أعدائهم ولا يحسنون معرفة أنفسهم، ولا يستطيع أي من الفريقين إجادة دراسة قوانين الحرب وتطبيقها». إنها خلاصة للنظرية التي طبقها المغول في الحروب وهي الاعتماد على الاستطلاع وعلى الجاسوسية المنظمة بإحكام لمعرفة كل ما يتعلق بالقوات الصديقة وبقوات العدو وبمسارح العمليات، والاستناد إلى هذه المعرفة لوضع المخططات القتالية ذات الأهداف الواضحة ــ وهي كما عبر عنها ماو: «الأمر الرئيسي في العمليات العسكرية هو الاحتفاظ بقوتنا الذاتية وإبادة العدو. وللوصول إلى هذه النتيجة، يجب تجنب كل الوسائل السلبية وغير المرنة... وهناك حاجة إلى معرفة الأوضاع، قبل رسم الخطة العسكرية، وكذلك بعدها. فعندما ننفذ خطة عسكرية ما، تكون هناك عملية جديدة لمعرفة الأوضاع التي تستمر منذ بداية تنفيذها حتى نهاية المعركة، وهي عملية التطبيق. ومن الضروري في أثناء هذه العملية، أن نعيد النظر في الخطة المرسومة للعملية السابقة، لاختيار ما إذا كانت تطابق الواقع أم لا. فإذا كانت لا تطابق الواقع مطابقةً تامة، علينا، في ضوء معرفتنا الجديدة، تبني قناعات جديدة، وإصدار أوامر جديدة لتعديل الخطة الأصلية لتلائم الوضع الجديد. إن تغيير الخطة جزئياً يكاد يحدث في كل معركة، وقد يتطلب الأمر، في بعض الأحيان، تبديل الخطة كلياً، أما الرجل العسكري المتهور فهو الذي لا يعرف كيف يعدل خطته أو لا يرغب في ذلك، بل يتصرف كالأعمى ويكون كمن ينطح جداراً». وقد أعاد (ماوتسي تونغ) صياغة تعاليم صن تزو عندما قال: «**يمكن تحويل الهجوم إلى دفاع، والدفاع إلى هجوم. وقد يحول التقدم إلى تراجع، والتراجع إلى تقدم. كما يمكن تحويل قوات الدفاع إلى قوات هجومية والقوات الهجومية إلى قوات دفاعية... ومن أهم واجبات القيادة تغيير التكتيك تبعاً لظروف الوحدات والأرض، سواء في جانب العدو، أو في جانبنا... بحيث يبقى القتال مستمراً. وفقاً للشعارات الأربعة التالية:**

١ ــ عندما يتقدم العدو ننسحب.

٢ ــ عندما يتوقف العدو نرهقه.

٣ ـــ عندما يحاول العدو أن يتجنب المعارك نهاجمه.
٤ ـــ عندما يتراجع العدو نطارده.

كذلك لم يبتعد ماوتسي تونغ عن تعاليم صن، عندما كتب ما يلي: «يجب أن يتم نقل القوات بصورة عامة في نطاق من السرية وبسرعة ويجب الاستمرار في استخدام الحيل البارعة لخداع العدو واستدراجه وتضليله، مثل إحداث ضجيج في الشرق لشن هجوم في الغرب، والظهور مرة في الشمال ومرة في الجنوب، وتوجيه الضربات إلى العدو، والاختفاء في الحال. ويجب أن تستخدم العمليات الليلية دوماً لإرباك العدو وتضليله. إن المرونة في تقسيم القوات وتركيزها ونقلها هي عمل يجسد المبادرة تجسيداً عملياً في حرب العصابات. بينما يؤدي الجمود وبطء الحركة بصورة حتمية إلى موقف سلبي مما يسبب خسائر لا ضرورة لها وأن فطنة القائد لا تعني إدراكه لأهمية استخدام القوات بمرونة فحسب، وإنما تعني أيضاً قيامه بتقسيم قواته أو تركيزها أو نقلها في الوقت المناسب ووفقاً للظروف القائمة... وإنه من الضروري دراسة الظروف بتمهل ودقة حتى لا تتحول المرونة إلى عمل طائش». كذلك طور ماوتسي تونغ تعاليم صن تزو. عندما كتب ما يلي: «**من الممكن دفع العدو إلى تقديرات خاطئة وإلى أعمال خاطئة بالاعتماد على كل وسائل الخداع. وبهذا نحرمه من تفوقه ومبادرته. لكن الخداع لا يكفي وحده، إذ يجب إرباك العدو، ودفعه إلى الجنون إذا أمكن وأن معنويات العدو هدف له الأفضلية الأولى، وأن خفضها هو المقدمة الضرورية قبل الاشتباك المسلح**».

لقد أبرز (صن تزو) دور القائد في المعركة، وجاء (ماو) ليبرز هذه الحقيقة ذاتها من خلال ما كتبه: «لا يمكننا أن نطالب في الحياة الواقعية بوجود قادة لا يعرفون الهزيمة أبداً لأن العالم لم يعرف منذ القدم سوى عدد ضئيل من أمثال هؤلاء. لكن ما نطلبه هو وجود قادة يجمعون بين الحكمة والشجاعة، ويكسبون غالباً معاركهم في مجرى الحرب... قادة يمزجون الحكمة بالشجاعة. **إن القائد الحكيم يكون حذراً ويفضل النجاح باللجوء إلى الاستراتيجية**.. إننا لن نسمح لأي قائد من قادة جيشنا الأحمر بأن يصبح متهوراً يخبط خبط عشواء، ولعل من الضروري أن نطلب بأن يصبح كل منهم بطلاً يجمع بين الشجاعة والحكمة. وليست الشجاعة المطلوبة هي لقهر كل ما يعترض القائد من الصعوبات فقط، وإنما هي الشجاعة التي تمكن من التحكم في كل ما يطرأ على الحرب من تغيرات وتطورات. وهذه المقدرة التي عبر عنها صن تزو باصطلاح ـــ السيطرة على النصر ـــ إن أساس صحة تخطيط القائد العسكري هي في صحة تصميمه، ومنشأ صحة تصميمه هو في صحة أحكامه المبنية على أساس الاستطلاع الدقيق والضروري، وعلى أساس التفكير في مختلف المعلومات التي يحصل عليها أثناء الاستطلاع، وإمعان النظر فيها بربط بعضها ببعض. ليطرح منها ما هو قليل الأهمية، ويستخلص ما هو عظيم النفع والفائدة، ثم يربط بين هذه

المعلومات، وينفذ من ظواهر الأشياء إلى خفاياها ودخائلها، أما القائد العسكري المهمل، فيضع خططه على أساس تصوراته وأمنياته الذاتية. فتكون هذه المخططات وهمية وغير مطابقة للواقع ومتطلباته»(١٠).

لقد خاض قادة الثورة الصينية معارك ضارية ضد اليابانيين، ثم زجت القيادة الصينية ربع مليون جندي في كوريا، دون أن تعرف قيادة قوات هيئة الأمم المتحدة (ماك أرثر) بذلك وقد جاء في وصف الأعمال القتالية الصينية بما يلي: «**كان القادة الصينيون يختارون باستمرار النقطة التي تكون فيها المقاومة أضعف ويتقدمون إليها... لقد عرفوا كيف يتجنبون المواقع الدفاعية القوية، ويهاجمون النقطة الضعيفة، فكانوا يتقنون طريقة إحداث خلل في صفوف العدو يمكنهم من مهاجمة أجنحته ومؤخراته وكانوا يضللون العدو بهجومهم على نقطة لجذب اهتمامه، بينما يكون الهجوم الحقيقي موجهاً إلى نقطة أخرى. كانوا يعرفون كيف يتجسسون على عدوهم. وكانت أنشطة ــ طابورهم الخامس ــ تسبق قيام كل عملية عسكرية**». فهل هناك ثمة فارق كبير بين هذا الوصف، وبين وصف مسيرة عمليات (جنكيز خان)؟ إنه فن الحرب العريق في جذوره، الأصيل في إرثه، المتطور في فكره. ولقد عرف العالم الحديث تطبيقات مماثلة، ونظريات مشابهة أو ربما أكثر تطوراً وتقدماً. غير أن ذلك لا ينتقص من قيمة المذهب العسكري الصيني، وإذن فلا غرابة إن عمل بعض المنظرين الغربيين* على العودة إلى الإرث التاريخي لفن الحرب الصيني الذي قدم للعالم في جملة ما قدمه (الطرائق المتقدمة لحرب الحركة) و (استراتيجية التقرب غير المباشر).

---

(١٠) يمكن الرجوع إلى كتاب (ماوتسي تونغ) كتابات مختارة ــ الجزء الأول (الطبعة الإنكليزية) صفحات ٩٦ و ١٨٣ ــ ١٩٠.

(*) قد يكون الكاتب العسكري البريطاني (ليدل هارت) هو أكثر من أفاد من (فن الحرب الصيني) ومن دراسة الأعمال القتالية للمغول ــ التتار ــ بقيادة جنكيز خان. فوضع نظريته (حرب الحركة) التي أفادت منها القيادة الألمانية ــ النازية ــ في تنظيم فرقها المدرعة وفي زجها بكتل كبيرة في الحرب. كما وضع ليدل هارت دراسته عن (التقرب غير المباشر) بالاستناد إلى التجربة الصينية (المغولية) أيضاً والتي تتلخص بإقناع العدو نفسياً (استراتيجية الرعب) بعدم قدرته على الصمود في الحرب.

٣ ـــ المذهب العسكري الألماني

١ نشأة الفكر العسكري الألماني: الدولة الألمانية دولة حرب، والشعب الألماني شعب مقاتل، والجندي الألماني جندي محارب من قمته حتى أخمص قدميه. تلك هي الصورة التي رسمتها ألمانيا في أذهان العالم منذ أن أخذت في احتلال مكانتها على مسرح الأحداث الأوروبية والعالمية في القرن الثامن عشر، ثم عندما قادت، أو دفعت، العالم لخوض حربين عالميتين كبيرتين في القرن العشرين.

ولئن عملت ألمانيا فيما بعد الحرب العالمية الثانية على خلع ثياب الميدان العسكرية، والانصراف بكليتها للبناء الاقتصادي، وللمشاريع السلمية، فإن الملامح العسكرية بقيت ماثلة في التكوين الألماني، سواء في مجال التنظيم العسكري للقوات الألمانية، أو مجال الصناعة الحربية المتطورة والتي تشمل جميع أنواع التسلح والتقانة (الطائرات والطائرات العمودية والحوامات ـــ والدبابات وعربات القتال المدرعة والغواصات والسفن الحربية والأسلحة الصاروخية المعقدة والمتباينة الأنواع علاوةً على وسائط الحرب الإلكترونية) والعامل الأهم في ذلك كله هو ارتباط العلم والتقانة ارتباطاً وثيقاً بالمذهب العسكري الألماني، ذي الجذور العميقة والراسخة في تكوين الشعب الألماني. ولعل من أبرز ملامح هذا الارتباط هو توجه ألمانيا نحو الوحدة ونحو دعم القدرة الذاتية للأمة الألمانية، مثل ما كانت عليه في انطلاقتها الأولى نحو الوحدة.

قد يتفق المفكرون الألمان وقد يختلفون: مؤرخوهم وباحثوهم ومنظروهم وكتابهم العسكريون بشأن عمق الفكر العسكري الألماني في بعده التاريخي، فمنهم من يعيده إلى أيام القبائل الجرمانية القديمة التي اجتاحت الغرب في القرون الأولى للميلاد، ومنهم من يعيده إلى أيام التيوتون القدماء، ومنهم من يربطه بالعصور الوسطى. غير أنهم يتفقون جميعاً على أن الفضل الأكبر لنشأة الفكر العسكري الألماني، إنما يعود للإمبراطور (فريدريك الكبير)[1] الذي لم تكن حروبه فقط هي التي

(١) فريدريك الكبير (١٧١٢ ـــ ١٧٨٦) امبراطور ألمانيا، خاض حروبه ضد النمسا وضد فرنسا وروسيا =

شكلت المفاهيم الحديثة للحروب الألمانية، وإنما كانت أوامره وتعاليمه وتوجيهاته أيضاً هي الموجه للفكر العسكري الألماني، فقد وجد فريدريك الكبير أنه يمتلك جيشاً قوياً، يضم ٢٧ ألف جندي مدرب، وهو مسلح بأفضل الأسلحة في عصره غير أنه وجد أن أهدافه ومطامحه تتطلب تنظيم جيش أكبر، فعمل على زيادته حتى بلغ ٨٣ ألفاً، وكان ذلك رقماً كبيراً بالنسبة لشعب لم يكن عدد أفراده (سنة ١٧١٣) يزيد على المليونين ونصف المليون. وكان على هذا الجيش أن يواجه دولة النمسا (أو الإمبراطورية النمساوية المقدسة) التي كانت تضم ٢٥ مليوناً من المواطنين. مع قوات مقاتلة ضخمة، وذلك عندما جاءت ظروف الحرب المناسبة المعروفة باسم (حرب الوراثة النمساوية) (١٧٤٠ ـــ ١٧٤٥). واستطاع فريدريك، في هذه الحرب، أن يضم إقليم سيليزيا لبلاده، وأن يرغم النمسا على الاعتراف له بحق توحيد ألمانيا بعد معركة (موليتز ـــ سنة ١٧٤١) ثم معركة (شوتوسيتز سنة ١٧٤٢).

وكانت معركة هونغريد بورغ في حزيران (يونيو) ١٧٤٥ من المعارك الحاسمة حيث خسر فريدريك الكبير خمسة آلاف رجل بين قتيل وجريح، بينما خسرت النمسا ٩ آلاف رجل بين قتيل وجريح، و٧ آلاف أسير، و٨ آلاف مفقود ـــ كما غنم البروسيون؛ أي الألمان من النمساويين ٦٦ مدفعاً. ولقد استطاع فريدريك الكبير تحقيق انتصاراته بجيشه الصغير على الجيش النمساوي الكبير، بفضل حرص فريدريك الكبير على المباغتة، وإحاطة استعداداته للحرب بنطاق محكم من التكتم المطلق وبإخفاء كل نشاط قواته باستخدام خطط خداعية، فبينما كان يظهر أن الهدف من مسير القوات هو التوجه نحو الغرب، كان يوجه قواته بصورة سريعة نحو الشرق، مستفيداً من الظلمة، ومن طبيعة الأقاليم الصعبة. وبذل فريدريك الكبير جهده لتطوير جيشه من خلال الحرب، فانصرف بعد انتهاء الحرب السيليزية لإعادة تنظيم قواته، فشكل ١٧ كتيبة من كتائب المشاة المسلحة بالبواريد القصيرة من ٣٣ إلى ٥٠، بالإضافة إلى ٥ كتائب حاملي بواريد طويلة، و١٢ كتيبة حاميات القلاع والحصون. كما أعاد تنظيم قوات الفرسان الخفيفة، فشكل ٨١ كوكبة من الجرمان و٩ كوكبات من البوسنة. وكذلك اهتم فريدريك بإعادة تنظيم سلاح المدفعية، فارتفع عددُ المدافع من ٦٠ مدفعاً في بداية الحرب السيليزية إلى ٥٨٠ مدفعاً. ونظمت هذه المدافع في سرايا وأفواج لضمان كثافة نارية عالية: وحظي سلاح الهندسة العسكرية بالاهتمام الذي يستحقه، كي يواكب تطور الأسلحة كافة.

عرف فريدريك الكبير أن النمسا قد شكلت حلفاً مضاداً له ضم السويد وروسيا. وكان

= لتوحيد ألمانيا وهي الحروب التي عرفت باسم الحروب السيليزية الأولى والثانية (١٧٤٠ ـــ ١٧٤٥)، ثم حرب السبع سنوات (١٧٥٦ ـــ ١٧٦٣) والتي كان من أشهرها معركتا روزباك ولوثن (١٧٥٧).

فريدريك كما قال عن نفسه: «أنه يخاف من روسيا أكثر مما كان يخاف ربه» . وذلك بسبب ما كان يقوم به الجنود الروس من أعمال رهيبة عندما كانوا يخوضون حروبهم على أراضي بروسيا. فقرر أن يوجه ضربته إلى النمسا قبل أن تكمل استعدادها، من دون إعلان للحرب وعبر عن قراره هذا بقوله: «ليس من المهم بعد ذلك كله أن يطلق عليَّ أعدائي اسم: المعتدي، ولا سيما أن أوروبا كلها قد توحدت ضدي» . ووجه في شهر تموز (يوليو) ١٧٥٦ قوة من ١١ ألف مقاتل لمراقبة السويد، ووجه قوة أخرى من ٢٦ ألف مقاتل لمراقبة روسيا في الشرق، وترك قوة من ٣٧ ألف مقاتل للدفاع عن سيليزيا. وقاد جيشاً من ٧٠ ألف مقاتل، فباغت ساكسونيا بالهجوم، وبدأت حرب السبع سنوات وحقق فريدريك انتصارات كبيرة على النمساويين في مدينة براغ ثم بالقرب من كولن ـــ إلا أنه تلقى هزيمة منكرة على أيدي جيش نمساوي يتفوق عليه بمعدل الضعف. فاضطر للعودة إلى ساكسونيا، وشجع هذا النصر الحلفاء لحشد ٣٩٠ ألف مقاتل، ووضعوا خطة لاجتياح بروسيا من الجهات كافة، واشتركت فرنسا بهذه الحرب.

وجابه فريدريك الكبير موقفاً صعباً. فأعاد تنظيم قواته، وانطلق بها تحت جنح الظلام، نحو منطقة حشد القوات المتحالفة في (روزباك) ودارت معركة ضارية يوم ٤ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٧٥٧م. وخسر البروسيون في المعركة ١٦٥ قتيلاً و٣٧٦ جريحاً. في حين بلغت خسائر قوات الحلفاء ٣ آلاف بين قتيلٍ وجريح و٥ آلاف أسير بينهم ٨ قادة (جنرالات) و٣٠٠ ضابط، بالإضافة إلى ٦٧ مدفعاً و١٤ راية و١٥ علماً، وكمية كبيرة من المتاع والمواد التموينية.

أعاد فريدريك الكبير تنظيم جيشه بسرعة، وكان يضم ٢٤ ألفاً من المشاة و١٢ ألفاً من الفرسان و١٦٧ مدفعاً منها ٦١ مدفعاً ثقيلاً. وسار بهذا الجيش نحو الجيش النمساوي الذي يضم ٦٠ ألف جندي معهم ٢١٠ مدافع. ووقعت المعركة في (لوثن) في ٥ كانون الأول (ديسمبر) ١٧٥٧. وخسر فريدريك من جيشه ٦ آلاف رجل بين قتيلٍ وجريح، بينما خسر النمساويون ١٠ آلاف جندي بين قتيلٍ وجريح، إضافة إلى ٢١ ألف أسير و١١٦ مدفعاً و٥١ راية و٤ آلاف عربة إمداد وتموين. ولم يكن هذا النصر الكبير الذي حققه البروسيون في (لوثن) إلا ثمرة للتحركات الليلية والسريعة، وتنظيمهم القتالي الرائع، وتحقيقهم للمباغتة. وكان من أبرز نتائج معركة لوثن أنها حررت سيليزيا بكاملها باستثناء غابة شويدنيتز كما أنها أظهرت بروسيا على أنها أضخم قدرة عسكرية في أوروبا كلها. مما دفع بعض المؤرخين للقول: «**ما من معركة في التاريخ القديم أو حتى في التاريخ الحديث قد تضاهي معركة لوثن أو تنافسها، سواء في طريقة تنفيذها أو في نتائجها. إنها تشكل فصلاً مميزاً في العلم العسكري، ذلك لأنها تبرز النظرية المتلاحمة مع أساليب التطبيق، وهي نظرية من نتاج عبقرية الملك فريدريك وحده**». وكتب نابليون بونابرت، في

معرض تعليقه على معركة لوثن: «تمثل معركة لوثن لوحة رائعة من التحركات، ومن المناورات والقرارات. وتكفي وحدها لتخليد فريدريك، ووضعه على مستوى أعظم القادة. وقد كانت كل مناوراته في هذه المعركة متوافقة مع مبادئ الحرب: إنه لم يعرض مجنبة قواته لمراقبة أعدائه وأنظارهم، لأن أرتاله ذاتها كانت بعيدة عن الأنظار. ولقد كان النمساويون يتوقعون له أن يعمل بعد استيلائه على بورن، من أجل احتلال المواقع على المرتفعات المقابلة لهم. ولهذا فقد مكثوا دون حراك في انتظاره بينما عمل هو من جانبه على الإفادة من الضباب ومن المرتفعات الأرضية، ليدفع قوات حرس المقدمة، بصورة مختفية ومموهة، وتابع تقدمه حتى تمكن من مهاجمتهم في أقصى جناحهم الأيسر». لعله من المناسب هنا التوقف قليلاً عند ما عُرِف باسم (النظام المائل) والذي أبدعه فريدريك الكبير وطبقه في معركتيه الظافرتين (روزباك ولوثن) ففي روزباك لم تكن للحلفاء قيادة موحدة، ولم يضع قادة الحلفاء مخططاً واحداً وبدلاً عن تمسكهم بخطوطهم الدفاعية، حتى يتمكنوا من تدمير البروسيين فإنهم غادروا مواقعهم، وفعلوا ما كان يريده فريدريك، إذ قدموا له الشروط المناسبة للمعركة، حيث تقدموا تحت أنظاره وعرضوا عليه جناح قواتهم، وخاضوا المعركة بلا أي تنسيق للتعاون، وخاضوا المعركة وهم يجهلون أيضاً ما كان يفعله فريدريك، بسبب حرمانهم من عناصر الاستطلاع: وبذلك نجح فريدريك في استخدام نظامه المائل لضربهم من أجنحتهم. وفي معركة (لوثن)، بدأ فريدريك معركته بضرب الجناح الأيمن وانتهى بضرب الجناح الأيسر. مستخدماً (النظام المائل) ذاته. وتميزت عمليات فريدريك هنا بالتنسيق التام للتعاون بين الفرسان والمشاة والمدفعية. وكان العامل الحاسم، بعد ذلك، فيما أحرزه فريدريك الكبير من انتصار هو ثقة رجاله به، وانقيادهم لتنفيذ أوامره بدقة مذهلة.

لقد أفاد فريدريك من موقع البلاد المتوسط بين أعدائه المحيطين به ــ النمسا وفرنسا وروسيا والسويد ــ فكان يتحرك بسرعة لضرب أعدائه على التتابع؛ ودون أن يتيح فرصة للتجمع ضده، مكتفياً بوضع قوات دفاعية في مواجهة كل قوة من القوى المعادية، وقيادة الكتلة الرئيسة من قواته لضرب الخصم الأكثر خطراً والأشد تهديداً، ثم الانتقال بعدئـذٍ إلى الجبهة الثانية، مستفيداً من قدرته الحركية العالية (الفرسان) وهكذا، وضع أساس ما هو معروف باسم (الحرب على الخطوط الداخلية)، التي أصبحت أساس الحروب الألمانية بعد ذلك. أما في مجال الفكر العسكري، فقد تضمنت مؤلفات فريدريك[٢] إرثاً ضخماً للفكر العسكري. ومن أقواله في الحرب:

---

(٢) كتب فريدريك مؤلفات ثمينة أغنت الفكر العسكري ــ الألماني بخاصة ــ وهي: (الأصول العامة للحرب) و (العهد السياسي) و (العهد العسكري) و (عناصر فن اختيار مواقع المعسكرات وتخطيطها وفن القتال ــ التكتيك).

١ ـــ تكمن القوة ، كل القوة ، بالقدرة الهجومية لوحداتنا ، ونكون من أشد الحمقى ، لو أننا لم نوجه هذه القدرة من أجل دعم قضية جيدة .

٢ ـــ إن أقل تهاون بالانضباط ، سيؤدي إلى الشراسة والتوحش .

٣ ـــ يجب أن يفهم الضباط والجنود أن كل قرار إنما هو من عمل رجل واحد ، ويجب ألا يناقش أحد الأسباب ، بل يجب على كل فرد أن ينفذ ما أُمر بتنفيذه بلا تردد .

٤ ـــ يجب أن تكون حروب بروسيا قصيرة ، مليئة بالحركة ، ويجب أن يهدف القادة البروسيون إلى اتخاذ قراراتهم بسرعة .

٥ ـــ كسبك للمعركة معناه أن تضطر عدوك ليسلم لك موقعه .

٦ ـــ أعرف عن ثقة أن الدول الصغيرة قادرة على حماية سيادتها ، والمحافظة عليها ، ضد الدول الملكية الكبيرة ، وذلك إذا ما وضعت هذه الدول الصغرى الصناعة والنظام في أعمالها .

٧ ـــ هذه الرؤوس النحاسية رؤوس الشياطين التي تطلب الحرب ، وتتعطش للدمار والدماء علينا عدم إيقاذ جذوة الحرب ، والعمل على التخلص منها ، تماماً كما يتخلص الطبيب من الحمى ، وهو يعالجها ويقضي عليها .

٨ ـــ إذا ماتم تدريب الجيش تدريباً جيداً ، فإنه سيسمح بتطبيق كل مبادئ فن القيادة إلى أقصى حد .

٩ ـــ مالم يكن كل رجل مدرباً في وقت السلم على ما سيقوم به في الحرب ، لن يكون لدى القائد إلا جماعة من المدنيين ، يحملون اسم صناعة أو حرفة لا يعرفون كيف يقومون بممارستها .

١٠ ـــ إن حرباً لا بد لها من أن تنهك موارد بروسيا ، وتحطم الانضباط الرائع الذي يميز الجندي البروسي ، هذا إذا كانت مثل هذه الحرب طويلة الأمد ، وهذا ما يجب على بروسيا تجنبه .

١١ ـــ كوّن فريدريك جيشاً يتمتع بحب المواطنين وثقتهم ، في حين كانت المقاهي الفرنسية تضع على أبوابها لافتات كتب عليها : « يمنع دخول الكلاب والخدم والبغايا والجنود » .

١٢ ـــ يتوقع ضباطي الإفادة من أخطائي ، فليكونوا على ثقة بأنني سأبذل جهدي قدر المستطاع حتى أصحح أخطائي .

١٣ ـــ تحدث فريدريك الكبير عن والده الملك فريدريك غليوم فقال : كان الملك يختلط بضباطه بحرية مطلقة ، ويعامل ضباطه في الميدان معاملة رفاق ويعامل الجنود بأبوة حقيقية[٣] .

---

(٣) فريدريك الكبير ـــ مشاهير قادة العالم ـــ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـــ بيروت ـــ لبنان ـــ ١٩٨١ .

٢ **الفكر العسكري البروسي**: لعل من أبرز ظواهر الفكر العسكري البروسي ارتباطه ارتباطاً وثيقاً بالمبادئ الاقتصادية. ويعود الفضل في ذلك إلى المنظرين الاقتصاديين الألمان وفي طليعتهم (فريدريك ليست(٤)) الذي ربط بين المسألة القومية، وبين المسألة الاقتصادية، في إطار القوة العسكرية بقوله: «**إن الأمة، أي أمة، هي مجتمع منفصل يتكون من أفراد لهم حكومة واحدة وقوانين عامة واحدة، وحقوق ومصالح متماثلة، ولهم تاريخهم ومجدهم، ووسيلة ضمان حقوقهم وحياتهم وثرواتهم، وهم يشكلون بذلك جسداً واحداً حراً، ويتبعون فقط السبيل الذي تمليه عليهم مصالحهم، بالنسبة لغيرهم من المجتمعات المستقلة، كما تتوافر لهم القوة لتنظيم مصالح الأفراد، حتى يمكن توفير أكبر قدر من الرفاهية والرخاء في الداخل، وأقصى ما يمكن من الأمن والسلامة من جانب الأمم الأخرى.**

وإن الغرض من اقتصاديات هذا الجسم الموحد الحر، ليس فقط الحصول على الثروة فحسب، على نحو ما هي عليه الحال بالنسبة للفرد ولا في الاقتصاد العالمي في جملته، بل الحصول على القوة والثروة أيضاً لأن الثروة الأهلية تزداد وتتكون بالقوة الأهلية. كما أن القوة الأهلية تزداد وتجنى بالثروة الأهلية. ولهذا فإن مبادئها الرئيسة ليست اقتصادية فحسب، بل وسياسية أيضاً. **وقد تتوافر للأفراد ثروة كبيرة، لكن إذا لم تتملك الأمة القوة لحماية مواطنيها ووقايتهم، فقد يفقدون في يوم واحد، كل ما جمعوه في عصور طويلة، كما يفقدون أيضاً حقوقهم وحريتهم واستقلالهم. وكما يتم الحصول على الثروة بالقوة، فإن الثروة تزيد القوة، وبذلك تنتفع القوة والثروة، على قدم المساواة، من التنسيق بين الصناعة والزراعة والتجارة في داخل حدود الدولة**. ولا يمكن أن تتوافر للدولة القوة والثروة، إذا لم يتوافر هذا التنسيق. ولما كانت القوة الإنتاجية هي سبيل الأمن القومي والسلامة الأهلية، فليس من حق الحكومة وليس من واجبها؛ أن تنهض وحدها بكل ما يمكن أن يزيد ثروة الأمة وقوتها. لكن، إذا لم يكن باستطاعة الأفراد تحقيق هذا الهدف، يصبح من واجب الحكومة الاضطلاع به. وعلى سبيل المثال: فإن من واجب الحكومة حماية التجارة بقوة الأسطول، لأن التجار لا يستطيعون حماية أنفسهم، ومن واجب الحكومة حماية التجارة بالقوانين البحرية، لأن التجارة المنقولة تعاون قوة الأسطول، كما يحمي الأسطول التجارة المنقولة. لهذا يجب أن تدعم مصالح التجارة وصناعة السفن بكل الصناعات الأخرى، وأن تنشأ

---

(٤) فريدريك ليست: (١٧٨٩ ــ ١٨٤٦) عمل مدرساً للاقتصاد والسياسة في جامعة تونيغن؛ ورأى فيه الكثيرون من دعاة التوسع الألماني، النازيون بصورة خاصة، القديس الذي يحمي الدولة الألمانية. وقد ظهر ذلك في كثير من الأعمال الفكرية والأدبية. كما كان له تأثيره الكبير في تفكير القادة الألمان، من أمثال فون مولتكه وسواه.

من أجلها الجسور والقنوات والخطوط الحديدية وأن تحمى المخترعات الجديدة بإصدار القوانين التي تسجلها وتحميها، وهكذا حتى تصل إلى وجوب حماية الصناعات بفرض الضرائب الجمركية، وذلك متى كان رأس المال الأجنبي والكفايات الأجنبية تمنع المواطنين من تولي هذه الأعمال والنهوض بها. والثروة لا نفع لها ولا فائدة منها، ما لم تتوافر معها وحدة الأمة وقوتها».

«إن الحرب أو حتى توقع الحرب تجعلان المنشآت الصناعية من ألزم الضروريات لكل أمة تقف في المرتبة الأولى بالنسبة لغيرها من الأمم... وإن قدرة الأمة على الاشتباك في حرب، إنما تقاس بمعيار قدرتها على الوصول إلى الثروة. لهذا فإن كل أهداف الوحدة القومية، وسياسة الحماية إنما تتلخص بحشد الإمكانات لتطوير القدرة الإنتاجية». وقد يكون من الصعب الإحاطة بمعطيات فكر (فريدريك ليست) وما تركه من أثر في الفكر العسكري الألماني، غير أنه من المفيد التوقف عند فكرة كادت تكون في حينها مبكرة وسابقة لأكثر من قرنين من عمر الزمن — وهي دور الاقتصاد في العلاقات الدولية، فقد كتب سنة ١٨٢٥ (تقريباً): «**وهكذا، فإن الحاجة التي تفرض الآن على الألمان والفرنسيين ضرورة تكوين تحالف قاري ضد السيادة البريطانية، ستفرض هذه الحاجة ذاتها على الإنكليز في المستقبل غير البعيد، ضرورة إنشاء اتحاد أوروبي ضد السيادة الأمريكية، وهكذا تضطر بريطانيا أن تتلمس، وأن تجد، في قيادة القوى المتحدة في أوروبا ما تحتاجه من الأمن والوقاية ضد سيطرة أمريكا**».

جاء بعد ذلك (فون شارنهورست — غير هاردجوهان دافيد ١٧٥٥ — ١٨١٣) و (فون جينسيناو أوغست نتهاردت ١٧٦٠ — ١٨٣٦)، ليحتلا مكانتهما في طليعة المصلحين العسكريين، وفي عداد قادة الفكر العسكري الألماني. وكانت اضطرابات أوروبا (الثورة الفرنسية) والحروب النابوليونية (١٧٩٤ — ١٨١٥) هي الأساس في توجه المفكرين العسكريين الألمان نحو تطوير جهاز الحرب الألماني، سواء في مجال التنظيم أو في مجال التدريب والتسلح والإعداد للحرب. وهذا ما عبر عنه (شارنهورست) بقوله: «**هناك سبب واحد يتجاوز في أهميته كل ما عداه، وهذا السبب هو الذي وصل بفرنسا إلى ذروة العظمة. لقد أيقظت الثورة كل قوى الدولة. وقدمت لكل فرد ميداناً صالحاً ليعمل فيه بنشاطه الكامل وفعاليته المطلقة**». وانطلاقاً من هذا الإدراك الواعي لدور الشعب، انطلق جينسيناو ورفيقه شارنهورست إلى تحويل الجيش البروسي من جيش إمبراطوري إلى جيش شعبي. وذلك عن طريق تطبيق التجنيد الإلزامي. مع التركيز على قيادة الإصلاح والتطوير، بتطوير عمل جهاز هيئة أركان الحرب البروسية، الذي فرض عليه أن يكون عصب الجيش ورأسه المفكر. وعندما عهد إلى (شارنهورست) إعادة تنظيم وزارة الحرب البروسية (سنة ١٨٠٦) أوجد إدارة خاصة، أوكل إليها مهمة التخطيط لتنظيم الجيش وتعبئته في

وقت الحرب، على أن تتولى هذه الإدارة أيضاً — في وقت السلم — كل ما يختص بالتعليم والتدريب في الجيش ولم تقف واجبات هذه الإدارة ومسؤولياتها عند هذا الحد، فقد جرى تحت إشرافها أيضاً كل ما يختص بالإعداد للعمليات الحربية، من أعمال المخابرات، والاتصالات والمساحة العسكرية، وكذلك كل ما يختص بالإعداد والتوجيه في مجالي (التكتيك) و(الاستراتيجية). واحتفظ شارنهورست لنفسه، بوصفه وزيراً للحرب برئاسة هذه الإدارة، وبذلك كان تأثيره كبيراً في الفكر التكتيكي والاستراتيجي للضباط القادة العاملين بهذه الإدارة، فقد كان يتولى بنفسه تدريبهم في مباريات الحرب، وفي مناورات هيئة أركان الحرب. ولما كانت العادة المتبعة هي أن يعين هؤلاء الضباط في مراكز هيئات أركان الحرب لمختلف تشكيلات الجيش ووحداته، فقد توثقت سيطرة رئيس هيئة أركان الحرب على القيادات كافة. فكان الضباط الشبان — ذوو السراويل القرمزية — هم الذين ينقلون التوجيهات الاستراتيجية إلى كل أقسام الجيش وتنظيماته وفروعه. وكانت هيئة أركان الحرب تشكل قسماً من وزارة الحرب.

وفي سنة ١٨٢١، عين رئيس هيئة أركان الحرب في منصب المستشار الأعلى للملك في كل المسائل العسكرية. فأصبح لهيئة أركان الحرب دورها الأساسي في توجيه كل المسائل العسكرية في أيام السلم، وفي مرحلة الإعداد للحرب، وفي إعلان الحرب.

لقد كان تنظيم هيئات الأركان في تلك الفترة المبكرة وتحديد واجباتها ومسؤولياتها، عملاً رائداً لم تعرفه جيوش أوروبا من قبل، كما كان وسيلة لا لإحكام قيادة الجيوش والسيطرة عليها فقط، وإنما من أجل تنسيق التعاون بين الجيوش أيضاً. فتم بذلك وضع الأسس الثابتة لعمل الجيوش الحديثة في إطار قوي من المركزية، التي تتناسب مع تطور حجم الجيوش.

وبينما كان المصلحان المبدعان (شارنهورست، جينسيناو) يعملان على إصلاح الجيش البروسي وتطويره تطويراً عملياً وفكرياً، كان هناك كاتب عسكري يعيش تجربتهما، ويستوعبها، ويعمل في الوقت ذاته على تأليف مؤلفاته الضخمة (في الحرب) وهي المؤلفات التي قدر لها أن تمارس دورها لا في تطوير الفكر العسكري الألماني فقط، وإنما أيضاً في تطوير الفكر العسكري العالمي، وهذا الكاتب هو (فون كلاوزفيتز كارل ماري ١٧٨٠ — ١٨٣١). الذي بقيت كتاباته محتفظة بكثير من فائدتها وبكثير من أهميتها، حتى الأزمنة الحديثة. ولقد أصبحت أفكار كلاوزفيتز ووجهات نظره، شائعة ومعروفة في معظم أرجاء العالم. ويمكن التذكير ببعض أقواله مما تتطلبه ضرورة البحث، مثل: «ينبغي أن تكون كل القوات المتأهبة التي تتوخى هدفاً استراتيجياً، مكرسة لهذا الهدف. ويغدو استخدام القوات بهذا الشكل أكثر كمالاً عندما تنصب كل جهود هذه القوات لصالح عمل واحد، في وقت واحد». ومثل: «إن الحرب عمل من أعمال العنف، وليست هناك حدود للتعبير عن هذا العنف، فكل خصم من الخصمين يصنع قانون الآخر، ومن

هنا ينتج عمل متبادل، يصعد الصراع إلى الحدود القصوى. وعلى هذا، فإن البلد الذي يمتنع عن استخدام جزء من وسائله، بينما يصمم خصمه على استخدام وسائله كلها، هو بلد يحكم على نفسه بالفشل والهزيمة». ومن أقواله: «ليست الحرب إلا جزءاً من التكامل الاجتماعي. وهي تختلف عن الكل بسبب الوسائل الخاصة المميزة المستخدمة فيها، ومهما كان تأثير المطالب العسكرية في أحوال معينة على الأهداف السياسية، فإنها يمكن أن تعد معدلة فقط لهذه الأهداف. ذلك لأن الأهداف السياسية هي الغاية، والحرب هي الوسيلة، ولا يمكن أن تحقق الوسائل أغراضها بغير الوصول إلى الغاية... وهكذا... ليست الحرب إلا استمراراً للسياسة ولكن بوسائل مختلفة». لقد شغلت كتابات (كلاوزفيتز) وآراؤه في الحرب المؤرخين والكتاب ورجال السياسة والمفكرين، لا في الغرب وحده، وإنما في العالم كله. وقيل فيها الكثير ممن أيدوها أو عارضوها، غير أن حقيقة واحدة تبقى ثابتة ولا مجال فيها للجدل أو النقاش وهي أن كلاوزفيتز قد استطاع إبقاء فكرة الحرب الحقيقية حية وماثلة في أذهان الضباط والقادة البروسيين(٥).

٣ الجهد والإبداع: «الجهد هو طريق الإبداع». ولا يأتي الإبداع من فراغ. هذه الحقيقة تبدو واضحة كل الوضوح في تكوين المذهب العسكري الألماني. فقد أعقب ذلك الجهد الفكري المتكامل تشكل تيار قوي يضم كل الفعاليات والأنشطة السياسية والاقتصادية والعلمية والعسكرية. وقد رأى كثير من الباحثين والمؤرخين أن الفترة ما بين نهاية الحروب النابليونية (١٨١٥) وبين مرحلة الحروب البروسية ضد النمسا ثم ضد فرنسا (١٨٥٤ ـــ ١٨٧٠) كانت فترة كمون وتقهقر وجمود في الفكر العسكري الألماني غير أن ما تجلى من انطلاقة ألمانيا بمثل تلك القوة، وبمثل ذلك التنظيم، إنما هو برهان حاسم على أن تلك الفترة كانت بمثابة فترة تمثل، وفترة مخاض للانطلاق نحو ميلاد فجر جديد لا لألمانيا وحدها بل أيضاً لأوروبا كلها، وحتى للعالم أجمع، فقد تمكنت ألمانيا من تحطيم التوازنات الأوروبية التي كانت قائمة منذ فجر الثورة الصناعية، وبداية عصر الاستعمار الغربي.

ويحتل الماريشال (فون مولتكه ـــ الأكبر ـــ ١٨٠٠ ـــ ١٨٩١) هنا مكانة مميزة، إذ عمل في مركز ثقل التحولات بين المفاهيم العسكرية التي كانت سائدة في القرن التاسع عشر، وبين المفاهيم العسكرية التي سترسم ظلالها بقوة حتى منتصف القرن العشرين.

أصبح غليوم الأول، إمبراطوراً على ألمانيا في مطلع عام ١٨٦١، فكان أول عمل له تعيين

---

(٥) المذهب العسكري الألماني ـــ تقديم السيد العماد مصطفى طلاس ـــ دار طلاس ـــ ١٩٨٧ ص٨٣ ـــ ١٢٤.

(فون رون)[٦] وزيراً للحربية، وتعيين الكونت فون مولتكه رئيساً لهيئة الأركان العامة. وكان أول قول له: «**سيكون الجيش البروسي في المستقبل هو الأمة البروسية المسلحة**». وشرع على الفور بإعادة تنظيم الجيش البروسي، حتى جعل منه قوة حربية ضخمة ضمت ٣٧١ ألفاً من المقاتلين، تدعمهم قوة احتياطية من ١٢٦ ألفاً، مع قوة برية ضمت ١٦٣ ألفاً من المقاتلين. وبدأ فون مولتكه فور استلامه لعمله، مراجعة كافة المخططات التي كانت قد وضعتها هيئة أركان الحرب الجرمانية، وإعادة تدقيقها، وكان سلفه الجنرال رايهر، واحداً من القادة البروسيين البارزين، اشتهر بخياله المبدع، وعقله المنفتح، وثقافته العالية، وكان أستاذاً ممتازاً للاستراتيجية. وكان بوسع مولتكه الاعتماد على كفاءة الضباط البروسيين، وحسن إعدادهم، وقدرتهم على إيجاد الحلول الصحيحة للمشكلات التعبوية ــ التكتيكية ــ التي قد تصادفهم في ميادين القتال.

كانت تشكيلات السلم للجيش البروسي أكثر تطوراً وتقدماً من تشكيلات أي أمة أوروبية أخرى. وكانت كل وحدات الجيش البروسي، عدا وحدات الحرس، تجمع جنودها وقوتها الاحتياطية من المناطق المحلية التي تقيم فيها وتعسكر على أرضها، وهو أمر لم تتمكن من أن تفعله إمبراطورية آل هبسبورغ (الإمبراطورية الجرمانية المقدسة، أو النمسا هنغاريا) بسبب مشكلاتها الخاصة بالقومية. وبسبب تباين أصول السكان. وكان الجيش البروسي **أيضاً قد احتفظ منذ العام (١٨١٥) بتشكيل الفيلق، وهو التشكيل الذي جاء به نابليون بونابرت في حملاته الحربية، ثم أغفلته فرنسا في حكم آل بوربون (عودة الملكية)** وتخلت عنه، مع أن هذا التشكيل كان في الواقع يمتاز بسرعة التعبئة، كما يمتاز بقدرة الجنود والقادة على القيام بالأعمال القتالية الكبرى.

كانت التعبئة في الجيش البروسي سريعة نسبياً. وقد استطاع مولتكه زيادة هذه السرعة، إلا أن الاتساع الجغرافي الكبير للأقاليم البروسية (ما بين إكس لاشابيل شرقاً وتيلسيت غرباً) كان يشكل عقبة تزيد من مشاكل بروسيا عسكرياً. وقد جاء عصر الخطوط الحديدية ليحمل معه الحل لهذه المشكلة، والذي حاول مولتكه الإفادة منه قدر المستطاع، لتطوير القدرة الحركية للقوات وكانت دول أوروبا المختلفة قد استخدمت الخطوط الحديدية لنقل جنودها ابتداءً من سنة ١٨٤٧ إلى سنة ١٨٥٠. وقد لجأ مولتكه، لاختبار ما تقدمه الخطوط الحديدية من مساعدات إلى نقل القوات (سنة ١٨٥٩) وأمكن له، بفضل هذا الاختبار، إدخال تحسينات كثيرة على عمليات النقل. وأصبح بالمستطاع نقل القوات بسرعة وصلت إلى ستة أضعاف السرعة التي سارت بها

---

(٦) فون رون ــ أميل ــ جنرال بروسي ورجل دولة (١٨٠٣ ــ ١٨٩٧) عمل وزيراً للحرب في عهد غليوم الأول؛ وأسهم مع بسمارك في صنع (الاتحاد الجرماني).

جيوش نابليون. **وظهر أن الوقت والسرعة والمسافة، هي العوامل الأساسية لكل استراتيجية وفقاً للتطورات الحديثة.**

فالدولة التي يتوافر لها نظام جيد للنقل بالخطوط الحديدية، تستطيع ضمان التفوق الحاسم في الحرب، ذلك لأن سرعة التعبئة، وسرعة الحشد، أصبحا عاملين ضروريين لهما أهميتهما في التقديرات الاستراتيجية. ومما لا ريب فيه أن الجداول الزمنية للتعبئة وترتيبات الحشد وأوامر السير، قد أوجدت العمود الفقري للخطط الاستراتيجية التي تضعها هيئات أركان الحرب للمستقبل، لتنفيذها عند تفجر الحرب. واقترح (مولتكه) إضافةً إلى الانتفاع بالخطوط الحديدية الجديدة، استخدام شبكة الطرق البرية الكثيفة التي تطورت كثيراً مع تطور الثورة الصناعية، وبذلك أمكن استخدام أساليب تعبوية (تكتيكية) جديدة. وكتب مولتكه في ذلك ما يلي: «تتزايد الصعوبات التي تواجه خفة الحركة تبعاً لزيادة حجم التشكيلات العسكرية. ولا يمكن في اليوم الواحد نقل أكثر من فيلق واحد من فيالق الجيش، إذا ما استخدم طريق واحد في عملية النقل هذه. ثم تزداد هذه الصعاب، كلما اقتربنا من الهدف، وذلك تبعاً لتحديد عدد الطرق التي يمكن استخدامها. وعلى هذا، فإن من الأمور العادية أن يقسم الجيش إلى فيالق... وقد ظهر واضحاً أن حشد هذه الفيالق معاً، في كتلة واحدة، هو خطأ يجب تجنبه، إلا إذا كان الهدف من هذا التكتل محدداً بدقة، ولا يستطيع الجيش المحتشد (المتكتل) السير على الطرق. ويمكن تحريكه فقط في ميادين القتال. ولكي يسير الجيش، يجب أن يقسم إلى وحدات صغرى، الأمر الذي له خطره، إذا ما حدث في مواجهة العدو. ولكن لما كان حشد الجنود من جهة أخرى ضرورياً للمعركة، فإن محور الاستراتيجية هو تنظيم عمليات سير منفصلة، على شرط أن يضمن هذا التحرك تحقيق حشد القوات وجمعها في اللحظة المناسبة».

جعل مولتكه دراسة التاريخ العسكري من مسؤولية هيئة أركان الحرب البروسية والأقسام التابعة لها. وكانت وجهة نظره تتلخص بإمكان الاستراتيجية أن تستفيد من التاريخ، ما دامت تدرس بالأسلوب الصحيح الذي يعنى بالعلاقة الوطيدة بين أطراف الموضوع. وأشار مولتكه إلى أن أهمية دراسة الضابط للتاريخ العسكري لا تقل عن أهمية دراسة الاستراتيجية. فالاستراتيجية هي مجموعة من الوسائل التي تستخدم للوصول إلى غرض محدد. إنها أكثر من معلومات يجب أن يعرفها الضابط. إنها تطبيق المعرفة في الحياة العامة، وإنها تطور الفكرة الأساسية الأصلية، بالتمشي مع الحوادث دائمة التغير، إنها فن العمل تحت ضغط أصعب الظروف وأقساها».

احتلت قضية (تنظيم القيادة) مكانة الصدارة في جهد مولتكه وتفكيره. وقد عالج هذه

القضية بوضوح وإسهاب؛ فكان مما كتبه: «لا يمكن لأي مجلس حرب أن يتولى توجيه جيش ما وقيادته. ويجب أن يكون رئيس هيئة أركان الحرب المرجع الوحيد للقائد العام في التخطيط للعمليات». وقد أبرز الملحق العسكري الفرنسي في برلين ـــ البارون ستوفل ـــ في تقرير له بعث به إلى حكومته في شباط (فبراير) ١٨٦٨ دور هيئة الأركان البروسية في الإعداد للحرب مع مقارنة طريفة لنظيرتها الفرنسية، جاء فيه: «**إن تكوين هيئة الأركان البروسية هو أكبر ميزة، في كل عناصر التفوق التي ستفيد منها بروسيا في أي حرب قادمة. وهي ميزة حتمية ومؤكدة؛ فهيئة الأركان العامة البروسية هي أول الهيئات في أوروبا وأكثرها كفاءة. ولا يمكن مقارنة هيئة أركاننا بها أبداً. إن تنظيم هيئة الأركان العامة البروسية، سيشكل في الحرب المقبلة أكثر عناصر التفوق لصالح الجيش البروسي**». ولقد حفظت وثائق ومخطوطات القيادة الألمانية النظام الرتيب الذي كان متبعاً في القيادة الألمانية، ويمكن تلخيصه بالكلمات التالية: «كان يعقد في كل صباح مؤتمر لهيئة الأركان تحت إشراف رئيس هيئة الأركان لمناقشة الموقف، واتخاذ القرارات المناسبة له، ثم تحمل هذه القرارات إلى الملك، حتى إذا ما وافق عليها، تم توزيعها على شكل أوامر إلى القادة المعنيين. ولم يكن أسلوب العمل هذا، والمميز بدقة متناهية ـــ مثل دقة عمل الساعة ـــ خالياً من النقائص أو العيوب، فقد كان يتجاهل الأمور المباغتة التي هي من طبيعة الحرب، ولا يضع حساباً كبيراً لغير المتوقع... ومقابل ذلك، كانت هيئة الأركان العامة الفرنسية تضم مجموعة من الشبان (الأساتذة الصغار) الذين لم تكن لهم علاقة (تقريباً) بالجيش ومشكلاته، إلى جانب مجموعة من كبار القادة الطاعنين في السن، والذين تحولوا إلى ضباط وكتاب (بيروقراطيين)، بعد أن استنزفت قدرتهم ضغوط العمل الرتيب (الروتيني) وكان الماريشال (بازان) نموذجاً لهؤلاء القادة، فقد كان حذراً جداً من هيئة أركانه العامة، حتى أنه منع ضباطها من الظهور فوق أرض ساحة المعركة».

فلم يكن من الغريب ـــ وقد بذل (مولتكه) كل جهد مستطاع لتطوير العمل في هيئات الأركان ولتطوير تنظيمات الجيش الألماني وقدراته الحركية وطرائق عمله ـــ أن يحتل موقع التفوق على بقية الجيوش الأوروبية وأكثرها قدرة قتالية، وأوفرها خبرات حربية وأفضلها تسلحاً. وقد ظهر ذلك واضحاً في معركة سادوفا (الحرب البروسية ـــ النمساوية سنة ١٨٦٦)، التي انتهت بضم أقاليم هانوفر وشيلزويغ وهولشتاين وهيس وناسو ومدينة فرانكفورت سيرماين الحرة، وهكذا تشكل اتحاد الشمال الجرماني (شمالي نهر الماين)، تحت راية بروسيا. أما الدول الواقعة إلى الجنوب من نهر الماين، فقد ضمها (اتحاد الجنوب الجرماني) المستقل. وتبع ذلك ضم الاتحادين، فكان ذلك الخطوة الأولى نحو توحيد جرمانيا. وصار باستطاعة الاتحاد الجرماني، خوض الحرب ضد فرنسا سنة ١٨٧٠. **وكانت هيئة الأركان العامة البروسية قد وضعت مخططها الأولي للحرب مع فرنسا منذ سنة ١٨٦٧م. ثم أخذت بعد ذلك في إعادة تدقيقه ومراجعته وتعديله بصورة مستمرة. وكان هذا المخطط مميزاً بروحه الهجومية، بقدر ما كان مميزاً ببساطة فكرته: «الاتجاه العام:**

باريس. **الهدف: تدمير العدو في كل مكان. الوسائل: ثلاثة جيوش**». وكان الملحق العسكري الفرنسي في برلين ــ البارون ستوفل ــ قد حذر حكومته من مجابهة الجيوش الجرمانية ــ في تقرير له بتاريخ ٢٦ أيار (مايو) ١٨٦٨ جاء فيه: «يرتفع مفهوم الخدمة السماوية، أو الواجب المقدس، فوق الملك، وفوق الجيش والوزير، ورائد الجميع هو البحث عن المجد، ثم تأتي أجهزة الدولة المختلفة لتحتل مرتبتها بعد ذلك في تنفيذ إرادة الملك، وتلبية متطلبات الجيش، والاستجابة لرغبات الوزير. وهذا ماينافض الموقف الذي وصل إليه الجيش الفرنسي الذي أصبح مجرد ثروة مهملة، ومجرد كتلة من الرجال الذين يخسرون يوماً بعد يوم انضباطهم وروحهم العسكرية». لكن فرنسا لم تنتفع بالتقرير الصادق الذي بعث به خبير تابع عن كثب التجربة الجرمانية، ولم تفد شيئاً مما توافر لها من معلومات عن قدرة الجيش الألماني ــ الجرماني ــ واستعداداته وكفاءة قيادته. فقاد نابليون الثالث، الجيوش الفرنسية ووقعت بين الطرفين مجموعة من المعارك الصغرى التي انتصر فيها الجيش الجرماني على الفرنسيين. إلى أن وقعت (معركة سيدان) الشهيرة يوم ٣١ آب (أغسطس) ١٨٧٠ والتي انتهت باستسلام نابليون الثالث وهزيمة الجيوش الفرنسية. وتابعت الجيوش الجرمانية تقدمها، فدخلت باريس في ١٨ كانون الثاني (يناير) ١٨٧٠، (بعد حصار استمر أربعة أشهر)، وتتويج غليوم الأول إمبراطوراً على جرمانيا الموحدة (في قاعة المرايا في قصر فرساي بباريس). وضمت جرمانيا إليها إقليمي الألزاس وشرقي اللورين.

كان هذا الانتصار الضخم ثمرة الجهد المستمر لبناء القدرة العسكرية الجرمانية الذي ظهر على شكل إبداع في مجالات الاستراتيجية وفن العمليات والتكتيك. ولم يكن باستطاعة الجيش الجرماني تحقيق مثل هذا الإنجاز الضخم، لو لم تتضافر الجهود السياسية (التي كان يبذلها رئيس الوزراء بسمارك). مع الجهود الاقتصادية التي توافرت للأقاليم الجرمانية المتحدة. وبذلك انتقلت ألمانيا من مجرد أقاليم ممزقة، إلى دولة قوية تمتلك أضخم جهاز حربي، وصناعة متطورة، واقتصاداً قوياً. فكان من طبيعة الأمور أن تصبح مركز الثقل والتوازن في القارة الأوروبية، وأن تنتزع من فيينا سيادتها التي احتفظت بها قروناً متتالية، وأن تتحول إلى دولة منافسة للدولتين الأوروبيتين الكبيرتين: بريطانيا وفرنسا. هذا الحدث الكبير هو الذي مهد السبيل أمام ألمانيا لخوض الحربين العالميتين الأولى والثانية، ثم الانتقال بالصراع المسلح، من مستواه القاري، إلى أبعاده العالمية.

[٤] من الحروب القارية إلى الحروب العالمية: لم تنتظر فرنسا طويلاً لتثأر من هزيمتها في (سيدان). وشرعت في التحرك السياسي لتكوين تحالفات قوية مضادة لبروسيا ــ جرمانيا ــ وتم

لها في سنة ١٨٩٣ توقيع حلف دفاعي مع روسيا. فواجه (الكونت فون شليفن)[٧] الذي عين خلفاً للكونت فون مولتكه سنة ١٨٩١ احتمال الحرب على الجبهتين الشرقية (مع روسيا) والغربية (مع فرنسا)، فانصرف لوضع مخططات جديدة تعتمد على قاعدة خوض الحرب على جبهتين، وعلى أساس الهجوم، أولاً في الغرب، مقابل الدفاع في الشرق. وهذا ماعبر عنه بقوله: «**إن فرنسا هي الخصم الأقوى الذي يحشد قواته، ومن الممكن الاصطدام به، مع التأكد من الحصول على نتيجة حاسمة ضده، في وقت مبكر من الحرب. وستجعل السيطرة على فرنسا التدخل البريطاني غير متوقع؛ أو عديم الأثر. لكن، للحصول على نتيجة حاسمة في الحرب الأوروبية، في القتال ضد فرنسا، فإنه يجب عدم التوقف عند حدود إرغام الجيش الفرنسي على التقهقر إلى داخل البلاد الفرنسية، أو حتى القيام باحتلال باريس، ولا بد من القضاء تماماً على كل القوات المسلحة التي تقف ضد ألمانيا في الغرب والعمل على تحطيمها وسحقها**». ووضع شليفن خطته بزج الكتلة الرئيسة من الجيوش الألمانية للقيام باختراق عبر اللوكسمبورغ وبلجيكا وهولندا، وأصدر هذه الخطة سنة ١٩٠٥، غير أنه تابع تدقيقها وتطويرها حتى آخر يوم في حياته، مع اختبارها مع ضباط هيئة أركان الحرب، خلال (المباريات الحربية على الخرائط).

لم يتغير الدور التعليمي ــ الثقافي لهيئة الأركان العامة البروسية في عهد شليفن، فعلى الرغم من اتساع نطاق هيئة أركان الحرب وتزايد عدد أعضائها، فقد بقيت واجباتها وخواصها مركزة على تعليم الحرب للحرب، والإعداد للعمليات. وكان من أهم ماأسهم به شليفن، من الناحية الفنية هو ازدياد التطور والتحسين في النقل البري بالخطوط الحديدية، وإيجاد المدفعية الثقيلة ذات المرونة والقدرة الحركية العالية، ثم إيجاد بعض الفروع العسكرية الجديدة: مثل فرع مهندسي الجيش للخطوط الحديدية، ومثل السلاح الجوي. وكان شليفن يميل إلى تبسيط التاريخ العسكري وقد كـوّن آراءه الاستراتيجية من خلال دراسته للأساليب التكتيكية الحديثة، ثم استطاع، بسهولة أكبر، أن يربط بين هذه الآراء الاستراتيجية وبين جذورها في التجربة التاريخية. إذ إن خطته للحرب على جبهة الغرب قد شبهت بخطة فريدريك الكبير في معركة لوثن سنة ١٧٥٧ (النظام المائل). كما شبهت بخطة هانيبال في معركة كاني سنة ٢١٦ق.م (التطويق من الأجناب). وكان مثله كمثل هانيبال يعرف أنه يواجه قوات متفوقة عليه عددياً. فوجد أن وسيلته لمجابهة هذا التفوق والتغلب عليه هي تجزئة قوات العدو وتدميرها على التتابع: «**عندما يكون الفرد أضعف من أن يهاجم**

---

(٧) الكونت فون شليفن ألفرد (١٨٣٣ ــ ١٩١٣) تخرج من الكلية الحربية سنة ١٨٦١ ونقل للعمل في هيئة الأركان العامة سنة ١٨٨٣ وعين رئيساً لهيئة الأركان العامة سنة ١٨٩١ وبقي في هذا المنصب حتى نهاية حياته.

الكل، وجب عليه أن يهاجم الجزء». وقال: «**إن المشكلة هي كيف يمكن القيام بحروب قصيرة وحاسمة ضد عدو متفوق عددياً؟**». وأجاب عن ذلك بقوله: «**إن الفكرة الاستراتيجية، وكفاءة الأفراد، هما عاملان أكثر أهمية من التفوق العددي**».

كانت معظم آراء شليفن تكملة طبيعية ومنطقية للفكر العسكري الذي بدأ بعهد فريدريك الكبير وتطور حتى وصل إلى شليفن، الذي حرص بدوره على التطوير، وفقاً لظروف الحرب الحديثة، فاستطاع أن يصل إلى ما لم يبلغه أسلافه العظام، في مجال التخطيط المسبق لموعد التنفيذ، ليس إلى عملية التعبئة والحشد والنقل فحسب ولا إلى توجيه الهجوم فحسب، بل وللمعركة الحاسمة ذاتها. وضعت خطة شليفن موضع التطبيق عندما تفجرت الحرب العالمية الأولى، لكن نصيبها من النجاح كان زهيداً جداً، ولم يكن ذلك بسبب ضعف الخطة، وإنما لأن القيادة الألمانية لم تتمكن من إيجاد القوى والوسائط الضرورية لتطبيقها بنجاح، ومقابل ذلك استطاعت الكفاءة العالية التي توافرت للقائدين الكبيرين (لودندورف[٨]) و (هندنبورغ[٩]) تحقيق انتصارات مذهلة على جبهة الشرق. وعندما انتهت الحرب بحدوث ثورة في روسيا، ثم في ألمانيا، واضطرت ألمانيا للاستسلام بلا قيد ولا شرط، انصرفت القيادة الألمانية لإعادة بناء صناعاتها الحربية، وقدراتها الاقتصادية وما هي إلا سنوات قليلة حتى تمزق العالم تحت شعار (ألمانيا فوق الجميع). وانفجرت الحرب العالمية الثانية التي أبرزت التفوق الألماني في المجالات التالية: **أولها التخطيط الدقيق والمسبق للحرب، وثانيها: تطوير القدرات الحركية للقوات البرية، باستخدام الدبابات والمركبات، وثالثها: رسم الملامح الصحيحة لمعركة الأسلحة المشتركة الحديثة. ورابعها: الإفادة من البعد الثالث (الفضاء) لزيادة القدرة الحركية للقوات (المظليين والقوات المنقولة جواً)**. ولدعم القدرات النارية للقوات البرية (استخدم الطيران المطارد والطيران القاذف) وخامسها: تنسيق التعاون، سواء بين القوات المختلفة على جبهة واحدة، أو تنسيق التعاون بين الجبهات.

هنا لا بد من القول: إن اختراع الدبابة والطائرة قد حدث في نهاية الحرب العالمية الأولى.

---

(٨) لودندورف (١٨٦٥ ـــ ١٩٣٧) قائد ألماني كبير ـــ عين مساعداً للماريشال هندنبرغ سنة ١٩١٦، ثم تولى قيادة الجبهة الغربية، فنظم مجموعة الأعمال الهجومية ضد الحلفاء واشترك سنة ١٩٢٣ في ثورة ميونيخ الفاشلة. رشحه الحزب النازي لانتخابات الرئاسة، وفشل فتولى قيادة الحرب المقدسة ضد (الكاثوليك والماسونيين واليهود بخاصة).

(٩) هندنبرغ (١٨٤٧ ـــ ١٩٣٤) تولى سنة ١٩١٦ قيادة الجبهة الغربية وتم انتخابه سنة ١٩٢٥ رئيساً للجمهورية الألمانية. واضطر للتخلي سنة ١٩٣٣، لتعيين هتلر مستشاراً لألمانيا. وكانت انتصاراته في الحرب العالمية الأولى قد رفعته إلى أعلى مراتب التقدير في نظر الشعب الألماني.

وكانت كل الدول الصناعية الكبرى تمتلك من هذه الوسائط أكثر مما كانت تمتلكه ألمانيا. وعلى الرغم من ذلك، فقد كان استخدام هذه الوسائط بصورتها الصحيحة هو الذي أعطى للألمان ميزة التفوق، في المرحلة الأولى من الحرب والتي عرفت باسم (الحرب الصاعقة ــ أو الحرب الخاطفة). غير أن دول الحلفاء سرعان ما اقتبست من الألمان نهجهم في إدارة الحرب، وفي طرائق خوض الصراع المسلح. وجاء التفوق المادي للحلفاء بإلقاء الولايات المتحدة الأمريكية بكامل ثقلها في كفة الحرب، إلى جانب الحلفاء. فتم القضاء على ألمانيا. وقد عادت ألمانيا اليوم لتعيد بناء قدرتها كمثل ما بدأت به قبل ثلاثة قرون من عمر الزمن تقريباً (الاعتماد على العامل القومي)، لكن باستخدام العامل الاقتصادي بدلاً من اللجوء إلى السلاح. هذا مع الإشارة إلى ما تمتلكه ألمانيا اليوم من صناعات حربية متطورة، ومن قدرات عسكرية كبيرة. فهل ستكون إعادة توحيد ألمانيا وبناء أوروبا الموحدة التطور الاستراتيجي الجديد لتصبح ألمانيا القطب العالمي الجديد؟ المهم في الأمر هو أن المذهب العسكري الألماني الذي ظهر منذ سنة ١٧٥٠ ــ قد احتفظ بالكثير من قواعده وأسسه، وتطور تبعاً لتطور التقانة، غير أنه بقي نسيجاً متلاحماً وقوياً، عبر أبعاده الزمنية والمكانية.

٤ ـــ المذهب العسكري الفرنسي

[١] العلم والحرب: يفخر الفرنسيون بأصالة عطائهم في مجال (فن الحرب). ويتباهون بأمجادهم العسكرية التي حفظتها لهم أوابدهم ـــ من أقواس للنصر ومن متاحف حربية ومن قلاع وحصون قديمة بقيت جميعها رموزاً لانتصارات حربية ولأعمال قتالية دفع الشعب الفرنسي ثمنها من دمائه وتضحياته. غير أن أكثر ما يفخر به العسكريون الفرنسيون ويعتزون، هو استخدام العلم وتطبيقاته في الأعمال القتالية والحروب، أو ربط النظرية بالتطبيق. مما أعطى المذهب العسكري الفرنسي طابعه المميز. وهذا ما دفع الباحثين، من الفرنسيين وغير الفرنسيين، في الأزمنة الحديثة، لإعادة تقويم التجربة التاريخية لفن الحرب الفرنسي، في محاولة للإجابة عن مجموعة من التساؤلات التي فرضت نفسها بالضرورة، مثل: لماذا بقي فن الحرب الفرنسي محاصراً في حدود فرنسا، ولم يأخذ أبعاده العالمية على نحو ما حظيت به المدارس العسكرية الأخرى مثل المدرسة الألمانية أو المدرسة البريطانية؟ ولماذا لم ينل أصحاب النظريات العسكرية من الفرنسيين ما ناله أقرانهم من الشهرة ممن عاصروهم في أقطار أوروبية أخرى؟ ثم، وهذا الأهم، لماذا لم يحرز الفرنسيون انتصارات مماثلة لتلك التي أحرزتها دولة أوروبية أخرى حاربت فرنسا وانتصرت عليها؟ فهل تكمن الإجابة عن هذه التساؤلات وأمثالها في ضعف النظرية، أم أنها تكمن في التطبيقات الفاشلة؟

تبرهن التجربة التاريخية لتطور الفكر العسكري، أن تأثير العلم في الحرب والعلاقة الثابتة بينهما، ليست مقترنة بحقبة زمنية معينة، ففن التحصينات وإقامة القلاع والأعمال الهندسية الدفاعية هي قديمة قدم تاريخ فن الحرب ذاته، وليست الليمات الرومانية على تخوم الدولة الرومانية القديمة في أوروبا وآسيا وإفريقيا سوى نتاج إبداعات تعود في قدمها إلى ما قبل عصر الرومان بأزمنة سحيقة، وإن كان الرومان هم الذين طوروها ونظموها بما يتناسب ومتطلبات أعمالهم القتالية. كذلك فإن (رافعة أرخميدس) التي استخدمت في حصار سيراقوزة[١] والتي تعد من أبرز

(١) أرخميدس: (ARCHIMEDE) عالم شهير (٢٨٧ ـــ ٢١٢ ق. م) ولد في سيراقوزة SYRACUSE. يعود له

الشواهد القديمة على اقتران العلم بالحرب، ليست بدورها إلا تطويراً لمحاولات وتجارب كثيرة، كان هدفها دائماً إبداع الوسائط القادرة على تلبية متطلبات المقاتلين لبلوغ النصر. غير أن عصر النهضة الأوروبية، الذي انطلقت فيه العقول من إسارها، في كل مجالات الفنون والآداب والعلوم، قد انعكس بصورة طبيعية على فن الحرب، وكان لزاماً تأثر الفكر العسكري بروح العصر الفلسفي ـــ من أمثال (ديكارت وكنت وهيغل) وسواهم. هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية، إن الأفكار التي انتشرت في الأقاليم الأوروبية والصراعات المسلحة، قد انعكست على الفكر العسكري بتقديمها الإطار الشامل له، للبحث والدراسة والاستنباط. غير أن هذا الإطار الشامل لم تكن تعيقه حدود جغرافية، فلم يكن من الغريب إذاً أن يبرز في كل إقليم أوروبي عدد من المفكرين العسكريين الذين قدموا للفكر العسكري ما يغنيه ويزيده ثراءً، ولذلك ظهر عدد من المفكرين العسكريين في وقت واحد (تقريباً) ـــ في فرنسا وبريطانيا وألمانيا، لم يحمل بعضهم جنسية البلد الذي قدم له عطاءه الفكري (مثل السويسري جوميني) الذي قدم نتاج فكره العسكري لفرنسا، لأنه استخلص هذا النتاج من تجربة خدمته في الجيش الفرنسي (تجربة الحروب النابوليونية). ولا يتناقض ذلك مع الخصوصية المميزة لكل مدرسة من مدارس الحرب العسكرية في أوروبا، إلا أنه يبرز دور الأرضية المشتركة، أو القاعدة، التي استندت إليها هذه المدارس في مرحلة انطلاقتها المبكرة. لقد كان تنظيم إنشاء المدارس العسكرية في وقت مبكر، هو البرهان على تقدم فرنسا في مجال اقتران العلم بالحرب. فقد أسست (مدرسة الحرب[٢]) منذ سنة ١٧٥٢، وأسست مدرسة (سانت سير[٣]) أو الكلية الحربية في سنة ١٨٠٢م. وفي تلك الفترة ذاتها نظمت مدرسة المدفعية وكانت هذه المدارس تطور برامجها باستمرار لتقديم العلوم العسكرية الضرورية لإعداد القادة. لكن قبل ذلك بزمن طويل، كانت العلوم قد اقترنت بالعمل العسكري، ويتطلب ذلك العودة إلى مرحلة الصراع العنيف على أرض القارة الأوروبية، حيث ظهرت التطبيقات العلمية الأولى في التنظيم

الفضل في إيجاد المعادلة بين السطح والحجم للجسم الأسطواني والمحيط، مما مكنه من اختراع الرافعات المختلفة، ووضع الميكانيك، والعجلات الملساء والمسننات ... إلخ.

(٢) مدرسة الحرب: (ECOLE DE GUERRE) شيدت في نهاية ميدان الحرب (CHAMP DE MARS) في باريس سنة ١٧٥٢، ثم حولت إلى مدرسة الحرب العليا وبقيت حتى الآن وهي تحمل هذا الاسم (ECIOLE) (SUPERIEUR DE GUERRE) وهي مخصصة لإعداد القادة.

(٣) سانت سير: (L'ECOLE SAINT - CYR) تقع في منطقة (سانت ـــ واز) (SAINT-ET-OISE) في ضاحية فرساي ـــ أسست عام ١٨٠٨ في المنزل القديم الذي كان لويس الرابع عشر قد شيده منذ سنة ١٦٨٥ ليكون مدرسة لتعليم البنات. وقد دمرت هذه المدرسة في الحرب العالمية الثانية؛ فنقلت إلى كوت كيدان (COET QUIDAN) سنة ١٩٤٧، ثم أعيدت لمكانها بعد إجراء أعمال الإصلاحات والترميم والتطوير منذ سنة ١٩٥٠.

الهندسي للأرض وفي تنظيم القوات. ومن الملاحظ أن الإصلاح والتطوير، في الجهاز العسكري وفي العلم العسكري قد جاء على أيدي مصلحين لم يخدموا في الجيش (من أمثال ريشيليو[٤]) الذي أحدث في أيامه منصب وزير الحربية، وأجرى إصلاحات ضمن هيئة الضباط القادة لتحديد السلطات والصلاحيات، مع إدخال مبدأ الأقدمية في الخدمة، وتحقيق مبدأ (وحدة القيادة) من خلال إحداث منصب القائد العام للجيوش، و (القائد تورين[٥]) هو أول من شغل هذا المنصب لأول مرة في العام ١٦٦٠م. **كذلك كان عدد قليل من العلماء الأوائل جنوداً، غير أن عدداً كبيراً منهم عمل منذ القرن السادس عشر وفي القرون التالية ضمن الجيوش بصفة مستشارين فنيين، ولا سيما في مجال الجراحة والهندسة ــ وقدم عدد كبير من المهندسين خدماتهم لتحسين فن الحرب، وللمساهمة في العلوم النظرية بفضل مهاراتهم المشتركة في البناء العسكري وفي المدفعية وفي استخدام مختلف أنواع الآلات وكان الكونت (دوباجان ١٦٠٤ ــ ١٦٦٥م) من أبرز المهندسين الذين جاؤوا، بعد عدد كبير من العلماء والمهندسين ممن أسهموا في تطوير العلاقة بين العلم وبين فن الحرب.**

تشكلت (كلية العلوم الملكية) في فرنسا سنة ١٦٦٦م فسعت منذ تأسيسها إلى تقديم عدد من الأبحاث ذات القيمة المباشرة للجيش والبحرية. وانهمك أعضاء هذه الأكاديمية بأبحاث حركة المقذوفات، وظواهر التصادم والتراجع، وأبحاث في البارود المحسن وخصائص ملح البارود، والبحث عن وسيلة مرضية لتحديد خط الطول في البحر ومواضيع أخرى كثيرة. وكثيراً ما كان العلماء في فرنسا يستشارون في الأمور الفنية الخاصة بالقوات المسلحة. وقد نفذ علماء أكاديمية العلوم، تحت إشراف الوزير (كولبير[٦])، مسحاً ساحلياً وجيوديزياً، في إطار برنامج كولبير الكبير للتوسع البحري. كما وضعوا الأسس لفن رسم الخرائط العلمي الحديث، بحيث تم تزويد الجيش بالخرائط الطبوغرافية للبلد المكلف الدفاع عنه. وهنا تجدر الإشارة إلى أن دور العلماء — في الأبحاث العسكرية الفرنسية ــ كان يسير جنباً إلى جنب وفي وقت واحد، مع ما كانت تنجزه

---

(٤) ريشيليو: (RICHELIEU, ARMAND-JEAN DE PLESSIDE) كاردينال، ووزير الملك لويس الثالث عشر، من أعظم رجال الدولة الذين عرفتهم فرنسا، من مواليد باريس (١٥٨٥ ــ ١٦٤٢م) اشتهر بإصلاحاته الكثيرة.

(٥) تورين: (TURENNE ، HENRI DE LA TOLIR D'AUVERGNE) ماريشال فرنسا، من مواليد سيدان (١٦١١ ــ ١٦٧٥) حقق انتصارات كثيرة في حروبه، واعتبر من كبار قادة عصره.

(٦) كولبير: (COLBERT ، JEAN BABTISTE) رجل دولة فرنسي من مواليد ريمس ١٦١٩ ــ ١٦٨٣م. كان من أبرز وزراء الملك لويس الرابع عشر، وقد اشتهر بإصلاحاته التي شملت جميع مجالات العلوم والآداب والفنون، كما شملت فعاليات الدولة الاقتصادية والتجارية والصناعية.

(الجمعية الملكية البريطانية) التي تأسست في لندن سنة ١٦٦٢م. وليس هناك من ينكر دور هذه الإنجازات في دفع فن الحرب قدماً نحو التطور بتصميم وثبات. غير أن أكبر قدر من التطور قدمته فرنسا لفن الحرب هو ذاك الذي حمله المهندسون وفي طليعتهم المهندس العسكري الكبير (فوبان)(٧). وكان فوبان أحد أكبر المصلحين العسكريين وأكثرهم مثابرة في عصره. ومن إنجازاته أنه كافح طوال حياته لدمج مهندسيه في سلاح منظم ضمن القوات المسلحة الفرنسية. ولهذا السلاح ضباطه وقواته الخاصة وبزاته المميزة، وبرغم عدم نجاح فوبان في مسعاه نجاحاً كبيراً، إلا أن نصائحه واقتراحاته قد أثمرت في القرن التالي، كما أثمرت أيضاً جهوده في مسألة التعليم العلمي للقوات الفنية، وقد دعم بحماسة، أقدم مدارس المدفعية التي نظمت في نهاية فترة حكم لويس الرابع عشر. وعلى الرغم من أنه لم ينجح أبداً في إحداث مدارس مماثلة للمهندسين، فقد أسس نظاماً للامتحانات الدورية لاختبار استعداد المرشحين للحصول على (البراءة الفخرية الملكية). واتخذ ما هو ضروري من الإجراءات ليتأكد من أنهم قد أعدوا بشكل مناسب من قبل المدرسين الاختصاصيين. وكان تحسين المدفعية مسألة أثارت اهتمامه إلى حدٍ بعيد، نظراً لخبرته الواسعة في فن الحصار. وكانت له مجموعة كبيرة من الدراسات والابتكارات في هذا المجال، فقد أجرى تجاربه على المزالج، لاستخدامها في نقل المدفع الثقيل، كما انتقد المدفع البرونزي الذي كان مستخدماً في أيامه، وحاول إقناع الجيش بتقليد البحرية التي كانت تستخدم مدافع الحديد. وأجرى عدداً كبيراً من التجارب على مدفع هاون يقذف الحجارة. وكان أول من أيد استخدام الجنود من المشاة للبندقية (المسكيت) ذات الزند، وهو الذي اخترع لأول مرة الحربة التي تركب على البارودة. ولا تعيق الرمي، وطالب بإلغاء الرمح بعد أن جهزت البارودة بالحربة. وكانت له كثير من الآراء في مسائل بناء السفن وتحرك القوات وتنظيم خنادق الميدان.

هكذا يتضح أن الأبحاث العلمية والدراسات الفرنسية المتنوعة، ولا سيما التي أبرزها فوبان، قد انصبت على حل مشاكل التقانة المرتبطة بالأسلحة (المدفع والبارودة) من أجل استخدامها على أفضل وجه ممكن. مع الاهتمام بالتنظيم الهندسي للأرض، وبكلمة أكثر وضوحاً، فإن التطبيقات العملية للعلوم لم تتجاوز حدود التكتيك أو حدود متطلبات مسارح العمليات. ولم يكن لها علاقة مباشرة أو غير مباشرة بالمسائل الاستراتيجية أو بأهداف الحرب.

---

(٧) فوبان: (VAUBAIN) مهندس عسكري فرنسي (١٦٣٣ ـ ١٧٠٦م) خدم في عهد الملك لويس الرابع عشر، واشتهر بتحصيناته الهندسية على حدود فرنسا، وبمؤلفاته في (فن الحصار) و (أوقات الفراغ) و(علم التحصين)... إلخ.

٢ **المدرسة الدفاعية :** لم يشتهر فوبان بما اقترحه من إصلاحات، أو بما أمكن له إنجازه من تنظيمات، قدر شهرته بتشييده القلاع والحصون على الحدود الفرنسية. وبقيت مؤلفاته عن (فن الحصار) و (الدفاع عن القلاع) و (الوجيز في الألغام) من المراجع الهامة في المدارس العسكرية وقد أمكن له خلال حياته تشييد ٣٣ موقعاً محصناً، وأعاد تنظيم وإصلاح أكثر من ٣٠٠ موقع محصن. وقد تطلب منه هذا العمل بذل جهد مستمر ومتواصل طوال حياته. وكان يرى أن أهداف التحصين: «**يجب أن تغلق في وجه العدو جميع نقاط الدخول وأن تسهل في الوقت ذاته شن الهجوم على أرض العدو ويجب أن تحدد مواقع الأماكن المحصنة. تحديداً على طرق المواصلات ضمن الأراضي الصديقة، وتؤمن الوصول إلى أرض العدو بالسيطرة على الطرق والجسور الهامة، ويجب أن تكون واسعة إلى حدٍ يكفي ليس لتخزين الذخائر الضرورية للدفاع عنها فحسب، وإنما أيضاً لاستيعاب المواد التموينية والذخائر الضرورية لدعم هجوم يستند إليها ويعتمد عليها**»[٨]. وهذا ما يدل على أن فوبان لم يصمم تحصيناته على أساس دفاعي فقط، وإنما أراد لها أن تكون قواعد ومواقع دفاعية هجومية في آنٍ واحد.

لقد قدم فوبان وأمثاله اجتهاداتهم وخبراتهم في حدود اختصاصهم، وكان لتلك الخبرات والاجتهادات انعكاساتها على الفكر العسكري الفرنسي. لكنها لم تكن هي الموجهة لذلك الفكر. ومثال ذلك، أن الملك لويس الرابع عشر كان ينافس المهندسين بخبراتهم وكفاءاتهم، وكان له رأيه في كل الأعمال الهندسية التي شيدت في عصره، وكان يأخذ بوجهات نظر العلماء والخبراء بما يتوافق مع أهدافه السياسية والعسكرية. وبالتالي فإن طائفة الخبراء والعلماء الذين قدموا كل ما يستطيعون تقديمه لمصلحة الفكر العسكري ومن أجل تطويره، لا يحملون أية مسؤولية عن نتائج ما قدموه سواء في عصرهم، أو في الأزمنة التالية. فقد تعرضت تلك النتائج للجدل الطويل، حتى أن كثيراً من النقاد أساؤوا فهم ما تم إنجازه، وما تم تقديمه من نتاج فكري وعملي، فاتهموا أصحابه بصورة جائرة، وحملوهم مسؤولية النتائج التي استطال بعضها حتى الأزمنة الحديثة. ولقد اختفت القلاع والتحصينات البارزة بتأثير المدفعية ودورها المتعاظم في الحروب ــ وحلت محلها التحصينات المطمورة، التي تمثلت بالملاجىء العميقة في باطن الأرض، والخنادق المسقوفة، والأسياج الشائكة، وحقول الألغام... إلخ. على نحو ما ظهرت في الحرب العالمية الأولى. ولم تكن هذه المدرسة الدفاعية التي ارتسمت على حدود فرنسا، سوى تطوير للمدرسة الدفاعية التي التزمت بها فرنسا لحماية حدودها منذ القرن السادس عشر. كذلك لم يكن شعار «**خط ماجينو يحمينا**» والذي رفعته

(٨) صانعو الاستراتيجية الحديثة ــ ترجمة العميد الركن صبحي الجابي، مركز الدراسات والأبحاث العسكرية ــ دمشق ــ ١٩٨١ ص ٦٥ ــ ٦٧.

فرنسا طوال فترات السلم التي سبقت الحرب العالمية الثانية، إلا تأكيداً على قناعة القيادة الفرنسية والشعب الفرنسي بدور المدرسة الدفاعية في الحرب. وإلا تطويراً للأبحاث القديمة والتي حملت عنوان «**المحافظة على أمن الدولة بوساطة القلاع**».

لقد شيد (خط ماجينو) نسبة لوزير الدفاع الفرنسي (أندريه ماجينو [٩]) لحماية الحدود الشرقية مع ألمانيا. ولم يكن خطاً دفاعياً كما يوحي بذلك اسمه، وإنما كان نطاقاً دفاعياً عميقاً — أو منطقة دفاعية — وكان قائد الجيش الفرنسي الماريشال بيتان هو الذي أوصى بإنشاء هذا الخط الدفاعي الذي تحول بتأثير الماريشال جوفر إلى منطقة دفاعية تمتد على جبهة طولها ثلاث مائة كيلومتر تقريباً. تبدأ من الحدود السويسرية، وتتجه شمالاً عبر إقليمي الألزاس وماليدي وكان القطاع الرئيسي من خط ماجينو يشتمل على شبكة متطورة من محاور الاتصال — المرتبطة بالأنفاق والمخازن وغرف الآلات والمحركات ومستودعات الأسلحة ومراكز القيادات ومهاجع الجنود وصالات للاستراحة (الندوات) — أما التسلح فكان يشتمل على المدافع والرشاشات الثقيلة على مرابض وقواعد تتحرك دائرياً — مثل أبراج الدبابات — وهي مخفية وترتفع آلياً (أوتوماتيكياً) فكان خط ماجينو بحق مدينة عسكرية تحت الأرض. ولم يعرف العالم شبيهاً لها في قوتها وفي تنظيمها وفي تسلحها. غير أنه كان لها ضعفها، إذ إنها لم تمتد عبر بلجيكا أو الآردين فكان باستطاعة الألمان الإفادة من نقطة الضعف هذه، واختراقها للالتفاف حول التحصينات ومهاجمتها من الخلف. وهذا ما فعله الألمان. والمهم في الأمر هو أن هذه التحصينات الدفاعية على ما امتلكته من القدرة القتالية. وعلى ما فيها من التسلح، لم تسقط من حسابها إمكانات استخدامها قاعدة لانطلاق الهجوم المضاد. لكن سرعة تطور الأعمال القتالية، حرمت الفرنسيين — وبقية قوات الحلفاء — من إمكانات القتال: فسقطت التحصينات بسهولة في قبضة الألمان الذين أفادوا من موادها الأولية — ومن حديدها — لصناعة أسلحة جديدة.

هنا يمكن التعرض لما عرفته المذاهب العسكرية الأخرى عن الدفاع، إذ ما من مذهب قد أسقط من حسابه إمكانات الدفاع، غير أن هذا الدفاع وكما برهنت التجارب التاريخية منذ أقدم العصور، يبقى تابعاً للهجوم ومرتبطاً به بينما أكدت التجربة التاريخية الفرنسية، التي سبق عرض بعض ملامحها، إن الفرنسيين قد جعلوا من الدفاع أساساً لأعمالهم القتالية؛ أي أنهم

---

(٩) أندريه ماجينو (MAGINOT-ANDRE) رجل دولة فرنسي؛ من مواليد روفيني (١٨٧٧ — ١٩٣٢) شغل منصب وزير حرب فرنسا فترات متتالية ما بين ١٩٢٢ وسنة ١٩٣٢. ونسب إليه خط ماجينو (La LIGNE **DE FORTIFICATIONS**).

جعلوا الهجوم تابعاً للدفاع وليس قائداً له. فهل كان ذلك بسبب ضعف الروح الهجومية الفرنسية؟ أم كان بسبب ضعف المبادأة لدى القيادات الفرنسية المتتابعة؟

لقد برهنت تجارب الحروب النابوليونية أن الجندي الفرنسي لا يفتقر للروح الهجومية وأنه مقاتل ناجح عندما تتاح له الفرصة المناسبة للقتال الناجح والذي لا تبرز خصائصه إلا في الأعمال الهجومية. إذن فالقضية في أساسها هي قضية ضمان ظروف النجاح في الأعمال الهجومية، وهذه الظروف مرتبطة بعوامل سياسية وإقليمية، وقد تركزت معظم الأعمال القتالية الفرنسية على أرض القارة الأوروبية. فكان لا بد من أن يكون العامل السياسي (والعامل الجيواستراتيجي) هو العامل الحاسم في تقرير سياسة الحرب ـــ هجومية أو دفاعية ـــ ومعروف أنه لم يكن باستطاعة فرنسا شن حرب هجومية في الظروف السياسية والقارية، سواء في الحرب العالمية الأولى أو في الحرب العالمية الثانية لهذا كان لا بد من إعداد المخططات الدفاعية لصد الهجمات المتوقعة وإحباطها ثم الانتقال للهجوم الشامل. ولكن في الحالات كلها، لم يكن من الضروري الاعتماد في وضع هذه المخططات الدفاعية على مواقع دفاعية ثابتة (مثل خط ماجينو) ولعل ما تم إنفاقه من أموال ومن جهود لبناء هذا الخط وتسليحه كان كافياً لتنظيم وتسليح عدد من الفرق المتحركة القادرة على مجابهة الهجوم المعادي وإحباطه.

٣ الحروب الفرنسية: ماعرفت فرنسا الهدوء ولا الاستقرار ولا السلم عبر تاريخها الطويل، منذ أقدم العصور وحتى الأزمنة الحديثة، بل كانت كلما فرغت من حرب، وجدت نفسها أمام حرب جديدة، أكثر قسوة وأشد ضنكاً من سابقتها. وكان مسرح هذه الحروب على الأغلب، فوق أرض القارة الأوروبية، أو حتى على أرض فرنسا ذاتها. ولم يكن لفرنسا خيار في ذلك، لأن موقعها الجيواستراتيجي، في أقصى طرف القارة، هو الذي فرض عليها التوجه نحو جوارها من الأقوام والشعوب لإقامة علاقات معهم اتسمت بالتناوب ما بين السلم والحرب. لهذا لم يكن من الغريب أن ينطلق من قلب أوروبا صوت الكاتب العسكري الألماني (كلاوزفيتز) ليصف الحرب بأنها ليست إلا استمراراً للسياسة، لكن بوسائل أكثر عنفاً، كذلك ليس من الغريب أيضاً أن تعرف أوروبا كلها: «بأن السلم ما هو إلا هدنة بين حربين».

وكانت فرنسا باستمرار هي الطرف الرئيسي في كل حروب القارة. فمنذ القديم ـــ وقبل قرن من الميلاد ـــ اجتاح الغول فرنسا، وحكموا الأقوام التي كانت قد استقرت في فرنسا (السلت والايبيريين) ثم جاء يوليوس قيصر فاجتاح الغول. وأخضعهم لحكم روما (٥٩ ـــ ٥١ق.م). واعتنق الغول ومن سبقهم ممن استوطنوا فرنسا الديانة المسيحية في نهاية القرن الأول الميلادي. وصار باستطاعتهم محاربة شعوب البرابرة التي غزت فرنسا ـــ مثل الجرمان والغيزيـقوط، أو القوط

الغربيين، والفاندال والهون، حرباً دينية، ثم جاء الفرانك فأعطوا البلاد اسمهم، ووسموها بميسمهم، وكان (كلوفيس الأول ٤٦٦ ــ ٥١١م) هو أول ملك ميروفنجي جعل من فرنسا دولة موحدة، وجعل من باريس عاصمة لها. ثم كان شارل مارتل الذي انتصر في بواتييه سنة ٧٣٢م هو أبرز هذه السلالة التي أعقبتها في سنة ٧٥١ ــ أسرة الكارولنجيين ثم الكابيسيين (سنة ٩٨٧م) وكان لويس التاسع (أو القديس لويس ١٢١٤ ــ ١٢٧٠م) هو أبرز أفراد هذه الأسرة الحاكمة والذي كان قرنه (القرن الثالث عشر) هو أول قرن عرفت فيه فرنسا عظمتها ــ وكان الصراع بين هذه السلالات، وبين الدول المجاورة مستمراً، حتى جاءت حرب المائة عام (١٣٣٧ ــ ١٤٥٣م) وهي حرب منافسة ووراثة بين فرنسا وإنكلترا. وقد بدأت هذه الحرب بين ملك فرنسا فيليب دوفالوا (أو فيليب الرابع) وبين ملك إنكلترا إدوارد الثالث، ومات الملكان، وأورثا خلفاءهما الحرب التي استمرت إلى الأحفاد إلى أن تمكنت فرنسا من طرد الإنكليز. فماذا يعني ذلك؟ وماذا يعني غزو إنكلترا لفرنسا؟ أليس نزاعاً وراثياً، ونزاعاً على النفوذ والسيطرة؟ ثم أليس ذلك برهاناً على أن فرنسا كانت مرغمة على خوض حروبها القارية للدفاع عن وجودها؟ ألم تبرز أسطورة (جان دارك) في هذه الحرب برهاناً على تكتل الشعب الفرنسي وانصهار الأقوام المشكلة له في بوتقة الأرض الفرنسية وفي ظل نظامها الملكي؟ المهم في الأمر هو أن هذه الحرب قد دمرت فرنسا بقسوة. ولعل ذلك هو العامل الذي أطمع ملك إسبانيا وإمبراطور الغرب (**شارلكان ــ أو شارل الخامس) في بسط سيادته على فرنسا**[١٠]. **فخاض ملك فرنسا (فرانسوا الأول) مجموعة من المعارك الطاحنة التي وقفت فيها الدولة العثمانية إلى جانبه. كما وقفت إلى جانبه إنكلترا حيث ظهر لها أن مصلحتها تقضي بدعم (آل فالوا ــ ثم البوربونيين)** ضد (آل هبسبورغ)، لأن هذا يتيح لها الفرصة لإقامة توازن في أوروبا، وفرصة انتزاع ما فتحته اسبانيا فيما وراء البحار. ولقد انتهت هذه الحرب بمعاهدة (أوغسبرغ) التي اعترف فيها ملك اسبانيا لأتباع لوثر ــ في ألمانيا ــ بوثيقتهم التي تضمنت ٢٨ مادة ــ تضمن الحريات للبروتستانتيين. وهكذا تشابكت حرب الوراثة هذه بالحرب الدينية. وكان كل ما كسبته فرنسا محافظتها على سيادتها، ولم تخضع لمنافسيها في القارة،

---

(١٠) شارل (١٥٠٠ ــ ١٥٥١) وهو ابن فيليب الجميل وحنة المجنونة، أصبح ملكاً لاسبانيا سنة ١٥١٦ وأمبراطوراً على ألمانيا ١٥١٩، وشملت أمبراطوريته الفلاندر والنمسا وألمانيا. حارب ملك فرنسا وانتصر عليه سنة ١٥٢٢ وسنة ١٥٢٥ وحمله أسيراً إلى مدريد حيث أرغمه على توقيع معاهدة مدريد ١٥٢٦، وألزمه بالخضوع له. ولما عاد فرانسوا الأول إلى عاصمته باريس استنجد بالسلطان سليمان القانوني فأنجده بأسطوله، وشن الحرب على النمسا مما مكن ملك فرنسا من الاستيلاء على روما. واستمر الصراع حتى مات ملكا فرنسا واسبانيا. وحاول شارلكان غزو تونس والجزائر ففشلت حملته؛ مما حمله على الاعتزال ولم يلبث أن مات.

جاءت بعد ذلك **حرب الثلاثين عاماً (١٦١٨ ــ ١٦٤٨م)** فكانت الحرب الدينية الثانية بين الكاثوليك والبروتستانت في ألمانيا، وتدخلت فيها فرنسا ضد آل هبسبورغ لتوسيع حدودها على حساب اسبانيا، فأعلنت الحرب على اسبانيا سنة ١٦٣٥ واحتلت الألزاس وروسيون وانتهت الحرب بمعاهدة وستفاليا (١٦٤٨) وحصلت السويد التي شاركت في الحرب إلى جانب فرنسا على ملكية بعض الأراضي في شمال ألمانيا ــ وتمكنت فرنسا من إحباط جهود آل هبسبورغ لتوحيد الألمان ــ كما كسبت فاندوم وميتز وتول. وكانت ألمانيا هي الخاسر الوحيد في هذه الحرب، إذ إنها خرجت مدمرة ومستنزفة. ولم تكن هذه الخسائر معادلة لما حققته من مغانم وحريات دينية.

فكان لا بد من تجدد الحرب التي حملت اسم **حرب الوراثة الاسبانية** (١٧٠٠ ــ ١٧١٣م) والتي وقفت فيها فرنسا واسبانيا وبافاريا وكولونيا ونابولي وسردينيا ضد إنكلترا والدانمارك والبرتغال. وخسر الفرنسيون في معارك هذه الحرب نحو ٦٠ ألف قتيل. وانتهت بمعاهدة (أوتريخت) التي أعادت الحدود بين فرنسا وجوارها إلى مثل ما كانت عليه قبل الحرب، باستثناء ضم إقليم لاندو لفرنسا، بينما حققت بريطانيا أكبر المكاسب باستيلائها على عدد من الجزر والمواقع ذات الأهمية الاستراتيجية في الولايات المتحدة الأمريكية وكندا والبحر الأبيض المتوسط.

كانت حرب الوراثة النمساوية (١٧٤٠ ــ ١٧٤٨م) ذات نتائج محزنة لفرنسا. التي خاضت الحرب ضد النمسا ــ وعلى أرض ألمانيا وإيطاليا، وحققت انتصارات عسكرية في معارك فونتينوي (١٧٤٥) ودوكوكس (١٧٤٦) ولوفيلد (١٧٤٧). غير أن هذه الانتصارات العسكرية لم تحقق أي مكسب أو مغنم لمصلحة فرنسا. ولعل عدم تحقيق أي مكسب كان، على كل حال، أفضل مما تعرضت له فرنسا في **حرب السبع السنوات** (١٧٥٦ ــ ١٧٦٣م) وهي الحرب التي اشتركت فيها روسيا وفرنسا والنمسا ضد بروسيا وإنكلترا، وانتهت بمعاهدة هوبرتسبورغ التي جردت فرنسا من ممتلكاتها فيما وراء البحار (غواديلوب، والدومينيك والمارتينيك، وسانتا لوتشيا، ويل ايسل وهافانا). كما عملت القوات البريطانية على طرد القوات الفرنسية من الهند والبنغال (شاندرناجور وبونديشيري) غير أن معاهدة فونتينبلو التي عقدت بين فرنسا وإنكلترا في السنة ذاتها ١٧٦٣، أعادت لفرنسا أقاليم الهند، لكن بريطانيا احتفظت بكندا والدومينيك وسانت فنسان وتوباجو.

تفجرت الثورة الفرنسية، وانتهت حروب الملوك، وبدأت حروب الشعوب التي اتسمت بإيقاع جنوني، وأحدثت الثورة تغييراً كبيراً في تنظيم الجيوش وتسليحها إذ إنها ألقت في كفة الحرب بثقل الشعب الفرنسي ــ عبر قانون التجنيد الذي صدر يوم ٢٣ ــ آب ١٧٩٣، مع كل ما يمتلكه هذا الشعب من موارد اقتصادية، ولم يعد هدف الحرب الاستيلاء

على حصن أو قلعة، ولاتعديل للحدود، وإنما قلب موازين القوى في أوروبا وإقامة ممالك وإزالة ممالك أخرى، وتحقيق ذلك تحت لواء نشر مبادئ الثورة. وخاض الجندي الفرنسي حروباً متصلة بدأت من إيطاليا ومصر وانتهت باجتياح روسيا. لكن هذه الحروب الظافرة التي قادها (نابليون بونابرت) انتهت بتقدم جيوش الحلفاء حتى طرقت أبواب باريس. وكانت خسائر فرنسا الكبيرة وجهودها ذات نتائج مخربة لفرنسا. غير أن هذه الحروب أكدت أهمية العامل القديم الذي التزم به ملوك فرنسا منذ أقدم العصور، وهو الاتصال القاري الذي يجعل فرنسا ملزمة بالدفاع عن حدودها ضد جوارها وضد الطامعين فيها. فهل كان باستطاعة فرنسا اعتماد سياسة استراتيجية تضمن لها السلم على حدودها؟ وهل كان فشل فرنسا في تأمين هذا السلم هو الذي جعلها تخوض حروبها دائماً من أجل تحقيق أهداف محدودة ــ أو معدومة القيمة أو ذات نتائج خاسرة أحياناً؟ وكيف كان جنود فرنسا يحققون، في كثير من الأحيان انتصارات مثيرة في ميادين الحروب ثم تأتي نتائج الحرب ــ عبر معاهدات السلم ــ لتسلب فرنسا ثمار انتصاراتها العسكرية؟ **تلك هي مشكلة التناقض الحاد بين الأعمال القتالية الفرنسية وبين انعكاساتها أو نتائجها في الأفق الاستراتيجي.**

قد تكون الحرب البروسية ــ الفرنسية (١٨٧٠) هي الحرب التي تقدم النموذج الأفضل لمسألة (ضعف السياسة الاستراتيجية الفرنسية) فقد خرجت بروسيا من حرب السبع سنوات، وهي موحدة، وأتيحت لها فرصة بناء قدراتها الذاتية، إنها انطلقت بقيادة غليوم ورئيس وزرائه بسمارك ورئيس هيئة أركانه (مولتكه) لإكمال وحدة ألمانيا، وكان من المفروض أن تكون قيادة فرنسا (نابليون الثالث) قد أفادت من تجاربها السابقة لا سيما تجربة حرب السبع السنوات ــ فتقيم علاقات سلمية مستقرة مع بروسيا. وتتجنب كل معارضة تتناقض وطموح بروسيا لبناء وحدتها. غير أن استطالات حروب الثورة الفرنسية، والتمسك بثوابت الصراع المسلح على أرض القارة الأوروبية، والمنافسة الاقتصادية، وتعاظم المعارضة على الجبهة الداخلية وعوامل أخرى، دفعت فرنسا إلى طريق الحرب برغم التحذيرات الكثيرة التي وجهها رجال فرنسيون لقيادتهم (من أمثال الملحق العسكري الفرنسي في برلين العقيد ستوفل) الذي أرسل تقارير واضحة عن قدرة الجيش البروسي، كما أبرز نقاط الضعف المقابلة في التنظيم الفرنسي. غير أن القيادة الفرنسية تجاهلت ذلك كله ــ بقدر تجاهلها لما وقع تحت بصرها من هزيمة النمسا على أيدي القوات البروسية (في الحروب السيليزية و ــ معركة سادوفا ١٨٦٦ [١١]). فكانت النتيجة المعروفة: هزيمة فرنسا، وإعلان ولادة الاتحاد الألماني، وتنصيب غليوم إمبراطوراً في قاعة المرايا (في باريس). ولقد كان باستطاعة فرنسا

---

(١١) فون مولتكه ــ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٨١ ص ٨٧ ــ ٩٠.

تجاوز محنتها، والاعتراف بالواقع الجديد، وإعادة النظر في علاقاتها مع جوارها. غير أنها لم تتمكن من تحرير نفسها من رواسب الماضي ـــ البعيد والقريب ـــ فانطلقت إلى دنيا التحالفات، وهدفها استعادة (الألزاس واللورين) وهما الإقليمان اللذان ضمتهما بروسيا إليها في حرب سنة ١٨٧٠. وهكذا بذرت فرنسا بذور الحرب العالمية الأولى في رماد الحرب البروسية ـــ الفرنسية، وتعاظمت مشاعر الحقد والثأر على كل العوامل التي تتحكم ببناء السياسة الاستراتيجية. فهل يكون هذا الانحراف نتيجة رواسب دينية أم عقائدية فكرية، أم منافسة اقتصادية أم مزيجاً من ذلك كله؟ أم هل كان افتقاراً للمطابقة بين السياسة الاستراتيجية وبين إدارة الحرب وما هو متوافر من القدرة القتالية للأطراف المتحاربة؟.

لقد أعادت فرنسا في الحرب العالمية الأولى تطبيق أسس السياسة الاستراتيجية التي قادتها للحرب. فلم تحاول أبداً الإفادة من نتائج الحرب لإقامة علاقات جديدة بألمانيا تنتزع بها بذور الحرب بل تحكم بقادتها قانون الحقد البدائي. ففرضت على ألمانيا غرامات ثقيلة. وتجاهلت كل التحذيرات حتى تلك التي وصلتها من أصدقائها وحلفائها في الحرب فكان لهيب الحرب العالمية الثانية كامناً تحت رماد الحرب العالمية الأولى.

٤ **التكتيك والاستراتيجية**: أعدت فرنسا كل ما بوسعها لخوض الحرب العالمية الثانية، فشيدت خط ماجينو، وسلحته بأحدث الأسلحة. وكان لدى فرنسا عشية الحرب ٩٠ فرقة مقاتلة و ١٠ آلاف قطعة مدفعية. وإلى جانب ذلك، كانت هناك قوات الحلفاء ـــ إنكلترا وبلجيكا وهولندا. ولعل هذه الاستعدادات الضخمة، والقدرة القتالية الهائلة، هي التي حملت فرنسا على الاعتقاد بقدرتها على سحق العدوان الألماني عند وقوعه. لكن الغريب في الأمر أن فرنسا قد عرفت ما أحرزه الألمان من التفوق عبر اجتياحهم لبولونيا (سنة ١٩٣٩) وفي اجتياح الألمان للنروج، فلماذا كان موقف القوات الفرنسية سلبياً عندما انطلقت فرق البانزر الألمانية لاجتياح الغرب؟ **لقد انطلقت هذه الفرق في صباح يوم ١٠ أيار (مايو) ١٩٤٠ باختراق حدود بلجيكا. وفي يوم ١٧ حزيران (يونيو) انتهت حرب فرنسا: ووقع الماريشال بيتان على وثيقة الاستسلام في ٢٥ حزيران (يونيو) وهكذا لم تستمر الحرب لأكثر من شهر ونصف الشهر.** وكانت حرباً كما وصفت (عجيبة). إذ كانت فرنسا تمتلك من القوى والوسائط أكثر مما كان في حوزة ألمانيا. ولم تكن الدبابات الفرنسية أقل كفاءة، ولا أقل تقانة وتسلحاً من البانزر. فكيف انهارت المقاومة الفرنسية؟

إن الإجابة عن هذا السؤال تبرز جانباً هاماً لازم المذهب العسكري الفرنسي على امتداد تاريخ الحروب الفرنسية. **فالقادة ملوكاً، ورؤساء وقادة يعدون للحرب بصورة دقيقة، ويعنون**

أشد العناية بدقائق الأمور. ويضعون الفرضيات المختلفة، متجاهلين على الأغلب عامل (حوار الإرادات المتصارعة). ويظنون أن باستطاعتهم التحكم بإرادة الخصم وبمخططاته. وهكذا، واعتماداً على هذه الافتراضات، تم نشر فرق الجيش الفرنسي التسعين. وحددوا لها واجباتها، ووزعوا قواتهم المدرعة. غير أن القيادة الألمانية زجت بقواتها الكاملة من بلجيكا، ولم تترك في مواجهة (حصن ماجينو العتيد) إلا قوة خداعية. بينما كانت الكتلة الرئيسة تندفع بسرعة مذهلة نحو المانش. **ولقد جرت مناقشات كثيرة في وسط القيادة الفرنسية خلال هذه الفترة. وأمكن وضع حلول مناسبة، واتخاذ قرارات صحيحة غير أن القدرة على التنفيذ كانت شبه معدومة، وهنا يبرز التناقض الفاضح أيضاً بين اتخاذ القرار وبين معرفة القدرة على تنفيذه.** ويؤدي ذلك بالتالي إلى نتيجة أكثر تحديداً، وهي أن ما لحق بفرنسا من هزائم على مستوى السياسة الاستراتيجية إنما كان ناتجاً عن ضعف القيادة السياسية بالدرجة الأولى، وانقيادها لعوامل يصعب عليها التحرر منها أو مجابهتها وإحباطها لارتباطها بالعاملين الجغرافي والديموغرافي. وهذا ما أكدته تجارب الحروب الثورية التي تفجرت في وجه فرنسا بعد الحرب العالمية الثانية.

لقد كان باستطاعة فرنسا وقد هُزِمت في الحرب العالمية الثانية أن تستخلص النتيجة الحتمية لانعكاس هذه الهزيمة على صفحة الشعوب التي كانت خاضعة لاستعمار فرنسا. فتعمل على إعادة بناء علاقات جديدة بتلك الشعوب (وذلك على نحو ما فعلته بريطانيا). غير أنه كان من الصعب على القيادة الفرنسية مجابهة قسم من الرأي العام الفرنسي الذي كان يعيش أحلام (إمبراطورية فرنسا العظمى فيما وراء البحار) إلى جانب قسم آخر من الرأي العام المتأثر باستثمارات المستوطنين في المستعمرات. وكان هذا الخوف في وسط القيادات الفرنسية من مجابهة الرأي العام بحزم وصدق، هو العامل الذي أدى إلى تفجر الوضع في سورية ولبنان قبل أي بلد آخر، ثم تفجر الوضع في الهند الصينية (فييتنام) ثم في الجزائر. وأدى ذلك إلى زيادة عمق الجراح في جسد الشعوب التي حاربت الاستعمار الفرنسي وطردت جحافله من بلادها.

يمكن العودة للتساؤل: هل المذهب العسكري الفرنسي ـــ في ماضيه وحاضره ـــ والذي يوجه الفاعليات القتالية في الحروب كافة ـــ هو مذهب ديني، أو فكري، أو جغرافي، أو اقتصادي؟

يظهر العرض السابق أن فرنسا تتمسك بكل الأوراق التي يمكن الإفادة منها لتوجيه الحرب وإدارتها. والأمر المهم بالنسبة لحكامها ـــ أصحاب القرار ـــ هو المحافظة على مكانة فرنسا في القارة وفي العالم. وحماية مصالح المواطن الفرنسي والكيان الفرنسي، ولقد تبدلت الوسائل المؤدية لهذا الغرض وتطورت، وأمكن لفرنسا أن تطور نفسها بحكم وضعها القاري والدولي ـــ أيضاً ـــ... وهذا ما تبرزه مبادءاتها السياسية على المستويات الاقتصادية والعسكرية في العقود

الماضية. فوحدة دول الشعوب الناطقة بالفرنسية (فرانكوفون) والجهود المبذولة لتطوير العلاقات بالفرنسيين (في كندا) ليست إلا تعبيراً عن ارتباط سياسة فرنسا الاستراتيجية في الأزمنة الحديثة، بالعوامل التي شكلت المذهب العسكري الفرنسي منذ أقدم العصور.

لقد عكف الباحثون والقادة من الفرنسيين على دراسة السبب في هزائم القوات الفرنسية. فمنهم من أعاد السبب «**إلى تقصير القيادة الفرنسية وقصورها في مجال الإعداد والتحضير للحرب**» ومنهم من رأى: «**أن التكتيك الهجومي للخصم هو التكتيك الذي سمح لهم بالنصر**». ومنهم قائل: «**إن العامل المعنوي هو العامل الحاسم في الحرب. وإن هذا العامل يرتبط بالروح الهجومية**». وقد تبنى «الماريشال فوش» هذه الآراء جميعها: وأيدها في كتابه (دراسات عن القتال) وفي كتابه (مبادئ الحرب) فذهب مذهب نابليون في حروبه، وتبنى نظرية كلاوزفيتز في موضوع الحرب المطلقة، وعبر عن ذلك بقوله: «**إن الهجوم حتى النهاية هو الوسيلة الوحيدة التي تقود إلى النصر**». وأبرز (فوش[12]) دور القيادة الفرنسية فيما تعرض له الجيش الفرنسي من هزيمة في حرب سنة ١٨٧٠. فقال: «لم يهزم الجيش الفرنسي من خلال استراتيجية لا عيب فيها، بل لأن القيادة الفرنسية العليا لم تكن قادرة بسبب عدم أهليتها على الإفادة من أخطاء خصومها، التي كان أهمها التصلب في خطة العمليات، وغياب التوجيه المستمر من قبل القيادة العليا». فهو بذلك يمتدح الاستراتيجية الفرنسية، وينتقد الاستراتيجية البروسية عندما يصفها ــ بالتصلب وغياب التوجيه المستمر ــ لكنه يحدد الخطأ بصورة أساسية بافتقار القيادة الفرنسية للإبداع والمبادأة وعدم الأهلية. **ويظهر أن مفهوم (فوش) لإدارة الحرب «ما هو إلا موازنة دقيقة بين العقلانية والتجريبية أو التطبيقية. فالعادة المكتسبة لتطبيق المبادئ العامة والمقدرة الطبيعية على إعداد حلول تتناسب مع ظروف القتال هما سر الاستراتيجية الناجحة». وأبدع فوش في استخلاص مبادئ الحرب وتحديدها: «مبدأ الاقتصاد بالقوى، مبدأ حرية العمل، مبدأ حرية توزيع القوات، مبدأ الأمن، المباغتة»**. وركز باستمرار على (الهجوم) وضرورة تلبية متطلباته، وتحديد طرائقه وأساليبه.

فلماذا عاد الفرنسيون لبناء خط ماجينو والاعتماد على الدفاع، وبرغم اعتناقهم لأفكار فوش وتبنيهم لتوجيهاته وتعاليمه في مدارسهم الحربية ومعاهدهم؟ ولماذا كرروا في الحرب العالمية الثانية مجموع ما ارتكبوه من أخطاء في حروبهم السابقة؟

ما من ريب أن المذهب العسكري الفرنسي، هو مذهب مميز من حيث دقته النظرية، ومن

---

(١٢) المارشال فوش· (MARCHAL FOCH- FERDINAND) ١٨٥١ ــ ١٩٢٩ وانظـــر الماريشال فوش ــ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ــ بيروت ١٩٨٣.

حيث اعتماده على معطيات العلم والتقانة ــ وهذه معطيات باتت في الأزمنة الحديثة شائعة ومعروفة ــ. كما يتميز فن الحرب الفرنسي بدقته وبتنظيمه، **لكن ذلك كله لا يغطي الضعف في مجال السياسة ــ الاستراتيجية وفي مجال إدارة الحرب**. والمسألة بالنسبة لمدرسة الحرب الفرنسية هي مسألة تحقيق النصر في المعركة الأولى، وفي سير الأعمال القتالية بما يتوافق مع الاحتمالات والفرضيات المدروسة سابقاً. فإذا خرجت الحرب عن إطارها المرسوم، وخسرت القوات الفرنسية معركتها الأولى، ثم سارت الأعمال القتالية على اتجاهات فرضها العدو، ظهر ضعف القادة الفرنسيين في إدارة الحرب، وسيطر عليهم الشلل أو القصور الفكري لفترة محدودة يكون العدو خلالها قد فرض مبادءات جديدة، تضع القيادة الفرنسية في حالة عجز عن القيام بردود الفعل الصحيحة التي يتطلبها الموقف. وهذا ما أكدته التجربة التاريخية للمذهب العسكري الفرنسي.

٥ ــ المذهب العسكري البريطاني

١ حرب الوراثة الاسبانية: ينفرد كل شعب من شعوب الدنيا بخصاله الحربية، وبخصائصه القتالية التي هي محصلة لتكونه الجغرافي والسكاني ــ الديموغرافي ــ والاقتصادي والفكري أو العقائدي.... إلخ. وهكذا فالشجاعة التي هي إحدى الفضائل الحربية، متوافرة بنسب معينة لدى أفراد الشعوب جميعاً، وما من شعب على وجه الأرض قد حرم منها. كذلك الأمر في القدرة القتالية الكامنة في الشعوب، إذ يمتلك كل شعب قدرة قتالية قد تكون متقاربة لدى كل الشعوب ــ بما يتناسب وحجم تلك الشعوب، غير أن هذه القدرة الكامنة لا تظهر إلا عندما تتاح لها الفرصة للتفجر. وهكذا، فالثورة الفرنسية، على سبيل المثال فجرت القدرة القتالية الكامنة في الشعب الفرنسي، كذلك فجر الحزب النازي ــ الألماني ــ القدرة القتالية الكامنة في الشعب الألماني. وتظهر هنا المفارقة المثيرة، إذ عادةً ما يسبب تفجر القدرة القتالية في شعب من الشعوب حدوث تفجرات مماثلة في شعوب أخرى، وهكذا تسببت الحروب النابوليونية في تفجير القدرات القتالية الكامنة في عدد من شعوب أوروبا. وهذا ما فعلته النزعة العسكرية الألمانية التي فجرت القدرة القتالية في معظم شعوب الأرض. وإذاً فعند التحدث عن فن الحرب أو المذهب العسكري عند أمة من الأمم، فهذا لا يعني توافر فضائل في هذه الأمة قد حرمت منها أمم أخرى، بقدر ما يعني استخدام سياسات استراتيجية مميزة قد تؤدي إلى النجاح أو الفشل في ظروف معينة.

عرفت أوروبا صراعات وحروب كثيرة بين القطبين الأوروبيين: إنكلترا وفرنسا، لم تكن أقلها شهرة حرب ريتشارد قلب الأسد[١] ضد ملك فرنسا فيليب أوغست سنة ١١٩٤م وسنة

---

(١) ريتشارد قلب الأسد: (RICHARD 1 - COEUR DE - LION) ١١٥٧ ــ ١١٩٩ م اشترك في الحملة الصليبية الثالثة ــ وعاد إلى إنكلترا؛ فحارب فيليب أوغست سنة ١١٩٤ ومات تحت قصر شالو (CHALNS).

١١٩٩. ثم اجتياح بريطانيا لشمال فرنسا في عهد ملك فرنسا شارل السابع (١٤٠٣ — ١٤٦١م) وهي الحرب التي أظهرت بطولة (جان دارك) الشهيرة. غير أنه بالمستطاع تجاوز تلك الحروب جميعها، والتي كان هدفها (السيادة والسيطرة) على أوروبا. للتوقف عند (حرب الوراثة الاسبانية)(٢) التي أبرزت بوضوح المعالم الواضحة لمدرسة الحرب البريطانية. وكان هدف بريطانيا من هذه الحرب هو تشكيل سد في وجه الهيمنة الفرنسية في أوروبا عندما كانت الملكية الفرنسية مسيطرة على اسبانيا والبلاد المنخفضة، وإيطاليا. وكان السبيل لإقامة مثل هذا السد تحقيق التوازن بين حكام فرنسا (آل بوربون) وحكام الإمبراطورية الرومانية المقدسة (آل هبسبورغ). بالإضافة إلى إرغام ملوك فرنسا (لويس الرابع عشر في حينه) على الاعتراف لبريطانيا بحق البروتستانتيين بوراثة العرش في إنكلترا. وكانت فرنسا قد أصدرت قوانين للحد من التجارة البريطانية في أسواق أوروبا وفي أمريكا التي كانت خاضعة للاستعمار الاسباني. وظهرت مشكلة الوراثة الاسبانية بوفاة ملكها (شارل الثاني سنة ١٧٠٠ م) فتفجرت الحرب وألقت بريطانيا بثقلها لمصلحة (آل هبسبورغ). وكان من المفروض — نظرياً — أن تكون اسبانيا هي المسرح الأساسي للأعمال القتالية: غير أن بريطانيا حولت الصراع إلى أوروبا لفصل البلاد المنخفضة والبلاد الألمانية عن فرنسا، كما بذلت جهدها لفصل المستعمرات الأمريكية عن فرنسا واسبانيا، وأصبحت اسبانيا المسرح الثانوي للأعمال القتالية.

كانت فرنسا هي المسيطرة على اسبانيا وبافاريا وكولونيا ونابولي وسردينيا. فعملت بريطانيا خلال مرحلة الإعداد للحرب على تشكيل حلف مضاد لفرنسا ضم، إضافة إلى إنكلترا، هولندا والدانمارك والبرتغال وعدداً من الإمارات الألمانية وسافوا. واتفقت بريطانيا مع حلفائها على تقديم عدد معين من الجنود لخوض الحرب المشتركة. وحددت نسبة اشتراك إنكلترا بخمسي القوات البرية، وخمسة أثمان القوة البحرية.

كان هدف إنكلترا تحقيق مكتسبات تعادل (ثمن الحرب)، لثقتها بتفوقها على فرنسا في القدرة البحرية **فوضعت الحرب بينها وبين فرنسا في إطار شامل، ولم تقصرها على الأعمال القتالية البرية على الساحة الأوروبية، بل حددت لأسطولها الأهداف التالية:**

---

(٢) حرب الوراثة الإسبانية (GUERRE DE LA SUCCESSIO ESPAGNE) هي الحرب التي خاضتها بريطانيا ضد فرنسا واستمرت من سنة ١٧٠٠ حتى سنة ١٧١٣، وظهر فيها عدد كبير من القادة الذين احتلوا مرتبة مميزة في فن الحرب، من أمثال مارلبورو والأمير النمساوي (أوجين) ومن الجانب الفرنسي لويس فرانسوا دوبوفلر، فرديناند مارسان ومارشال تالارد ولويس جوزيف دوق دوفاندوم والدوق دوفيلار وسواهم.

١ ــ القضاء على القدرة البحرية الفرنسية في البحر الأبيض المتوسط.

٢ ــ ممارسة الضغط على اسبانيا.

٣ ــ حماية تجارة إنكلترا والدول المتحالفة معها.

فنجحت البحرية الإنكليزية في تحقيق هذه الأهداف التي عرفت بعدئذٍ باسم (استراتيجية المياه الزرقاء). ومما حققته من مغانم (سنة ١٧٠٢)، الاستيلاء على أسطول اسباني محمل بثرواتٍ ضخمة (في خليج فيغو ــ أو فيجو الاسباني)، ثم على عددٍ من المستعمرات المنتشرة في أهم المواقع الاستراتيجية مثل (جبل طارق، وجزيرة مينورقة في مجموعة جزر البالئيار، وجزيرة سانت كيت ونيوفوند لاند، وأركاديا وخليج هدسون).

خاضت بريطانيا وحلفاؤها (حرب الوراثة الاسبانية) لكن القوات التي حملت اسم قوات إنكليزية، لم تكن حصراً إنكليزية، إنما كانت قوات من المرتزقة المأجورين من الشعوب الأوروبية **ولكنهم اعتبروا قوات إنكليزية لأن إنكلترا كانت تدفع لهم رواتبهم**. وهذا ما تحقق سنة ١٧١١م. وعندما وصلت حرب الوراثة إلى نهايتها. كان الجيش الإنكليزي يضم (١٨٦) ألف مقاتل، منهم ٦٧ ألف مواطن إنكليزي فقط. وظهرت نتائج هذه النسب في القوى بصورة أكثر وضوحاً في خسائر الأعمال القتالية، ففي معركة (بلينهايم) التي كانت من أبرز معارك حرب الوراثة الاسبانية وأشهرها وبلغ عدد القوى الفرنسية نحو ١٦٠ ألف مقاتل، غير أن قيادة الحلفاء لم تسمح لهذه القوى بالعمل بصورة واحدة. **لهذا لم تتجاوز القوات الفرنسية حدود (٦٠) ألف مقاتل مقابل ٢٥ ألف مقاتل من جانب الحلفاء. وكانت خسائر الحلفاء ٤٥٠٠ قتيل منهم (٦٧٠) إنكليزياً، وبلغ عدد جرحى الحلفاء (٧٥٠٠) جريح منهم ١٥٠٠ إنكليزي**. بينما بلغت خسائر الفرنسيين ١٥ ألف قتيل، وزاد عدد جرحاهم على ضعف هذا العدد، إضافةً إلى أسر ٢٤ ألف جندي. وهكذا يمكن القول أن الجيش الفرنسي الذي اشترك في معركة (بلينهايم) قد وضع بكامله خارج القتال. وكان لهذه المعركة التي وقعت سنة ١٧٠٤ تأثيرها الكبير في الأعمال القتالية البرية التالية جميعها. وقد عرفت قيادة الحلفاء كيف تستثمر هذا النصر استثماراً كبيراً، من الناحيتين المادية والمعنوية، لإرغام الفرنسيين على الالتزام بسياسة استراتيجية دفاعية.

جاءت معركة (**راميلييه**) بعد ذلك فسارت على هذا الاتجاه ذاته، حيث كاد يتعادل حجم القوى (٦٢ ألف فرنسي مقابل ٦٠ ألفاً من الإنكليز وحلفائهم). وانتصر الحلفاء أيضاً، فكانت خسائر الفرنسيين ١٢ ألف قتيل وجريح و٦ آلاف أسير، وخسر الحلفاء بالمقابل خمسة آلاف قتيل وجريح ــ **وكانت خسائر القوات الإنكليزية قليلة ومحدودة** بحيث يمكن إسقاطها تماماً ــ وعاد الإنكليز لاستثمار نتائج **معركة راميلييه** التي وقعت سنة ١٤٠٦، لدعم استعدادهم وتعزيزه لمتابعة الحرب بتصميم أكبر وعناد أكثر. فأصبح لدى الحلفاء (في سنة ١٤٠٧) نحو

١٥٥ ألف مقاتل، لكن الفرنسيين زادوا حجم قواتهم أيضاً، فبلغت ١٧٠ ألف مقاتل. وبهذه الجيوش تم خوض المعركة (أودينارد) التي انتهت بانتصار الحلفاء **الذين خسروا ٣ آلاف رجل بين قتيل وجريح ـ ولم يتجاوز عدد الإنكليز بينهم ٢٠٠** رجل **أي ستة بالمائة**. بينما خسر الفرنسيون ٦ آلاف رجل بين قتيل وجريح إضافة إلى ٩ آلاف أسير.

استطاع الفرنسيون رغم كل ما نزل بهم من الخسائر، المحافظة على قدرتهم القتالية، فكان لديهم في سنة ١٧٠٩ زهاء مائة ألف مقاتل. ولدى الحلفاء ١١٠ آلاف مقاتل. وبهذه القوات تم خوض معركة (مالبلاكية) التي لم يتمكن فيها الحلفاء من انتزاع نصر حاسم. مقابل ما تعرضت له قواتهم من خسائر فادحة، **حيث بلغت خسائر الحلفاء ٢٤ ألف جندي بين قتيل وجريح، بينهم ٨ آلاف هولندي وألفا إنكليزي. (أي ما يعادل نسبة ٨٪ من مجموع الخسائر، وكان عدد القتلى من الإنكليز ستمائة فقط)**. بينما لم تتجاوز خسائر القوات الفرنسية ١٢ ألف مقاتل. وصحيح أن القوات الفرنسية قد استعانت ببعض قوات حلفائها مثلها كمثل القوات البريطانية، غير أن النسبة الكبرى من القوات كانت فرنسية، والقوات الأخرى العاملة معها أشبه بقوات رمزية. أما على جبهة الحلفاء فكان الأمر على النقيض تماماً، إذ كانت قوات الحلفاء هي الكبرى والقوات الإنكليزية أقرب إلى القوات الرمزية. **وغريب ما في الأمر، أن بريطانيا احتفظت لنفسها بالقيادة ولم تسندها إلى الحلفاء، رغم تفوق عددهم ورغم جودة قادة برهنوا خلال تجارب الحرب النمساوية على كفاءتهم القيادية العالية من أمثال الأمير النمساوي (أوجين[٣])** وبقيت القيادة في قبضة (مارلبورو) ـ اليهودي الأصل والذي كان أوسعهم شهرة في حرب الوراثة الاسبانية وأكثرهم كفاءة. ولم يكن باستطاعة الحلفاء منازعة إنكلترا في مسألة القيادة، لأنها هي التي كانت تغطي نفقات الحرب.

ولعل أهم ما في الأمر أن إنكلترا نالت أكبر قدر من غنائم الحرب، وأعطت حلفاءها بعض المكاسب على حساب الفرنسيين (مثل إعطاء صقليا للأمير أوجين دوق سافوا)، ومثل فصل الحدود بين اسبانيا والبرتغال لمصلحة البرتغال. غير أن المكاسب الحقيقية أو (الأهداف الاستراتيجية) كانت من نصيب بريطانيا التي تمكنت، بعد حرب الوراثة الاسبانية من الانطلاق للتوسع فيما وراء البحار بحرية كاملة، ودونما خوف من منافسة فرنسا أو اسبانيا.

---

(٣) الأمير أوجين: (LOUIS II PIT LE LE PRINCE EUGENE OF SAVOY - PRINCE DE CONDE CRAMD CDNPE) من مواليد باريس (١٦٦٣ ـ ١٧٣٦م) وهو ابن اخت القائد الفرنسي العظيم كونديه. أظهر كفاءة قيادية عالية منذ نعومة أظفاره، وقاد الحروب على كافة الجبهات، وضد العثمانيين بالدرجة الأولى، وضد الفرنسيين في حرب الوراثة، وفي حرب الوراثة البولونية سنة ١٧٣٦.

٢ الحروب النابوليونية: إذا كان القرن الثامن عشر قد حمل إلى أوروبا حرب الوراثة الاسبانية، فقد أطل القرن التاسع عشر على أوروبا بالحروب النابوليونية. وكان سبب الحرب والعامل المفجر لها واحداً رغم تباعد الزمن بين الحربين، **فقد كانت إنكلترا تعمل باستمرار على فتح أسواق أوروبا أمام منتجاتها الصناعية، لتتمكن من تطويرها وتزيد إنتاجها. وكان ذلك يتناقض مع مصلحة فرنسا التي كانت تعمل بدورها على احتكار هذه الأسواق القريبة منها والمتصلة بها برياً**. ولم يكن إقدام نابليون بونابرت على إغلاق الأسواق الأوروبية، في وجه المنتجات الإنكليزية، إلا استجابةً لضغوط المنتجين الفرنسيين ورجال الصناعة فيها.

كما أن الاستعدادات الفرنسية لغزو إنكلترا، وفكرة احتلال لندن، كثيراً ما ترددت على ألسنة قادة الثورة الفرنسية، وكانت حملة نابليون على مصر حلاً تبادلياً، لغزو إنكلترا. لهذا لم يكن غريباً أن تحتفظ إنكلترا بالمبادأة معتمدة على تفوقها البحري. فقابلت الإجراءات الفرنسية بحصار بحري. ومارس الذهب الإنكليزي دوره بنشاط وفاعلية، فأمكن إقناع قيصر روسيا ألكسندر الأول بتشكيل تحالف جديد. وتعهدت إنكلترا للقيصر بدفع مبلغ مليون وربع المليون جنيه سنوياً مقابل كل مائة ألف رجل تزجهم روسيا في الصراع المسلح ضد فرنسا. وسرعان ما انضمت النمسا إلى هذا التحالف (سنة ١٨٠٥) الذي شمل أيضاً ملوك نابولي (آل بوربون). فأعاد تشكيل هذا الحلف إلى أذهان الفرنسيين، ذكرى التحالف الذي أقامته إنكلترا ضد الثورة. ولهذا لم يكن الأمر مباغتاً لهم. **وقد تحدث نابليون ذاته عن هذا التحالف الثالث في خطابه يوم ٣٠ ــ أيلول (سبتمبر) سنة ١٨٠٥، فقال ما يلي: «أيها الجنود. إن إمبراطوركم يقف بينكم، وأنتم لستم إلا طلائع الشعب العظيم، الذي سيهب بكامله لتلبية نداء صوتي، إذا ما تطلب الأمر، من أجل قهر هذا التحالف الجديد وتدميره، وهو التحالف الذي نسجت خيوطه مشاعر الحقد، والذهب الإنكليزي»**(٤). وكان نابليون قد حشد في ميناء نابولي ــ شمال فرنسا ــ جيشاً بلغ عدد مقاتليه ــ مائتي ألف جندي ــ هدفه تهديد إنكلترا. وليس من المعروف على وجه الدقة ما إذا كان نابليون يعتزم حقاً إنزال قواته في إنكلترا ــ غير أن الحقيقة الثابتة هي أن نابليون قد وصل إلى بولوني يوم ١٣ آب (أغسطس) ١٨٠٥، وأصدر أوامره بتوجيه قواته لمحاربة النمساويين ــ فكانت معركة (أولم) الظافرة. غير أن نابليون لم يستمتع بثمار هذا النصر. إذ كانت البحرية البريطانية بقيادة الأميرال نلسون قد نجحت عشية انتصار أولم (يوم ٢٠ تشرين الأول (أكتوبر) ١٨٠٥) بتدمير الأسطولين الفرنسي والاسباني في معركة (الطرف الأغر) الشهيرة ــ إلى الشمال الغربي من جبل

---

(٤) نابليون بونابرت ــ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ــ بيروت ــ ١٩٨٠ ص ١١٧.

طارق. فصار باستطاعة إنكلترا ممارسة ضغط أكبر على فرنسا، التي أصبحت مرغمة على بذل جهد أكبر للعمل على الجبهة الأوروبية — القارية. وجاء انتصار (أوسترليتز) ليحطم مؤقتاً قوات التحالف النمساوي ــ الروسي الذي لم تسهم فيه إنكلترا إلا بما قدمته من دعم مالي وبما قدمته من دعم معنوي عبر انتصاراتها البحرية.

لقد أدرك نابليون بونابرت أنه لا قبل له بمواجهة القوات العسكرية للدول المتحالفة ضده، لهذا وضع استراتيجيته على أساس عدم السماح لقوات أعدائه بالتجمع، وضرب كل قوة بمعزل عن القوات الأخرى. وهكذا خاض معركة (يينا) ضد بروسيا، وانتصر فيها (١٨٠٦)، ثم خاض معركتي إيليو وفريدلاند سنة ١٨٠٧ وانتصر فيهما على روسيا، ثم انتصر على النمسا في معركة (فاغرام) سنة ١٨٠٨م. وبقيت روسيا هي (الخزان الهائل للقدرة القتالية البشرية) وعماد كل حرب ضده فقام بغزوها سنة ١٨١٢. وكانت نتيجتها المعروفة التي قررت نهاية النابوليونية. وهكذا بقيت مسألة القضاء على نظام حكم نابليون مسألة وقت لا أكثر، وكانت بريطانيا، خلال ذلك كله تستنزف قوة الجيش الفرنسي على أرض اسبانيا بأسلوب حرب العصابات سنة (١٨١٣م) **وصار بالمستطاع تكوين التحالف السادس ضد نابليون الذي تم التوقيع عليه سراً يوم ١٧ حزيران (يونيو) ١٨١٣ وضم روسيا وبروسيا والنمسا**. وجاءت انتصارات الحلفاء على كل الجبهات ثمرة لهذا التحالف، واضطر نابليون للذهاب إلى المنفى في جزيرة (ألبا) سنة ١٨١٤م. وعندما اشتركت إنكلترا، ــ لأول مرة في حروب القارة ضد نابليون ــ وذلك بعد عودة نابليون من منفاه إلى فرنسا... لم يكن الجيش الإنكليزي بقيادة (ولينغتون) يضم أكثر من تسعين ألف مقاتل. بينما كان الجيش البروسي بقيادة بلوخر يضم ١٢٠ ألف مقاتل. ولم يكن الجيش الإنكليزي يضم عناصر إنكليزية، بل كان يضم خليطاً من الشعوب الأوروبية من هانوفريين وهولنديين وبلجيكيين. وانتصر الإنكليز على نابليون (في واترلو) ونفوه إلى (جزيرة سانت هيلانة) وفرضوا شروط التسوية المناسبة لهم. فكان اشتراكهم في هذه المعركة استثماراً لكل جهود الحلفاء الذين دفعوا ثمنها غالياً من دمائهم وتضحياتهم، وقطف الإنكليز ثمار ما زرعوه.

ولم يكن نابليون يجهل أهمية الأحلاف، وتأثيرها في حشد الجيوش ودعم الجهد الحربي؛ وحاول في كل مرة إحباط الأحلاف التي كان يعقدها الإنكليز ضده. لكن هؤلاء كانوا أكثر سرعة وكفاءة في إعادة الأحلاف على أسس جديدة، وهذا ما فعلوه عندما أخذ نابليون المبادأة. وأظهر حسن نواياه لقيصر روسيا، وأطلق سراح ٧ آلاف جندي روسي كان قد أسرهم في سويسرا. وكتب إلى القيصر بول الأول رسالة يوم ٢١ كانون الأول (ديسمبر) ١٨٠٠. وعرض فيها على القيصر «تحالف أعظم أمتين في العالم». واقتسام الخلافة الإسلامية بإعطاء القسطنطينية إلى القيصر مقابل احتلال فرنسا لمصر. وظهر بوضوح أن هذا العرض كان موجهاً ضد الدولة العثمانية، وفي الوقت

ذاته ضد إنكلترا، فأسرعت هذه بدعم السلطان العثماني لحماية طريق الهند. وأدى عرض نابليون إلى انفصال قيصر روسيا عن إنكلترا، وإقامة تحالف ضم روسيا والدول المحايدة (السويد والدانمارك وبروسيا)، هدفه إغلاق موانىء هذه الدول في وجه التجارة البريطانية (تحالف سنة ١٨٠٠). ولكن الإنكليز لم يقفوا موقف المتفرج من هذا التحالف، **وخنق قيصر روسيا على أيدي الضباط الناطقين باللغة الإنكليزية والذين تزعمهم الكونت باهلن في آذار (مارس) ١٨٠١. ثم قام الأسطول الإنكليزي بقصف كوبنهاغن في ٢ نيسان (ابريل) فتم تمزيق (التحالف الحيادي).**
كما وقع نابليون مجموعة من المعاهدات مع إيطاليا واسبانيا وأمريكا والجزائر وتونس وطرابلس وبرقة (ليبيا)، تعهدت فيها هذه الدول بإقفال موانئها في وجه السفن الإنكليزية. غير أن الإنكليز لم يعدموا الوسائل الضرورية لاختراق هذا الحصار، والتسلل إلى كل المواقع التي كان يحاول نابليون إقفالها في وجههم. ومقابل ذلك تحرك نابليون على الاتجاه المضاد، فوقع مع الدولة العثمانية (الباب العالي) معاهدة سلمية في ٢٦ حزيران (يونيو) ١٨٠١، وأرسل سفيراً لفرنسا إلى القسطنطينية، وآخر للبحر الأبيض المتوسط في أيلول (سبتمبر) ١٨٠٢ لدراسة الوضع الدفاعي، وعندما عاد هذا من جولته. كتب تقريراً تم نشره في ٣٠ كانون الثاني (يناير) ١٨٠٣ وطالب فيه (بضرورة عودة فرنسا إلى مصر). وقامت فرنسا بتظاهرة بحرية ضد الجزائر في ٧ آب (أغسطس) ١٨٠٣. وكان الجنرال دوكاون قد عين قائداً عاماً للوكالات الفرنسية في الهند والجزر الفرنسية. كما تم تعيين (كافينياك) مفتشاً عاماً للعلاقات التجارية الفرنسية في مسقط في ٢٠ حزيران (يونيو) ١٨٠٣. لكن بريطانيا أحبطت هذه الجهود جميعها بفضل ما كان لها من تفوق بحري، وبفضل علاقاتها التجارية الواسعة. وأفاد نابليون من انتصاره في (أوسترليتز سنة ١٨٠٦) فحاول إقامة علاقات تضمن له السلم، وجاءه ممثل إنكلترا وممثل روسيا ففاوضهم نابليون، غير أن ممثلي الدولتين رفضا ما عرضه عليهما نابليون من شروط، فقد رفض ممثل بريطانيا الموافقة على مشروع نابليون بالاستيلاء على صقلية وانتزاعها من البوربونيين. كما رفض ممثل روسيا اقتراح نابليون بانصراف روسيا للتوسع نحو الشرق وعدم التعرض للقسطنطينية التي كان نابليون يرى أنها باتت قريبة منه، بعد أن سيطر على إيطاليا، فأراد أن يحتفظ لنفسه بحق الاستيلاء عليها، عندما تحين الفرصة المناسبة. وعندما أخذ نابليون في الإعداد لحملة روسيا أرسل سفراءه لعواصم الدول، فوجه (سيباستيان) إلى عاصمة الخلافة العثمانية (استامبول) وأرسل (غاردان) إلى طهران لإقناع العاصمتين بالتحالف معه، مما يرغم قيصر روسيا على سحب قسم من قواته نحو الشرق. غير أن الجهود الدبلوماسية البريطانية كانت أكثر قدرة على الإقناع. ولم يحقق نابليون هدفه، وكان ذلك من العوامل التي أدت إلى تدمير جيشه الكبير في روسيا (سنة ١٨١٢).

هكذا كانت حرب إنكلترا ضد نابليون، فقد استخدمت قواتها بعيداً جداً عن مسرح الأعمال القتالية في القارة الأوروبية. واكتفت بتقديم ما هو ضروري من الدعم والمساعدات لتنظيم

التحالف في إثر التحالف ضده. ولم يكن هذا الصراع بين الدولتين للانتصاف من الظلم وانتصار الحق والعدل، وإنما كان صراعاً للمنافسة وللوصول إلى الرخاء والثروة بين دولتين بعثتهما الثورة الصناعية.

كانت بريطانيا تبذل كل ما بوسعها لتصدير منتجاتها بينما كانت فرنسا تسعى لحماية صناعتها من المنافسة البريطانية. وقد عبر مهندس السياسة الأوروبية آنذاك ــ النمساوي مترنيخ ــ عن هذه الحقيقة بقوله: «يعرف كل واحد منا أن إنكلترا غير مستعدة للتنازل عن سيادتها البحرية التي هي بالنسبة إليها مسألة حياة أو موت.. هكذا تصور نابليون ما دعي بالحصار القاري، لأن نابليون يفهم معنى حرية البحار بالنسبة لإنكلترا. وكان إغلاق كل موانىء القارة في وجه البحرية البريطانية تستهدف خنق تجارتها وضرب رصيدها المالي والتجاري الذي لن تستطيع من دونه تأليب الأعداء عليه». أما نابليون بونابرت فقد عبر عن ذلك بأسلوبه حيث قال: «**تستند قوة بريطانيا إلى الاحتكار الذي تستأثر به ضد الأمم الأخرى، ولاتقبل أن تمارسه أية دولة أخرى. فلماذا تجني إنكلترا هذه الأرباح التي يجب أن يشاركها فيها مئات الملايين من الأفراد.. إن مصلحة أوروبا، والتي تحتكر إنكلترا كل خيراتها، لا قيمة لها بالنسبة لتجار لندن. إنهم يضحون بكل الدول الأوروبية، وبالعالم كله، مقابل مضاربة مالية واحدة**».

كان نابليون يرى في صراعه ضد إنكلترا، أعماق كل المسائل التي تحرك العالم والأفراد. فكانت إنكلترا عدوه الأول، ولهذا فهو لم يطارد إلَّا إنكلترا. ونظراً لانتشار شبكتها التجارية في كل مكان، فقد كان مرغماً على مطاردتها في كل مكان. وهذا هو بدقة ما أوحي إليه بفكرة إقامة إمبراطورية عالمية إذ تحولت عملية الحصار القاري من سلاح مخصص لتدمير إنكلترا، إلى أداة يتحقق بفضلها تصميم جديد للعالم: «مشروع أوروبا الموحدة بالاتفاق»، بحيث تتوحد فيها القوانين والمبادىء والمصالح والمشاعر، ويحل التعاون محل المنافسة، ولعل ذلك لو تحقق لأمكن تجنب حربين عالميتين: غير أن هذه الفكرة الوليدة المبكرة، كانت بحاجة للمدة الزمنية اللازمة لنضجها، ولتجارب إضافية، فمضى قرن ونصف القرن إلى أن انبعثت الفكرة في مفهوم «السوق الأوروبية المشتركة» وهو المفهوم البديل عن تعبير نابليون: «الأسرة الأوروبية». على كل حال، سار نابليون على طريق الحرب ــ ولا سيما حربه ضد روسيا سنة ١٨١٢ م. لتحقيق هذا المفهوم، وهو مدفوع بقوة لم يتمكن من كبح جماحها أو السيطرة عليها. وعبر عن ذلك بقوله في أثناء فترة إقامته في جزيرة سانت هيلانة منفياً: «**حدثت الحرب على الرغم مني، ومن إرادة قيصر روسيا ألكسندر، وبالرغم من مصالح فرنسا وروسيا. وقد لاحظت ذلك مراراً، لأن تجربتي الخاصة الماضية هي التي كانت تكشف لي أستار المستقبل... لقد كان ما حدث فصلاً من فصول الأوبرا ــ التي تشرف بريطانيا على إخراجه... لقد كانت روسيا هي المورد الأخير لإنكلترا،**

وكان سلام العالم كله يستند إليها . ومن المؤسف أن الذهب الإنكليزي قد برهن أنه أقوى من كل خططي ومشاريعي » . كان نابليون ، وقيصر روسيا يدركان أن كلاً منهما أقرب إلى الآخر منه إلى إنكلترا ، إذ كانت إنكلترا هي التي تستثمرهما لضرب كل واحد منهما بالآخر . وعلى الرغم من إدراك هذه الحقيقة فقد خاض كل منهما الحرب ضد الآخر حتى الفناء .

[٣] الحرب العالمية الأولى : ومضى قرن آخر من عمر الزمن ، باعد بين نهاية الحروب النابليونية ، وبداية الحرب العالمية الأولى ، وخاضت بريطانيا خلالها مجموعة من الحروب التي حملت اسم (الحروب الاستعمارية) كان من أبرزها وأشهرها حرب البوير (١٨٩٧ ـــ ١٩٠١) . ولم تكن هذه الحروب بعيدة عن النهج البريطاني ، لا من حيث ارتباطها باتفاقات وأحلاف ، ولا من حيث اعتمادها على العامل الاقتصادي ، ولا من حيث استخدام المال لتجنيد المقاتلين من المستعمرات لضرب أبناء الشعوب بعضهم ببعض ، بل لضرب أبناء الشعب الواحد بعضه لبعض ـــ كمثل اعتماد بريطانيا على مصر لمحاربة السودان ، والاعتماد على أبناء السنغال وحتى أبناء الجزائر لضرب الثورات في الجزائر وفي بقية أقطار المغرب العربي . لكن هذه الحروب جميعها لم تكن إلا الجذور التي استندت إليها مجموعة العوامل والتي فجرت الحرب العالمية الأولى .

لقد وجدت بريطانيا أن من مصلحتها السماح للدول الأوروبية باستعمار بعض أقاليم العالم ، على ألا يؤثر هذا التوسع الاستعماري في مصالحها ، وألا يهدد المرتكزات والقواعد الأساسية التي اعتمدتها للتوسع واعتبرتها مناطق ذات حيوية استراتيجية ـــ مثل الصين والهند ومصر ومناطق الخليج العربي ، وجبل طارق ... إلخ . وهكذا سارت الدول الأوروبية نحو أفق الاستعمار تحت المظلة البريطانية ، ولم تكن بريطانيا تخشى المنافسة ، غير أن هذه المنافسة برزت بشكل حاد بين الدول الأوروبية ذاتها ـــ ولا سيما بين فرنسا وألمانيا(٥) ـــ وتعاظمت هذه المنافسة بعد انتصار ألمانيا على فرنسا في حرب (سنة ١٨٧٠) حيث انطلقت دول أوروبا بعدها في سباق محموم لاستعمار إفريقيا وآسيا ـــ وتمكنت ثماني دول أوروبية فقط (بريطانيا العظمى ، وفرنسا ، وألمانيا ، وإيطاليا ، واسبانيا ، والبرتغال ، وبلجيكا والبلاد المنخفضة ، والتي لا تتجاوز مساحتها مليوني وستمائة ألف كيلومتر

---

(٥) وصل مجموع عمليات التصدير والاستيراد الألمانية في سنة ١٨٨٠ إلى ماقيمته ٠٠٠ر٠٠٥ر٢٩٠ جنيه استرليني، ثم ارتفع في سنة ١٨٩٠ فبلغ ماقيمته ٠٠٠ر ١٠٠ر٣٨٤ وفي العام ١٩٠٠ بلغ ٠٠٠ر٠٠٨ر٥٣٩ وفي العام ١٩٠٧ وصل إلى ماقيمته ٠٠٠ر٠٠٩ر٨٠٤ وتجاوزت هذه الأرقام الميزان التجاري الفرنسي الذي وصل في تلك السنة ماقيمته ٠٠٠ر٠٠٢ر٥٠٦ جنيه استرليني؛ والولايات المتحدة ٠٠٠ر٠٠٩ر٦٨٣ جنيه استرليني، وتقاربت من أرقام بريطانيا: (٠٠٠ر ٨٠٠ر١٦٣ر١) جنيه استرليني .

مربع) من استعمار مناطق زادت مساحتها على ٢٨٫٥٠٠٫٠٠٠ كم²، وذلك خلال جيل واحد؛ أي أنها استعمرت ما يعادل مساحة الولايات المتحدة مضروبة بثلاث مرات ونصف ـــ وهذا ما يعادل خمس مساحة الكرة الأرضية ولم يكن نصيب هذه الدول من المستعمرات متعادلاً ولا متوازناً. فكان لا بد من أن تعيش أوروبا في وضع لا توازن فيه ولا استقرار. وزاد من خطورة هذا الموقف حرص بروسيا على إقامة تحالف عرف باسم (التحالف الثلاثي) ضم بروسيا والنمسا وإيطاليا (سنة ١٨٩٧م).

جابهت فرنسا التحالف ـــ المضاد لها بصورة أساسية بتوقيع اتفاق دفاعي مع روسيا (سنة ١٨٩٥) وهكذا نشأ حلفان متعارضان، **غير أن السلم استمر في القارة مع ذلك، لأن بريطانيا لم تنضم لأي من الحلفين.** لكن هذا الوضع لم يستمر بسبب توسع التجارة الألمانية بسرعة فيما وراء البحار، وبسبب نمو بحريتها التجارية التي بدأت تنافس التجارة الإنكليزية بصورة متعاظمة، إضافةً إلى هذا، زاد إمبراطور ألمانيا من قوة البحرية الألمانية، ثم عزز قوتها مرة أخرى في العام ١٩٠٠، لحماية التجارة الألمانية وراء البحار، ولينتزع من فرنسا تفوقها البحري. غير أن بريطانيا لم تكن **لتتساهل في أي من المسألتين: مسألة المنافسة الاقتصادية ومسألة السيادة البحرية، فقام ملك بريطانيا (إدوارد السابع) بزيارة لباريس سنة ١٩٠٣، وتلت زيارته مفاوضات أدت إلى عقد اتفاق فرنسي ـــ إنكليزي في سنة ١٩٠٤، وإلى إبرام معاهدة صداقة تحولت إلى حلف عسكري سري.** ثم توجهت بريطانيا نحو روسيا وأمكن لها الاتفاق معها، فتشكل تحالف ثلاثي (فرنسي ـــ روسي ـــ إنكليزي) مقابل التحالف الثلاثي (ألماني ـــ نمساوي ـــ إيطالي). وبقيت بريطانيا هي مركز الثقل وهي مركز التوازن بين هذه الأحلاف. وقد برزت خلال تلك الفترة أزمات كثيرة، غير أن بريطانيا عملت على حل تلك الأزمات ـــ على حساب الشعوب الأخرى بداهة وليس على حسابها الخاص ـــ وعلى سبيل المثال، فعندما نشبت أزمة حادة بين فرنسا وألمانيا بشأن المغرب (مراكش) سنة ١٩١١. عملت بريطانيا على حل الأزمة فحصلت فرنسا على حرية العمل في المغرب، مقابل حصول ألمانيا على جزء من الكونغو، وحصلت إيطاليا على موافقة بحرية العمل في برقة وطرابلس (ليبيا). لكن هذه الأزمة، ما زادت الدول العظمى إلا جشعاً، وكانت روسيا قد أفادت من تحالفها مع بريطانيا لتجريد الدولة العثمانية من الأقاليم التابعة لها في الغرب (بلاد الصرب وبلغاريا). وكانت روسيا تخشى أن تعيد بريطانيا نظرها في تحالفها، فأخذت في دفع الأحداث نحو المزيد من التوتر، وأصبحت أوروبا كلها على فوهة بركان، وهذا ما عبر عنه السفير الأمريكي المتجول ـــ العقيد هاوس في رسالة له إلى الرئيس الأمريكي وودرو ويلسون ـــ في ربيع سنة ١٩١٤، وذلك خلال إقامته في برلين. وقد ورد في الرسالة ما يلي: **«إن ألمانيا بكاملها مشحونة بالكهرباء، وأعصاب كل الناس متوترة، وعندما ستقبل إنكلترا، ستنقض فرنسا وروسيا على ألمانيا**

والنمسا»، وعندما نشب الصراع بين النمسا وصربيا، وهو صراع محلي، كان باستطاعة وزير الخارجية البريطاني حصر هذا الصراع، إذ إنه لو صرح لروسيا وفرنسا ببساطة: «بأن إنكلترا غير معنية بهذا الصراع، وأنها تحتفظ لنفسها بحرية العمل في كل ما قد يحدث». لما اندلعت نار الحرب العالمية، ومن المعروف بعد ذلك أن بريطانيا قد خاضت الحرب على كل الجبهات، غير أن القوات الإنكليزية في كل هذه الجبهات كانت محدودة. وعلى سبيل المثال، ففي سنة ١٩١٤، حشدت بريطانيا قواتها في مصر لمحاربة الدولة العثمانية وعملت على إعادة وتنظيم الأوضاع الداخلية في المنطقة لمصلحتها وخلعت الخديوي عباس حلمي باشا الذي كان موالياً للدولة العثمانية، وعينت مكانه عمه الأمير حسين حاكماً باسم (سلطان مصر). ففصلت مصر فصلاً نهائياً عن الدولة العثمانية، ثم تحالفت مع الشريف حسين، وحرضته للعمل ضد الدولة العثمانية **وقطعت له العهود** المعروفة. **وكانت القوات الموجودة في مصر مكونة من الفرقتين الهنديتين العاشرة والحادية عشرة (٢٤ كتيبة). إضافة إلى لواء فرسان الخدمة الإمبراطورية (هندي) وهجانة بيكافير، وثلاث كتائب مدفعية جبلية هندية، وبطارية مدفعية مصرية ــ ومجموعها ٣٠ ألف مقاتل. ثم دعمت بريطانيا هذه القوات بوحدات الفرقة ٤٢ وبعض فرسان اليومنري والفصائل الاسترالية والنيوزيلاندية، فارتفع عدد أفراد القوات البريطانية في مطلع سنة ١٩١٥ إلى ٧٠ ألف مقاتل.** ويظهر من ذلك أن الأقاليم التي أخضعها البريطانيون لاستعمارهم قد ضمنت لهم مخزوناً هائلاً من القدرة القتالية البشرية التي بات باستطاعة القيادة البريطانية التصرف بها لتلبية متطلبات ميادين القتال، سواء كان ذلك في مجال الحروب المحدودة أو في مجال الحروب الشاملة. ولم يقتصر استخدام هذه القدرة البشرية على مجال الحرب، وإنما أيضاً لتأمين متطلبات الجهد الحربي ــ وهذا ما يبرزه النص التالي:

«أخذت السلطات البريطانية بزيادة الاعتماد على المصريين لسد حاجاتها من الخدمات، ولتجنيد المقاتلين... فعملت وحدات تمديد الخطوط الحديدية التابعة لسلاح المهندسين، بتمديد ما تحتاجه القوات البريطانية من الخطوط الحديدية. كما عملت فرقة من العمال المصريين بالأعمال الشاقة لتمهيد الطرق... ورافقت قوات الحملة البريطانية فرقة من العمال المصريين، بلغ عدد أفرادها في منتصف العام ١٩١٦، أكثر من ٢٥ ألف عامل ووصل في السنة التالية إلى ٥٦ ألف عامل، علاوةً على آلاف الجنود الذين أرسلتهم بريطانيا إلى فرنسا والميادين الأخرى. ولما كان المصري يرفض تقييد نفسه، مهما كانت المغريات، بتطوع تزيد مدته على ثلاثة أشهر، فقد لجأت السلطات البريطانية إلى تطبيق التجنيد الإجباري. وكان هذا من أهم أسباب انفجار ثورة سعد زغلول (٩ آذار (مارس) ١٩١٩ حتى سنة ١٩٢٢). وكان من واجب فرقة العمال المصريين أيضاً تمديد قنوات المياه، عبر سيناء، وفرش الطرق، وإفراغ حمولة البواخر والقطر وتحميلها أيضاً...

وكثيراً ما اضطر العمال للقيام بما هو مفروض عليهم عمله تحت النيران مما عرضهم للخسائر الكبيرة في الأرواح »[٦] .

إن ما حدث في مصر ، قد تكرر حدوثه في كل إقليم أو منطقة كانت خاضعة للاستعمار البريطاني — ولم تكن إنكلترا تحمل في هذه الحالات شيئاً من أعباء الحرب ، فقد كانت هي التي تتصرف بموارد البلاد الاقتصادية والمالية ، وكانت تستخدم قسماً من هذه الموارد لتغطية نفقات الحرب ، ولتجنيد الجيوش ، وتحقيق متطلباتها من تلك الأقاليم والمناطق ذاتها ، وقد وجدت بريطانيا أن ما بذلته من جهود لم يكن كافياً للوصول بالحرب إلى الحسم ، فاستعانت بالولايات المتحدة الأمريكية ، واستخدمت قواتها على مسرح أوروبا . كما لجأت لأساليب الحرب النفسية المطورة لتفجير الجبهات الداخلية (في ألمانيا والدولة العثمانية) . وخرجت إنكلترا من الحرب وقد استأثرت بغنائم الحرب كاملة . وفرضت على منافسيها شروطها المجحفة التي أدت في النهاية لتفجير الحرب العالمية الثانية .

٤ الحرب العالمية الثانية : لم تخرج الحرب العالمية الثانية على النهج التقليدي للسياسة الاستراتيجية البريطانية ، وذلك على الرغم مما عرفه العالم من تغيرات وتحولات فيما بين الحربين العالميتين . فقد بقي العامل الاقتصادي ، والمنافسة الصناعية والتجارية ، هو العامل الذي تقف وراءه بريطانيا في كل تحركاتها السياسية والعسكرية . متجاهلة كل الدروس التي أدت إلى اندلاع الحرب العالمية الأولى ، ومتجاهلة كل التحذيرات التي طرحها قادة العالم الذين استوعبوا تجربة تلك الحرب ، ومنهم الرئيس الأمريكي وودرو ويلسون الذي تحدث يوم ١١ أيلول (سبتمبر) ١٩١٩ فقال : « أيها المواطنون ، هل هناك بيننا هنا رجل أو امرأة ، بل هل هناك طفل أيضاً ، لا يعرف بأن سبب الحرب ، في عالمنا المعاصر ، هو التنافس الصناعي والتجاري ؟ إن هذه الحرب ، كانت منذ بدايتها ، حرباً تجارية وصناعية ، إنها ليست حرباً سياسية » . بل كان هناك من البريطانيين من حذر من فرض شروط اقتصادية مجحفة على ألمانيا ، وطالب بمعالجة أسباب الحرب ، مثل اللورد كينز الذي مثل بريطانيا في مؤتمر السلام في باريس : « لو تابعنا إفقار أوروبا الوسطى عن تصميم وتعمد ، لوجدنا أن الثأر ، وإني لأجرؤ على التنبؤ به ، لن يتأخر طويلاً » وكذلك التحذير التالي : « **لقد خسر المنتصرون في سنة ١٩١٨ السلم في أوروبا الوسطى لأنهم ثابروا على تبني مبدأ التفتيت السياسي والاقتصادي في فترة تطلبت مزيداً من الوحدات الكبرى السياسية**

---

(٦) الماريشال اللنبي — المؤسسة العربية للدراسات والنشر — بيروت — لبنان — ١٩٨٣ ص ٤٠ — ٤٢ .

والاقتصادية»[7] . ويظهر أنه كان لا بد من أن تتعرض أوروبا ــ المدفوعة بالقدرة البريطانية ــ لمعاناة تجربة أكثر قسوة حتى تستفيق من خدرها الذي تسببته لها ثروتها المذهلة .

كذلك ، لم يختلف شكل الأحلاف في الحرب العالمية الثانية عما كان عليه في الحرب العالمية الأولى ، إذ على الرغم من وقوف بريطانيا ضد الاتحاد السوفييتي منذ اندلاع الثورة الاشتراكية سنة ١٩١٧ ، فقد وجدت بريطانيا أن من مصلحتها الإفادة من القدرة القتالية السوفييتية لمجابهة ألمانيا النازية ، وهكذا كانت جبهة الحلفاء تضم بصورة أساسية بريطانية وفرنسا وروسيا ، إلى جانب الولايات المتحدة ، واستطاعت بريطانيا أن تحشد معظم دول العالم الصغرى وأن تزج بها في أتون الحرب ، بحكم سيطرتها الاستعمارية على هذه الدول . فعادت بريطانيا ، وقاتلت ... بجميع مقاتلي الشعوب ، ولكن تحت العلم البريطاني ولمصلحة إنكلترا . وعلى سبيل المثال : ومن مسرح الأعمال القتالية في الوطن العربي أيضاً ، كانت **معركة العلمين من المعارك الحاسمة التي عدتها بريطانيا مفخرة من مفاخرها لم يشاركها فيها أحد فما هي القوى التي شاركت في العلمين من الجانب البريطاني ؟ ــ إنها الفرقة الاسترالية التاسعة والفرقة الأولى من جنوب إفريقيا ولواء يوناني وفرقة فرنسية (من قوات فرنسا الحرة) وفرقة هندية . وقد ضم (الجيش البريطاني الثامن) هذه التشكيلات إلى جانب قوات مدرعة (أربع فرق مدرعة سلحت بصورة رئيسية بالدبابات الأمريكية) . وكان هذا الجيش الثامن هو الذي اشترك في غزو إيطاليا ، بقيادة مونتغومري ــ وهو الذي اشترك في النورماندي .**

كذلك كانت القوات البريطانية المدافعة عن سنغافورة (الملايو) مكونة من الفرقة الهندية التاسعة (بقوة لواءين) ومجموعة الألوية الهندية ١٢ و ٢٨ و ٤٤ و ٤٥ ولواء ماليزي ولواء أسترالي إلى جانب بعض الوحدات والألوية الإنكليزية[8] .

احتفظت بريطانيا لنفسها دائماً (بحق القيادة) ، فأجهزة القيادة ، على اختلاف مستوياتها ، في قبضة قادة من الإنكليز . وهذا مما يساعد القيادة البريطانية العليا على اتخاذ قراراتها وتنفيذ مخططاتها . كما أنها احتفظت بالسيادة البحرية ، عبر تسليم أسطولها إلى أيد إنكليزية فقط ، ولما كانت البحرية هي الذراع الطويلة التي تصل بريطانيا بكل مكان في العالم . فقد ضمنت بريطانيا العاملين الأساسيين اللذين بقيا في قبضة الإنكليز وهما القيادة والسيطرة . لكن الحرب

---

(٧) إدارة الحرب فوللير دار اليقظة العربية ترجمة أكرم ديري بيروت ١٩٧١ م ص ٢٢٩ و٣٥٤ و٣٥٦ .

(٨) المعارك الحاسمة في الحرب العالمية الثانية ــ بيتر يانغ ــ الإدارة السياسية ــ دمشق ــ ١٩٧٣ ص ١٠٩ و١٩٨ .

العالمية الثانية أدخلت إلى ميادين القتال عناصر جديدة، أهمها الطيران والسلاح المدرع. ورأت بريطانيا أن هذين السلاحين من الأسلحة التي تدعم الهيمنة والسيطرة سواء على الأعمال البحرية أو على الأعمال البرية، فعنيت أشد عناية بإعداد الضباط والقادة الإنكليز لاستخدام هذين السلاحين وقيادتهما. وهكذا توزعت القدرة البشرية المقاتلة للشعب الإنكليزي على الأسلحة الأساسية، وهي القيادات وأجهزة الاتصال والشؤون الإدارية والفنية ــ والبحرية والطيران والمدرعات. ولم تكن القدرة القتالية الإنكليزية كافية لتغطية هذه المتطلبات وتحقيقها. فاستعانت بأعداد من مقاتلي الشعوب التابعة للتاج البريطاني. وهكذا تشكلت الهياكل الأولى لهذه الأسلحة في دول كثيرة ــ مثل العراق ومصر والهند وجنوب إفريقيا وحتى إسرائيل. غير أن بريطانيا حرصت في الحالات كلها على إبقاء هذه الأسلحة تحت سيطرتها أو بشكل لا تشكل فيه تهديداً أو خطراً على مخططاتها. ولما كان الإنكليز يعرفون حق المعرفة، أنه ليس باستطاعتهم قيادة القوات إلا بالثقة بكفاءتهم القيادية وبفضائلهم الحربية، فقد حرصت القيادة البريطانية باستمرار ــ ومنذ الأيام المبكرة في تجربة الاستعمار ــ على إعداد قادتها إعداداً دقيقاً، سواء في مجال الاختيار، أو في مجال التدريب أو في مجال إعداد الظروف المناسبة للنجاح. فلا غرابة إذاً أن يتصف القادة العسكريون الإنكليز بما أرادته لهم قيادتهم العليا وتأدية الواجب وما تتطلبه هذه التأدية. **ويظهر من ذلك كله أن إنكلترا، لم تشكل إمبراطوريتها البريطانية، ولم تنتصر في حروبها، بقوتها الذاتية، إذ إنها تفتقر أصلاً إلى هذه القدرة. وإنما حققت ما حققته بفضل سياستها الاستراتيجية، وبفضل زج كل القوى المتاحة لتحقيق هذه الاستراتيجية، ولقد كان البحث عن (الثروة) وعن (الرفاه) هو أساس تلك الاستراتيجية. وبقي ملازماً للحروب. فكانت بحق حروب فكر سياسي وحروب كفاءة عسكرية بالدرجة الأولى، وقبل كل شيء.**

هنا لابد من القول بأنه من المحال فصل مدرسة الحروب البريطانية عن (مدارس الجاسوسية البريطانية) في العالم. فإذا كانت المهارة في إقامة الأحلاف تعتمد على معرفة الحلفاء معرفة وثيقة وحميمة وإدراك عمق التيارات المحركة لهؤلاء الحلفاء ومراكز القوى التي تؤثر في قرار الحلف وبالتالي قرار السلم والحرب فإن إدارة الحرب تتطلب بدورها معرفة كل ما يتعلق بالخصم ــ أو الخصوم ــ مع معرفة مسارح العمليات وما يتوافر فيها من قدرات قتالية واقتصادية. ولهذا لم يكن من الغريب أن يتلاحم العمل السياسي بالعمل العسكري تلاحماً وثيقاً ومميزاً ــ ربما لم تبلغه مدرسة من مدارس الحروب العالمية للدول الأخرى.

ولقد سبقت الإشارة إلى دور بريطانيا في الحرب العالمية الأولى (من حيث الاستعانة بالثورة العربية الكبرى). وفعلت بريطانيا مثل ذلك في الحبشة خلال الحرب العالمية الثانية، فقد كانت الحبشة خاضعة للاستعمار الإيطالي. ولم يكن لدى بريطانيا في البداية سوى شخص الإمبراطور

ـــ هيلاسيلاسي ـــ الذي طردته إيطاليا من إمبراطوريته، فضمته بريطانيا إليها للإفادة منه في الوقت المناسب. وكان ذلك عندما اندلعت الحرب العالمية الثانية، فأشعلت في الحبشة (أثيوبيا) نار الثورة باسم الإمبراطور. وقدمت للثوار الدعم المادي (سنة ١٩٤٠). وأمكن تثبيت القوات الإيطالية وشل حركتها. فتحركت القوات البريطانية (القوات الهندية وقوات جنوب إفريقيا). وأمكن لها بلا عناء تدمير القوات الإيطالية، وإبعاد أي تهديد عن خطوط المواصلات البحرية. فكان ذلك هو بداية التحول لمصلحة البريطانيين في حرب شمال إفريقيا.

لم تكن بريطانيا عندما فجرت الحرب العالمية الثانية ـــ أو أسهمت بتفجيرها ـــ تتوقع أن تنتهي الحرب كمثل ما انتهت إليه، بل تصورت أن بإمكانها إعادة لعبة الحرب العالمية الأولى ـــ غير أن حلفاء اليوم، وهما الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة الأمريكية ـــ هما غير روسيا القيصرية وغير الولايات المتحدة التي اشتركت في الحرب العالمية الأولى، إذ أدركت الدولتان الحليفتان أنه لا بد من القضاء على دور الغرب الاستعماري في العالم ـــ حتى يستريح العالم من منافسة الدول الغربية ومن حروبها **فكانت بريطانيا أول دولة أعادت تنظيم علاقاتها على ضوء المستجدات وتركز اهتمامها على الاقتصاد وعلى الفكر الذي يخدم هذا الاقتصاد، فجاء تنظيم (مجموعة دول الكومنولث) ضمن هذا الاتجاه. وحققت بريطانيا عبر هذا التنظيم ما كانت تريده من الفوائد. ولعل عملية استقراء بسيطة لما كان عليه موقف إنكلترا غداة انتهاء الحربُ العالمية الثانية واليوم. كافية لإبراز ما اكتسبته بريطانيا، فأمكن لها تحقيق ما عملت له دائماً ـــ من أجل مصلحة الإنسان الإنكليزي ـــ وهو الأمن والثروة والرفاه.**

٦ ـــ المذهب العسكري السوفييتي

[١] الحروب الروسية القديمة:

برزت المعالم الواضحة، للمذهب العسكري السوفييتي،
من خلال الحرب العالمية الثانية. وكان من أهم ما تضمنه هذا المذهب، ارتباط المذهب العسكري بالعقيدة السياسية للدولة (الاشتراكية) والاعتماد على الصمود في الدفاع والحسم في الهجوم، مع الاعتماد على الصفات والخصائص الحربية للمقاتلين — وأولها الشجاعة في مواجهة الخطر، والقدرة على احتمال كره القتال، والثقة المطلقة بالقيادة، — وكذلك الاعتماد على الكفاءة القيادية العالية في وسط القادة الذين طبقوا مبادىء الحرب بشكل رائع — مثل المباغتة والمبادأة والمناورة والاقتصاد في القوى وتنسيق التعاون بين الجبهات وحماية المؤخرات وتنظيمها. . . فهل تشكل هذا المذهب العسكري بصورته المتكاملة عبر لهيب الحرب العالمية الثانية؟ وهل يمكن لمذهب عسكري وصل إلى مثل هذا التكامل، أن يبرز بصورة مباغتة، أم أنه كان لا بد من مضي زمن طويل من الحروب حتى يتم تحقيق التكامل المميز لأي مذهب عسكري؟ هناك ما يشبه الإجماع لدى المؤرخين والباحثين أن الفضل في تكوين الملامح الأولى للمذهب العسكري السوفييتي إنما يعود للقيصر (بطرس الأكبر) الذي وضع الأساس لبناء الدولة الروسية الحديثة، عبر تحديد أسس سياستها الاستراتيجية للحرب والتوسع.

ورد في كتاب تجارب الأمم — لمؤلفه ابن مسكويه — ما يلي: «هؤلاء الروسية، أمة عظيمة، لهم خلق عظيم، ولهم بأس شديد، لا يعرفون الهزيمة، ولا يولي الرجل منهم حتى يَقْتُلَ أو يُقْتَلْ: ومن عادة الواحد منهم أن يحمل آلة الحرب، ويعلق على نفسه أكثر آلات الصناع من الفأس والمنشار والمطرقة وما أشبهها. ويقاتل بالحربة والترس، ويتقلد السيف، ويعلق عليه عموداً وآلة كالدشنى. ويقاتلون رجالة — مشاة — لا سيما هؤلاء الواردين».

وقد ورد ذلك في ذكر الإغارة التي قامت بها قوة روسية على بلدة (برذعة ـــ أو بردعة في

أقصى أذربيجان)، فقد ورد في قصة هذه الإغارة وصف الخصائص الحربية للمقاتل الروسي ومنها: «خرجت طائفة من الروسية من البحر الأسود (سنة ٣٣٢هـ ــ ٩٤٣م) وقصدوا نواحي أذربيجان، وركبوا في البحر في نهر الكر ــ وهو نهر كبير ــ حتى وصلوا إلى بردعة. فخرج إليهم نائب المرزبان ببردعة في جمع من الديلم والمطوعة يزيدون على خمسة آلاف رجل، فلقوا الروس. فلم يكن إلا ساعة حتى قتل الديلم عن آخرهم. جمع المرزبان بن محمد الناس واستنفرهم، فبلغ عدة من معه ثلاثين ألفاً. وسار بهم فلم يقاوم الروسية، وكان يغاديهم القتال ويراوحهم فلا يعود إلا مفلولاً، فبقوا كذلك أياماً كثيرة. ولما طال الأمر على المرزبان أعمل الحيلة وأكمن لهم كميناً. وصدق أصحابه القتال، فقتل من الروسية خلقاً كثيراً منهم أميرهم. والتجأ الباقون إلى حصن البلد ــ وتسمى شهرستان ــ وكانوا قد نقلوا إليه ميرة كثيرة. وجعلوا معهم السبي والأموال؛ فحاصرهم المرزبان وصابرهم. ثم إن الروسية خرجوا من الحصن ليلاً وقد حملوا على ظهورهم ما أرادوا من الأموال وغيرها ومضوا إلى نهر الكر، وركبوا في سفنهم ومضوا. وعجز أصحاب المرزبان عن اتباعهم وأخذ ما معهم، فتركوهم»(١).

كان من عادة البيزنطيين ــ الاستعانة بالأقوام المحيطة بهم لدعم جيوشهم وقرر ملك الروم (أرمانوس) مهاجمة بلاد العرب، فحشد جيشاً من مائتي ألف مقاتل، من الروم والفرنج والغرب والروس والبجناك والكرج، وتوجه به نحو (همذان) فأسرع السلطان السلجوقي ألب أرسلان لقيادة جيشه. ودفع مقدمة أمام جيشه، فاصطدمت هذه المقدمة عند خلاط بمقدم الروسية في عشرة آلاف، فاقتتلوا، فانهزمت الروسية وكان ذلك بداية لمعركة ملازكرد الحاسمة التي وقعت سنة ٤٦٣هـ ــ ١٠٧٠م. والتي هزمت فيها الروم هزيمة ساحقة(٢).

جابهت البلاد الروسية خطراً مدمراً سنة ٦١٩هـ ــ ١٢٢٢م **حيث تقدمت جيوش المغول ــ التتار فاجتاحت بلاد الكرج (أرمينية). ثم تقدمت في سيرها على امتداد شاطىء بحر قزوين، واجتازت دروب قزوين**. واتجهت نحو بلاد القبجاق الواقعة بين نهري الفولغا والدون، وسحقت في طريقها القوقازيين. وأسرع جيش روسي ضخم بقيادة أمراء كييف وجاليش وشرنيخوف وسمولنسك لنجدة القوقازيين. غير أن الجيش المغولي بقيادة (جيب وسبوتاي) سحق الجيش الروسي على ضفتي نهر كلكا ــ قرب بحر آزوف ــ. وعندما توفي جنكيز خان سنة (٦٢٤هـ ــ ١٢٢٧م) كانت سهول سيبيريا قد أصبحت من ممتلكاته. وقد جرى تقسيم مملكة

---

(١) الكامل في التاريخ ــ ابن الأثير ــ دار الكتاب العربي ــ بيروت ــ لبنان ١٣٨٧ هـ = ١٩٦٧ م ٦/٢٩٧ ــ ٢٩٨ (أحداث سنة ٣٣٢ هـ).

(٢) المرجع السابق ٨/١٠٩ (أحداث سنة ثلاث وستين وأربعمائة).

المغول التتار بين أبناء جنكيز خان، **فكان من نصيب الابن الأكبر (جوجي) ملك الأقاليم الغربية حتى نهر الفولغا**. ولم يلبث (جوجي) أن لحق بأبيه، **فأصبح الملك لأبنائه (باطو وأوردا وبركة وشيبان)** والذين شرعوا في الاستعداد لتوسيع حدود مملكتهم، على حساب الإمارات الروسية.

عمل (باطو بن جوجي) على حشد جيش مغولي ضخم شمالي بحر آرال وصحب إخوته وأبناء عمومته، وسار إلى البلاد الروسية في سنة ٦٣٥هـ ــ ١٢٣٧م فاستولى عنوةً على ريضان في ٢١ كانون الأول (ديسمبر) ١٢٣٧، ودارت مذبحة هلك فيها أميرها وجميع سكان المدينة. ثم سقطت كولومانا بعد بضعة أيام. ثم هاجم المغول مدينة فلاديمير الكبيرة في أوائل سنة ١٢٣٨م. ولم تصمد المدينة أكثر من ستة أيام، وتبع ذلك وقوع مذبحة جماعية أخرى. وتعرضت سوذدال للنهب في ذلك الوقت.

ثم استولى المغول ــ التتار على المدن الأخرى في روسيا الوسطى ومنها موسكو ويوربيف وجاليش ويريسلاف وروستوف وياروسلاف. وتمكن جيش المغول من إنزال الهزيمة بحاكم فلاديمير (الأمير الكبير يوري)، الذي لقي مصرعه على ضفاف نهر سيتي يوم ٤ آذار (مارس) ١٢٣٨م. ولم تلبث تغير وتورزوك أن سقطتا في أيدي المغول بعد المعركة، وتقدم المغول فاجتاحوا تلال فالداي قاصدين نوفجورود. وتوقفوا عندها.

عاد (باطو) فقاد كتلة الجيش المغولي الرئيسة سنة (٦٣٨هـ ــ ١٢٤٠م) وتوجه إلى أوكرانيا فنهب مدينتي شرنيجوف وبريسلافل، واستولى عنوة على كييف التي قاومت بضراوة، غير أنها اضطرت للاستسلام، فتعرضت للدمار وخسرت مقادير كبيرة من كنوزها العظيمة، ولقي معظم سكانها مصرعهم، على أنه جرى الإبقاء على حياة قائد الحامية (ديمتري) لشجاعته التي استحوذت على إعجاب (باطو). وتابعت جيوش المغول أعمالها القتالية فاجتاحت بولونيا وسيليزيا ومورافيا وغاليسيا وبلاد المجر وكرواتيا. وأقام (باطو) حاميات قوية في روسيا وأوروبا الوسطى. ونقل مقر حكمه إلى الروافد السفلى لنهر الفولغا حتى يبقى قريباً من أمرائه حكام روسيا. وأنشأ هناك المملكة (الخانية) التي أطلق عليها اسم (القبجاق) والتي اشتهرت عند المغول والروس باسم (القبيلة الذهبية[٣]).

وهكذا أصبح لزاماً على الشعوب الروسية مجابهة مرحلة من الصراع الطويل ضد حاكميهم

---

(٣) تاريخ الحروب الصليبية (ستيفن رنسيمان) دار الثقافة ــ بيروت ــ لبنـان ــ ١٣٨٩ و ١٩٦٩ (٤٢٦/٣ ــ ٤٣٥ و ٥٠٧).

من المغول التتار الذين اندمجوا في جملة الشعوب المستوطنة في الأقاليم الروسية. وفي الواقع، فلم تكن هذه هي أول موجة تندفع من جوف آسيا لتستقر في أقاليم الفولغا والدون. مشكلة ما عُرِف باسم العرق السلافي. مثل قبائل الهون البربرية التتارية والتي قادها عطيل ـــ آتيلا ـــ في منتصف القرن الخامس الميلادي. ثم سار بها من أطراف بحر قزوين إلى أوروبا. ويذكر أن أول أسرة حاكمة روسية قد تأسست على يد (رودريك) وجعلت من (نوفغورود) عاصمة لها سنة (٢٤٨هـ ـــ ٨٦٢م). ثم جاء (أوليغ) شقيق رودريك. فجعل من كييف عاصمة إقليمه أوكرانيا مركزاً للإمارة سنة ٢٧٣هـ ـــ ٨٨٦م وأخذت هذه الإمارة في توسيع حدودها وبسط سلطتها على الإمارات المجاورة لها. وتحولت إمارة كييف من الوثنية إلى المسيحية سنة ٣٧٨هـ ـــ ٩٨٨م واعتنقت الأرثوذكسية فأصبحت تابعة لكنيسة القسطنطينية وليس لكنيسة روما. وعند نهاية القرن الحادي عشر ميلادي، ظفرت كييف بالسيادة التي اعترفت لها بها كثير من الإمارات الروسية المجاورة لها. لكن هذه السيادة تهاوت تحت ضربات قبائل المغول التتار.

٢ **إمارة موسكو**: اتخذ حكام المغول التتار قراراً في بداية القرن الرابع عشر، كان له الأثر الكبير في تقرير مستقبل روسيا. وكان هذا القرار يتلخص بمنح حرية الحكم للأمراء المحليين. وتكليف أكبر الأمراء الروس بجمع الضرائب والغرامات ـــ الأتاوات ـــ من بقية الأمراء. وأفادت موسكو من موقعها الجيو ـــ استراتيجي الجغرافي السياسي لزيادة قدرتها. فهي كما هو معروف تقع على الطرق النهرية لروسيا الأوروبية. وتتصل ببحر البلطيق شمالاً والفولغا الأسفل والبحر الأسود جنوباً. وكانت التجارة تسلك هذا الطريق حاملة الفراء والعنبر وأحياناً الرقيق نحو الجنوب. كما كانت تحمل التوابل الثمينة والحرير نحو الشمال. وقد تعرضت موسكو للتدمير والخراب على أيدي التتار (في سنوات ١٢٣٧ و ١٢٩٣ و ١٣٨٢ و ١٥٧١ و ١٥٩١)، إلا أنها استطاعت في كل مرة أن تضمد جراحها، وأن تنهض من كبوتها، وهي أشد قوة مما كانت عليه. **وزادت موسكو في قدرتها عندما ربطت نفسها بالكنيسة، حيث جعل مطران روسيا مقر كرسيه في موسكو منذ سنة ١٣٢٥م. وبعد استيلاء العثمانيين على القسطنطينية سنة ١٤٥٣م، تقلد المطران رئاسة الكنيسة الأرثوذكسية، وأخذت روسيا على عاتقها قيادة الحرب الصليبية ضد العثمانيين، فأعطت حروبها صفة الحرب الدينية المقدسة، سواء ضد المغول التتار أو ضد العثمانيين.**
دعمت إمارة موسكو من سلطانها في القرن الرابع عشر وبداية القرن الخامس عشر، ولكن مساحة أراضيها لم تتجاوز بضعة مئات الكيلو مترات في كل اتجاه، عندما ارتقى (إيفان الثالث ـــ الملقب بالعظيم) عرش إمارة موسكو (١٤٦٢ ـــ ١٥٠٥م)، فتمكن خلال فترة حكمه من توسيع حدود إمارته حتى المنطقة القطبية وجبال الأورال وأعالي نهر الدون وديزنا، وإلى أواسط مجرى الدنيبر. وقد تم هذا التوسع عبر مجموعة من الحروب، حيث تم ضم نوفغورود (سنة ١٤٧٨م)

والتي كانت ليتوانيا تسعى لضمها إليها. ثم انتزع (إيفان الثالث[٤]) من ليتوانيا مدن (فيازما وشيرنيجوف وسفيرسك). وأرغم الحاكم المغولي (خان قازان) على الاعتراف بسيادته. كما أصدر مجموعة من القوانين لتطبيقها على جميع الأراضي التي أخضعت لحكم موسكو. ولقب (إيفان الثالث) نفسه بالقيصر تشبهاً بقياصرة الرومان. وأصبح هذا اللقب سمة مميزة لحكام روسيا. وجاء بعده فاسيلي الثالث (١٥٠٥ ــ ١٥٣٣) الذي تابع أعماله، وانتزع من ليتوانيا مدينة سمولنسك. ثم خلفه إيفان الرابع الملقب ــ بالرهيب. والذي بدأ حكمه بإصدار قوانين لمساعدة الفقراء ضد الأغنياء، ووسع حدود إمارة موسكو فأخضع إمارتي المغول التتار (قازان ــ و ــ استراخان) لحكم موسكو. **وتميزت فترة حكمه بظاهرتين أصبحتا بعدئذٍ ملازمتين لحكم القياصرة حتى النهاية، وهما: التوسع المستمر للبلاد الروسية في كل الاتجاهات. وظهور مشكلة الأقنان (الرقيق) بكل قسوتها، وبذل محاولات متعددة للتخفيف من شدة وطأتها، والمطالبة المستمرة بتحرير الأقنان (العبيد)**. وقد تعرضت روسيا بعد موت إيفان الرهيب لمرحلة من الانقسام والاضطرابات، فطمعت السويد وبولونيا في اقتطاع مناطق واسعة من الأراضي الروسية، وقامتا بغزو بلاد روسيا، وتمكنت بولونيا من الاستيلاء على موسكو وإحراقها.

وكان لذلك دوره في دفع أمراء روسيا لتسوية خلافاتهم، وعملوا على انتخاب قيصر من أفراد (أسرة رومانوف[٥]) سنة ١٦١٣م. وتمكنت روسيا، بفضل توحيد جهودها، من إرغام بولونيا (بولندا) على التخلي لروسيا عن كل الأراضي المتاخمة لشرقي الدنيبر. وعن مدينتي (كييف) و(سمولنسك). ثم أخذت في التوسع جنوباً وشرقاً مما أدى إلى تفجير الحروب المتتالية ولا سيما مع الدولة العثمانية، ومع بقية الأقاليم الإسلامية في المشرق. وكانت (صوفيا) شقيقة بطرس الأكبر والوصية عليه في مرحلة طفولته، قد رسمت الملامح الأولى لتوجيه السياسة الاستراتيجية لروسيا،

---

(٤) **إيفان (Ivan) اسم عدد من قياصرة روسيا (Tsar) أولهم إيفان الأول الكبير (Kalita) (١٣٢٨ ــ ١٣٤١) ثم إيفان الثاني ــ ابن الأول ــ حكم إمارة موسكو (١٣٥٣ ــ ١٣٥٩) وإيفان الثالث (١٤٦٢ ــ ١٥٠٥) ــ وهو أول من حمل لقب القيصر. ثم إيفان الرابع ــ الرهيب (١٥٣٣ ــ ١٥٤٨) وإيفان الخامس حكم في الفترة (١٦٨٢ ــ ١٦٩٠) وإيفان السادس (قيصر روسيا سنة ١٧٤٠) عزلته القيصرة إليزابت وألقت به في السجن بعد ذلك حتى مات في عهد القيصرة كاترين الثانية (سنة ١٧٦٤).**

(٥) **أسرة رومانوف Romanov - Dynastie عائلة روسية، حكمت روسيا في الفترة (١٦١٣ ــ ١٧٦٢) ثم جاءت عائلة هولشتين غوتوروب Holstein-Gottorop المتفرعة بالمصاهرة عن عائلة رومانوف فحكمت روسيا باسم عائلة رومانوف في الفترة (١٧٦٢ ــ ١٩١٧). وكان ميخائيل رومانوف هو أول قيصر من هذه العائلة وحكم في الفترة (١٦١٣ ــ ١٦٤٥).**

فعقدت حلفاً دينياً مع بولونيا ــ بولندا ــ وفينيسيا والنمسا ضد المسلمين (الأتراك والتتار). ثم أوفدت سنة ١٦٨٧ سفارة إلى باريس لحمل بقية الدول الكاثوليكية على دعم التحالف الديني الأرثوذكسي وتأييده. غير أن ملك فرنسا لويس الرابع عشر رفض العرض الروسي، وأعلن عن تحالفه مع السلطان العثماني محمد الرابع الذي كان على وشك مهاجمة فينيسيا، بينما يكون لويس قائماً على حصار (لوكسمبرغ) غير أن ذلك لم يمنع (صوفيا) من توجيه حملة ضخمة ضمت مائة ألف جندي لاجتياح القرم. فعمل تتار القرم على إحراق كل السهول الخضراء التي تحولت إلى قفار مرعبة. واضطر الجيش الروسي للانسحاب قبل أن تُتاح له فرصة الاشتباك ولو في معركة واحدة. فعادت (صوفيا) وجردت حملة ثانية (سنة ١٦٨٩). ولم يكن حظ هذه الحملة أفضل من سابقتها. واستوعب بطرس الأكبر (١٦٧٢ ــ ١٧٢٥م) هذه التجارب. فانصرف لإعادة تنظيم الجيش الروسي، واستقدم الخبراء العسكريين من النمسا وسويسرا وإنكلترا وألمانيا (جرمانيا) وهولندا. وأقام مصانع السلاح. ودوراً لصناعة السفن. ولما كان بحر الشمال متجمداً في معظم فصول السنة، فقد قرر بطرس الأكبر الاستيلاء على مرفأ في المياه الدافئة. وحدد هدفه بالاستيلاء على مرفأ على بحر البلطيق الذي كان تحت سيطرة السويديين، ومرفأ آخر على البحر الأسود الذي كان تحت حكم العثمانيين. وأخذ في الإعداد لحرب العثمانيين على أمل انتزاع القسطنطينية منهم، وتجريد حملة تحقق ما عجز أسلافه عن تحقيقه. وتمكن (بطرس الأكبر) من إثارة المشاعر الدينية ووجه حملته للاستيلاء على (آزوف) على البحر الأسود (سنة ١٦٩٥). ولكن هذه الحملة باءت بالفشل بسبب عجز الأسطول البحري عن دعم الهجوم البري. وأفاد (بطرس الأكبر) من هذه التجربة، فحشد كل الإمكانات لبناء أسطول ضخم، وأمكن له خلال فترة وجيزة من تحويل كل الموانىء الصغيرة على نهر الدون إلى مرافىء كبيرة ودور لصناعة السفن، فأمكن بناء ٢٢ سفينة نقل ومائة طوافة و ١٧٠٠ سفينة. وعاد بطرس الأكبر فهاجم آزوف بصورة مباغتة واستولى عليها(٦). وأفاد بطرس من انتصاره لإعادة تنظيم جبهته الداخلية ودعمها، وإعدادها للحرب، ونظم الجيش تنظيماً حديثاً. كما أظهر اهتماماً بتطوير البحرية. وبات ينتظر الفرصة لشن الحرب على السويد التي كانت كذلك تحت حكم الملك (شارل الثاني عشر)(٧) وكانت تعد أقوى دولة في أوروبا. وجاءت

---

(٦) أقام بطرس الأكبر بعد استيلائه على أزوف حامية بحرية في البحر الأسود ضمت ٢٢ بارجة حملت كل بارجة منها ما بين ٣٠ و ٥٠ مدفعاً. بالإضافة إلى ٩ بوارج كبيرة سلحت كل واحدة منها بستين مدفعاً. ووضع بطرس الأكبر أول وسام، ولم توجد الأوسمة في الدولة الروسية قبل ذلك الوقت. وكتب على وجه منه: «بطرس الأول امبراطور روسيا» وعلى الوجه الثاني «آزوف ــ منصور بالمياه والنيران». تاريخ بطرس الكبير ــ نخلة قلفاط. ص ٨٣ ــ ٨٤.

(٧) شارل الثاني عشر: (Charlex 12)، ابن شارل الحادي عشر، ولد في استوكهولم (١٦٨٢ ــ ١٧١٨) بدأ =

هذه الفرصة فوقعت الحرب التي عرفت باسم (حرب الشمال ١٧٠٠ ــ ١٧٢١). والتي خرجت منها روسيا منتصرة وحققت أهدافها في الاستيلاء على مناطق متصلة ببحر البلطيق.

كانت حرب الشمال حرباً طويلة وقاسية، وبرزت فيها الملامح الثابتة والمبكرة لفن الحرب الروسي. ففي المرحلة الأولى من هذه الحرب انتصرت السويد في موقعة (نارفا). غير أن الجيش الروسي لم يستسلم للهزيمة، بل تابع أعماله القتالية، وأمكن له الاستيلاء على بعض المدن على شاطىء الخليج الفنلندي. وشرع بطرس الأكبر (سنة ١٧٠٣) ببناء مدينة (بيترسبورغ) على مصب نهر النيفا، فأمّن بذلك المنفذ إلى بحر البلطيق. ثم جاءت المرحلة الثانية من الحرب والتي قامت فيها السويد بالهجوم ووصلت إلى عمق روسيا غير أن قسوة الشتاء دمرت جيش السويد، ثم جاءت معركة (بولتافا) لتجهز على الجيش السويدي. أما المرحلة الثالثة من هذه الحرب (١٧١٠ ــ ١٧٢١) ففيها حصلت القوات الروسية على النصر في بحر البلطيق وفنلندا، وانتقلت الأعمال القتالية إلى الأراضي السويدية. وانتهت بانتصار روسيا انتصاراً نهائياً. **وقد ربط بطرس الأكبر استراتيجية الجيش الروسي بسياسة الدولة.** وقد ظهر ذلك واضحاً في الكلمة التي وجهها إلى الجيش عشية بولتافا والتي جاء فيها: «لقد حانت الساعة التي يتقرر فيها مصير بلادنا ومستقبلها. وإنكم تحاربون لأجل المملكة التي يخدمها بطرس من أجل وطنكم ودينكم ولأجل كنيسة الله. واعلموا أن بطرس مستعد للتضحية بحياته من أجل انتصار روسيا ورفعتها ومجدها». كما حدد بطرس الصفات الأساسية الاستراتيجية **والتي تلخصت بمبادئ (الحسم)**، في تحقيق أهداف الحرب. و(**المرونة) في أشكال الصراع** وطرائقه. و(**استخدام القدرة القتالية للهجوم**) من أجل تدمير **القوى المعادية وإبادتها. ونقل الحرب إلى أرض العدو**. وتدمير **العدو على أقسام. وتنظيم القوات للعمل على مؤخرات العدو**. وأفاد بطرس من القدرة البشرية المتوافرة لروسيا، فأصدر قانون التجنيد (سنة ١٧٠٥). كما أفاد من الطبيعة الجغرافية والمناخية لروسيا لاستنزاف قدرة جيش العدو، ثم الانقضاض عليه وتدميره. وكان في جملة إصلاحاته بناء المصانع لصنع المدافع والأسلحة ولصناعة السفن فكان الأسطول الروسي يضم سنة ١٧٢٥ حوالي ٤٠ مركباً عادياً و ١٠ فرقاطات ومائة زورق صغير (في بحر البلطيق) بالإضافة إلى مائة زورق متنوع في بحر قزوين.

= عهده بالانتصار على ملك الدانمارك في كوبنهاغن سنة ١٧٠٠ م. وانتصر على بطرس الأكبر في نارفا سنة ١٧٠٠، ثم على أوغست الثاني ملك بولونيا في كيسو (Kissow) سنة ١٧٠٣. وانتصر عليه بطرس الأكبر في بولتافا سنة ١٧٠٩ فلجأ إلى تركيا، حيث دعمه السلطان أحمد الثالث، وعاد إلى بلاده سنة ١٧١٥، فانصرف لتنفيذ مجموعة من المشاريع الجريئة، غير أنه قتل بطلق ناري في أثناء حصار (هالدن).

ظن بطرس الأكبر أن انتصاره في (بولتافا سنة ١٧٠٩) سيساعده على تحقيق نصر مماثل على الدولة العثمانية، فعمل على نقل جيشه من البلطيق إلى حدود الدولة العثمانية التي أعلن الحرب عليها، واستثار مشاعر الروس كلهم ضدها. فاستقبل إعلان الحرب بالبهجة، وباتوا يهيئون لها لتحرير الشعوب غير التركية وأنهم سيدمرون أعداء السلاف القدماء. كما نجح بطرس في استثارة مشاعر سكان مولدافيا والصرب والجبل الأسود واليونان ضد الأتراك. وبات السكان المذكورون ينتظرون قيام بطرس بتنفيذ وعوده لتحريرهم. وسار بطرس بجيشه (سنة ١٧١١). وقطع نهر الدنيبر، واجتاح مولدافيا التي وجدها شبه صحراء مقفرة. حتى إذا ما وصل إلى ضفاف نهر بروث، وجد نفسه وجهاً لوجه أمام الجيش العثماني الذي سرعان ما طوق الجيش الروسي. وقد حاول المقاتلون الروس مقاومة الحصار، فكانت خسائرهم كبيرة، وتمكنت الإمبراطورة كاترين زوجة القيصر بطرس من رفع الروح المعنوية للمقاتلين، ثم أقنعت بطرس بمفاوضة العثمانيين الذين وافقوا على السماح للقوات الروسية بالانسحاب. مقابل التخلي عن (آزوف) وهدم قلاع وحصون (طيفان ــ أوتا غانروغ كلمانت مروفة) وتدمير الأسطول الروسي في البحر الأسود. وعدم التعرض للملك السويد (شارل الثاني عشر) والسماح له بالعودة إلى مملكته. ونفذ بطرس هذه الشروط كلها. فأطلق العثمانيون سراحه. وهدفهم عدم إذلاله وإقامة علاقات حسنة معه، حتى يتمكنوا من توجيه جهدهم نحو جبهة الغرب. وبات لزاماً على بطرس الأكبر العودة إلى جبهة السويد ليحرز فيها انتصارات تعوضه عما خسره على ضفاف نهر بروث.

وذكر أن (بطرس الأكبر) وضع وصية لخلفائه حدد فيها أسس السياسة الاستراتيجية لبناء دولة عظمى. وسواء كانت هذه الوصية حقاً من وضع بطرس الأكبر، أم كانت مدسوسة عليه ــ بحسب ما أشيع ــ فإن ملامحها الأولى قد برزت من خلال أعمال بطرس الأكبر، كما أن ما طبقه قياصرة روسيا بعد ذلك قد سار مطابقاً لمضمون الوصية التي جاء في مادتها الأولى: «يجب أن تشتبك روسيا دائماً بحرب مع إحدى الدول المجاورة لها؛ أو غيرها؛ حتى يبقى جندها في حالة استعداد دائم للقتال، وحتى تكون لها باستمرار الأفضلية في خوض الحروب».

وتضمنت المادة الثامنة من الوصية ما يلي: «يجب توسيع حدود الروسيا في كل اتجاه للوصول شمالاً إلى بحر البلطيق، وجنوباً إلى البحر الأبيض المتوسط» كما تضمنت المادة التاسعة ما يلي: «يجب على الروسيا العمل باستمرار لاحتلال القسطنطينية، لأن من يمتلكها يسيطر على العالم. كما يجب السيطرة على تجارة الهند، لأن اكتسابها يغنينا عن ذهب الإنكليز. وللوصول إلى الهدف الأول يجب متابعة الحرب باستمرار ضد الأتراك ويجب أن نحتل الخليج

الفارسي»[٨]. وبذلك حدد بطرس الأكبر السياسة الاستراتيجية التوسعية لدولة الروسيا لتكون سياسة استراتيجية بحرية ـــ قارية. وكان تنفيذ ذلك مرتبطاً بإيجاد حالة حرب دائمة. لهذا لم يكن غريباً أن تدخل في كل تحالف أوروبي، وأن تتدخل في كل حرب أوروبية وكانت إنكلترا هي الحليف الثابت والدائم لروسيا في معظم حروبها. أما على جبهة الجنوب، فقد تطورت الحروب مع الدولة العثمانية بصورة مستمرة إلى أن حققت روسيا كل أهدافها التوسعية. وانطلقت في الوقت ذاته نحو الشرق حتى وصلت المحيط الهادي. مما وضعها في حالة صدام وحروب مع الصين ومع اليابان. **وكان المذهب العسكري الروسي يتطور عبر الحروب بتطور وسائط الصراع المسلح. غير أنه بقي محافظاً على المبادئ الأساسية والأسس الثابتة التي تعتمد على الروح الهجومية وعلى الحسم، والصمود في الدفاع مع الاستمرار في الأعمال القتالية النشطة ريثما يتم إعداد الظروف المناسبة للهجوم المضاد والاعتماد في ذلك كله على المقاتل الروسي وعلى ما يمتلكه من الصفات والخصائص الحربية.**

٣ **الحروب الدفاعية:** أصبحت روسيا بقيادة إمارة موسكو دولة كبيرة، لها ثقلها في ميزان القوى، وقد تم لها ذلك عبر الحروب الدفاعية والتوسعية. فلقد تعرضت لهجمات عنيفة طرقت أبواب العاصمة (موسكو) ثم ارتدت عنها، واستطاعت موسكو في كل مرة انتزاع النصر من وسط ضباب الهزيمة. ولعل من أشهر الحروب الدفاعية المعروفة هي حملة نابليون بونابرت على روسيا (١٨١٢). وحملة القوات الألمانية النازية (١٩٤١). لكن تاريخ فن الحرب الروسي يضيف إلى ذلك حملة القوات الألمانية ـــ السويدية والمعروفة باسم (موقعة الجليد ١٢٤٢) وحملة ملك السويد شارل الثاني عشر سنة ١٧٠٠ ـــ والتي سبقت الإشارة إليها ـــ. وقد يكون من المناسب البدء (بموقعة الجليد)، حيث تحالفت القوى الألمانية والقوى السويدية حاملة الصليب والمدعومة من الكنيسة الكاثوليكية في أوروبا ضد إمارتي (نوفغورود وبسكوف) حين كانت إمارة نوفغورود ـــ في الفترة من القرن الثاني عشر والخامس عشر أكبر إمارة مستقلة في روسيا، وكانت تمتد من خليج فنلندا حتى جبال الأورال، ولديها قوات تضم ٥ آلاف رجل يمكن زيادتهم في أثناء الحرب حتى ٢٠ ألف رجل، إضافة إلى أسطول نهري (في الفولغا) وأسطول بحري (في البلطيق) يضم زوارق كبيرة وصغيرة. وكان قائد هذه القوات هو الأمير (ألكسندر). وقد قرر الألمان والسويديون توجيه ضربتهم إلى روسيا من اتجاهين، على أن يقوم السويديون بهجوم من الشمال فيحتلون مصب

---

(٨) بطرس الأكبر ـــ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـــ بيروت ١٤٠٠ هـ = ١٩٨٠، ص ١٢٧ ـــ ١٢٩.

(نهر نيفا) وقلعة (لادكا) بينما يقوم الألمان بهجوم لاحتلال (بسكوف) و (نوفغورود). وبدأ هجوم القوات حاملة الصليب بهجوم بري من القوات السويدية، كما تم إنزال قوات سويدية أخرى في مصب نهر نيفا. فقرر الأمير (ألكسندر) القيام بعمل سريع وحاسم لتحطيم القوات السويدية. وتوجيه ضربة مباغتة إليها حتى لا تتقدم نحو بحيرة (لادكا). وانطلق ألكسندر نحو القوات السويدية بعد أن دفع أمامه عناصر الاستطلاع لتحديد حجم قوة العدو، ومكان تمركزها. ثم هاجم القوات السويدية وهي في معسكرها يوم ١٥ تموز (يوليو) ١٢٤٠. وأظهرت القوات السويدية مقاومة شديدة، وحاربت بشجاعة، غير أن قوات ألكسندر تمكنت برغم قلة عددها من سحق القوات السويدية وإبادتها، فلم ينج منها إلا عدد قليل، لاذ بالفرار على المراكب. ورفع هذا النصر من مكانة الأمير ألكسندر الذي أصبح يحمل اسم (ألكسندر نيفسكي)(٩) نسبةً إلى نهر نيفا حيث دارت الموقعة.

جاءت بعد ذلك القوات الألمانية، فاخترقت منطقة (بسكوف) في خريف سنة ١٢٤٢ ووصلت إلى منطقة (نوفغورود). واستطاعت بعد قتال عنيف أن تحتل عدداً من المدن الروسية المحصنة ومنها مدينتا (بسكوف) و (كابوري). وكان ألكسندر قد أعاد تنظيم قواته وأكمل استعداداته. فانطلق بها لمهاجمة القوات الجرمانية (الألمانية) واستعاد مدينة (كابوري). وثار غضب الجرمان حملة الصليب لهزيمتهم، فقرروا توجيه ضربة شديدة إلى القوات الروسية. ومقابل ذلك قرر ألكسندر عدم انتظار العدو، فقاد جيشه ووقعت المعركة على جليد بحيرة تشودسكي جنوب — غرب بيترسبورغ (لينينغراد).

وكان ألكسندر نيفسكي ومعاونوه يعرفون أسلوب الهجوم الألماني، وهو التوغل العميق بطريقة الاسفين مع الاعتماد على قوة الفرسان لتوجيه ضربة ساحقة. فوضع ألكسندر خطته على أساس توزيع قوات كبيرة على الأجناب ودعمها بالخيالة، هادفاً إلى توجيه ضربة حاسمة وقوية على أجناب الاسفين الألماني ومؤخرته، عندما يندفع هذا الاسفين نحو قلب القوات الروسية. وهكذا عندما انطلقت القوات الجرمانية للهجوم يوم (٥ نيسان سنة ١٢٤٢) وتوغلت بالعمق، جابهتها القوات الروسية بمقاومة ضارية وأنزلت بها خسائر فادحة. وحاولت القوات الجرمانية الانسحاب، وأرسلت القيادة الجرمانية **وفداً للتفاوض مع ألكسندر، الذي أجابهم: «إن من يأتي إلينا**

---

(٩) عمل الزعيم السوفييتي ستالين على إحياء ذكرى (الكسندر نيفسكي) عندما أصدر في سنة ١٩٤٢ مرسوماً بإحداث (وسام الكسندر نيفسكي) يمنح لكبار قادة الجيش الأحمر ممن يظهرون كفاءة قيادية عالية، وذلك بهدف ربط تقاليد الأمة النضالية — في ظروف الحرب الوطنية العظمى — بأصالتها التاريخية.

بالسيف سيموت أبداً بالسيف. بهذا المبدأ تمسكت البلاد الروسية في الماضي، وبه ستتمسك في المستقبل». وتمت إبادة الجيش الجرماني على جليد بحيرة (تشودسكي).

حشد نابليون بونابرت ١٣٠ فرقة ضمت ٦٧٨ ألف مقاتل، منهم ٣٥٦ ألف فرنسي، والباقون من بلاد الراين وإيطاليا وبولونيا وبروسيا والنمسا. وقاد هذا (الجيش الكبير) وأمله كبير في كسب الحرب بسرعة. وقد عبر عن أمله هذا بقوله: «أنا ذاهب إلى موسكو، وسينتهي كل شيء بعد موقعة أو موقعتين». واجتاح الجيش الكبير حدود روسيا يوم (١٢ تموز ١٨١٢)، يدفعه الرجاء أن يتحقق أمل نابليون بسرعة، وأن يتحقق النصر بعد موقعة أو موقعتين. وكان لنابليون أن يتفاءل، بل أن يفرط في تفاؤله، لو كان هو صاحب الإرادة الوحيدة في حوار الإرادات المتصارعة، بمعنى قبول قيصر روسيا لتحدي نابليون وخضوعه لإرادته.

لكن ما يكون عليه الموقف لو اتخذ القيصر موقفاً مضاداً وقرر متابعة الصراع المسلح حتى النهاية؟ لقد كان باستطاعة نابليون أن يتفاءل، بل وأن يفرط في تفاؤله لو أمكن له الاشتباك مع الجيوش الروسية بمعركة حاسمة. لكن ما يكون عليه تطور الموقف، لو رفض قادة الجيوش الروسية خوض المعركة الحاسمة في الزمان والمكان اللذين يختارهما نابليون، وقرروا استنزاف قدرة الجيش الكبير قبل الإجهاز عليه؟ كذلك اعتاد نابليون في حروبه مجابهة الجيوش النظامية، واستثمار عناصر تفوقه لإلحاق الهزيمة بجيوش الأعداء. ولكن كيف سيجابه نابليون الموقف لو اصطدم جيشه الكبير بمقاومة شعب كامل قد صمم على الدفاع عن أرضه بكل الوسائل، وبمختلف الأساليب؟ كان ذلك بدقة هو ما جابهه نابليون على أرض روسيا، وما لم يكن يرغب فيه أو يتوقعه فقد أصدر القيصر ألكسندر منشوراً وصل إلى كل بيت روسي: **يستنفر به حمية شعبه، ويستنهض هممهم، ويستثير حماستهم للقتال ــ وكان مما تضمنه المنشور ــ: فليبرز لمصادمة العدو كل شريف، وكل رجل دين وكل وطني صادق. انهضوا كلكم مع الصليب في قلبكم والسلاح في أيديكم فلا تستطيع قوة بشرية أن تنتصر عليكم».** وانصرف القيصر ألكسندر لحشد القوى وتنظيمها، ومتابعة إدارة الحرب، وإرسال الأوامر والتوجيهات لقيادات جيوشه. كذلك عمل قادة الجيوش الروسية على حرمان نابليون من فرصة الاشتباك بمعركة حاسمة. فقد كان هناك جيش بقيادة (باركلاي)[١٠]، خاض معركتين ثانويتين في (أوستروفنو) و (فيتبسك) ثم انسحب متراجعاً إلى سمولنسك. أما الجيش الثاني بقيادة (باغراتيون)[١١] فقد خاض بدوره معركتين في (موهليف)

---

(١٠) باركلاي دوتوي: (Barclay - De Tolly, Michel) جنرال روسي من أصل إيقوسي، وولد في ليفونيا: (Livonie) ١٧٦١ ــ ١٨١٨، اشتهر بكفاءته العالية؛ وكان نداً في خصومته لنابليون بونابرت.

(١١) باغراتيون: (Prince Pierre Pagration) جنرال روسي، من مواليد جورجيا (١٧٦٥ ــ ١٨١٢) أصيب في معركة موسكو بجراح مميتة.

و(أورتشا) وانسحب متراجعاً إلى (سمولسنك) ليضم جيشه إلى جيش باركلاي . وكان تنظيم عملية انسحاب هذا الجيش رائعاً، مما جعلها نموذجاً للانسحاب الماهر في ظروف صعبة للغاية، إذ كانت قوات هذا الجيش تسير في اليوم أكثر من أربعين كيلومتراً . فقطعت ٧٥٠ كم .

كانت الجيوش الروسية تعمل أثناء انسحابها على تدمير كل مايمكن له أن يفيد جيوش الغزاة، حتى تحولت البلاد إلى مجموعات من الأنقاض والخرائب والأراضي المحروقة . وكان الفلاحون الروس يقولون لاخوانهم الجنود : «**امضوا في طريقكم، وأخبرونا فقط عن الوقت المحدد لنحرق مزروعاتنا بأيدينا**» . وخسر الفرنسيون خلال تحركهم من نييمن إلى ولنا، ومن غير اشتباك مع القوات الروسية مرة واحدة أكثر من خمسين ألف رجلٍ، ماتوا أو أصبحوا خارج القتال بسبب المرض وحده . ثم خسر الجيش الفرنسي مائة ألف رجل أيضاً أثناء مسيرته من (ولنا) إلى (موهليف) .

وعند هذه المرحلة قرر القيصر ألكسندر إسناد القيادة العليا للجيوش الروسية إلى الجنرال كوتوزوف الذي تحرك إلى مرتفعات (بورودينو) وأقام معسكره فيها، ونظم قواته (يوم ٢٢ آب (أغسطس) ١٨١٢) التي وصل الجيش الفرنسي إليها بعد ثلاثة أيام، ودارت معركة طاحنة، كانت فيها خسائر الطرفين متعادلة (تقريباً)، غير أنه كان باستطاعة كوتوزوف تعويض بعض خسائره، فيما كان نابليون عاجزاً عن استقدام أي قوات دعم إضافية[١٢] . وكان العامل الأكثر أهمية لنابليون أن الجيش الروسي لم يهزم ولم يستسلم، على نحو ماكان يحدث عادةً لنابليون في معاركه الحاسمة، إذ تمكن كوتوزوف من الانتقال إلى مواقع دفاعية جديدة . ثم قام بسحب جيشه إلى (تاروتينو) جنوب غرب موسكو وذلك بعد مناورة دقيقة . وبات باستطاعة نابليون التحرك إلى موسكو . ولشد ماأصاب الذهول نابليون، عندما أرسل قادته ليأتوه (بأشراف موسكو) حتى يعلنوا استسلامهم . فقد كان معظم أهل موسكو قد هجروها ونزحوا عنها . ولم يبق فيها إلا من عجز عن النزوح . وصب نابليون حمم غضبه على عاصمة روسيا . واحترقت موسكو، لكن لم يأتِ أحد إلى نابليون حاملاً مفاتيح الاستسلام . وبدأت موسكو في ابتلاع ما بقي من جيش نابليون . أما كوتوزوف الذي اعتمد منذ البداية على زج كل قوى الشعب في الصراع ضد الغزاة، وعلى الإفادة من المشاعر الدينية والوطنية، فقد كان يعمل على توسيع دائرة حرب الأنصار وتنظيمها من المتطوعين ومن الوحدات النظامية التي أرسلت للعمل على مؤخرة الجيش الكبير (الفرنسي) وربط هذه الأعمال بتحرك الجيوش النظامية . وبات ينتظر اللحظة المناسبة لتدمير

---

(١٢) خسر نابليون في معركة بورودينو ثلاثين ألف مقاتل ـــ بينهم ٤٩ جنرالاً و٣٧ قائداً . بينما خسر كوتوزوف أربعين ألف مقاتل، وعدداً من الجنرالات والقادة معادلاً لخسارة الفرنسيين .

جيش نابليون بونابرت. وقامت مفارز الأنصار بواجبها على أفضل وجه. فقد عمل أحد الفلاحين في قرية (بافلومو) واسمه (غراسيموس كورين) على تعبئة خمسة آلاف وثمانمائة رجل من مواطنيه وقادهم (للدفاع عن الوطن)، وتصيد الفرنسيين الذين كانوا يخرجون للتموين. فكان كورين ورجاله ينهالون عليهم ويعملون على شنقهم أو إغراقهم أو قتلهم مستخدمين أدوات حراثة الأرض والمعاول. فهلك في مقاطعة (بورفسك) وحدها ٣٥ ألف فرنسي. وكذلك فعل (فغنر) و(سلافين) و (دافيدوف) و (بنكندوف) و (الأمير كوروكين) وسواهم من زعماء مجموعات الأنصار الذين فرضوا سيطرتهم على طريق (سمولنسك). إضافة إلى ذلك، تولى (دولوفوف) قيادة ٢٥ ألفاً من فرسان القوقاز. وانقض على قرية (فيريا) فطرد منها الفرنسيين بالقوة.

وبرز خلال هذا الصراع اسم الفلاحة (فاسيلسا) والفتاة (ناديجوا دوروفا) اللتان صارتا قدوة للنساء الروسيات. وحاربتا مع الرجال لطرد أعداء الوطن[١٣]. وعمل في موسكو عدد كبير من القوقازيين المتنكرين، من أجل إرهاق الفرنسيين واستنزاف قدرتهم بأعمال قتالية مستمرة.

ولم يعد باستطاعة نابليون الانتظار وهو يرى جيشه يذوب كالشمع المحترق فقرر الانسحاب. وهنا جاء الدور الحاسم للجيش الروسي، الذي قاده كوتوزوف فدمر جيش (مورا) الفرنسي الذي لم يبق منه إلا عشرون ألف مقاتل ــ عند قرية تبعد ستين كيلومتراً إلى الجنوب من موسكو (قرية تشرنيشنا). ثم تقدم إلى (مالارو ــ سلافتص)، حيث دارت معارك ضارية، انتقلت فيها هذه البلدة ثماني مرات من يد إلى اليد الأخرى. ثم تابع كوتوزوف جيش نابليون وهو يطارده بالسير على خط موازٍ له. ووقعت خلال هذه المطاردة مجموعة من المعارك الهامة التي كانت تدفع نابليون للانسحاب بسرعة أكبر، خشية الوقوع في الأسر. واكتسبت هذه المرحلة من الحرب كل الخصائص والميزات للحروب الدفاعية الروسية والتي لم يضع لها نابليون في البداية أي اعتبار على أساس أنها مخالفة (لتقاليد الحرب) فإحراق المدن والقرى ــ منذ سمولنسك ــ والانسحاب المنظم بعد المعارك، وصدمة (بورودينو) والتي تبعها انسحاب جديد، ثم إحراق موسكو. ومطاردة السلافيين والقوزاق للجيش الفرنسي، والاستيلاء على قوافل التموين والإمدادات، وحرب الأنصار، كل هذه الأشياء عدها نابليون (خروجاً على قواعد الفن العسكري). لقد كان المبارز الفرنسي: **نابليون، يطلب أن تدور المعركة وفقاً لقواعد الفن. لكن خصمه طرح السيف وأمسك بالهراوة الغليظة، هراوة الشعب الروسي بكامله، وراح يرفعها فوق رأس عدوه. وانتصرت الهراوة على سيف نابليون الذي خرج من روسيا مغلولاً.**

---

(١٣) كوتوزوف ــ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ــ بيروت ــ ١٩٨١ ص ١٣٨ ــ ١٣٩.

حشدت ألمانيا النازية على جبهة الاتحاد السوفييتي نحو ثلاثة ملايين مقاتل و ١٥٠٠ طائرة و٣٥ ألف قطعة مدفعية و ١٨٠٠ دبابة ثقيلة ومتوسطة. وكان الجيش الألماني في تلك الفترة حزيران (يونيو) ١٩٤١، قد أصبح يضم زهاء ثمانية ملايين ونصف المليون مقاتل. ثم انطلقت فرق الجيش الألماني للهجوم في ليل ٢٢ حزيران (يونيو) وبدأت الأعمال القتالية بضراوة على محاور التقدم الألمانية الثلاثة.

وبعد ثلاثة أسابيع من اجتياح الحدود السوفييتية، خسر الألمان مائة ألف مقاتل ونيف، وألف طائرة و ١٥٠٠ دبابة. غير أن هذه الخسائر لم تمنع الجيش الألماني من التوغل بعمق ٦٠٠ كم في عمق الأراضي السوفييتية. وأمكن للجيوش السوفييتية أن تنظم عمليات الانسحاب لمتابعة القتال عند كل موقع، مع سحب المصانع الحربية ونقل كل ما يفيد العدو أو إتلافه.

وقد تحدث عن ذلك ماريشال الاتحاد السوفييتي — جوكوف — بقوله: «كان لا بد من اتخاذ تدابير خارقة لفك المصانع ونقلها إلى الشرق، وضمها إلى المنشآت العاملة هناك، والاستناد إلى هذا الجزء من البلاد للانقضاض على العدو وإيقافه ودحره. ولم يشهد التاريخ عملاً كهذا تحقق بطبيعته وضخامته... فأنشئت مكاتب ولجان للإخلاء. وتم نقل أكثر من ١٥٠٠ منشأة، أغلبها من المنشآت العسكرية الضخمة، في أقصر وقت، وسرعان ما دبت فيها الحياة من جديد»[١٤].
«لم يكن أمام القيادة السوفييتية في تلك الأيام حل آخر سوى الانتقال إلى الدفاع على طول الجبهة الاستراتيجية. فلا القوى ولا الوسائط كانت متوافرة لخوض عمليات هجومية، ولا سيما العمليات الكبيرة. وكان من الواجب إنشاء احتياطات استراتيجية كبيرة من القوات وتسليحها لكي ننتزع بقوى متفرقة، زمام المبادرة من يد العدو، وننتقل إلى الأعمال الهجومية، ونبدأ بطرد القوى المعادية من أراضي الاتحاد السوفييتي.

وكانت أهم أهداف دفاعنا الاستراتيجي في ذلك الوقت ما يلي:

— تأخير القوات الفاشية على الخطوط الدفاعية أطول زمن ممكن، لتتاح لنا أكبر فرصة لتسيير القوات من عمق البلاد، وإنشاء احتياطات جديدة، ودفعها ونشرها على أهم الإتجاهات.
— إنزال أفدح الخسائر بالعدو وإنهاك قواه واستنزافها، إذ بذلك يمكن تعادل ميزان القوى.
— اتخاذ التدابير اللازمة لنقل السكان والأهداف الصناعية إلى عمق البلاد، وكسب الوقت من أجل تحويل الصناعة إلى المجهود الحربي.

---

(١٤) مذكرات وآراء — المارشال جوكوف — وزارة الدفاع — الطبعة الثانية — دمشق. ١٩٧٢ ص٢٧٨ و ٢٨٠ — ٢٨١.

ــ حشد أقصى مايمكن حشده من القوى، والانتقال إلى الهجوم المعاكس العام لإحباط الخطة الحربية الألمانية بكاملها».

لقد أظهر الدفاع عن سمولنسك، خلال الأشهر الأولى من الحرب، أهداف الدفاع السوفييتي. إذ تم استنزاف قدرة التجميعات الضاربة الألمانية، واعترف القادة الألمان أنهم خسروا في سمولنسك ٢٥٠ ألف عسكري (جندي وضابط). مما أرغم القيادة الألمانية العليا على إصدار أمرها يوم ٣٠ تموز (يوليو) ١٩٤١ إلى مجموعة جيوش الوسط بالانتقال إلى الدفاع ــ أي بعد شهر واحد من القتال ــ. كذلك اتخذت القيادة السوفييتية في هذه الفترة ذاتها (منتصف شهر تموز (يوليو) ١٩٤١) قراراً (بتنظيم النضال في مؤخرة القوات الألمانية). فتم في المناطق التي يمكن أن يحتلها الألمان تنظيم خلايا وطلائع سرية لقيادة حركة الأنصار. وأمكن تشكيل أكثر من ٨٠٠ لجنة سرية و٣٠٠ لجنة شعبية في أقاليم لينينغراد وكالينين وسمولنسك وأدلوفسك وكورسك وفي جمهوريات أوكرانيا وروسيا البيضاء ومولدافيا، وشرعت هذه التنظيمات في ممارسة أعمال قتالية فعالة ضد العدو، وأنزلت به خسائر فادحة.

وصلت القوات الألمانية إلى محيط العاصمة (موسكو) في ٢٠ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٤١. وأعلنت حالة الحصار في موسكو. فعمل أهل موسكو على تحويل مدينتهم إلى قلعة حصينة. وتم تسليح مئات المفارز والمجموعات بقانصات الدبابات. ومارس أكثر من مائة ألف من سكان موسكو التدريب العسكري بلا توقف عن العمل والإنتاج، وانضموا في أثناء القتال إلى القطعات العسكرية. وخسر الألمان، بعد عشرين يوماً من القتال على أبواب موسكو، أكثر من ٥٥ ألف قتيل وجريح، ونحو ٨٠٠ دبابة و٣٠٠ مدفع و١٥٠٠ طائرة. واستمر القتال إلى أن تم إبعاد الألمان عن موسكو نحو مائتي كيلومتر في نهاية آذار (مارس) ١٩٤٢. وخسر الألمان في ملحمة موسكو زهاء نصف مليون رجل و١٣٠٠ دبابة و٢٥٠٠ مدفع وأكثر من ١٥ ألف عربة. كذلك كانت ملحمة ستالينغراد ضارية إلى أبعد الحدود. فقد تم تدمير ٣٢ فرقة و٣ ألوية، وخسرت ١٦ فرقة أخرى نسبة ٥٠ حتى ٧٥٪ من قوتها، خلال الفترة من ١٢ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٤٢ حتى ٢ شباط (فبراير) ١٩٤٣، وبلغ مجموع خسائر الألمان نحو ٥ر١ مليون جندي، و٣٥٠٠ دبابة ومدفع اقتحام و١٢ ألف مدفع ونحو ثلاثة آلاف طائرة، وكمية ضخمة من الأعتدة الأخرى.

تضاعف عدد الأنصار خلال سنة ١٩٤٣، وتوحدت المفارز الكثيرة العدد في قطعات وتشكيلات أصبح باستطاعتها تنفيذ عمليات هامة وفعالة في مؤخرة العدو، جاذبة نحوها قوى كبيرة من الجيوش الألمانية.... وكانت تعمل، بشكل خاص، في أوكرانيا وروسيا البيضاء تشكيلات قوية من الأنصار، وكانت القيادة السوفييتية تدرس في خططها وأعمالها، القوة الحقيقية

المتوافرة للأنصار، ودورها المتزايد وتطور أعمالها القتالية. وتمكن الأنصار في سنة ١٩٤٣ من نسف أحد عشر ألف قطار، واعطبوا واخرجوا من العمل ستة آلاف قاطرة، وزهاء أربعين ألف عربة قطار. ودمروا أكثر من ٢٢ ألف سيارة وأكثر من ٩٠٠ جسر للخطوط الحديدية.

يظهر من ذلك أن ثمة عوامل ثابتة في الحروب الدفاعية الروسية، أولها ــ الاتساع الجغرافي الكبير الذي يرغم كل مهاجم على نشر قواته وتوزيعها، مما يحرمها من تفوقها ومن حريتها في العمل وحسم الصراع. وثانيها الطبيعة المناخية الصعبة التي تستنزف قدرة القوات المهاجمة وتضعفها وتحبط من روحها المعنوية ومن قدرتها القتالية، وثالثها ــ وأهمها ــ استثمار القدرة القتالية الكامنة، سواء من الناحية البشرية أو من حيث القدرة الصناعية بحيث تستطيع القيادة العليا الإفادة من هذه القدرة الكامنة لتخفيف متطلبات الصمود والمقاومة، ريثما تستنزف قدرة العدو، ويتحقق التوازن الاستراتيجي، ثم تنطلق قوات الدفاع إلى الهجوم الاستراتيجي. والقضاء على جحافل الغزو وإبادتها. وقد تباينت طرائق القتال في الحروب الروسية الدفاعية، تبعاً لتباين التسلح وحجم الجيوش. غير أنها بقيت ذات مبادىء ثابتة.

٤ حروب التوسع ومدرسة الحرب: تشكلت مدرسة الحرب الروسية عبر الحروب التوسعية، وإذا كانت الحروب الدفاعية قد احتلت حيزاً هاماً من فن الحرب الروسي، إلا أن الحروب التوسعية هي التي كانت الأساس الراسخ والقاعدة الثابتة في بناء الدولة الروسية وفي تشكيل مذهبها العسكري ــ وقد ظهر ذلك واضحاً منذ البداية ــ على نحو ماسبقت الإشارة إليه في عرض أعمال بطرس الأكبر ــ فقد بدأت حروب التوسع بالحرب ضد السويد وضد الجرمان للوصول إلى البلطيق، كما ارتبطت هذه الحروب بدرجة أكبر بالصراع ضد الدولة العثمانية التي كانت في حالة حرب دائمة ضد الغرب ــ وفي طليعته النمسا ــ فأفادت روسيا من هذه الظروف، وأعلنت الحرب الصليبية ضد الدولة العثمانية. فأخذ الصراع طابعه العقائدي(الديني). وليس من المعروف بدقة مدى تأثر مدرسة الحرب الروسية بمدرسة الحرب العثمانية، فقد كانت الدولة العثمانية تخوض حروبها على كل الجبهات ضمن الإطار المحكم بربط الأعمال القتالية بغرض (الجهاد في سبيل الله) و (بالمذهب العسكري الإسلامي)، وكذلك فعلت الدولة الروسية التي ربطت بين أعمالها القتالية ضد الدولة العثمانية **بالمذهب الديني ــ الأرثوذكسي ــ وجعلت من تدمير الدولة العثمانية، والاستيلاء على عاصمتها (استامبول) الهدف الأساسي لكل حروبها التوسعية. المهم في الأمر: هو أن مدرسة الحرب الروسية قد أدركت أهمية ربط الأعمال القتالية والحروب بسياسة الدولة. ولقد عملت هذه السياسة على اصطناع بدائل إضافية وعلى سبيل المثال، فقد خاضت روسيا الحرب ضد الدولة العثمانية أحياناً بحجة (تحرير الإخوة**

السلاف من حكم الدولة العثمانية) في يوغوسلافيا. كما خاضتها أحياناً تحت ستار (نصرة الإخوة الأرثوذكسيين ـــ في اليونان).. وكان المهم في الحالات كلها هو ربط الأعمال القتالية بمذهب ديني أو مذهب عرقي ـــ عنصري ـــ واستخدمت ذلك لتحريض السكان واستثارتهم ضد الدولة العثمانية، وربط الأعمال الثورية في الأقاليم التي تتم استثارتها بأعمال الجيوش النظامية الروسية. وتلك ظاهرة مميزة لمدرسة الحرب الروسية فإذا كان ربط الأعمال الثورية بأعمال القوات النظامية في الحروب الدفاعية، هو الأساس في تلك الحروب الدفاعية، فقد كان هذا الربط بدوره مماثلاً في الحروب التوسعية، (الهجومية). ولقد أصبح اقتران الحروب الثورية بالحروب النظامية هو السمة المميزة للحروب المعاصرة. غير أن هذا الاقتران في مدرسة الحرب الروسية ذو جذور تاريخية عميقة، وذو أصالة قديمة مرتبطة بتاريخ روسيا منذ بداية نهضتها.

لقد تشكلت مدرسة الحرب الروسية في وسط الحروب التوسعية، وضد الدولة العثمانية تحديداً، وأبرزت هذه الحروب التوسعية أسماء عدد كبير من القادة الذين طوروا المذهب العسكري الروسي، وأبرزوا معالمه. ولم يكن القائدان الشهيران سوفوروف وكوتوزوف إلا تلامذة في مدرسة الحرب هذه وأساتذتها في الوقت ذاته. فقد مارس هذان القائدان دورهما في الحروب الروسية التركية التي استوحيا من تجاربها واستخلصا من خبراتها الأسس الواضحة لفن الحرب الروسي. لقد ارتبط اسم القائد (سوفوروف)(١٥) بأعمال قتالية هامة ضد الدولة العثمانية، لعل من أهمها اقتحام (مدينة إسماعيل ـــ الواقعة على نهر الدانوب ـــ سنة ١٧٩٠). فقد كانت هذه المدينة محصنة بقوة أعجزت القوات الروسية عن فتحها وطلبت وقف الأعمال الهجومية ضدها. لكن قيصر روسيا أصدر أمراً إلى سوفوروف يوم ٢٥ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٧٩٠، وكلفه بتسلم قيادة القوات ومتابعة الهجوم. فانصرف سوفوروف منذ وصوله إلى ميدان المعركة لإعادة تنظيم القوات وتدريبها على عملية الاقتحام ببناء جدار مشابه لجدار المدينة، وبحفر خندق أمامه مشابه للخندق الحقيقي، واستمر التدريب في الليل والنهار طوال تسعة أيام. وفي أثناء ذلك وضع سوفوروف خطته لاقتحام المدينة، فشكل ستة أرتال (ضمت ١٩٫٥٠٠ مقاتل) لمهاجمة المدينة من البر. كما شكل ثلاثة أرتال أخرى (ضمت ٩ آلاف مقاتل) لاقتحام المدينة من ناحية الدانوب. ووجه الضربة الرئيسية على الاتجاه القريب من النهر، مركزاً ثلثي القوات على هذا الاتجاه. وحشد في نهر الدانوب ١٤٥ زورقاً لقوات الإنزال، و٥٨ زورقاً كبيراً في الخط الثاني لتغطية إنزال القوات على الشاطىء بنيران المدفعية. وقامت المدفعية الروسية المكونة من نحو ستمائة مدفع بقصف تحصينات مدينة

---

(١٥) سوفوروف (Souvorov - Alexandre) قائد روسي من مواليد موسكو (١٧٢٩ ـــ ١٨٠٠). قضى على ثورة بولونيا سنة ١٧٩٤.

إسماعيل وأسوارها طوال يوم ١٠ كانون الأول (ديسمبر) وفي الساعة (٣٫٠) من فجر يوم ١١/١٢/١٧٩٠، أعطيت إشارة الهجوم بواسطة الشهب، وانطلقت القوات الروسية للهجوم، وهنا فتحت المدفعية التركية نيران أكثر من ٢٥٠ مدفعاً. ودارت معارك طاحنة، وقامت القوات التركية بعدد من الهجمات المضادة، غير أن القوات الروسية نجحت في الوصول إلى المدينة، حيث دارت معركة رهيبة في الشوارع. وقاتلت القوات العثمانية بحماسة لا توصف، فتحولت المعركة إلى مذبحة جماعية، انتهت بذبح ٢٦ ألف مقاتل عثماني و٩ آلاف جريح. مع خسارة كل المدفعية ونحو ٤٢ مركباً ومقابل ذلك خسرت القوات الروسية عشرة آلاف مقاتل منهم أربعة آلاف ضابط واستثمرت القوات الروسية انتصارها، فعملت البحرية الروسية على تدمير الأسطول العثماني عند بحيرة تندرا (في البحر الأسود). وحصلت روسيا على ممر إلى البحر الأسود. وعد فتح مدينة إسماعيل من النماذج المتطورة للهجوم على مواقع محصنة. وقد استخلص سوفوروف من تجاربه مجموعة من التوصيات (ضمنها في كتابه، العلم ينتصر) ـــ ومنها:

١ ـــ لا شيء سوى الهجوم.
٢ ـــ السرعة في الحملات، والحسم في القتال.
٣ ـــ التقدير الصحيح للموقف، وتجنب الجمود والتقليد.
٤ ـــ منح القائد السلطة الكاملة.
٥ ـــ الهجوم على العدو، وضربه في أرض المعركة.
٦ ـــ عدم إضاعة الوقت بالحصار، والاستيلاء على القلاع والحصون بالاقتحام أو المعركة المكشوفة.
٧ ـــ تجنب توزيع القوى لحراسة النقاط المختلفة إذا تجاوزها العدو، والسماح لهذا العدو بالتقدم حتى يتم تدميره في النهاية.
٨ ـــ عدم إضاعة الجهود بالمناورات والتحركات التي لا طائل تحتها، أو في المسيرات المعاكسة التي لا تناسب إلّا خريجي الأكاديميات المساكين.

وكان سوفوروف يهتم بالروح المعنوية للجندي، ومن أقواله: «إن الجندي هو إنسان قبل كل شيء، وليس مجرد آلة ميكانيكية، ومن المحال ربح الحرب بجنود لا عقول لهم... ولهذا فمن الضروري، الاهتمام بالتربية الوطنية للجندي، وتنمية الاعتزاز القومي والشعور بالتضحية لتنفيذ الواجب. وكذلك الاهتمام بإثارة شجاعة الجندي وجرأته وثباته وخلق المبادأة والدهاء والفطنة والثقة بالنفس، وإن النصر يتعلق أبداً بالحالة المعنوية للمحارب.

وعلى القوات الروسية أن تحصل على النصر، ليس بكثرة العدد بل بالكفاءة». واهتم سوفوروف اهتماماً كبيراً بتدريب القوات، وقال في ذلك: «خلق المحارب للحرب حتى في أيام

السلم. **ويجب أن يعتمد التدريب في السلم على الأعمال الحاسمة والجريئة، وعلى المناورة في مختلف الأراضي والفصول، وفي الليل والنهار**، مع الاهتمام بالمشاريع الهجومية ذات الجانبين، وفي ظروف قريبة جداً من ظروف المعركة. وكذلك تدريب القوات تدريباً شاقاً ومستمراً، فالصعب في التدريب سهل في الحرب، والسهل في التدريب صعب في الحرب». ومن أقواله أيضاً: «**إن القاعدة الحقيقية في فن الحرب هي الهجوم المباشر والحاسم على أضعف مكان لدى العدو...** وإن تقدير الموقف، والسرعة في الحركة، والهجوم هي من أهم مبادئ فن الحرب... ولا يجوز للقائد أن يربط نفسه بالظروف والأحوال، بل يجب عليه إخضاع هذه الظروف لإرادته. ومن الضروري دراسة موقف العدو دراسة صحيحة، إذ لا يجوز الانتقاص من شأن العدو، بل يجب معرفة قواته وأساليبه القتالية ونقاط ضعفه وقوته. إن السرعة والهجوم هما روح الحرب. **وإن الزمن أغلى من كل شيء، فدقيقة واحدة قد تقرر مصير المعركة وساعة واحدة قد تقرر مصير الموقعة، ويوم واحد قد يقرر مصير الدولة**».

لقد مضى قرنان من عمر الزمن على هذه التوصيات والتعاليم، وهي تحتفظ بقيمتها الكاملة وبأهميتها. ويظهر مدى تأثيرها من خلال ملاحظة تطابقها مع الدروس المستخلصة من تجارب الحرب العالمية الثانية، بحسب ما جاء في المصادر السوفييتية ذاتها ومنها ما يلي: كانت العمليات الهجومية كافة، والهجومية المعاكسة الضخمة التي قامت بها القوات السوفييتية ابتداءً من خريف ١٩٤٢، **تتميز بالإبداع والحسم والاندفاع والإنجاز وكانت المواقع والعمليات تجري باستمرار ــ يكاد لا ينقطع في كل أوقات السنة**.

ولم يكن الشتاء الصقيعي الثلجي، ولا الأمطار المنهمرة، ولا الطرق الموحلة التي لا سبيل إلى اجتيازها ــ في الربيع والخريف، لتوقف سير العمليات، رغماً عما كان يتطلب ذلك من مجهودات جسمية روحية هائلة. وإن من أهم السمات المميزة للاستراتيجية السوفييتية في سنتي ١٩٤٤ و ١٩٤٥ هو فعاليتها ونشاطها الفريد، ونشر العمليات الهجومية على طول الجبهة الألمانية ــ السوفييتية من أجل تحقيق غايات حاسمة. فإذا كانت القوات السوفييتية خلال المرحلة الأولى من الحرب، تنتقل إلى الهجوم، بعد أن تستنزف الإمكانات الهجومية للقوات الألمانية، فإن حملات المرحلة النهائية من الحرب كانت تبدأ بهجوم قوي تقوم به قواتنا على دفاع معاد محضر جيداً. وأصبح بالإمكان في سنتي ١٩٤٤ و ١٩٤٥ خوض عدة عمليات هجومية ضخمة على عدة اتجاهات في آن واحد، ومتابعة هذه العمليات بلا أي فاصل زمني... وذلك بفضل ضيق الجبهة السوفييتية الألمانية، وبفضل التطور المطرد في نسبة القوى لصالح القوات السوفييتية، وقد كانت هذه الطريقة في خوض الهجوم الاستراتيجي طريقة فعالة للغاية، لأنها كانت تحرم العدو من حرية المناورة، وكانت تقطع عليه الطريق في كل مكان.

كانت العمليات الهجومية الاستراتيجية متنوعة كل التنوع من حيث أشكالها. وكانت أكثرها تميزاً **عمليات تطويق تجميعات العدو المقابلة وإبادتها، بتسديد ضربات على اتجاهات متلاقية، أو بالتضييق على هذه التجميعات، وبتسديد ضربات قاصمة، هدفها تجزئة تجميع العدو وإبادته على أجزاء**. وكانت القوات السوفييتية تعمل طوال فترة الحرب في أوقات الليل ببراعة وجرأة فائقة» «لقد تحقق النصر على العدو القوي، بفضل دم الجندي وعرقه. فقد استطاع هذا الجندي أن يستخف بالأخطار المميتة، وأن يبدي أروع مآثر الشجاعة والبطولة العسكرية. فعظمة مناقبه البطولية في سبيل الوطن لا تعرف الحدود... **ويبقى الإنسان حتى في عصر الوسائط الصاروخية والأسلحة النووية هو الذي يضطلع بالدور الرئيسي في الحرب**»(١٦) لقد وصل الاتحاد السوفييتي إلى مكانته العالمية ـــ عبر حروبه المستمرة، ولا سيما خلال القرون الثلاثة الأخيرة. وعرفت مدرسة الحرب السوفييتية كل أشكال الحروب وأنواعها: حروب تقليدية وحروب ثورية، حروب إقليمية وحروب عالمية، حروب دفاعية وحروب توسعية، حروب قصيرة وحاسمة (حرب الصاعقة) و (حروب طويلة الأمد). حروب مباشرة، وحروب بالوكالة... ولقد تطورت مدرسة الحرب السوفييتية باستمرار، عبر تجاربها الذاتية وعبر اقتباسها من مدارس الحرب الأخرى بحكم ظروف الصراع المسلح ذاتها. وكان للمدرستين التركية والألمانية تأثيرهما، ولا سيما في الأساليب القتالية ـــ الروسية ثم السوفييتية ـــ غير أن المعطيات الأساسية والمميزة لمدرسة الحرب السوفييتية قد تشكلت عبر الصراع المسلح ومن خلال الظروف الجغرافية والبشرية والمناخية التي قدمت لهذه المدرسة خصوصيتها وطابعها.

٥ **المذهب العسكري السوفييتي و (البيروسترويكا)**: ما من مذهب عسكري في العالم تعرض للجدل والنقاش خلال السنوات الخمس الماضية بخاصة كمثل ما تعرض له المذهب العسكري السوفييتي. ذلك أن حركة الإصلاح والتطوير التي يقودها الرئيس (غورباتشيف) والمعروفة باسم (البيروسترويكا). قد انعكست وبالدرجة الأولى على الأفق العسكري، فالتخفيض في المخصصات الدفاعية (الموازنة) والربط المحكم بين المسألة الاقتصادية والمسألة العسكرية، وتخفيض حجم القوى المقاتلة (التقليدية) علاوةً على التخفيض المتتابع في أسلحة التدمير الشامل (النووية والكيميائية) قد ترك أصداء عميقة انعكست بقوة على كتابات القادة والاختصاصيين والكتاب العسكريين. فكيف سيؤثر ذلك على المذهب العسكري السوفييتي، وهل ستكون (الكفاية الدفاعية) السوفييتية خروجاً على المذهب العسكري السوفييتي، وانتقاصاً من قدرة فن

---

(١٦) مذكرات وآراء المارشال جوكوف ـــ ص (٦٧٢) و(٧١٨).

الحرب السوفييتي؟ يظهر استعراض المذهب العسكري السوفييتي أن هذا المذهب قد تشكل عبر أزمنة متطاولة، وقد تباينت خلال هذه الأزمنة الأنظمة التي حكمت روسيا القيصرية ثم حكمت جمهوريات الاتحاد السوفييتي. كما تدخلت العوامل المتباينة والمعروفة تمارس دورها في تشكيل المذهب العسكري السوفييتي وتكوينه وأبرزها: العامل الاقتصادي والعامل الجغرافي، والعامل السكاني ـــ الديموغرافي ـــ والعامل الصناعي، وتطور التقانة.... إلخ. فهل تغيرت هذه العوامل المتباينة، أم زاد تأثيرها في التطور الحديث الذي حمل اسم (البيروسترويكا)؟ إن دور المذهب العسكري ـــ أساساً ـــ هو تفجير الفعاليات القتالية وتوجيهها نحو الأهداف التي تحددها السياسة العليا ـــ أو السياسة الاستراتيجية للدولة. فهل تغير هذا الدور أيضاً؟ يمكن هنا التوقف عند بعض المقولات السوفييتية المتعلقة بموضوع البحث ـــ ومنها: «**إن مذهبنا العسكري الجديد قد وضع موضع التنفيذ والعمل منذ العام ١٩٨٧، وصيغ بصورة متوازنة في أثناء وضع القواعد الأساسية للبيروسترويكا، وهو يعد منظومة معتمدة رسمياً، من الآراء الأساسية القاضية بمنع نشوب الحرب، والبناء العسكري وإعداد الدولة والقوات المسلحة لصد العدوان وكذلك طرائق خوض الصراع المسلح لحماية الوطن الاشتراكي**»(*). ويمكن أن يضاف إلى ذلك ما صرح به الزعيم غورباتشيف في خطابه أمام هيئة الأمم المتحدة في نهاية العام ١٩٨٨ وفيه: «إن سياسة الاتحاد السوفييتي الخارجية قائمة على:

أولاً ـــ نزع الروح العسكرية، والتخلي الكامل عن استخدام القوة، وعن سياسة القوة.

ثانياً ـــ إشاعة الروح الديموقراطية ـــ والاعتراف لكافة الدول بحق المشاركة بحقوق متساوية مع الدول الأخرى في مناقشة المسائل الدولية وتقريرها ـــ ثالثاً ـــ التحرر من الروح الإيديولوجية، والامتناع عن نقل الخلافات الإيديولوجية إلى العلاقات بين الدول، التي يجب أن تبنى استثناء على مبادئ القانون الدولي، وتنفيذاً لذلك فسيعمل الاتحاد السوفييتي على سحب نصف مليون جندي وعشرة آلاف دبابة وغيرها ـــ من أوروبا الشرقية من جانب واحد. كما سيسحب ست فرق من ألمانيا الشرقية وهنغاريا وتشيكوسلوفاكيا، وذلك خلال السنوات القليلة القادمة». وفي آخر تصريح للرئيس غورباتشيف، أعلن: «أن الاتحاد السوفييتي يتمتع بكفاية دفاعية قوية. وأنه ينفق ١٨٪ من موازنته على الدفاع، وهو ما يتجاوز أي نسبة دفاعية في أي من موازنات دول العالم»(**).

(*) مذهبنا العسكري ـــ ماوراء الحدود (ماريشال الاتحاد السوفييتي. س. آخر مييف) العدد ٤٦ ـــ ١٥٣١ ـــ تشرين الثاني /نوفمبر/ ١٩٨٩ ص. وانظر. الكفاية الدفاعية في سياسة البيروسترويكا ـــ بقلم د. بسام أسخيطة ـــ الدفاع العربي ـــ السنة الرابعة عشرة ـــ العدد التاسع ـــ حزيران ـــ يونيو ـــ ١٩٩٠ ص (٤٠ ـــ ٤٣).

(**) وكالات الأنباء. يوم الأحد ١٩٩٠/٦/٢٣.

ولكن كيف يمكن ترجمة هذه الأهداف السياسية إلى تطبيقات عسكرية؟ هذا ما أجاب عليه كاتب عسكري سوفييتي بقوله: «**إن مبدأ الكفاية الدفاعية، إنما يعني على الصعيد العملي إقامة بنى غير هجومية في القوات المسلحة، والتقييد الأقصى للمنظومات الضاربة في قوامها العام، وتغيير مرابطة القوات على أساس تنفيذ مهام دفاعية صرفة، وخفض متغيرات الانتشار التعبوي للقوات المسلحة، وتقليص حجم الإنتاج الحربي. ويمكن في هذا المجال أن يكون المثل الأعلى للكفاية الدفاعية المعقولة، تحقيق أقصى خفض لمستويات القوات المسلحة، المؤمنة للتوازن العسكري، والمجردة من أسلحة التدمير الشامل والمهتدية بهدى الدفاع اللاهجومي،** وبذلك تحولت القوات المسلحة السوفييتية عن اعتماد الكمية — إلى اعتماد مبدأ — النوعية تحقيقاً لمبدأ الكفاية الدفاعية الذي اعتمدته البيروسترويكا بفضل تأمين وتوفير أسلحة الدقة العالية والوسائط الاستطلاعية الضاربة. وتعمل البيروسترويكا على دفع عجلة التطور بسرعة من أجل تحسين مميزات الأسلحة والأعتدة القتالية وتطوير مواصفاتها، وشرع العلماء والاختصاصيون في صناعة الأسلحة والمهندسون وأصحاب التقانة في إنجاز ما هو مطلوب من التطور النوعي. كما بدأ القادة بالعمل لرفع الكفاءات القتالية في التشكيلات المقاتلة، مع زيادة التعليم لاكتساب التقانة للإفادة من مميزات الأسلحة الجديدة وللحصول على أقصى مردود ممكن، وعلى أفضل النتائج، من استخدام الأعتدة ذات التقانة العالية وقد ألزم مبدأ الكفاية الدفاعية إدخال النوعية في العلم العسكري، والإسراع بتطوير أولويات توجهاته. ووضع مفاهيم جديدة لفن الحرب، تتوافق مع الكفاية الدفاعية الجديدة.

وشدد المذهب العسكري السوفييتي الجديد على التنظيم التكاملي لمؤسسات البحث العلمي العسكري. وتحسين قاعدته المادية بالكامل، وتقليص الفجوة القائمة بين البحث، وبين التطبيق.

وتقضي النوعية في الكفاية الدفاعية، النهوض بمستويات التدريب العملياتي والقتالي للقوات البرية والبحرية والجوية بوتائر عالية. وتشكيل منظومات المراقبة والتفتيش والتحقق من نوعية التدريب وفعاليته وسيره بحسب الأسس التي تقتضيها الكفاية الدفاعية. **كذلك تقضي مبادئ النوعية، تحسين منظومات القيادة وزيادة فاعليتها»(★)**.

قد تكون المقولات السابقة، بالإضافة إلى ما تم الإعلان عنه في الاتحاد السوفييتي خلال السنوات القليلة الماضية، كافياً لإبراز الملامح المتوقعة لتطور القوات المسلحة السوفييتية في ظل (البيروسترويكا). ومن هذه الملامح:

(★) تطور فن الحرب السوفييتي — ريازانوف — موسكو — ١٩٨٩ ص ٢٥٦ — ٢٦٠.

أولاً : ربط تطور حجم القوات المسلحة ، بالتطور الاقتصادي ، وفي حدود الكفاية الدفاعية . فتسريح عشرات الألوف من المجندين وتحويلهم إلى المجالات الإنتاجية في الصناعة والزراعة والخدمات وسواها سيدعم من التطور الاقتصادي ، وسيسهم إسهاماً كبيراً في التحول من المجتمع الاستهلاكي إلى المجتمع الإنتاجي ، إذ من المعروف أن التضخم الكبير في حجم الجيوش السوفييتية منذ نهاية الحرب العالمية الثانية وحتى مطلع التسعينيات ، قد استنزف قدراً كبيراً من الطاقة الإنتاجية لليد العاملة (يد الشباب) وحولها إلى طاقة استهلاكية .

ولا ريب أن دعم الاقتصاد السوفييتي وتطويره ـــ حتى في حدود الأفق المنظور ـــ سيزيد من القدرة على دعم القوات المسلحة .

ثانياً : الانتقال من (جيوش الحرب) إلى (جيوش السلم) فالاتحاد السوفييتي باعتماد أسس جديدة لسياسته الاستراتيجية واستبعاد احتمال اللجوء إلى الحرب بأسلحة التدمير الشامل ، واستبعاد احتمال اللجوء إلى العنف (أو الحرب بالأسلحة التقليدية) لحل الخلافات الدولية وإحلال مبدأ الاحتكام إلى المفاوضات السلمية وإلى (القانون الدولي). سيتيح الفرصة أمام القيادة العسكرية السوفييتية لتقليص عدد الجيوش المقاتلة ، وإنقاص حجم التسلح ، وهذا بدوره مما يساعد على تركيز الجهد لتكوين (جيوش النوعية) بدلاً من الاعتماد على (جيوش الكمية ـــ أو التفوق العددي في القوى والوسائط) ولا ريب أيضاً أن التطور الاقتصادي سيدعم من قدرة الجيوش النوعية ، وسيسهم في الارتفاع بمستوى (جاهزيتها القتالية) سواء بالنسبة للأفراد ، أو حتى بالنسبة للوسائط القتالية في الجيوش البرية والبحرية والجوية .

ثالثاً : الإفادة من التقانة المتطورة ، عبر تطوير وسائل البحث العلمي ، وعبر تطوير الوسائط القتالية ، لدعم تطوير (جيوش التقانة) أو (جيوش السلم) مما يسهم في :

آ ـــ زيادة القدرة الحركية للجيوش البرية والبحرية والجوية .

ب ـــ زيادة القدرة النارية في الأسلحة البرية والبحرية والجوية . مع زيادة الدقة في أنواع الأسلحة المختلفة .

ج ـــ زيادة القدرة على مستوى القيادة والسيطرة : لإدارة الحرب .

د ـــ زيادة قدرة الجيوش على استيعاب الأسلحة ذات التقانة العالية . وهنا أيضاً يمارس العامل الاقتصادي دوره في التطور المتوقع . ويتطلب ذلك بداهة زيادة معدلات الجنود المحترفين ـــ العاملين ـــ على نسبة المجندين وتصبح (جيوش السلم) هي الهياكل الأساسية التي يمكن لها أن تتطور بسرعة إذا ما تطلب الأمر للانتقال من جيوش السلم إلى (جيوش الحرب) .

يظهر ذلك أن التطور المرتقب في ظل حركة الإصلاح السوفييتية (البيروسترويكا) هو تطور لا يتناقض مع معطيات المذهب العسكري السوفييتي، بل إن الأمر على النقيض من ذلك تماماً. فالاتحاد السوفييتي سيتحرر من القيود الثقيلة التي كانت تعيق تطوير قواته المقاتلة لتكون أكثر فاعلية، وأوفر قدرة قتالية، على كل المستويات، وفي صنوف الأسلحة كافة. وقد تعرض مبدأ (الكفاية الدفاعية) لجدلٍ كبير ــ حتى داخل الاتحاد السوفييتي علاوةً على الدول الغربية المهتمة بهذا الموضوع والمعنية به ــ إذ كيف يستطيع الاتحاد السوفييتي تأمين الدفاع عن أقاليمه الكبيرة الاتساع والتي تتشكل أساساً من قسم كبير من قارتي أوروبا وآسيا؟ ثم كيف يستطيع الاتحاد السوفييتي تأمين مصالحه فيما وراء البحار؟ وكيف يمكن له ضمان أمن محاور التحرك البحري للأساطيل السوفييتية؟ إن مثل هذه الأمثلة مرتبطة في الواقع بجذور المفاهيم الدفاعية القديمة والقائمة على أساس الاستعداد للحرب الشاملة وعلى المستوى العالمي. غير أن تعاظم الخطر النووي، واستبعاد الاحتكام إلى أسلحة التدمير الشامل، قد أفسح المجال أمام استبعاد الحرب أيضاً بالأسلحة التقليدية ــ نظراً لارتباط هذه الأسلحة بعضها ببعض، وتكاملها. وبما أن هذه المفاهيم القديمة قد أثبتت عقمها وعدم جدواها، فإنه لم يبق منها إلا قيودها التي أرهقت الاتحاد السوفييتي وقواته المسلحة سواء بسواء. ومن الملاحظ هنا أن إعادة التنظيم الشامل للجيوش السوفييتية في ظل (البيروسترويكا) قد أخذ شكلاً مترابطاً ومحكماً ومتكاملاً، مما لا يضعف من القدرة الدفاعية السوفييتية، في حدود المفاهيم السياسية الجديدة. أما إذا حدث النقيض من ذلك، مثل تعرض الاتحاد السوفييتي لعدوان، مهما كان مصدره، فإن الاتحاد السوفييتي يستطيع العودة بسرعة إلى خيار (جيوش الحرب) التي تكون قد اكتسبت ميزات التفوق النوعي إلى جانب ما ستضمه من عوامل التفوق الكمي أو العددي.

أما بالنسبة لعدد المقاتلين في جيوش الكفاية الدفاعية، وأما عدد ما سيتوافر من الوسائط القتالية الضرورية لهذه الجيوش، فإنها عملية تقديرية، لا علاقة لها بالمذهب العسكري مباشرة قدر اعتمادها على موازين القوى للدول التي يمكن أن تغامر بالحرب. وكذلك الأمر بالنسبة لطرائق القتال، وبالنسبة لإدارة الحرب، وبالنسبة لتطبيق مبادئها، إذ من المحال ــ على سبيل المثال ــ أن يتخلى الاتحاد السوفييتي عن مبدأ المباغتة أو المبادأة، أو أمن القوات، أو تنظيم المؤخرات، أو حماية العمق الاستراتيجي... إلخ.

كذلك من المحال إهمال مبدأ الحسم، أو وحدة القيادة والسيطرة، أو بقية المبادئ والأسس التي برزت في العرض التاريخي السابق للمذهب العسكري السوفييتي.

وخلاصة القول: لقد جاءت حركة الإصلاح والتطوير (البيروسترويكا) لتقدم للقوات المسلحة السوفييتية فرصة تاريخية للجمع بين (جيوش النوعية) و (جيوش الكمية ــ أو

العددية). ولتعمل على إزالة القيود ــ الاقتصادية أو المتعلقة بتطور التقانة ــ. وهذا مما يدعم المذهب العسكري السوفييتي، ويعزز له مواقعه، سواء من أجل بناء عالم السلم، أو من أجل مجابهة احتمالات الحرب والعدوان.

٧ ــ المذهب العسكري الأمريكي

١ البداية في الحرب الأهلية: قد لا يكون لفن الحرب الأمريكي جذوره العميقة في جوف التاريخ، فالمجتمع الأمريكي مجتمع حديث في نشأته وتكوينه، لكن ذلك لا ينفي قدرته القتالية الكامنة، ولا يحرمه من الخبرات القتالية الكبيرة. فلقد جاء الأوروبيون لغزو القارة ــ من إنكليزيين وفرنسيين واسبان ــ ومعهم خبراتهم القتالية وأسلحتهم، ولم يستقروا على أرض العالم الجديد إلا بالحرب المستمرة. غير أن الطابع المميز لفن الحرب الأمريكي لم يأخذ سماته وأشكاله إلا من خلال الحرب الأهلية الأمريكية (١٨٦١ ــ ١٨٦٥). ثم جاء التدخل الأمريكي المحدود في الحرب العالمية الأولى، ليعطي فن الحرب الأمريكي نوعاً من الغموض. وجاءت الحرب العالمية الثانية، فألقت الولايات المتحدة الأمريكية بثقلها فيها على كل الجبهات، فزال الغموض وبرزت بوضوح كل المعالم المميزة لفن الحرب الأمريكي. ولم تكن الدروس المستخلصة من تجارب الحروب المحدودة، التي خاضتها القوات الأمريكية ولا سيما في (كوريا وفييتنام) إلا تأكيداً لمجموعة الدروس المستخلصة من تجارب الحروب السابقة. وصار بالمستطاع التحدث عن الخصائص المميزة لفن الحرب الأمريكي، الذي قد يتشابه في بعض معطياته ومدارس الحرب الأخرى التي عرفها العالم، سواء في الأزمنة القديمة أم في الأزمنة الحديثة، إلا أن هناك تمايزاً واضحاً أيضاً بين مبادئ تلك المدارس وأسسها وبين ما حملته مدرسة فن الحرب الأمريكية من الخصائص.

خرجت الولايات المتحدة الأمريكية من حرب الاستقلال (١٧٧٥ ــ ١٧٨١م) وشرعت في بناء قدرتها الذاتية، وفي سن القوانين الضرورية للتطور، ومنها الدستور الذي صدر سنة ١٧٨٧، المتضمن إلغاء الرق. وشرعت الولايات الشمالية في إصدار القوانين بتحريم الرقيق والتجارة بـه (بين سنة ١٧٧٧ و ١٨٠٤م). وكان هذا الإلغاء نتيجة طبيعية لتعاظم الثورة الصناعية في الشمال، ولتوافر اليد العاملة، إذ كان عدد سكان ولايات الشمال نحو ١٨ مليون نسمة. ومقابل ذلك، أظهرت ولايات الجنوب تمسكها بالرق، بسبب اعتمادها على الزراعة، وبسبب قلة اليد

العاملة بالنسبة إلى مساحة الأراضي الزراعية الكبيرة، إذ لم يتجاوز عدد سكان الجنوب ــ عشية الحرب الأهلية ــ ستة ملايين من البيض، و٥ر٣ مليون من العبيد؛ أي أن المجموع كاد يعادل نصف عدد سكان الشمال. لهذا لم يكن غريباً أن يطالب المزارعون في الجنوب في سنة ١٨٠٧ بإلغاء القانون الاتحادي الذي يمنع الإتجار بالعبيد. وكان هذا الطلب يناقض سياسة الولايات المتحدة التي ارتبطت مع بريطانيا باتفاقية غنت ــ سنة ١٨١٤، التي تعهدت فيها الدولتان ببذل كل جهد ممكن للحد من تجارة الرقيق. ثم دعمتا هذا الاتفاق في اشبورن ــ سنة ١٨٤٢ باتفاق آخر من أجل دعم تدابير تحريم تجارة الرقيق، وإرسال أساطيل صغيرة إلى ساحل إفريقيا الغربي لإحكام الحصار على الموانىء التي كان يستخدمها تجار الرقيق لاصطياد العبيد، وتصديرهم للولايات المتحدة الجنوبية (كارولينا الجنوبية، وجورجيا، وتكساس، ومكسيك الجديدة، وأريزونا، وكاليفورنيا ونيفادا، وأوتاه ... إلخ).

هكذا، نشأ في الولايات المتحدة مجتمعان متناقضان: مجتمع الشمال الصناعي ومجتمع الجنوب الزراعي، وكان كل يوم يزيدهما تباعداً وتنافراً. وهذا ما عبر عنه بدقة (أبراهام لنكولن)، في بيانه الانتخابي، عندما رشح نفسه لعضوية مجلس الشيوخ عن ولاية إيلينوي ــ فقال: «**تنقسم كل عائلة على نفسها، وسيؤدي هذا الانقسام بالعائلة إلى الزوال، وإنني أعتقد أن الحكومة الحالية لا تستطيع أن تتحمل استمرار دعم نصف أعضائها لبقاء الرق، ودعم النصف الآخر للحرية. وإنني لا أتوقع حل الاتحاد، ولا أرغب بانهيار هذا المنزل العائلي، لكنني آمل أن ينتهي هذا الانقسام، وأن تتفق العائلة الواحدة كلها على الحل الأول، أو الحل الآخر**».

وإذاً، لم يكن من المهم في نظر أبراهام لنكولن في تلك الفترة تأييد الرق أو إلغاؤه، وإنما كان المهم هو الاتفاق على سياسة موحدة تجاه الرق. وعلى كل حال، فقد سارت الأحداث متمهلة، وكل طرف يبذل قصارى جهده لحشد الرأي العام في جبهته. فمضت سنوات زال خلالها كل شعور بالاعتدال، واستيقظت لدى كل الأطراف روح التعصب القبلي البدائية والشاملة، وهذا ما عبر عنه مؤلف أمريكي بقوله: «تكونت في كل أنحاء البلاد الأمريكية حالة فكرية جديدة، وضمت هذه الروح مزيجاً من كل العناصر التي تثير مشاعر العنف والتي تطلبتها الحرب حتماً. لقد كانت بعثاً وإحياءً للتعطش الدموي البدائي، الذي يكمن في كل أمة مسالمة كوحش نائم». وظهر أن الأمة الأمريكية سائرة على طريق الحرب. وكما قال مؤرخ أمريكي أيضاً: «إنك إذا أفسحت المجال أمام الاتهامات المستمرة والمتطرفة، بين طرفين من الأطراف، في نزاع ما، فإن السلاح لن يعود إلى غمده إلا إذا دمر أحد الطرفين»(١). وهكذا كان

---

(١) إدارة الحرب ــ فوللر ــ ترجمة أكرم ديري ــ دار اليقظة العربية ــ بيروت ١٩٧١ ص١٤٩ ــ ١٧٧٠.

الوضع يوم تم انتخاب أبراهام لنكولن رئيساً للولايات المتحدة الأمريكية (يوم ٦ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٥٩). فكان انتخابه إعلاناً للجنوب بانتهاء حلم توسيع أسواق الرق، وبدأت مسيرة الأحداث بالتسارع.

فقد أصدرت ولاية كارولينا الجنوبية مرسوم الانفصال في ٢٠ كانون الأول (ديسمبر) وتبعتها ولايات جورجيا وألباما والمسيسبي وفلوريدا ولويزيانا والتكساس في ١ شباط (فبراير) ١٨٦٠، ولحقت بها فرجينيا الغربية واركانساس وتنيسي وكارولينا الشمالية بين ١٧ نيسان (ابريل) و ٢٠ أيار (مايو). وقامت هذه الولايات باستدعاء الميليشيا، واحتلت حصون الاتحاد الفيديرالي. ومخازن سلاحه الواقعة في ولايات الجنوب. وأقيمت حكومة مؤقتة في ٤ شباط (فبراير) ١٨٦٠ عرفت باسم (ولايات التحالف الكونفيديرالي الأمريكي). وأسندت رئاستها إلى (جيفرسون ديفس ١٨٠٨ ــ ١٨٨٩)، واتخذت مدينة مونتغومري في ولاية ألاباما ــ أو ألباما ــ مقراً للحكومة. وكان الانتخاب الرئاسي ديموقراطياً في شكله فقط، فقد عرف الناس (ديفس) مستبداً وطاغية وأنانياً ومتكبراً، لا يحب الجدل، ولا سماع وجهات نظر الآخرين. ولا يتسامح مع أي معارضة.

كان (أبراهام لنكولن) زعيماً دكتاتورياً من و جهة نظر الدستور الأمريكي. فعندما نشبت الحرب، أقام الحصار على موانىء الجنوب، وأمر باستدعاء ٧٥ ألف متطوع لخدمة العلم بلا مصادقة الكونغرس الأمريكي. كما أوقف بسلطته أيضاً القانون الذي ينص على استصدار أمر قضائي، قبل محاكمة أي مواطن وسجنه، واعتقل الأشخاص المشكوك بولائهم بلا محاكمة، ومنهم عمدة بالتيمور للشك بميوله تجاه الجنوبيين، وسجنه في إحدى القلاع مدة زادت على السنة. وعندما سئل في اجتماع عام في ولاية الباني، عن هذه الانتهاكات أجاب: «**لقد جرت هذه الاعتقالات لا بسبب أعمال قام بها المعتقلون، لكن بسبب توقع قيامهم بها**».

وأخيراً، بلغ التوتر أقصى شدته في صباح يوم ١٢ نيسان (ابريل) ١٨٦١، عندما قام الجنوبيون بقصف حصن سومتر في شارلستون. وأعلن هدير مدافعهم بأن الجدل الذي استمر بين جيل كامل ستحسمه الحرب لمصلحة أحد الطرفين.

كان عدد أفراد جيش الولايات المتحدة النظامي قبل بدء الحرب ١٧ ألف مقاتل بين ضابط وجندي. وعندما أعلنت ولايات الجنوب الانفصال، شرعت بتطبيق التجنيد الإجباري (بداية من نيسان (ابريل) ١٨٨٢)، فتم حشد ٩٠٪ من عدد الشباب الذكور الذين وصلوا إلى سن حمل السلاح، فوصل عدد مقاتلي جيش الجنوب إلى مليون و٤٠٠ ألف مقاتل. **ومقابل ذلك، اضطر الاتحاديون لتطبيق قانون التجنيد بعد عام من بدء الحرب، فقاموا باستدعاء ٤٥٪ من الشبان. وبلغ عدد المجندين في جيش الشمال زهاء مليوني وتسعمائة ألف مقاتل.**

كانت الأغلبية العظمى من الضباط والجنود من ولايات الشمال، بينما كانت النسبة المئوية الأكبر من الضباط هم من أبناء الجنوب. لهذا عندما وقع إنفصال الجنوب، بقي معظم الجنود موالين للشمال بينما انضم عددٍ كبير من الضباط إلى الجنوب ومعظمهم من القادة الأكفاء. فامتلك جيش الشمال جسد الجيش، لهذا كان رأس الجيش المفكر للجنوب فظهر تفوقه في المرحلة الأولى من الحرب. ولولا وجود عدد من القادة المتقاعدين الذين استدعوا لقيادة الحرب: من أمثال (غرانت)[٢] و (شريدان)[٣] و (شيرمان)[٤] لكان التفوق في مصلحة قائد جيش الجنوب (لي)[٥]. **ارتبطت الحرب الأهلية الأمريكية بمجموعة من الظواهر الخاصة بالتسلح**

---

(٢) غرانت: (GRANT - ULYSSES) ١٨٢٢ ــ ١٨٨٥ م. جنرال أمريكي ــ والرئيس الثامن عشر للولايات المتحدة؛ أصبح رئيساً بعد أندرو جونسون سنة ١٨٦٩ ANDREW - JOHNSON ــ وخلفه روثر فورد ــ هاي سنة ١٨٧٧؛ (RUTHER FORD-HAYES)ــ خدم في الحرب المكسيكية (١٨٤٦ ــ ١٨٤٨ م) استقال سنة ١٨٥٤ م. وانصرف لإدارة أعمال مختلفة؛ وحقق نجاحاً ثم عاد للجيش سنة ١٨٦١ برتبة عقيد، ورفع في السنة التالية إلى رتبة لواء. وأمكن له اختراق دفاعات الجنوبيين التي كانتْ ممتدة من المسيسبي حتى كامبرلاند؛ وانتصر على شيلوه SHILOH.
عينه آبراهام لنكولن قائداً أعلى للقوات الاتحادية، وانتصر على الجنرال (لي).

(٣) شريدان: (SHERIDAN - PHILIP - HENRY) ١٨٣١ ــ ١٨٨٨ م عقيد أمريكي في سلاح الفرسان، وقائداً لقوات الفرسان الاتحاديين في الحرب الأهلية الأمريكية؛ عينه غرانت في سنة ١٨٦٣ قائداً عاماً لقوات الفرسان، وخلف شيرمان في قيادة الجيش في سنة ١٨٨٤ م.

(٤) شيرمان: (SHERMAN - WILLIAM - TECUMSCH) جنرال أمريكي من قادة الحرب الأهلية الأمريكية البارزين (١٨٢٠ ــ ١٨٩١). قاد أول معركة في (بل ران) BULL-RUN. عمل تحت قيادة شيلوه وغرانت وكوريث. أرسله غرانت في ٦ نيسان /أبريل/ ١٨٦٣ في عملية برمائية إلى فيكسبورغ ــ VICKSBURG ــ ثم عاد فأرسله مرة ثانية في ٣ تشرين الأول /اكتوبر/ ومعه ٤٠ ألف مقاتل. واشترك بعد ذلك في عدد من المعارك الناجحة؛ ثم شرع في ٥ ــ أيار /مايو/ ١٨٦٤ بمسيرته الشهيرة عبر أطلنطا للوصول إلى البحر. فوصل إلى سافانا يوم ٢١ كانون الأول /ديسمبر/ ثم توجه شمالاً عبر كارولينا. واستلم القيادة من غرانت سنة ١٨٦٩.

(٥) لي: (LEE - ROBERT - EDWARD) القائد الأعلى لقوات الجنوبيين ــ الانفصاليين ــ في الحرب الأهلية الأمريكية. اكتسب شهرة واسعة في قيادة قوات الفرسان، وأظهر كفاءة عالية في قيادة القوات أثناء الحرب. عمل مستشاراً عسكرياً للرئيس الجنوبي ــ ديفيس DAVIS (١٨٦١ ــ ١٨٦٢) حقق في البداية انتصارات على الشماليين. وأكد قدرته القيادية خلال سنوات الحرب. انظر:
(ENCYCLOPAEDIA OF MODERN - WAR (ROGER-PARKINSON) PALADIN - LONDON - 1977
pp. 21-22-142-191-287

والتقانة، فقد كانت البارودة المستخدمة ترمي بوساطة حجر القدح، التي لاتتجاوز مسافة الرمي فيها المائة متر لكن مع بدء الحرب في سنة ١٨٦١، تم استبدال هذه البارودة بالبندقية المحلزنة (مينيه) التي كان مدى الرمي المجدي فيها يتجاوز مسافة ٥٠٠م. وأصبحت الحرب الأهلية حرب رصاص البندقية المحلزنة، وحرب الخنادق، والمحطومات، وشبكات الأسلاك الشائكة—وهو نوع من الحواجز وصفه الانفصاليون الجنوبيون باختراع شيطاني لا يستطيع تخيله إلا الأمريكي — اليانكي* — لأنهم وقعوا في — دوفريز بلاف — يوم ١٦ أيار (مايو) ١٨٦٤ — كما يقع المرء في مصيدة، وذبحوا فيها كما يذبح الحجل. وكان تطور الحرب مدهشاً استخدمت فيها مدافع هاون من الخشب المطوق بالأسلاك الحديدية، والرمانات اليدوية، والقنابل المجنحة، والصواريخ، وآلاف الأفخاخ، والمصائد المتعددة الأشكال والأنواع، رشاشات (ريكا (غيتلينغ)، وبندقية التكرار التي تلقم من المغلاق، وبندقية سبنسر، كما جربت في هذه الحرب الطوربيدات، والألغام الأرضية، وألغام الأعماق، وبرق الميدان، والإشارات الضوئية، والإشارات بالإعلام. واستخدم المتحاربون القطارات المدرعة، والمناطيد، والرضاصات المتفجرة، وقاذفات اللهب. وسأل الجنرال ف. ن. باندلتون، رئيس مهندسي المدفعية في ريتشموند، فيما إذا كان يستطيع تزويده بقنابل الغازات التي تسبب آثاراً خانقة — وذلك في حزيران (يونيو) ١٨٦٤— فجاءه الجواب التالي على طلبه: «ليس لدينا أوعية محرقة ولا يحتفظ بها، ولكننا على استعداد للصنع وتلقينا أمراً بذلك». كذلك طرأ تطور كبير في وسائط الصراع البحري، ففي يوم ٩ آذار (مارس) ١٨٦٢ تم صنع الفرقاطات المدرعة ميريماك، ومونيتور — وأصبحت المراكب الخشبية المصنوعة في العالم كله مراكب عتيقة. وقد صنع هوراس. ل. هنتلي في موبيل، غواصة طولها ٦ أمتار، وارتفاعها ٥ر١م وعرضها متر، وهي تندفع بوساطة مروحة يحركها من الداخل سبعة أو ثمانية رجال.

كانت عاصمة الشمال — واشنطن — تقع على نهر البوتوماك، وعاصمة الجنوب، ريتشموند، على نهر جيمس، والمسافة الفاصلة بينهما ١٦٠ كيلومتراً، كما كان نهر المسيسبي شريان الاتصال الأكبر بين الشمال والجنوب. واستخدمت القطارات والمواصلات النهرية والبحرية طوال الحرب، على أوسع نطاق لنقل القوات وزيادة قدرتها الحركية.

ضرب الشمال الحصار الاقتصادي، والخنق التمويني على الجنوب، وربط الحرب الاقتصادية بالأعمال القتالية، والأعمال القتالية بالحرب النفسية — الإرهاب — مما أرغم الجنوب في النهاية على الاستسلام.

(*) اسم كان يطلقه الجنوبيون على الشماليين.

كانت نتيجة الحرب مدمرة للجنوب، وفادحة الثمن للشمال، فقد قتل من الشماليين نحو ١٤٠ ألفاً في الميدان، إضافة إلى ٢٨١ ألفاً ممن أصيبوا بجراح خطرة ومشوهة، كما مات من الشماليين لأسباب مختلفة زهاء ٢٤ ألفاً. وقتل من الجنوبيين ١٣٤ ألفاً. ومات أكثر من ٣١ ألفاً في سجون الاتحاديين الشماليين.

٢ الحرب العالمية الثانية: نشبت الحرب العالمية الأولى، فاشتركت الولايات المتحدة الأمريكية فيها اشتراكاً محدوداً، وعلى جبهة واحدة هي جبهة الغرب. غير أنها أفادت من هذه التجربة فائدة كبيرة، سواء على مستوى القيادة الاستراتيجية، أو على مستوى إدارة الحرب، وقيادة الأعمال القتالية. لهذا فعندما تفجرت الحرب العالمية الثانية، ألقت الولايات المتحدة بثقلها فيها وخاضت أعمالها القتالية على كل الجبهات، بداية من إنزال إفريقيا (عملية مشعل)(٦) ومن ثم صقليا، ومروراً بإنزال النورماندي يوم ٦ حزيران (يونيو) ١٩٤٤ ـــ ونهايةً بعمليات الشرق الأقصى ضد اليابانيين، إضافة إلى الأعمال القتالية البحرية في المحيطين الهادي والأطلسي. وخاضت أمريكا الحرب على جبهة الغرب، بالاشتراك مع حلفائها البريطانيين ـــ بالدرجة الأولى ـــ بينما خاضتها بصورة مستقلة في الشرق الأقصى، وفي المحيطات والبحار فكان لزاماً على القيادة الأمريكية تنسيق التعاون مع قيادات الحلفاء وشكلت هيئة رؤساء الأركان الأمريكية، ورؤساء الأركان البريطانية، ورؤساء أركان القوات البرية والبحرية الموضوعين تحت قيادة رئيس هيئة أركان الجيش الأمريكي ـــ الجنرال مارشال. أما على المستوى التنفيذي، فقد تقرر تعيين الجنرال أيزنهاور قائداً عاماً لمسرح العمليات، تساعده هيئة أركان مشتركة تضم قادة من صنوف الأسلحة الثلاثة: البرية والبحرية والجوية... وكانت مجموعات القتال تضم كل ما هو ضروري لعملياتها من سفن للإنزال، وسفن للدعم وكاسحات، وسفن حراسة ومرافقة وحاملات طائرات. بالإضافة إلى القواعد الأرضية والقواعد العائمة المخصصة لتأمين التموين والإمداد الكثيف والصيانة والإصلاح وعمليات الإخلاء. **وكانت السفن المصنوعة والمستخدمة قبل سنة ١٩٤٢، قادرة على حمل ثلاثة ملايين طن. فصنعت الولايات المتحدة في سنة ١٩٤٢ سفناً قادرة على حمل ثمانية ملايين طن، ثم**

---

(٦) عملية مشعل: (TORCH) وهو الاسم الرمزي الذي أعطي لانزال قوات الحلفاء في شمال أفريقيا بقيادة أيزنهاور. فتم إنزال المجموعة الأولى (٣٣ ـــ ألف مقاتل أمريكي وبريطاني) في الدار البيضاء بالمغرب في ليل ٧ تشرين الثاني/نوفمبر/ ١٩٤٢، فيما تم إنزال المجموعة التالية (المكونة من ٣٩ ألف أمريكي) في الجزائر يوم ٨ تشرين الثاني/نوفمبر/ ١٩٤٢. وتم إنزال المجموعة الثالثة (٣٥ ـــ ألف أمريكي) في وهران ـــ الجزائر يوم ١١ تشرين الثاني/نوفمبر.

صنعت في سنة ١٩٤٣ سفناً لحمولة ٢٠ مليون طن. كما صنعت سفن إنزال الدبابات ــ والمجهزة بمزالق الدبابات ــ وتتسع لأربعين حتى ٧٠ دبابة أو آلية. كما صنعت زوارق إنزال المشاة التي تبلغ حمولة كل واحد منها ٣٠٠طن و ٢٥٠ مقاتلاً إضافة إلى ثمانين نموذجاً من أنواع سفن الإنزال. ويظهر ذلك، ولأول وهلة، أن الاستخدام الواسع للوسائط القتالية الضخمة، والجيوش الكبيرة، المجهزة للقتال على مسارح بعيدة. بات يتطلب تخطيطاً وإعداداً دقيقاً، مع استخدام تقانة متقدمة، وتوزيع الأعباء على الحلفاء، وتنسيق التعاون معهم. فأصبح لزاماً تطوير أعمال هيئات الأركان، مما أظهر تخلف المفاهيم القديمة لهيئات الأركان العسكرية الصرفة.

وغدت العمليات بذلك معقدة، إذ دخلت فيها أكثر العوامل تنوعاً واختلافاً. وأظهر الأمريكيون أنهم على استعداد لإجراء مثل هذا التطور، بفضل ما توافر لهم من الخبرات في حربهم الأهلية، ومن خلال اشتراكهم في الحرب العالمية الأولى.

لم يتردد الأمريكيون في تعبئة أطر الجيش ــ الكوادر ــ ودعمها بالاختصاصيين المتمتعين بدرجة عالية من الكفاءة، في مختلف مجالات التقانة. وأسندوا إليهم واجبات ضخمة، ومنحوهم رتباً عالية تتناسب مع درجة مسؤولياتهم وخطورتها، مع ترك الحرية لهم لاختيار وتطبيق أفضل السبل لتحقيق النجاح في الأعمال الصناعية. وكان من نتائج ذلك، تجهيز المهندسين بدبابات خاصة تتيح حمايتهم أثناء عملهم أمام القوات، فأُدْخِلَت تعديلات خاصة لصنع دبابات برمائية (د.د). وما إن شاهد أيزنهاور هذه الدبابات خلال التجارب في كانون الثاني (يناير) ١٩٤٤ حتى طالب بتطويرها. فقامت المصانع الأمريكية خلال شهرين بتحويل ٣٠٠ دبابة شيرمان إلى دبابات برمائية. وفي الوقت ذاته. ظهرت الدبابة كاسحة الألغام، ودبابة مد الحصر المعدنية، والدبابة حاملة الحشوات المتفجرة لتدمير الموانع الأسمنتية والملاجىء، والدبابة الجرافة (تانك ــ دوزر) المعدة لتسوية المرتفعات وتمهيد الأراضي، ودبابة الجسور، والدبابة قاذفة اللهب. وكانت كل دبابة من هذه المدرعات مجهزة لأداء دور معين وتنفيذه.

حرص أيزنهاور على عزل مسرح العمليات (أوروبا) عن مؤخرته وعن عمقه الاستراتيجي. وذلك بتنفيذ برنامج واسع لقصف الخطوط الحديدية من الجو، لمنع النقل عن طريق تدمير الخطوط الحديدية والجسور والعربات والقاطرات بصورة خاصة. فتم اختيار ثمانين هدفاً في بلجيكا وشمال فرنسا بعد التأكد من تأثيرها الكامل في حركة القوات الاحتياطية. وبدأ القصف من ليل ٦ ــ ٧ آذار (مارس)، واستمر في تصعيد مستمر بلغ ذروته يوم ٢١ أيار (مايو) ١٩٤٤. وكان الجيش الألماني يستخدم عادةً نحو مائة قطار يومياً لتموين قطعاته في فرنسا. **فأمكن خلال عمليات القصف تدمير ١٨ جسراً على نهر السين من أصل ٢٤ جسراً. بينما**

أصبحت ثلاثة جسور أخرى غير صالحة للاستخدام، كما أن الجسور الثلاثة الباقية لم تكن قادرة على العمل نهاراً. وتم تثبيت أو تعطيل ١٥٠٠ قاطرة من أصل قاطرات المنطقة الشمالية التي كان عددها من قبل ألفي قاطرة، فانخفض حجم النقل إلى ١٣٪. ولم يكن هذا العمل إلا تطويراً للخطة الأمريكية في الحرب الأهلية. فقد أدرك الشماليون آنئـذٍ أنهم لا يستطيعون مهاجمة الجنوبيين ـــ الانفصاليين ـــ والقضاء عليهم إلا بالتدريج، وإلا بتضييق رقعة أرضهم مع القضاء على مواردهم ليتاح إمداد تموين جيوشهم في الميدان. فعمل الاتحاديون ـــ الشماليون ـــ على وضع خطتهم على أساس ممارسة الضغوط العسكرية والضغوط الاقتصادية، في آنٍ واحد. وفرض حصار شديد على كل موانىء الجنوب، وتشكيل جيشين وإطلاقهما في وقت واحد. ليتحرك الجيش الأول إلى المسيسيبي، ويقطع الجزء الغربي من اتحاد ولايات الجنوب، بينما يهدد الجيش الثاني عاصمة الجنوبيين ـــ ريتشموند ـــ ويثبت الجزء الأكبر من القوات الجنوبية في فرجينيا.

لم تكن عملية عزل مسرح العمليات، في مفهوم (أيزنهاور)، منفصلة في الواقع عن العمليات التي حملت اسم (القصف الاستراتيجي) والتي طبقها الأمريكيون وحلفاؤهم على أوروبا، ومن أهدافها:

١ ـــ تدمير المدن والتجمعات السكانية بهدف إحباط الروح المعنوية للمواطنين ودفعهم للتمرد.
٢ ـــ تدمير منابع الطاقة (الفحم والبترول) لشل حركة الجيوش والقوات المحاربة.
٣ ـــ تدمير وسائط النقل: الخطوط الحديدية، والجسور، والطرق. وكانت النتيجة تدمير ثلاثة ملايين وستمائة ألف مجموعة سكنية وتشريد سبعة ملايين ونصف المليون من الألمان، وقتل ٣٠٠ ألف وجرح نحو ٧٨٠ ألفاً. وقدر التدمير في برلين وحدها بنسبة ٧٠٪. وهنا أيضاً ترتبط ظاهرة التطرف في العنف بجذور الحرب الأهلية الأمريكية. ففي هذه الحرب «**كان القانون الوحيد الذي يتحكم بمردود الآلة هو أن الغاية تبرر الوسيلة. ولم يكن بالمستطاع التسامح بوجود تصورات معنوية وفكرية، أو وجود سلوك تقليدي يقف حجر عثرة أمام تحقيق هذه الغاية**». وهذا ما كان ـــ شيرمان ـــ قد طبقه عندما استولى على أطلنطا في ١ أيلول (سبتمبر) ١٨٦٤. حيث صمم على ألا يترك أي أثر للأعداء خلفه، وقام بإجلاء السكان. وكتب رسالة إلى رئيس هيئة الأركان العامة في واشنطن جاء فيها: «**لو زمجر السكان، واحتجوا ضد بربريتي وشراستي فإني سأرد عليهم أن الحرب هي الحرب. فإذا كانوا يريدون السلم. فما عليهم إلا أن يوقفوا هم وعائلاتهم الحرب... إني أعرف بالطبع أن مثل هذا التدمير سينتقد بعنف ـــ إلا أنني قررت أن أضعه موضع التنفيذ. وأنا على ثقة تامة بأن ذلك هو الإجراء الصحيح، وأن الزمن كفيل بتبرئته والحكم على**

تعقله». وانتقل بذلك التطرف في الحرب من حيز الأفق العسكري الضيق إلى الأفق الشامل. ولم تعد الحرب ضد الجيوش بل ضد الشعوب. وكان ذلك مفهوماً غريباً، عند ظهوره، إذ أطلق على شيرمان اسم (عطيل ــ أتيلا ــ القارة الأمريكية) غير أن هذا المفهوم أصبح من الظواهر اللصيقة بالمذهب العسكري الأمريكي(٧).

لقد كانت الحرب العالمية الثانية للولايات المتحدة الأمريكية هي حرب إنزالات بحرية، وحرب إنزالات جوية، وتم في هذه العمليات زج كل أنواع صنوف الأسلحة البرية: مشاة ومدرعات ومدفعية وهندسة... إلخ، بالتعاون الوثيق مع القوات الجوية والبحرية. وقد تطلب ذلك استخدام أنواع كثيرة من الأعتدة والوسائط القتالية، وبكميات كبيرة، وقد أظهرت مسيرة الحرب أنه ما من دولة كانت قادرة على تقديم مثل هذا الجهد الحربي الكبير. وعلى سبيل المثال، فقد أبدع الألمان في إنزال قوات المظليين، والقوات المنقولة جواً، غير أنهم لم يتمكنوا من زج تشكيل بحجم ثلاث فرق من المظليين في وقت واحد (على نحو ما فعله الأمريكيون في النورماندي، وفي الأرنيم) مع تحقيق الدعم الجوي لهذه القوى.

٣ **القتال ضد اليابانيين**: بدأت الولايات المتحدة بمساعدة الحلفاء ــ الإنكليز والروس ــ قبل أن تعلن الحرب على أحد. وكان الرئيس الأمريكي بحاجة للحجة التي تستثير حماسة الشعب الأمريكي وتحمله على خوض الحرب خارج الولايات المتحدة. فجاءت اليابان وقدمت هذه الحجة، عندما هاجمت قاعدة (بيرل هاربور) يوم الأحد ٧ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤١. وكانت ظروف الهجوم غريبة جداً، والمباغتة تامة، ولا يمكن تفسيرها، حتى تساءل بعضهم عن حقيقة تلك المصادفات المثيرة التي اقترنت بالعملية، وعما إذا كان الرئيس الأمريكي قد تحمل مخاطر هذه المجازفة عن تصميم وتصور، ليثير صدمة انفعالية تزج بلاده في الحرب بلا معارضة ومن تلك المصادفات ابتعاد ثلاث حاملات طائرات أمريكية، مجموع حمولتها ٨٥ ألف طن عن بيرل

---

(٧) يمكن هنا تأكيد حقيقة التطرف في العنف بأقوال شيرمان ذاته والتي كان منها: «ليست هناك فائدة من احتلال جورجيا، وذلك إلى أن نتمكن من إعادة إسكانها بسكان جدد ــ آخرين ــ نظراً لأن التدمير التام للطرق والمنازل والسكان سيقضي على كل مواردها العسكرية. وفي وسعي أن أتابع التقدم جاعلاً جورجيا تعوي وتصرخ... إني أشعر بأنه إذا ما اضطررت للهجوم، فمن حقي اللجوء إلى أقسى التدابير... وسأحاول جهدي عدم كبح جماح جيشي... إننا لا نحارب جيوشاً معادية فحسب؛ بل إننا نحارب أيضاً شعباً معادياً، وعلينا أن نجعل الشيوخ والشبان؛ الأغنياء والفقراء؛ يدركون قوة القبضة الحديدية للحرب... والحقيقة أن كل الجيش يغلي برغبة لا يخمد أوارها للانتقام من كارولينا الجنوبية؛ وإن فرائصي لترتعد من مصيرها المرتقب».

هاربور لإجراء مناورات. وعلى كل حال، خسر الأمريكيون في مياه بيرل هاربور ٨ دارعات، و٨ طرادات، وعدداً من السفن البحرية، مقابل ٣٠ طائرة خسرها اليابانيون و٦ غواصات. فكانت ضربة قاسية على الأمريكيين إنما غير قاتلة. وأعلنت الولايات المتحدة الحرب، ودخلتها بحرية وبقوة. وكان من المفروض أن ترى الولايات المتحدة أن خصمها الأول هو اليابان، غير أنها أعطت هذا الخصم الأهمية الثانية، وقدمت جهدها الأكبر لجبهة الغرب ـــ ضد ألمانيا ـــ ودعمت، في الوقت ذاته، قادتها في المحيط الهادي لمتابعة الحرب. فكان الجنرال ماك ـــ آرثر قائد القوات الأمريكية في الشرق الأقصى، بينما كان (الأميرال نيميتز)[8] قائد الأسطول السابع العامل في المحيط الهادي. الذي بدأ أعماله بالإغارة على الأسطول الياباني في ٥ أيار (مايو) ١٩٤٢ فتم إغراق ٣ حاملات طائرات يابانية. مقابل إغراق حاملتي طائرات أمريكية (معركة جزر بحر الكوراي) والمهم في الأمر أن هذه الإغارة أرغمت اليابانيين على الانسحاب وحالت دون تنفيذ مخططهم لاحتلال موريس باي في غينيا الجديدة. حاول اليابانيون الانتقام لهذه الهزيمة، فقرروا احتلال جزيرة (ميدواي) قاعدة عمليات القوات البحرية والجوية الأمريكية، ونظموا أسطولاً ضخماً من ٨ حاملات طائرات و٧ بوارج و١١ طراداً و٤٥ مدمرة و١٦ غواصة. وقسمت هذه القوة إلى أربع مجموعات قتالية. غير أن (نيميتز) كان على اطلاع بمقاصد اليابانيين، إذ تمكنت مخابراته من حل رموز (الشيفرة اليابانية)، فشرع بالإعداد لتنفيذ خطة مضادة، واستطاع العمل بسرية تامة، فحشد ثلاث حاملات طائرات و٨ طرادات و١٧ مدمرة و١٩ غواصة، وقسمها إلى أسيطلين. وحشد في بجزيرة ميدواي [illegible] طائرة. ووقعت المعركة الحاسمة (معركة ميدواي [illegible] في ٤ حزيران (يونيو) ١٩٤٢) بعد اشتباكات ثانوية، وأسفرت عن خسارة ٤ حاملات طائرات يابانية ـــ غرقت ـــ وطراد ياباني ثقيل، و٢٧٥ طائرة و٣٥٠٠ مقاتل. وخسر الأمريكيون ٣٠٧ مقاتلين و١٣٢ طائرة وزورقين حربيين.

شرع (نيميتز) في استثمار هذا النصر لتطبيق السياسة الاستراتيجية المعروفة، وهي ربط الأعمال القتالية بالخنق الاقتصادي: فطور قتال الغواصات ضد المواصلات البحرية اليابانية

---

(٨) نيميتز: (NIMITZ - CHESTER - WILLIAM) أميرال أمريكي (١٨٨٥ ـــ ١٩٦٦م) تدرج في سلم القيادة حتى أصبح القائد الأعلى للأسطول الأمريكي في المحيط الهادي (الأسطول السابع) من كانون الثاني / يناير / ١٩٤١ حتى تشرين الثاني / نوفمبر / ١٩٤٥ وتولى قيادة أضخم حشد بحري أمريكي في الحرب ضد اليابان، وقد أدى ذلك إلى ظهور تناقض في وجهات النظر بينه وبين ماك ـــ آرثر، غير أن وجود قائدين مسؤولين عن الأعمال القتالية في مسرح واحد لم يؤثر في إدارة الحرب؛ إذ كانت القيادة العليا في واشنطن تعمل على تنسيق التعاون فيما بينهما.

الطويلة المعرضة للأخطار. فاتسعت دوائر الحصار، تدريجياً، على القواعد اليابانية وخطوط المواصلات. ولم تكن الإمكانات الصناعية والغذائية لليابان معادلة لما كانت تتعرض له من الخسائر. وهكذا شهد صيف عام ١٩٤٢ المرحلة الأولى من عودة الغزو والاحتلال في (غواد القنال). إذ قام (مشاة البحرية) من القوات الأمريكية بإنزال في الجزيرة في ١٧ آب (أغسطس) واحتلت (تولاجي) في اليوم التالي. ثم بدأت سلسلة طويلة من المعارك حول مطار (غواد القنال). بينما جرت في البحار المجاورة، في ثلاثة أشهر، مجموعة من العمليات الجوية ــ البحرية كان هدفها تحقيق السيادة الجوية للقيام بعمليات إنزال جديدة. وجرت معارك جزيرة سافو، وجزر سليمان، وجزيرة سانتاكروز. وتاسفارونغو، كانت فيها خسارة الطرفين متعادلة، وتميزت المعارك البرية بالشراسة. وعندما احتل الأمريكيون أخيراً جزيرة (غواد القنال) في ٩ شباط (فبراير) ١٩٤٣، كان اليابانيون قد خسروا ٥٠ ألف مقاتل، مقابل ٤ آلاف مقاتل أمريكي. وكم كان خلف هذه الأرقام من مآس ومتاعب وآلام وحرمان عاناها الطرفان، وسط جحيم أصبح أسطورة من الأساطير. وتابع الأمريكيون عملية الخنق في المحيط الهادي، وذلك بالانتقال من احتلال هدف استراتيجي إلى هدف استراتيجي آخر. ودامت العمليات طيلة سنة ١٩٤٣. وكان الجنرال (ماك آرثر) القائد الأعلى لهذا المسرح الذي اعتمد على توافر عدد من القواعد في نيوزيلندا وأستراليا فتمت مهاجمة جزر كارولين، وديك، وتاراوا وكواجالين، وتابع (ماك آرثر) تقدمه نحو اليابان على محورين وبقفزات تشبه (قفزات الأرنب). وكل قفزة (عملية إنزال) تأتي بعد عملية تمهيد كثيفة تقوم بها القوات الجوية. فأمكن عزل القواعد اليابانية ــ الجوية والبحرية ــ الكبرى في رابول وغينيا الجديدة وتروك وكارولين، والاستيلاء عليها ــ فيما بعد ــ وأدى كل ذلك إلى قطع وعزل ٢٥٠ ألف ياباني عن وطنهم الأم. في أثناء ذلك، تمكن الأميرال (نيميتز) من اختراق حزام الدفاع الياباني المستند إلى جزر ماريان (مع غوام وتينيان وسايبان)، حيث تمركزت طائرات القوة الجوية الأمريكية، وصارت قادرة على قصف جزء من اليابان. وجزر بالوس التي تشكل الهدف التالي.

وقد ألقى الأميرال نيميتز هذه المهمة على عاتق مجموعة قتالية (تاسك فورس) ضمت ٥٥٣ قطعة بحرية وألفي طائرة و٣٠٠ ألف رجل. وتم الإنزال في جزيرة سايبان يوم ١٥ حزيران (يونيو) ١٩٤٤. واصطدمت قوات الإنزال بمقاومة فرقتين يابانيتين محصنتين جيداً، ومدعمتين بمدفعية قوية. وقام اليابانيون بهجمات مضادة انتحارية، وقاوموا بعناد، غير أن المقاومة النظامية توقفت يوم ٩ تموز (يوليو). وبقيت مجموعات صغيرة استمرت في ممارسة قتال العصابات حتى نهاية الحرب. وخسر الأمريكيون في هذه العملية ٣ آلاف قتيل، و١٤ ألف جريح مقابل ٢٥ ألف قتيل من اليابانيين، وما لا يزيد عن ١٧٠٠ أسير. ثم انطلقت مشاة البحرية من سايبان فاستولت على تايبان الغربية. فتم بذلك خرق نطاق جزر ماريان الدفاعي الحصين وأمكن الاستيلاء على (موروتاي) في شمال غرب غينيا الجديدة. وجزر بالوس الواقعة غرب جزر كارولين

في يوم واحد يوم ١٥ أيلول (سبتمبر) ١٩٤٤ . **وجاءت بذلك لحظة الهجوم على الفيلبين الذي أعد بعناية وحشدت له قوة بحرية ضخمة** (ضمت ١٢ **دارعة و٣٤ حاملة طائرات منها ٨ حاملات ثقيلة و٢٣ طراداً و١١٨ مدمرة)**. ووقعت في هذه الفترة معارك جوية عنيفة فوق فورموزا ــ ما بين ١٢ و ١٥ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٤ وانتهت بتدمير الطيران الياباني فأمكن بذلك إنزال مائة ألف مقاتل أمريكي على أرض (لايت) من غير صعوبات تذكر . يوم ٢٠ تشرين الأول (أكتوبر). وحاول اليابانيون إحباط الغزو الأمريكي، فوجهوا أسطولهم نحو لايت. ودارت معركة بحرية طاحنة في ليل ٢٤ ــ ٢٥ تشرين الأول (أكتوبر). انتهت بإغراق ٢٦ قطعة بحرية يابانية مقابل ٦ قطع أمريكية فقط. وتابع الأمريكيون عملهم في لايت إلى أن تم لهم تدمير كل القوات اليابانية في كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤٤ وأصبح باستطاعة قاذفات القنابل الأمريكية المتمركزة في جزر ماريان ــ قصف الجزيرة اليابانية الكبيرة ــ كيوشو.

دارت أعنف المعارك بعدئـذٍ في جزيرة (أيوجيما) من أرخبيل بوينين، استمر فيها القصف البحري والجوي للجزيرة مدة سبعة أشهر، منها ٧٤ يوماً، كان القصف مستمراً في الليل والنهار... وكانت القوات اليابانية المدافعة عن هذه الجزيرة التي لاتزيد مساحتها على ٢٠ كيلومتراً مربعاً تضم ٢٣ ألف رجل. فزج الأمريكيون قوة من ٨٠٠ قطعة بحرية. و١٥٠٠ طائرة و٣ فرق من المشاة البحرية (٦٠ ألف مقاتل). ورغم ذلك استمر القتال من ١٩ شباط (فبراير) ١٩٤٥ حتى ١٨ آذار (مارس) وخسر اليابانيون ٢٢ ألف قتيل وألف أسير والأمريكيون ٦ آلاف قتيل و٢٠ ألف جريح، ثم انتقل الأمريكيون للهجوم على (أوكيناوا) وبدؤوا بقصف اليابان. واستمر الصراع العنيف إلى أن جاءت اللحظة الحاسمة. فأقلعت ثلاث طائرات (ب ــ ٢٩) في يوم ٦ آب (أغسطس) ١٩٤٥. من مطار تينيان، كانت إحداها تحمل قنبلة ذرية تم إسقاطها فوق هيروشيما فمات ٨٠ ألف ياباني على الفور، ثم ارتفع العدد إلى ١٥٠ ألف قتيل. وفي يوم ٩ آب (أغسطس) أسقطت قنبلة ذرية ثانية على ناغازاكي. فسقط ٧٤ ألف قتيل و٦٠ ألف جريح. وفي يوم ١٠ آب (أغسطس) أعلن إمبراطور اليابان رغبته في إيقاف القتال. واستقبل ماك آرثر على ظهر الدارعة (ميسوري) الوفد الياباني الذي وقع وثيقة استسلام اليابان يوم ٢ أيلول (سبتمبر) ١٩٤٥. وانتهت الحرب العالمية الثانية في الشرق الأقصى.

[٤] **حروب ما بعد الحرب**: تنفس العالم الصعداء وهو ينفض عنه غبار الحرب، ويخلف وراءه همومها ومعاناتها وأحزانها، وظهر للعالم أنه أمام عصر جديد، فقد ظهر من خلال لهيب الحرب أن ثمة تغيرات كبيرة ستحدث بصورة حتمية وفي طليعتها انهيار عالم الاستعمار الغربي الذي تسبب في تفجير حربين عالميتين، علاوةً على مجموعة رهيبة وغير محدودة من الحروب

الاستعمارية التي أرهقت العالم وأدت إلى استنزافه وإفقاره، ومقابل ذلك ظهر واضحاً أن الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي اللذين خرجا منتصرين من الحرب، تتبعا نهجاً مشتركاً في تصفية الاستعمار الغربي ـ هذا ما تضمنه ميثاق هيئة الأمم المتحدة. لكن إذا ما كانت الدولتان العظميان متفقتين على تصفية الاستعمار، فإنهما لم تكونا متفقتين على النتائج، مما أدى بالتالي إلى اختلاف حلفاء الحرب في النهج الواجب اتباعه لتسوية المشكلات الدولية لبناء عالم ما بعد الحرب. وكانت (الحرب الكورية ١٩٥٠ ـ ١٩٥٣) النموذج الأول ـ والأكثر وضوحاً ـ لاستطالات الحرب العالمية الثانية، فيما أصبح معروفاً باسم (الحروب المحدودة). وكانت الدولتان العظميان: قد اتفقتا في مؤتمر بوتسدام في ١٥ آب (أغسطس) ١٩٤٥، أن تقوم القوات السوفييتية بالقضاء على القوات اليابانية في كوريا، شمال خط العرض ٣٨، بينما تقوم القوات الأمريكية بالقضاء على القوات اليابانية إلى الجنوب من هذا الخط الوهمي. وأمكن إزالة وجود القوات اليابانية من كوريا بلا عناء. لكن الطرفين الأمريكي والسوفييتي شرعا على الفور بإقامة نظام يتبع له، ووفقاً لأسلوبه ومفهومه، وتحول خط العرض الوهمي إلى خط حدود حقيقي يفصل بين الكوريتين وكان لا بد من الاحتكاك بين النظامين اللذين قسما الشعب الواحد إلى شعبين، ويمكن تجاوز ما قامت به الدولتان العظميان خلال السنوات التي سبقت الحرب من تدابير وإجراءات أسهمت في تصعيد التوتر، وفي تعميق الانقسام. فكان تفجر الحرب أمراً لا مفر منه، سعت فيها القيادة الشمالية إلى توحيد الشعب الكوري. **ووقع الانفجار يوم ٢٥ حزيران (يونيو) ١٩٥٠ عندما اجتاحت ست فرق من قوات كوريا الشمالية خط العرض ٣٨، واندفعت بمدرعاتها ومدفعيتها نحو الجنوب.** وأدى هذا الهجوم المباغت إلى انهيار مقاومة الجنوبيين. فتمكنت قوات الشمال من الوصول إلى عاصمة الجنوبيين (سيؤول) واحتلالها يوم ٢٨ حزيران (يونيو)، ثم تابعت تحركها بتصميم وثبات نحو الجنوب، بحيث لم يبق بيد القوات الأمريكية والقوات الجنوبية إلا قاعدة بوزان ومحيطها (حيث تجمعت في هذه المنطقة في نهاية شهر آب (أغسطس) ١٩٥٠ مجموعة من خمس فرق أمريكية ـ تضم مائة ألف مقاتل ـ و٥٠٠ دبابة و٨ فرق من قوات كوريا الجنوبية). **وسيطر الشماليون بذلك على ٩٠٪ من التراب الكوري بينما لم يبق بيد الجنوبيين أكثر من ١٠٪ من مساحة كوريا، وذلك بعد شهرين من بداية الحرب.**

كانت الولايات المتحدة قد طلبت عقد جلسة لمجلس الأمن عند تقدم القوات الكورية الشمالية، فوجه مجلس الأمن نداءً في اليوم التالي لبدء الحرب (٢٦ حزيران) طلب فيه إيقاف الحرب وعودة قوات كوريا الشمالية إلى ما وراء خط العرض ٣٨. غير أن كوريا الشمالية برئاسة كيم إيل سونغ، رفضت النداء، فاجتمع مجلس الأمن يوم ٢٧ حزيران (يونيو) وأصدر قراراً بدعم كوريا الجنوبية في قتالها ضد كوريا الشمالية. وتقرر تشكيل قوة للدعم من إنكلترا، وأستراليا، وتركيا، واليونان، ونيوزيلندا وكندا وتايلاند وفرنسا وهولندا وكولومبيا وبلجيكا

وأثيوبيا واللوكسمبورغ وجنوب إفريقيا. وكانت قوات هذه الدول رمزية ـــ كتائب وألوية ـــ بينما بقيت القوات الأمريكية هي القوات الرئيسة. وتم تعيين (ماك آرثر) قائداً أعلى لقوات هيئة الأمم المتحدة في كوريا يوم ٧ تموز (يوليو) ١٩٥٠. وكان ماك آرثر القائد الأعلى للقوات الأمريكية في الشرق الأقصى قد شرع منذ يوم ٢٧ حزيران (يونيو) ـــ بتنفيذ أوامر الرئيس ترومان في تقديم الدعم للجنوبيين، مقابل ما كان يقدمه الاتحاد السوفييتي والصين من دعم في القوى الجوية والتسلح والقوات. وشرع ماك آرثر في إعداد مخططاته للقيام بهجوم مضاد واسع، ينطلق من الجنوب (بوزان). مع الإفادة من التفوق البحري والجوي، للقيام بإنزال في (انتشون) لعزل كوريا الشمالية عن قواعدها في الشمال وحصرها بين المطرقة المنطلقة من بوزان، والسندان المشكل على خط انتشون ـــ سيؤول. وتم تنفيذ هذه العملية يوم ١٥ أيلول (سبتمبر) ١٩٥٠، بعد تمهيد من مدفعية الأسطول ومن القاذفات (ب ـــ ٢٩) استمر أياماً متتالية. واستعادت قوات ماك آرثر ـــ العاصمة سيؤول يوم ٢٨/٩/١٩٥٠. وأسرع الشماليون بالانسحاب وتمكنت الكتلة الرئيسة من قوات كوريا الشمالية من الوصول إلى قواعدها في الشمال، قبل أن تحكم عليها قوات ماك آرثر قبضة الحصار. فتابعت قوات ماك آرثر تقدمها نحو الشمال. واجتازت خط العرض ٣٨، واحتلت عاصمة الشمال (بيونغ يانغ) يوم ٢١/١٠/١٩٥٠. واستمر الصراع في إطار حرب استنزاف. **وظهر في بعض المراحل خطر تطور الحرب الكورية إلى حرب عالمية، بسبب اقتراحات الصقور (وعلى رأسهم ماك آرثر) اجتياح الصين، واللجوء إلى السلاح النووي. لكن الدول العظمى (أمريكا وروسيا والصين) تمكنت من حصر الصراع، وإيجاد سبيل للتفاهم، فتم عقده في قاعة السلام في (باغونجوم) يوم ٢٧/٧/١٩٥٣. وانتهت الحرب الكورية باعتبار خط العرض ٣٨ الحد الفاصل بين الدولتين الكوريتين.** وخسرت قوات الولايات المتحدة في هذه الحرب ١١٩ ألف قتيل و٢٦٥ ألف جريح و٩٣ ألف أسير، بينما خسر الشماليون مليون وستمائة ألف قتيل، ووقع القسم الأكبر من الخسائر المادية على الولايات المتحدة.

تفجرت بعد ذلك الحرب الفييتنامية ـــ الأمريكية (١٩٥٤ ـــ ١٩٧٥) ولم تختلف عوامل تفجر هذه الحرب عنها في الحرب الكورية. فقد خرجت فرنسا من حرب الهند الصينية في ٢١ تموز (يوليو) ١٩٥٤ مهزومة خاسرة، بعد صراع مرير وعنيف استمر نحو خمس سنوات. واعتبرت اتفاقية الهدنة أن خط العرض ١٧ ـــ هو الخط الفاصل بين فييتنام الشمالية (وزعيمها هو تشيه مينه) وقائد قواتها (الجنرال جياب)، وعاصمتها (هانوي)، وبين فييتنام الجنوبية وعاصمتها سايغون. ووقف الاتحاد السوفييتي والصين إلى جانب الثوار الفييتناميين، كما وقفت الولايات المتحدة إلى جانب الحكومة الفييتنامية ـــ الجنوبية ـــ وقد أخذ الصراع شكلاً متبدلاً

ومتطوراً باستمرار مما فرض على الأمريكيين تطوير أساليبهم ووسائطهم القتالية، وحتى شكل تدخلهم فقد بدأ الصراع المسلح ضمن إطار حرب عصابات، ثم اقترنت أعمال العصابات، بقتال قوات نظامية، واستخدمت فيه وسائط التقانة المتقدمة (وسائط الحرب الإلكترونية). وأفادت الولايات المتحدة من هذه الحرب لتطوير وسائط حرب الحركة «حوامات النقل، وحوامات الدعم الناري»، وهكذا لم يأت تطور قوات التدخل السريع وتطوير الحوامات إلا نتيجة لما تم تجربته في الحرب الفييتنامية. كذلك استخدمت في هذه الحرب وسائط الحرب الكيميائية والحرب البكتريولوجية لتدمير الغابات وإزالتها خصوصاً.

تطور حجم القوات الأمريكية في فييتنام، فبينما كان عدد المستشارين العسكريين الأمريكيين في سنة ١٩٥٦ لا يتجاوز ثلاثة آلاف خبير، مهمتهم تنظيم الجيش الفييتنامي وتسليحه وتدريبه. ارتفع العدد إلى ٢٥ ألفاً في سنة ١٩٦٢، وأسندت إليهم مهمة قيادة القوات الفييتنامية. وعندما قررت أمريكا زيادة دعمها بالقوات، (في حزيران ١٩٦٥) إلى ٧٠ ألفاً ثم وصل في آذار (مارس) ١٩٦٦ إلى ٢١٥ ألفاً. ثم أعلن الرئيس الأمريكي جونسون زيادة هذا العدد إلى ٥٢٥ ألفاً في آب (أغسطس) ١٩٦٦، مع زج وسائط قتالية ضخمة ـــ منها ١٠٩٣ طائرة قاذفة ومقاتلة و١٠٧١ طائرة عمودية (للنقل والدعم الناري)، إضافة للمدفعية والدبابات والذخائر. وقد عمد بعض أعضاء مجلس الشيوخ الأمريكي على تقدير تكلفة قتل كل ثائر فييتنامي بمبلغ ٣٥٠ ألف دولار. وخسرت الولايات المتحدة على أرض فييتنام خلال سنوات الصراع الشاق الذي استمر زهاء ٢٠ عاماً ٥٧ ألف قتيل و٣٠٤ آلاف جريح و٣ آلاف أسير و٣٧٠٠ طائرة مقاتلة (قاذفة واعتراضية) و٥ آلاف طائرة عمودية فتجاوزت نفقات أمريكا على هذه الحرب ١٥٠ مليار دولار.

وكانت هذه الخسائر الفادحة، واستطالة أمد الحرب سبباً أساسياً في سعي أمريكا للتخلص من وحل فييتنام التي خرجت منتصرة وموحدة.

٥ قراءة في الاستراتيجية الأمريكية: يظهر العرض السابق للحروب الأمريكية ـــ على ما به من إيجاز شديد ـــ مجموعة الأسس الاستراتيجية التي تعتمدها القيادات الأمريكية في حروبها وصراعاتها المسلحة. ومنها:

أولاً ـــ حرية العمل الكبيرة للقائد العسكري: فالقيادة السياسية ـــ والاستراتيجية العليا ـــ تحدد للقائد الهدف، وتقدم له أقصى ما يمكن من الدعم، ثم تترك له حرية العمل الكاملة لبلوغ الهدف وذلك بصرف النظر عن الوسائل التي يستخدمها ـــ حتى لو كانت مرفوضة ـــ وفي الواقع، إن عدم الاهتمام بالأساليب والوسائل التي قد لا تكون أخلاقية ولا مشروعة، إنما يرتبط

ارتباطاً وثيقاً بالذرائعية (البراغماتية)* المميزة للسياسة الاستراتيجية الأمريكية. ولقد ارتكب شيرمان في الحرب الأهلية الأمريكية من الفظائع ما يضعه في مرتبة (مجرمي الحرب). ومع ذلك أمكن تغطية انحرافاته، وأسبغت عليه الفضائل والأمجاد، وتم ترفيعه لأنه حقق هدف الحرب. كذلك كان أمر (القصف الاستراتيجي) في الحرب العالمية الثانية، والذي أضر بالسكان المدنيين، أكثر من ضرره بالقوات المحاربة. والأمر مماثل بالنسبة لاستخدام النار النووية ضد اليابان. فالمهم هو بلوغ الهدف، وللقائد اختيار كل ما يراه ضرورياً لتنفيذ ما هو مطلوب منه. وعلى كل حال؛ فإن حرية عمل القائد الميداني ــ غير مطلقة تماماً، وإنما هي مرتبطة بحرية عمل القيادة العليا السياسية. وأوضح مثال على ذلك أن ماك آرثر عندما أراد تصعيد الحرب الكورية إلى المستوى العالمي ومهاجمة قواعد الكوريين في الصين، حتى لو أدى الأمر إلى قصفها بالأسلحة الذرية، عزلته القيادة السياسية من قيادته. ولم يسمح له بتجاوز الحدود التي رسمتها القيادة السياسية لتصعيد الصراع المسلح وتطويره.

ثانياً ــ الحرص على تحقيق التفوق بالقوى: فالقوات الأمريكية لا تخوض حربها إلا وهي تمتلك التفوق بالقوى والوسائط القتالية. وهي عندما تقرر خوض الحرب، تلقي في كفة ميزان الحرب كل ما يضمن لها النجاح وتعمل على دعم قواتها بكل ما هو ضروري من الوسائط. لإحراز التفوق. ولقد أبرزت تجارب الحروب الأمريكية، ما تحصل عليه القوات من وسائط الدعم غير المحدودة وذلك لمساعدتها على تحقيق النجاح المطلوب. وهذا الدعم لا يقتصر على الوسائط المادية، وإنما يشمل كل المجالات. وعلى سبيل المثال، فعندما اصطدم الأمريكيون بأساليب (حرب الأنفاق) و (حرب الخنادق) على أرض فييتنام. عملت القيادة الأمريكية على تنظيم وتسليح وتدريب وحدات خاصة (الجرذان) للتعامل مع أساليب حرق الأنفاق بنجاح. كذلك عندما اصطدم الأمريكيون بأساليب حرب المستنقعات والغابات ــ في فييتنام أيضاً ــ استخدموا على نطاق واسع المواد الكيميائية والجرافات الضخمة لإزالة غابات بكاملها. وقد كانت الوسائط التي استخدمت في النورماندي كافية لتأكيد حرص القيادة الأمريكية على ضمان تفوق قواتها، من خلال تأمين المتطلبات والوسائط المساعدة.

ثالثاً ــ دمج العلم والتقانة بالعمل العسكري: استغلت الحرب الأهلية الأمريكية جوانب نشاط المجتمع الأمريكي إلى الحد الأقصى. فتم توظيف كل ما كان متوافراً من التقانة لخدمة العمل العسكري، بدايةً من البندقية ــ البارودة ــ والمدفع الرشاش. ونهايةً بالزوارق البخارية والأسلحة

(*) Pragmatism: نظرية (أمريكية) مفادها أن معيار الحقيقة هو الصحة النفعية (في التطبيق)، وأن الحقيقي هو ما ينجح، وليس ثمة حقيقة مطلقة.

الصاروخية . ثم جاءت الحروب المتتالية لتؤكد ترسيخ هذا النهج في المذهب العسكري الأمريكي . وكان العامل الحاسم أبداً في هذا التطور ، هو ما توافر للمجتمع الأمريكي من قدرات وإمكانات في طليعتها :

١ ــ إفساح المجال الرحب أمام الإبداع والابتكار والتطوير .
٢ ــ توجيه العلوم والفنون نحو مجال التطبيق العملي .
٣ ــ توافر الإمكانات لحشد الموارد والتمويل .
٤ ــ إمكانات صناعية هائلة للإنتاج الكثيف .
٥ ــ توافر القدرة على التحول بسرعة من الإنتاج السلمي إلى الإنتاج الحربي .

هكذا كانت الحروب الأمريكية هي العامل الأول في التطور ، إذ من الواضح أن الولايات المتحدة تبدأ حربها بوسائط متقدمة ، غير أن الحرص على تجهيز المقاتلين بكل مايحتاجونه ، يجعل من تلك الوسائط متخلفة عما يتم تطويره وإنتاجه خلال الحرب . وهكذا تطورت الطائرة والدبابة وحاملات الطائرات وسواها في ظروف الحرب العالمية الثانية حتى تم الوصول إلى النار النووية . وهكذا أيضاً تطورت الحوامات ووسائط الحروب الإلكترونية والذخائر دقيقة التوجيه وسواها في ظل الحروب المحدودة (ولا سيما في الحرب الفييتنامية والحروب العربية ــ الإسرائيلية) .

رابعاً ــ القدرة الحركية العالية ، واستخدامها هجومياً : وقد ظهر ذلك واضحاً في الحرب الأهلية الأمريكية ، حيث استخدمت قوات الشمال (شيرمان) كل الوسائط المتاحة للتحرك (في الأنهار وفي المحيط وبوساطة الخطوط الحديدية) وقوافل التحرك البري في اجتياز المسافات البعيدة ، ومهاجمة الأهداف المعادية . ثم جاءت الحرب العالمية الأولى ، فدفعت الولايات المتحدة إلى تطوير قدرات النقل البحري تطويراً مذهلاً . وكانت الحرب العالمية الثانية مجالاً لتطوير التحركات الجوية . وكان كل تطوير للقدرة الحركية في أحد الاتجاهات يدفع للمزيد من التطور على الاتجاهات الأخرى ، وهكذا أسهم تطوير القدرة الحركية ، في مياه المحيطات والبحار ، في زيادة القدرة الحركية للقوات البرية التي ضار باستطاعتها اقتحام ميادين القتال في كل مكان من العالم ، وهي مجهزة بأسلحتها الكاملة من دبابات ومدفعية ... إلخ . والأمر مماثل بالنسبة لتطور القدرة الحركية الجوية . التي أسهمت بتطوير القدرة الحركية للقوات البحرية والبرية . وهكذا فإن ظهور تنظيم (قوات التدخل السريع) ليس إلا ثمرة لمجموع هذا التطور . ونظراً لاعتماد الولايات المتحدة على هذه القدرة في حروبها . فقد كان من الطبيعي أن تصبح الحروب الأمريكية جميعها حروب إنزالات بحرية وجوية . وقد لا تكون هناك جبهة اقتحمتها القوات الأمريكية في الحرب العالمية الثانية وما بعدها ، إلا وبدأت بعمليات إنزال بحري وبري .

خامساً ــ دمج كل عوامل الحرب في الصراع المسلح: فلقد دمجت في الحرب الأهلية الأمريكية العوامل الاقتصادية (الحصار والخنق والعزل). والعوامل النفسية (الإرهاب والرعب). والعوامل الاجتماعية (تحرير السود)، مع العمل العسكري. واستمر ذلك وتطور عبر الحروب. فالحرب الاقتصادية ضد ألمانيا في الحرب العالمية الأولى (حرب الغواصات والمقاطعة والحصار) كانت أشد تأثيراً في ألمانيا من الأعمال القتالية. وتكرر ذلك في الحرب العالمية الثانية، وفي الحروب المحدودة التي جاءت بعد ذلك.

سادساً ــ الاستراتيجية التشتيتية وعزل مسارح العمليات: وقد ظهر ذلك واضحاً في الحرب الأهلية الأمريكية، حيث تحركت قوات الشمال على ثلاثة محاور (برية وبواسطة الخطوط الحديدية وعبر الأنهار) لعزل مسرح العمليات وتثبيت قوات الخصم. وفي الحرب العالمية الثانية، تم إنزال القوات في المغرب والجزائر في يوم تحرك قوات الجيش الثامن بقيادة مونتغومري من (العلمين). كذلك تم إنزال النورماندي في شمال فرنسا مع إنزال ثانوي في الجنوب (أنفيل). وجرى الهجوم على الكوريين بإطلاق هجوم بري من الجنوب (بوزان) مع إنزال في أقصى الشمال (إنتشون). وليست الاستراتيجية التي حملت اسم (الحربين ونصف الحرب) أو (الحرب ونصف الحرب) إلا تعبيراً عن هذه الاستراتيجية الهادفة إلى فتح عدد من الجبهات في آنٍ واحد، لتشتيت الخصم، ولتثبيت قواته، وقد استثمرت أمريكا بذلك ما توافر لها من القدرات القتالية الهجومية.

سابعاً ــ الحرص على تطبيق مبادئ الحرب: تحرص القيادات الأمريكية ــ السياسية والعسكرية ــ باستمرار على تطبيق مبادئ الحرب تطبيقاً دقيقاً ــ وفي طليعة هذه المبادئ المباغتة والمبادأة، وأمن القوات والحشد والشؤون الإدارية والفنية للقوات... إلخ. وقد حققت القوات الأمريكية في حروبها نجاحاً مثيراً بفضل اعتمادها على الخطط الخداعية والمناورات الخداعية التضليلية. وعلى سبيل المثال ــ فقد كانت ألمانيا في الحرب العالمية الثانية تتابع حشد القوات في إنكلترا وتعرف نيات الحلفاء، وعلى الرغم من ذلك تم إنزال القوات في شمال فرنسا وجنوبها بصورة مباغتة، سواء فيما يتعلق بأمكنة الإنزال أو في حجم القوى والوسائط التي تم إنزالها.

تبقى هناك حقيقة استخلصتها الولايات المتحدة قبل غيرها، من خلال تجربة كوريا وخصوصاً تجربة فييتنام وهي أن مسألة الحروب الحديثة لم تعد مسألة تقانة متقدمة ولا حروب قدرة تدميرية هائلة، وإنما، وقبل كل شيء، حروب عقائدية ــ (إيديولوجية) مرتبطة بإطار العالم كله. وهي حروب إرادات متصارعة؛ أي أنها صراعات سياسية ــ اقتصادية ــ بالدرجة الأولى. لهذا أعطيت هذه العوامل الأفضلية الأولى في الحروب المعاصرة. وتراجع الدور العسكري إلى المرتبة الثانية، وذلك برغم ما تبذله الولايات المتحدة من جهد عبر تطوير وسائط الصراع المسلح على المستوى العالمي الشامل. والمتمثل بمشاريع كثيرة (أولها مشروع حرب الفضاء).

٨ ـــ المذهب العسكري الياباني

١ حروب التوسع: رقد إنسان الحرب المتوحش في جسد الأمة اليابانية؛ وأصدرت اليابان ما بعد الحرب العالمية الثانية قوانينها لبناء المستقبل والتي فرضت قيوداً على التسلح، وعلى بناء الجيوش، واستبعاد فكرة العودة للحرب. وظهر للوجود الإنسان الياباني المسالم، والوديع، والجد في عمله، والممسك بمفاتيح العلم والتقانة، بحيث تمكن بذلك من اقتحام معاقل العالم الصناعي في عقر دارها، وبحيث انهارت أمام إنتاجه المتطور أقوى الحصون والسدود في معظم أرجاء العالم. فهل اختفى وإلى الأبد ذاك الإنسان الياباني المقاتل؟ أم أنها متطلبات التكيف مع العصر؟ لقد أظهر المقاتل الياباني تفوقاً في ميادين الحروب لا يقل عن تفوقه اليوم في مجال العلم والتقانة والصناعة والتجارة. ويمكن اعتبار ذلك تعبيراً صادقاً عن حقيقة الاقتران بين عوامل التفوق في السلم والحرب لدى الأمم المتفوقة، أو الطامحة للتفوق. كما يمكن اعتبار ذلك تأكيداً على أن العامل الاقتصادي الذي وجد له قنوات للتبادل في الأزمنة الحديثة، كان هو العامل المحرض للحرب في عالم المنافسة الاستعمارية الذي فرض وجوده على اليابان خلال النصف الأول من القرن العشرين. فيكون المذهب العسكري الياباني ـــ التوسعي والاستعماري ـــ هو قاعدة البناء والتطور فيما بعد الحرب العالمية الثانية، ويكون العامل الاقتصادي هو المحرض الأساسي لليابان في حربها وسلمها.

فبينما كانت الدول الغربية توسع دوائر استعمارها فيما وراء البحار، وفي كل القارات كانت روسيا القيصرية تنشر استعمارها على البر الآسيوي، إذ لم يكن باستطاعتها التوسع نحو الغرب. وهكذا ومع نهاية القرن التاسع عشر، كانت القوات الروسية قد سيطرت على معظم أرجاء آسيا الشمالية، ووصلت إلى كوريا ومنشوريا. وظهرت رغبتها في ضرب اليابان التي كانت تنظم قدرة متصاعدة تهدد زخم ـــ قوة ـــ التوسع الروسي فشرعت في مد خط حديد سيبيريا ـــ وإصلاحه عند بحيرة بايكال ـــ حتى يتسنى لها نقل قواتها بسرعة إلى الشرق. وكان ذلك يهدد في الوقت ذاته المستعمرات البريطانية في الهند وبقية أرجاء آسيا، كما كان يزعج الولايات المتحدة التي باتت

تحسب حساباً للمطامع التوسعية الروسية في آسيا والمحيط الهادي. وقد أدركت اليابان ما يتهددها من خطر التوسع الروسي، فشرعت بدورها في الاستعداد للحرب. ووقفت إنكلترا وأمريكا وراء الاستعدادات اليابانية (ولو بصورة ضمنية وغير معلنة). وهكذا سارت الدولتان على طريق الحرب وهما مدفوعتان بمنطق التوسع الاستعماري الذي كان مهيمناً على العالم آنذاك، ومدعمتان بروح المنافسة الاقتصادية. فشكلت اليابان أسطولاً حربياً ضم ١٧٠ قطعة حربية و٢٦٢ سفينة نقل وإنزال ونظمت جيشاً برياً ضم — في أيام السلم — ٣٧٠ ألف مقاتل، وحشدت روسيا بالمقابل جيشاً ضم مائة ألف مقاتل و١٦٨ مدفعاً و٦٣ مركباً بحرياً، وكانت منشوريا هي منطقة حشد القوات الروسية.

وضعت القيادة اليابانية العليا خطتها على أساس استثمار تعطل خط حديد سيبيريا، وعدم تمكن القيادة الروسية من إرسال قواتها بسرعة إلى منشوريا، كما وضعت في اعتبارها حرمان روسيا من حرية العمل في المحيط خلال فصل الشتاء وذلك بالاستيلاء على ميناء (بورت آرثر) لا سيما وأن الميناء التبادلي (فلاديفوستك) يبقى مغلقاً بالجليد طوال فصل الشتاء وبذلك تعجز عن إرسال أسطولها من بحر البلطيق إلى الشرق الأقصى. ونجحت اليابان في تضليل الاستطلاع الروسي وخداعه، فلم تتمكن القيادة الروسية من معرفة حجم القوى اليابانية ولا درجة استعداداتها. **وهذا ما مكنها من توجيه ضربة مباغتة وقوية للأسطول الروسي المحتشد في ميناء (بورت آرثر) يوم ٨ شباط (فبراير) ١٩٠٤ فدمرت ثلاث قطع بحرية — حربية روسية. ثم أعلنت الحرب رسمياً على روسيا يوم ١٩ شباط (فبراير) ١٩٠٤**. وصار باستطاعة الجيوش اليابانية التحرك بحرية تامة. فتم إنزال أربعة جيوش وجهت ثلاث جيوش منها لقتال الجيش الروسي في منشوريا، فيما توجه الجيش الرابع لمحاصرة (بورت آرثر). وبلغ عدد أفراد الجيوش اليابانية التي تم زجها ١٧٥ ألفاً ومعهم ٩٠٠ مدفع. وحاول الأسطول الروسي التدخل في شهر آذار (مارس)، إلا أن اليابانيين نجحوا في تدمير الأسطول الروسي وقتل قائده في ١٤ نيسان (ابريل). كما حاول الأسطول الروسي المحتشد في (بورت آرثر) مغادرة الميناء بهدف الوصول إلى فلاديفوستوك، لكن الأسطول الياباني هاجمه وأغرق بعض قطعه. ففرت بقية القطع الروسية، وعاد بعضها إلى بورت آرثر، فيما لجأ بعضها الآخر إلى موانىء محايدة. ووقعت مجموعة من المعارك البرية والمعارك البحرية، كانت ذات أهمية ثانوية، وصمم اليابانيون على خوض معركة حاسمة ضد القوات الروسية التي كانت قد انتهت من تنظيم مواقع دفاعية حصينة امتدت مسافة بعيدة ووصلت حتى مدينة (لاون). واعتمدت الخطة اليابانية على مهاجمة الجيش الروسي في منشوريا من الجانبين، ثم تطويقه وتدميره. وبدأ الهجوم الياباني يوم ٢٤ آب (أغسطس) ١٩٠٤، واستمر لمدة أحد عشر يوماً، ووقعت في الطرفين خسائر كبيرة، حملت القيادة اليابانية على اتخاذ قرار بإيقاف الهجوم والانسحاب، غير أن القائد

الروسي (الجنرال كوداباتكين) أخطأ في تقدير موقف اليابانيين، فأمر بسحب قواته إلى مواقع دفاعية جديدة في (موكدن). فاستولى اليابانيون على (لاون). فانصرفت القيادة الروسية لإعادة تنظيم قواتها ودعمها، فأمكن زيادة قوة الجيش الروسي في منشوريا، وأصبح يضم ٢١٠ آلاف مقاتل مع ٦٤٨ مدفعاً، في حين بلغت قوة الجيش الياباني ١٧٠ ألفاً و٦٤٨ مدفعاً. وانطلق الجيش الروسي للهجوم يوم ٥ تشرين الأول (أكتوبر). ولكن الإعداد لهذا الهجوم كان سيئاً، ففشل الروس في حسم المعركة. ورد اليابانيون على ذلك بهجوم مضاد بدأ يوم ١٠ تشرين الأول (أكتوبر). غير أن هذا الهجوم بدوره عجز عن الوصول إلى الحسم. فتوقف الهجوم، وتحول الطرفان للدفاع ــ عند نهر شاه ــ على جبهة امتدت ستين كيلومتراً. ونظمت المواضع الدفاعية على شكل ثلاث نطاقات، يضم كل نطاق منها ثلاثة خطوط، مع نشر شبكات الأسلاك الشائكة التي حُمِّلت بطاقة كهربائية ذات جهد مرتفع ــ في بعض المواضع ــ مع استخدام الألغام. كذلك استخدمت الأنوار الكشافة عند صد الهجمات الليلية المعادية. واستمر اليابانيون خلال ذلك بإحكام الحصار على (بورت آرثر) ومهاجمتها، فتم لهم الاستيلاء عليها يوم ٢ كانون الثاني (يناير) ١٩٠٥. وأفادت القيادة اليابانية من هذا النجاح، فأعادت تنظيم قواتها، وصار باستطاعتها حشد كل قواتها ضد جبهة القوات الروسية في (موكدن) مع دعم هذه القوات التي ارتفع حجمها، فبلغ عدد مقاتلي الجيوش اليابانية ٢٧٠ ألفاً و١٠٦٢ مدفعاً ومائة مدفع رشاش. ومقابل ذلك، عملت القيادة الروسية على نشر جيوشها على امتداد جبهة طولها ١٥٥ كم. ودعمت قواتها فبلغ عدد مقاتلي الجيوش الروسية (الأول والثاني والثالث) حوالي ٣٠٠ ألف مقاتل و١٢٦٦ مدفعاً و٥٦ مدفعاً رشاشاً. ووضعت القيادة اليابانية خطة عملياتها على أساس تطويق القوات الروسية من الجانبين، ومحاصرتها ومن ثم تدميرها. وانطلقت القوات اليابانية للهجوم يوم ٢٠ شباط (فبراير) ١٩٠٥. فاضطرت القوات الروسية للتراجع والانسحاب إلى مواقع دفاعية جديدة ومحضرة في منطقة (صبين غاي) في منشوريا وذلك يوم ٨ آذار (مارس). وخسر اليابانيون في هذه المعركة التي امتدت على جبهة ١٥٠ كيلومتراً وبعمق ٥٠ كيلومتراً واستمرت سبعة عشر يوماً، حوالي ٧١ ألف قتيل فيما خسرت القوات الروسية ٩٠ ألف قتيل. حاولت القيادة الروسية تغطية هزائمها البرية بإحراز نصر بحري، فوجهت أسطولها من بحر البلطيق إلى المحيط الهادي. وضم هذا الأسطول ١٢ دارعة و٨ طرادات و٩ زوارق طوربيد. وبعد ثمانية أشهر من التحرك البحري **اصطدمت القوات البحرية الروسية بالأسطول الياباني الذي ضم ١٢ دارعة و١٦ طراداً و٦٥ زورق** طوربيد. ووقع الصدام عند مدخل مضيق كوريا ــ قريباً من جزيرة تسوشيما يوم ٢٧ أيار (مايو) وأظهر اليابانيون كفاءة عالية في دقة الرمي. فتم إخراج الدارعات من المعركة بعد إصابتها. واستسلمت بقية السفن الروسية، وجرح قائد الأسطول. ولم يفقد اليابانيون أي قطعة بحرية. وتوسطت فرنسا وبريطانيا والولايات المتحدة بين الطرفين المتصارعين، فتم التوقيع على هدنة

(بورتسموث) يوم ٧ أيلول (سبتمبر) ١٩٠٥ وقبلت روسيا بموجبها الجلاء عن منشوريا . والتنازل لليابان عن جزيرة لياوتونغ ونصف جزيرة سخالين . واعترفت لها بالنفوذ في كوريا . وخسر اليابانيون في الأعمال القتالية لهذه الحرب ١٩٠ ألفاً ، فيما بلغت خسائر الروس ٢٤٠ ألف رجل وتميزت الحرب اليابانية الروسية باستخدام الأسلحة الحديثة من بنادق ومدافع محلزنة ووسائط الاتصال المتقدمة (هاتف ، راديو ، تلغراف) ووسائط الحرب الإلكترونية وزوارق الطوربيد(١) .

اجتاحت العالم موجة الحروب العاتية منذ مطلع عقد الثلاثينيات ، وعاودت اليابان أخذها بسياسة الحرب . وظهر أن منغوليا ستكون مفتاح التوسع الياباني الجديد . وسارع الاتحاد السوفييتي لعقد معاهدة صداقة وعدم اعتداء مع حكومة منغوليا في ١٢ آذار (مارس) ١٩٣٩ . ونصت هذه المعاهدة على التزام الاتحاد السوفييتي بحماية منغوليا من كل عدوان . ولم تتأخر بواكير هذا العدوان عن الظهور . فقد قامت القوات اليابانية بمجموعة من الإغارات على قوات حدود منغوليا شرقي نهر (خالخين غول) . واستمرت مثل هذه الإغارات التي بدأت مع بداية شهر حزيران (يونيو) . وأسرعت القيادة السوفييتية بتوجيه الجيش الأول إلى منغوليا ودعمته بقوات جوية . ووقع أول اشتباك جوي يوم ٢٢ حزيران (يونيو) بين ٩٥ طائرة سوفييتية و ١٢٠ طائرة يابانية ، ووقع اشتباك آخر يوم ٢٤ حزيران (يونيو) . وزجت القيادة اليابانية بقوة (٦٠) طائرة بهدف تدمير القوات السوفييتية والمنغولية ، غير أن الطائرات السوفييتية تصدت لهذا الهجوم الجوي الذي وقع يوم ٢٦ حزيران (يونيو) وتمكنت من إحباطه . وخسرت اليابان في معاركها الجوية الثلاث حوالي ٦٤ طائرة مقاتلة . وكان هدف القيادة اليابانية من هذه العمليات هو الحصول على التفوق الجوي بتدمير القوات الجوية السوفييتية ، وبالتالي ضمان حرية العمل للقوات البرية وتوفير الدعم لها لتنفيذ واجباتها التي حددت بما يلي :

١ ــ تطويق تجمع القوات السوفييتية والمنغولية بكاملها وتدميرها . والتمركز شرقي نهر خالخين ــ غول .
٢ ــ عبور نهر خالخين غول وتشكيل رأس جسر على الشاطىء الغربي للنهر بهدف تدمير القوات الاحتياطية الروسية والمنغولية .
٣ ــ متابعة التوغل في منغوليا .

وبعد إنهاء الاستعدادات ، زجت القيادة اليابانية بقوات الجيش السادس ، بعد أن

---

(١) تاريخ فن الحرب ــ الجنرال ستروكوف ــ ترجمة العميد الركن صباح الدين الأتاسي ــ وزارة الدفاع ــ دمشق ١٩٦٨ ص ٣١١ ــ ٣١٩ .

دعمته بقوات منطقة (خايلار). وتمكنت القوات اليابانية من عبور نهر خالخين غول بهجوم مباغت في فجر يوم ٣ تموز (يوليو) ١٩٣٩، واحتلت قطاع جبل (باين تساغان). وسرعان ما أصدر القائد السوفييتي (جوكوف) أوامره بتركيز كثافة نارية عالية على القوات اليابانية في جبل (باين تساغان) مع زج القوات الجوية بكاملها لإيقاف تقدم اليابانيين. ثم انطلق الهجوم السوفييتي المضاد يوم ٤ تموز (يوليو) واضطر اليابانيون للانسحاب من جبل باين تساغان بعد مقاومة ضارية، وبعد معارك عنيفة، وخسر اليابانيون في هذه المعارك ٤٥ طائرة منها ٢٠ طائرة انقضاضية. وأعاد القائد السوفييتي (جوكوف) تنظيم قواته ودعمها ثم استأنف الهجوم في ليل ١٩ — ٢٠ آب (أغسطس) بهدف تدمير الجيش الياباني السادس. ودارت رحى معارك طاحنة استمرت حتى يوم ٣٠ آب (أغسطس) ١٩٣٩، حيث انتهى القتال بتدمير الجيش الياباني السادس، واستعادة السيطرة على المنطقة الواقعة ما بين شرقي نهر خالخين غول والحدود المنغولية. ولكن هذه النهاية التي شكلت مأساة للجيش الياباني لم تكن إلا البداية لعمليات التوسع الياباني في المشرق الآسيوي[٢].

٢ **في مواجهة الولايات المتحدة الأمريكية:** عندما انفجرت الحرب العالمية الثانية، كان كل ما تخشاه القيادة السوفييتية هو أن تعمل القوات اليابانية على اجتياح الأقاليم السوفييتية في آسيا تحت الشعار الذي كانت اليابان قد رفعته وهو (آسيا للآسيويين) و (طرد الرجل الأبيض ــ الأوروبي ــ من آسيا وتحريرها). غير أن الاتحاد السوفييتي حصل على معلومات ثابتة وأكيدة بأن اليابان لن تفتح على الاتحاد السوفييتي جبهة ثانية تضعه تحت المطرقة الغربية (ألمانيا النازية) والسندان الشرقي (اليابان). ومقابل ذلك، فقد كانت بريطانيا العظمى هي الدولة الأولى التي ستتعرض للخسارة من جراء التوسع الياباني في آسيا. فسارعت في التنسيق مع الولايات المتحدة للتضييق على اليابان واستفزازها ودفعها للحرب[٣]. وكان الحلفاء قد عقدوا مؤتمراً في لندن في

---

(٢) مذكرات وآراء ــ المارشال جوكوف ــ وزارة الدفاع ــ دمشق ــ ١٩٧٢ ص ١٥٧ ــ ١٧٩.

(٣) يمكن الإشارة إلى ما قاله رئيس وزراء بريطانيا ــ تشرشل ــ بهذا الصدد: «لقد صرحت لحاشية روزفلت؛ إنني أفضل إعلان أمريكا للحرب فوراً». وكان رد الرئيس الأمريكي ــ روزفلت: «من الممكن ألا أعلن الحرب أبداً؛ وأن أخوضها؛ فإذا كان من الواجب عليَّ أن أطلب إلى الكونغرس إعلانها، فقد يناقشها الكونغرس لمدة ثلاثة أشهر. وستدخل الولايات المتحدة الحرب في الشرق الأقصى ــ ضد اليابان ــ حتى لو لم تقم بالهجوم. ولدي الثقة بالنصر النهائي... وأعد بتوجيه مذكرة تصاغ بعبارات قاسية لدى عودتي إلى واشنطن. وستسلم إلى سفير اليابان المعتمد لدى البيت الأبيض». وقد فعل روزفلت ذلك يوم ١٧ آب /أغسطس ــ ١٩٤١ ــ وانظر إدارة الحرب ــ فوللر ــ ترجمة أكرم ديري ــ دار اليقظة ــ بيروت ١٩٧١ ص ٤٢٧ ــ ٤٣٢.

١٤ آب (أغسطس) ١٩٤١ . أقروا فيه ماعرف باسم (ميثاق الأطلسي) فيما كانت الولايات المتحدة تتابع مفاوضاتها مع اليابان . وكان كل طرف من الأطراف يسعى إلى ربح الوقت . وكتب تشرشل إلى روزفلت في ٥ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤١ رسالة جاء فيها : « **لم يتخذ اليابانيون حتى الآن أي قرار لاينقض ، ويظهر أن الامبراطور يتمهل في اتخاذ قراره . وعندما تحدثنا عن هذا الموضوع في ــ بلاسنتيا ــ كان رأيكم أن نكسب الوقت . وقد حققت هذه الطريقة نجاحاً رائعاً حتى الآن . وإن الحظر الذي فرضناه على التصدير سيرغم اليابانيين بالتأكيد على الاختيار بين السلم والحرب** » .

اتخذت اليابان قرارها بعد خمسة عشر يوماً . وتلقت واشنطن اقتراحات اليابان بتسوية عامة تقوم على الأسس التالية في ٢٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤١ :

١ ــ تنسحب القوات اليابانية من الهند الصينية الفرنسية (فييتنام) بعد توقيع معاهدة متكافئة لمنطقة المحيط الهادي .

٢ ــ تعاد العلاقات التجارية المتبادلة بين اليابان والولايات المتحدة الأمريكية .

٣ ــ تقبل الولايات المتحدة بتموين اليابان بالبترول .

٤ ــ تتعهد الولايات المتحدة بالامتناع عن اتخاذ أية تدابير أو أعمال تسيء إلى عودة السلام بين اليابان والصين .

ودرس الرئيس الأمريكي روزفلت ووزير الحرب الأمريكي هنري ل . سيمون هذه الاقتراحات يوم ٢٥ تشرين الثاني (نوفمبر) وقد ذكر وزير الحرب في تقريره عن البحث في هذا الموضوع ما يلي : « **ذهبت والجنرال ماريشال إلى البيت الأبيض عند الظهيرة لمعالجة موضوع العلاقة مع اليابان . فأثار الرئيس احتمال قيام اليابان بالهجوم علينا بعد أسبوع . وكانت المسألة هي معرفة ماذا سنفعل ؟ وكيف سندفعهم لإطلاق الطلقة الأولى دون أن نورط أنفسنا في وضع خطر جداً** » .

عرف الأمريكيون بواسطة الرسائل السرية الألمانية الملتقطة ، والتي كانت استخبارات الجيش واستخبارات البحرية قد تمكنت من حل رموزها : أن المقترحات اليابانية التي تضمنتها مذكرة يوم ٢٠ تشرين الثاني (نوفمبر) هي مقترحات نهائية . فاستند وزير الخارجية الأمريكي (كوردل هول) لهذه المعرفة ، وأعد مذكرة تضمنت عشرة بنود وسلمها إلى السفير الياباني في واشنطن ــ وتضمنت : « **على اليابان أن تتعهد بتوقيع معاهدة عدم اعتداء مع واشنطن وموسكو والبلاد المنخفضة وتشونغ كينغ وبانكوك ، وذلك مقابل الاتفاق على معاهدة تجارية جديدة ، ولرفع الحظر عن أرصدة الشعبين . كما تتعهد اليابان بسحب قواتها المسلحة من الصين ومن الهند الصينية ، وبعدم مساعدة أية حكومة في الصين غير حكومة تشانغ ــ كاي ــ شيك** » .

اعتبرت اليابان أن هذه المذكرة ما هي إلا إنذار، أو بمثابة إعلان للحرب، فردت على ذلك بهجومها المباغت على بيرل هاربور وماليزيا وتايلاند وهونغ كونغ يوم ٧ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤١. وبذلك أخذت الحرب إطارها العالمي بعد أن كانت مقتصرة على أوروبا. ولهذا فعندما وصلت أخبار الهجوم الياباني إلى تشرشل، قال: «**انتصرنا أخيراً. لقد ختم مصير هتلر، وختم مصير موسوليني، أما اليابانيون فسيتحولون إلى رماد... وسأذهب لأنام، نوم رجل ضمنت سلامته، وقلبه مشبع بالعرفان، بعد أن امتلأ وشبع من الانفعالات والأحاسيس**».

لم تكن اليابان راغبة في خوض الحرب ضد الولايات المتحدة. ولكن الولايات المتحدة استطاعت فرض الحرب على اليابان، ولم يبق أمام هذه إلا خوض الحرب حتى نهايتها، وبكل ما تتطلبه الحرب من تصميم وإعداد. وكانت اليابان في الواقع قد وضعت قدميها في منشوريا، واحتلت مساحات واسعة من الصين التي كانت مشتبكة معها منذ أربع سنوات في صراع غالباً ما تميز بالغموض. كما كانت قد تسللت إلى الهند الصينية بالاتفاق مع الحاكم الفرنسي العام الذي مثل حكومة فيشي في فرنسا. وباتت اليابان بذلك على أتم استعداد لغزو أراضي جنوب شرقي آسيا، وطرد الدول الاستعمارية منها: بريطانيا والولايات المتحدة والبلاد المنخفضة والبرتغال. وكان باستطاعتها تهديد ماليزيا مباشرة. كما كان باستطاعتها غزو الفيليبين عن طريق فورموزا. وكان لليابانيين قواعدهم في مجموعات جزر ماريان والكارولين وماريشال التي تم التنازل عنها لليابان بعد الحرب العالمية الأولى، وفي قلب المحيط الهادي. ووجدت نفسها على مقربة من القواعد التبادلية الوحيدة التي كانت تملكها الولايات المتحدة: مثل جزر غوام، وويك، وميدوي، وغينيا الجديدة، وأرخبيل سليمان. **فكانت اليابان تملك إمكانات استراتيجية واسعة جداً، كما كانت تملك ما هو ضروري من الوسائل لدعم الإمكانات الاستراتيجية. فقد كان لدى اليابان من القوات البحرية ١١ دارعة (اثنتان من حمولة ٦٣ ألف طن) و١٨ طراداً ثقيلاً، و١٨ طراداً خفيفاً، و١٠ حاملات طائرات، و١٣ مدمرة، و٦٣ غواصة**. بينما لم يكن لدى الولايات المتحدة في المحيط الهادي أكثر من ٩ دارعات و١٣ طراداً ثقيلاً و١١ طراداً خفيفاً و٣ حاملات طائرات و٨٠ مدمرة و٥٦ غواصة. ولم يكن التباين بالقوى كبيراً، إلا أنه كان يميل لمصلحة اليابان.

كانت القوة الجوية اليابانية تضم أربعة آلاف طائرة، مقابل ٤٠٠ طائرة أمريكية في هاواي و١٨٠ طائرة في الفيليبين و٢٠٠ طائرة تقريباً على حاملات الطائرات. وكان هناك ٤٠٠ طائرة بريطانية و١٠٠ طائرة هولندية. **أما في مجال القوات البرية، فكان ميزان القوى لمصلحة اليابانيين وبمعدل عشرة مقابل واحد**. وقد استندت القيادة اليابانية العليا لهذه المعطيات، فوضعت مخططاتها لغزو أقاليم شاسعة ومتباعدة في وقت واحد، مع الاحتفاظ بهذه الأقاليم بصورة نهائية، ووضعت في اعتبارها عامل التفوق المادي والمعنوي المتوافر للمقاتل الياباني، سواء كان

ضابطاً أو جندياً. وكان لزاماً على اليابان أن تبدأ أعمالها بالقضاء على الخصم الذي يشكل تهديداً لمشاريعها قبل سواه من الخصوم. وكان لا بد لذلك من توجيه ضربة حاسمة واحدة ومباغتة ودون أي انتظار يسمح بإقامة توازن في القوى. وكان العدو الرئيسي يقيناً هو الولايات المتحدة التي كانت تملك أقوى الوسائل للعمل في الشرق الأوسط، وذلك رغم عدم إعلان الحرب. وكان بالمستطاع توجيه مثل هذه الضربة إلى (هاواي) أو إلى قاعدة (بيرل هاربور). فاختارت اليابان توجيه ضربتها إلى (بيرل هاربور). وتحرك الأسطول الياباني لتنفيذ العملية التي جرت بين الساعة ٧٫٥٥ والساعة ٩٫٤٥ من صباح يوم ٧ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤١، حيث أقلعت ٤٠ طائرة قاذفة طوربيد و٥٠ قاذفة ثقيلة و٥٠ قاذفة ــ انقضاضية و٥٠ طائرة مقاتلة من حاملات الطائرات، وهاجمت السفن الأمريكية الراسية في ميناء بيرل هاربور. وخسر الأمريكيون ٥ قطع حربية و٣ مدمرات وكاسحة ألغام و٢٠٠ طائرة و٢٣٥٠ قتيلاً(٤). فيما لم يخسر اليابانيون سوى ٢٩ طائرة و٥٥ رجلاً. ولكن الأمر المهم هو أن حاملات الطائرات الأمريكية لم تتعرض لأذى. إذ كانت عند وقوع الهجوم قد ابتعدت مسافة كافية عن مسرح العمليات، حيث أنها تلقت إنذاراً من وزارة الحرب الأمريكية: «بإمكان وقوع الهجوم الياباني في كل لحظة»، كما كان قائد الطيران الجنرال (بريرتون) قد أمر قواته للاستعداد للقتال يوم ٧ كانون الأول (ديسمبر). ولكن ماك آرثر ــ قائد القوات الأمريكية في الشرق الأقصى، تردد في تنفيذ الأمر، مما سمح للطائرات اليابانية بتدمير أكثر من نصف عدد الطائرات التي كانت متمركزة في الفيليبين ــ وهي جاثمة على الأرض ــ.

كانت بريطانيا العظمى قد حصنت (جزيرة سنغافورة) تحصيناً قوياً، وأقامت فيها أرصفة ثابتة وأرصفة عائمة مع بناء خزانات ضخمة للوقود والمواد التموينية والمطارات. وحشدت فيها قوة من ١٣ لواء مشاة، تدعمها مدفعية قوية. وكانت بريطانيا تعتمد في إقامة هذه القاعدة القوية على الموقع المنيع من الناحية الجيواستراتيجية. وعلى الوقاية الطبيعية التي توفرها المناطق الحراجية الصعبة. ولهذا لم يكن من الغريب أن تعتقد بريطانيا أن قاعدة (سنغافورة) هي أمنع من عقاب الجو، وأنه من المحال أن تتمكن القوات اليابانية من الوصول إليها.

كانت القيادة اليابانية العليا تعرف هذا الوضع حق المعرفة، فدربت قطعاتها تدريباً

---

(٤) الأرقام مستخلصة من: ENCYCLOPAEDIA OF MODERN WAR (ROGER-PARKINSON) PALADIN-LONDON 1973 P.P. 247-248 وهي تختلف عما ورد في (فن الحرب) الجنرال أميل وانتي ــ ترجمة أكرم ديري، المقدم الهيثم الأيوبي ــ دار القلم ــ لبنان. ١٩٧٣ ص ١٦١، حيث ذكر أن عدد الطائرات اليابانية التي قامت بالهجوم هو ٣٦٠ طائرة؛ أقلعت من ست حاملات طائرات وأن الأمريكيين خسروا ٨ دارعات و٨ طرادات مقابل خسارة ٣٠ طائرة يابانية و ٦ غواصات.

شاقاً. وهي قطعات صلبة بطبيعتها، وتتحمل شظف العيش وكره القتال، فكان باستطاعتها اختراق الغابات ــ في الملايو ــ وخوض القتال العنيف فيها، والتعايش مع ظروفها الصعبة. وقامت القوات اليابانية بتنفيذ تحركاتها ومناوراتها بشكل رائع. وتمكنت باستمرار من خداع خصومها البريطانيين. وأرغمتهم على القيام بعمليات انسحاب متتالية. ثم تقدمت بثلاثة أرتال، على امتداد الساحلين وفي الداخل. وتسللت بصورة متواصلة، ونزلت على مؤخراتهم. ثم شرعت القوات اليابانية بالإنزال على سواحل سنغافورة في ٨ شباط (فبراير) ١٩٤٢ وفي يوم ١٥ شباط (فبراير) توقف القتال، وسيطر اليابانيون على الجزيرة، واستسلم قائد الحامية البريطانية (الجنرال أ. و. بيرسيفال) ومعه ٨٥ ألف جندي ــ منهم ١٥ ألف رجل غير مقاتل ــ. وكانت نسبة القوى هي اثنين مقابل واحد لمصلحة البريطانيين. وكانت خسائر اليابانيين في معركة الملايو بكاملها ٣٥٠٧ قتيل بين ضابط وجندي و ٦١٥٠ جريحاً من الضباط والجنود(٥).

دفعت القيادة اليابانية العليا ١٥٠ ألف مقاتل لاجتياح الفيليبين، فأمكن تدمير المقاومات الأمريكية التي قادها ماك آرثر ومعه ١٩ ألف أمريكي، و ٥٠ ألف فيليبيني. واضطرت هذه المقاومات بعد سلسلة من المعارك المثيرة، إلى التماس ملجأ لها في شبه جزيرة باتان، ثم انتقل اليابانيون لاجتياح جزيرة كوروجيدور. وأمكن لهم احتلالها في ٧ آذار (مارس) ١٩٤٢. وأثناء ذلك هاجم اليابانيون أندونيسيا في ٢٠ شباط (فبراير) واستولوا على سومطرة وجاوة. **وتوسع الغزو الياباني وانتشر بإيقاع مدهش كبقعة الزيت: جزيرة تيمور البرتغالية، والسواحل الشرقية لغينيا الجديدة، وأرخبيل جزر سليمان. واجتاح اليابانيون بورما في منتصف شهر كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤١. وخاضوا صراعاً عنيفاً ضد القوات البريطانية. فكانوا ينزلون الخسائر بها يومياً. واحتلوا (رانغون) يوم ٨ آذار (مارس) ١٩٤٢. وكان اليابانيون يتسللون بين الوحدات المنتشرة على جبهات واسعة، ويلتفون على أجنحتها، ويقيمون السدود على طرق انسحاب القوات البريطانية، ويقاومون الهجمات المضادة، ويتشبثون بالأرض، ويظهرون تفوقهم المادي والمعنوي على خصومهم رغم صعوبة القتال في الغابات الاستوائية. وحصل اليابانيون بذلك على نتائج هائلة جداً. إذ صار بوسعهم تغذية جهاز حربهم، وتغطية تكاليفه عن طريق الموارد الكثيرة والمتنوعة في البلاد التي سيطروا عليها.** وهكذا ومع نهاية عام ١٩٤٢ سيطر اليابانيون على مساحات واسعة جداً من آسيا. فعملوا على تنظيم الدفاع عنها في نطاقين دفاعيين كبيرين: يمتد أولهما على خط سانتاكروز ــ جزر سليمان ــ جزر بسمارك ــ جزر جيلبرت ــ جزر

---

(٥) المعارك الحاسمة في الحرب العالمية الثانية ــ بيتريانغ ــ الإدارة السياسية ــ دمشق ــ ١٩٧٣ ص١٠٧ ــ ١٧١.

ماريشال ـــ جزيرة ويك. أما النطاق الدفاعي الثاني فكان يمتد من جزيرة بالاووس ـــ جزيرة ياب ـــ جزر ماريان ـــ جزر بونين. وأعد الدفاع للصمود طويلاً في وجه الهجوم الأمريكي المتوقع، وذلك لإعطاء الطيران والبحرية اليابانيين الوقت الكافي للتجمع فيها، ومهاجمة القوات البحرية الأمريكية.

٣ **في مواجهة الهجوم المضاد:** كان اليابانيون وهم ينظمون دفاعهم، يعتقدون أن الأمريكيين سيهاجمون بمخططات الهجوم التقليدية. غير أن الأمريكيين اختاروا استراتيجية الهجوم المباشر على محورين، عبر المحيط الهادي. وكان المحور الأول ـــ هو محور جزر ماريشال وجيلبرت وجزر كارولين وجزر ماريان ـــ في المحيط الهادي الأوسط ـــ وأسندت القيادة منه للأميرال نيميتز الذي كان يقود قوات بحرية وجوية كبيرة، بالإضافة إلى قوات ضخمة من مشاة البحرية أما المحور الثاني ـــ فهو محور غينيا الجديدة نحو الفيليبين، وأسندت القيادة فيه للماريشال ماك آرثر ـــ الذي اعتمد على قواعد في نيوزيلندا وأستراليا، حيث حشد فيها فرقاً أمريكية وأسترالية ونيوزيلندية. وفرضت المسافات الطويلة قيام القوات الأمريكية بالمهاجمة والاحتلال والتحصين وتطوير القواعد الوسيطة التي تلعب فيها الموانىء والمطارات دوراً أساسياً وحاسماً. ولم تشأ القيادة الأمريكية العليا، إضاعة وقت ثمين في احتلال كل الجزر الواقعة على محوري الهجوم. وقررت اختيار بعضها بسبب قيمتها الاستراتيجية المقبلة (موانىء، مطارات، مستودعات إدارية... إلخ) وتجاهل الجزر الأخرى التي تتمركز فيها وحدات يابانية مبعثرة لايمكن لها أن تشكل تهديداً خطيراً لمسيرة الأعمال القتالية الأمريكية.

بدأت القوات الأمريكية بهجومها المضاد في شهر شباط (فبراير) ١٩٤٣ باحتلال (غواد القنال) واستمرت طوال العام في المحيط الهادي الجنوبي (محور عمليات ماك آرثر). حيث دافع اليابانيون بشراسة في كافة المواقع (وخاصة في غينيا الجديدة ـــ البكر والبدائية). **تجنبت القوات الأمريكية على محور المحيط الهادي الأوسط (قوات الأميرال نيميتز) الهجوم المباشر على جزر كارولين وويك، على حين قامت بالهجوم على جزيرتين من جزر جيلبرت (وهما جزيرتي مالين وتاراوا)**. وتميزت الأعمال القتالية في (تاراوا) خلال شهر تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٣ بالمقاومة الضارية، حيث أفادت الحامية اليابانية من طبيعة الجزيرة المرجانية والمحصنة جداً لمقاومة قوات الغزو. وكانت الحامية تضم ٤٦٠٠ مقاتل من مشاة البحرية اليابانية. وانتهت الأعمال القتالية بعد ثلاثة أيام خسر فيها الأمريكيون ٣١٠٠ مقاتل ـــ منهم ألف قتيل. مقابل قتل ٤٤٦٠ يابانياً. واتجه (نيميتز) بعد ذلك إلى جزر ماريشال (وخاصة جزيرة كواجالين المرجانية)، حيث دارت معارك قاسية استمرت حتى ١٠ شباط (فبراير) ١٩٤٤. وقام الأمريكيون بعد ذلك بقفزة جديدة (مثل قفزة الأرنب) وصلت بهم نحو هدف يبعد ستمائة كيلومتر عن الجزر المرجانية

التي نجحوا في احتلالها. وسددت الضربة إلى (إينيفتوك) التي استمر الاقتتال العنيف فيها لمدة أسبوع. وكان الأمريكيون يسبقون كل هذه العمليات البرمائية بقصف جوي وبحري عنيف. وتم تحسين الارتباط بين الطيران وبين القوات البرية. كما جرى تحسين وسائط الإنزال بصورة مستمرة. **أما على محور المحيط الهادي الجنوبي (محور ماك آرثر) فقد تركز الجهد على أرخبيل سليمان. واستخدم الأمريكيون هنا أيضاً استراتيجية الهجوم غير المباشر (قفزات الأرنب — أو قفزات الخروف) وأدى ذلك إلى مباغتة اليابانيين، وإبطال دور تنظيماتهم الدفاعية**. وجرت خلال ذلك معارك جوية — بحرية، كان اليابانيون يخسرون فيها عادةً أكثر من الأمريكيين. وتم احتلال الجزء الأكبر من هذا الأرخبيل في نهاية العام ١٩٤٣. وظهر تهديد أخذ شكل (كماشة) ضد قاعدة (رابول) اليابانية الهامة: وعلى الطرف الشمالي لغينيا الجديدة (في منطقة سالاموا التي احتلها الأمريكيون يوم ١٦ أيلول (سبتمبر)). وأدت عمليات صعبة إلى تطويق بحري وجوي بعيد (لجزيرة رابول) وإلى تهديد طرق المواصلات اليابانية بين رابول وتروك بشكل دائم. ولم تمض بضعة أشهر حتى تمت تصفية الدفاع عن هاتين القاعدتين. وقامت قوات (ماك آرثر) بقفزات جديدة إلى أن وصلت (موروتاي). فيما قامت قوات (نيميتز) بخرق الحزام الدفاعي الثاني المستند إلى (جزر ماريان) وأصبح باستطاعة القاذفات الأمريكية قصف جزء من اليابان وجزر بالوس التي كانت تشكل الهدف التالي. وتم الإنزال في جزيرة سايبان يوم ١٥ حزيران (يونيو) ١٩٤٤. وكانت القيادة اليابانية تعرف أهمية جزر ماريان. فقررت مجابهة التهديد بهجوم بحري معاكس، وكلفت الأميرال أوزاوا بقيادة قوة بحرية ضمت ٩ حاملات طائرات (منها ٤ حاملات خفيفة و٥ دارعات و١١ طراداً ثقيلاً وطرادان خفيفان و٢٨ مدمرة) وتنفيذ مهمة الهجوم المضاد — فقاد (أوزاوا) أسطوله. واشتبك مع القوات الأمريكية في مياه جزر ماريان. منذ يوم ١٨ حتى ٢٠ حزيران (يونيو). وانتهت المعركة بتدمير ٤ حاملات طائرات يابانية، وتمكنت القوات الأمريكية من احتلال سايبان. وتبع ذلك قيام القوات الأمريكية بالإنزال في (غوام). ثم في تايبان الغربية. وتم بذلك خرق نطاق جزر ماريان الدفاعي الحصين. وقام الأمريكيون بوثبة جديدة نحو الفيليبين. وسقطت (موروتاي) الواقعة شمال غرب غينيا الجديدة في ١٥ أيلول (سبتمبر) وفي اليوم ذاته سقطت جزر بالوس الواقعة غرب جزر كارولين في قبضة الأمريكيين. وجاءت لحظة مهاجمة (الفيليبين) فمهد الأمريكيون لهذا الهجوم بقصف جوي كثيف ضد القواعد اليابانية في لوشون وفورموزا وأوكيناوا، كما اشترك الطيران الأمريكي مع البحرية (الأسطولين الثالث والسابع) في قصف جبهة واسعة امتدت من جزر كوريل حتى أندونيسيا واستمر القصف لمدة ستة أسابيع وذلك بهدف التمويه على نقطة الإنزال الحقيقية. وجرت فوق فورموزا أكبر معركة جوية في الحرب خلال الفترة من ١٢ حتى ١٥ تشرين الأول (أكتوبر) وانتهت بتدمير الطيران الياباني. وبذلك استطاع (ماك آرثر) إنزال مائة ألف مقاتل على أرض الفيليبين يوم ٢٠ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٤٤.

وردت القيادة اليابانية فوجهت نحو الفيليبين ما تبقى لديها من القوات البحرية ـــ الجوية، وزجت بثلاث مجموعات: من اليابان ومن جزر بسكادور وسنغافورة. ودارت معارك بحرية عنيفة من ٢٣ حتى ٢٥ تشرين الأول (أكتوبر) وانتهت بغرق ٢٦ مركباً يابانياً في مياه (لاييت) مقابل غرق ٦ مراكب أمريكية فقط.

أصبح باستطاعة القاذفات الأمريكية (بوينغ ــ ب ــ ٢٩) والمتمركزة في جزر ماريان، أن تهاجم طوكيو التي كانت تبعد مسافة ألفي كيلومتر. غير أن بعد المسافة كان يرغم القاذفات على تخفيف حمولتها من عشرة أطنان إلى ثلاثة أطنان. فكان لزاماً على الأمريكيين إجراء قفزة أخرى للتقرب من الهدف. وكانت جزيرة (أيوجيما) من أرخبيل بونين، تسمح لليابانيين بكشف الهجمات الجوية الأمريكية ومجابهتها. فقرر الأمريكيون احتلالها وإقامة فيها قواعد متقدمة. وتعرضت الجزيرة التي لا تزيد مساحتها على عشرين كيلومتراً مربعاً للقصف المستمر. وكانت الحامية المدافعة عنها تضم ٢٣ ألف رجل. وقد نظمت دفاعها في تحصينات قوية امتدت إلى كل ركن من أركانها. وشملت هذه التحصينات ملاجىء وخنادق مطمورة ومنعات أسمنتية للرشاشات، والمدافع محمية بجدران بلغ سمكها متراً من الأسمنت المسلح، مع حقول ألغام. وزج الأمريكيون لاحتلالها ٨٠٠ مركب و ١٥٠٠ طائرة وثلاث فرق من مشاة البحرية (٦٠ ألف رجل). وأمكن احتلال ثلث الجزيرة الجنوبي بعد ثلاثة أيام من القتال الضاري. ورفع الأمريكيون علمهم على قمة بركان سوريباشي الخامد يوم ٢٣ شباط (فبراير) ١٩٤٥ وبدأت في اليوم التالي أقسى مراحل العملية وأشدها صعوبة. **واضطر الأمريكيون للقتال شبراً شبراً، واحتلال التحصينات ملجأ بعد ملجأ. واستخدموا في ذلك سلاحاً رهيباً هو قاذفات اللهب. ودافع اليابانيون بعناد حتى يوم ١٨ آذار (مارس) وخسر اليابانيون ٢٢٫٣٠٠ قتيل وألف أسير. وخسر الأمريكيون ٦ آلاف قتيل و ٢٠ ألف جريح، وقتل في المعركة ٢٨٠٠ رجل من مشاة البحرية بسبب هجمات الطائرات الانتحارية ـــ كاميكازية.** ظهر عندئذٍ هدف جديد هو (أوكيناوا) وهي جزيرة رئيسة من جزر أرخبيل ريو ـــ كيو. وكان احتلالها وإقامة القواعد البحرية والجوية فيها يعني دفع الطيران والأسطول لمسافة أقرب من (كيوشو) وفورموزا. وكانت الحامية المدافعة عن الجزيرة ذات الأرض الصخرية والمليئة بالكهوف والخنادق المطمورة تضم ١٢٠ ألف رجل و ٦٠٠ مدفع. وقد عمل قائد الحامية اليابانية (الجنرال أوشيجيما) على تنظيم الدفاع عن موقع منيع محصن واحد فقط يقع في الجزء الجنوبي من الجزيرة. **واعتمد في تنظيمه للدفاع في كل المجالات على مبدأ الانتحار:** (الكاميكازية)، **في الجو، ومراكب الانتحار في البحر، و (هجمات بانزاي) في البر. وتستند هذه الهجمات الانتحارية إلى الحماسة الدينية اليابانية، والواجب المقدس للدفاع براً وبحراً وجواً حتى آخر نقطة دم.**

كان الهدف العام لهذه الهجمات اليابانية الانتحارية هو تشتيت الأسطول الأمريكي وإنزال أكبر قدر من الخسائر بقطعه الحربية. وعزل المهاجمين في البر ثم تدميرهم. وكانت القيادة اليابانية تأمل أن تحقق الأعمال الانتحارية ماعجزت عن تحقيقه قطع الأسطول في مياه الفيليبين. وقد قام الأمريكيون بأول عملية في جزر تقع على بعد ٢٣ كيلومتراً إلى الغرب من أوكيناوا في نهاية شهر آذار (مارس) ١٩٤٥. **وخدم الحظ الأمريكيين، إذ تمكنوا من الاستيلاء على أربعمائة مركب انتحاري وهي في مراسيها. وبقي الدور الحاسم ملقى على عاتق الطائرات الانتحارية (كاميكازية). وكانت هذه الطائرات عبارة عن طائرات قديمة تطلقها القاذفات على مسافة قريبة من الهدف. وكان الطيارون من المتطوعين للموت المؤكد، طالما أن عليهم الانقضاض مباشرة على جسر المركب الحربي المعادي ذاته. وكانوا يشتركون قبل البدء بالعملية بمراسم جنائزهم. وكانت الطائرات الانتحارية (كاميكازية) المتمركزة في كيوشو، وفورموزا، تشترك في العمليات فوق مياه أوكيناوا، مستخدمة أسلوب الموجات المتعاقبة، أو أسلوب المجموعات الصغيرة. وقد انطلقت سبعمائة طائرة انتحارية يوم ٦ نيسان (ابريل) وهاجمت الأسطول الأمريكي وأنزلت به خسائر فادحة. واستطاعت** هذه الطائرات في الفترة **ما بين تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٤٤ ونهاية نيسان (ابريل) ١٩٤٥، إغراق ٤٧٥ قطعة حربية أمريكية. وكانت أكثر المراكب تعرضاً للخطر هي المراكب الخفيفة والمدمرات وحاملات الطائرات. وشنت الطائرات اليابانية قرب أوكيناوا ١٩٠٠ هجوم انتحاري فردي، فأغرقت ثلاثين مركباً، وأعطبت ٣٦٠ مركباً، وقتلت عشرة آلاف مقاتل من مشاة البحرية. وقام اليابانيون أيضاً بهجوم انتحاري شنه أسطول ضم ١٠ مراكب، وذهبت استراتيجية اليابانيين وتكتيكهم إلى مدى أبعد من عناد هتلر في الدفاع حتى النهاية. وليس هناك في العالم يقينا جيش آخر غير الجيش الياباني، يقبل أن ترتفع نسبة خسائر وحداته إلى مائة بالمائة تقريباً. وقد خسر اليابانيون خلال هذه العمليات ١١٠ آلاف قتيل و٧٤٠٠ أسير و٧٨٠٠ طائرة و١٢ ألف طيار. وخسر الأمريكيون ٧١٦٣ قتيلاً و١٣٢ ألف جريح و٢٦ ألف رجل خرجوا من القتال لأسباب مختلفة.** وكانت قوات يابانية أخرى قد خاضت معارك ضارية في (برمانيا) ضد القوات البريطانية خسر فيها اليابانيون مائة ألف قتيل، بالإضافة إلى مائتي ألف جريح وأسير. ورغم هذه الخسائر، فقد صممت القيادة اليابانية على متابعة الحرب، معتمدة على ما بقي لديها من قوات ضمت مليوني رجل وعشرة آلاف طائرة. وكان ذلك يعني أن أي هجوم أمريكي على اليابان سيكلفهم غالياً، فجاء الحل النهائي بالقصف الذري لمدينتي (هيروشيما وناغازاكي) واستسلمت اليابان وانتهت الحرب العالمية الثانية.

٤ **تجارب الحروب اليابانية:** تنتظم تجارب الحروب اليابانية بمجموعة من النواظم المشتركة،

سواء في أفق السياسة ــ الاستراتيجية، أو في أفق العمليات: أو حتى على المستوى التعبوي ــ التكتيكي. وأول هذه النواظم ــ أو العوامل ــ هو التخطيط الدقيق والمحكم للأعمال القتالية، وثانيها: التنظيم الرائع للجيوش وتسليحها وتدريبها، وثالثها: الاعتماد على العلم والتقانة في إدارة الحرب وتنفيذ معاركها. ورابعها: المرونة العالية في التحرك وتنفيذ الأعمال القتالية، وخامسها: الإخلاص للهدف والاستعداد الكامل للتضحية حتى بلوغ الهدف. فعندما انطلقت اليابان نحو أفق المنافسة الاستعمارية. وجدت أن الاستعمار الغربي قد امتد ليطرق أبواب اليابان ذاتها. كما أن الاستعمار الروسي وصل إلى حدودها. وكانت النهضة الصناعية والتجارية قد أهلت اليابان لاقتحام المنافسة، فاختارت الصدام مع روسيا للإفادة من مجموعة من العوامل، مثل وقوع منشوريا وكوريا قريباً من قواعدها، وضمان القدرة على التفوق المادي والمعنوي، وإمكان الإفادة من دعم بريطانيا العظمى والولايات المتحدة ــ في مجال التغطية السياسية ــ. وهكذا انطلقت القوات اليابانية للحرب وهي تعرف أهدافها، وخاضت معاركها بكفاءة عالية. وتميزت تحركاتها بالمرونة والمناورة الرائعة، مع التنسيق المحكم بين القوى البرية والبحرية. وقد استخدمت في تلك الحرب (١٩٠٥) وسائط التقانة المتقدمة التي شكلت باكورة عصر التفوق التقني (لا سيما في مجال وسائط الحرب الإلكترونية، ووسائط القيادة والسيطرة). فكانت الحرب الروسية اليابانية هي بحق البداية الناجحة لما أمكن الوصول إليه في نهاية القرن العشرين.

لقد خاضت اليابان حروبها والهدف هو بناء المستقبل للإنسان الياباني، ورفع مكانة الوطن الياباني ليحتل مكانته اللائقة به تحت الشمس. وقد كان هذا الهدف الذي جسدته السياسة الاستراتيجية لليابان هو المحور ــ أو القاسم المشترك ــ الذي دمج الشعب الياباني وصهره في بوتقة واحدة، بدايةً من إمبراطور اليابان ذاته ونهايةً بآخر مقاتل في الجيش الياباني. وإذن لم يكن من الغريب أبداً أن يخوض المقاتل الياباني حربه وهو مصمم على انتزاع النصر أو الموت. وليست مسألة تنظيم الفرق الانتحارية (الكاميكازية أو البانزاي) هي مسألة أوامر يصدرها القادة، وإنما هي مسألة إيمان عميق بالواجب، ومما يؤكد ذلك، تصميم الوحدات اليابانية على القتال حتى الفناء. ولهذا فقد كان عدد قتلى اليابانيين في المعارك كبيراً جداً في حين بقي عدد الأسرى محدوداً جداً. ولا يشكل إلا نسبة ضئيلة جداً ــ وذلك على نحو ما تم ذكره في مجرى البحث ــ إذ كان المقاتل الياباني ــ قائداً وجندياً ــ يخوض معركته حتى في الظروف اليائسة، وهو مصمم على تحقيق النصر أو الموت، الذي كان بالنسبة له خياراً أسهل بكثير من خيار (الوقوع في أسر الأعداء).

لقد أظهرت القيادات اليابانية كفاءةً عالية في التخطيط للعمليات، وفي تنسيق التعاون بين مختلف صنوف الأسلحة، وفي إدارة الأعمال القتالية. ولا ريب أن الفتوحات الكبرى التي أنجزتها

القوات اليابانية في سنة ١٩٤٢ لم تكن تتناسب أبداً مع حجم القوات اليابانية، بل كانت أكبر بكثير من حجم تلك القوى. لا سيما وأنها خاضت حروبها ضد جيوش وضد قيادات امتلكت خبرات واسعة في معرفة الأقاليم (مثل القيادات البريطانية) فكانت تلك الانتصارات في الواقع برهاناً ثابتاً على كفاءة القيادات اليابانية التي طبقت ـ على نحو ما سبق عرضه— مبادىء الحرب تطبيقاً رائعاً. فاعتمدت على المباغتة والمبادأة وأمن القوات والمناورة واستخدام القدرة القتالية هجومياً على أفضل وجه ممكن. وكان التدريب الرائع للقوات بدوره يمثل جهد القيادة في مجال الإعداد للحرب، إذ كان المقاتل الياباني ينفذ على مستواه التعبوي ـــ التكتيكي ـــ ما هو مطلوب منه كأحسن ما يكون التنفيذ وأفضله. ولولا ذلك لكان الفشل من نصيب أفضل المخططات تنظيماً وإحكاماً. فالتفوق الياباني هو تفوق متكامل يبدأ من القمة (القيادة العليا) وينساب إلى كل مستويات الحرب.

لقد دفع اليابانيون ثمن الحرب غالياً ـــ ويكفي أنهم دفعوا في هيروشيما وناغازاكي وحدهما وخلال ساعات قليلة أكثر من ١٥٠ ألف قتيل ومثلهم من الجرحى والمشوهين. وفي الواقع؛ فإن خسائر اليابانيين خلال عام الصراع المرير (١٩٤٤) ونصف عام ١٩٤٥ قد تصل إلى المليون، بالإضافة إلى مليارات الين (أو الدولار). وإذن فلا غرابة أن تحاول اليابان ـــ ما بعد الحرب ـــ إسدال ستار كثيف على معطيات المذهب العسكري الياباني، وأن تتجاهل تماماً كل حديث عن الحرب. ولكن هل يعني ذلك عدم وجود مذهب عسكري ياباني؟

لقد أظهر العرض السابق أن التكون الديموغرافي ـــ السكاني ـــ لليابان والموقع الجيواستراتيجي، قد فرض على القيادات اليابانية باستمرار تبني نظريات (الحرب الخاطفة) وأساليب (حرب الحركة). والإعداد الدقيق (للحرب قصيرة الأمد) فقد برهنت مسيرات الحروب وتطوراتها أنه ليس باستطاعة اليابان احتمال حروب الاستنزاف والحروب طويلة الأمد ـــ سواء من ناحية القدرة البشرية المقاتلة أو من حيث القدرة الاقتصادية بخاصة ـــ ولقد عرفت القيادة الأمريكية هذه الحقيقة، وأفادت منها؛ فعملت على استنزاف القدرة القتالية اليابانية ـــ في البحر والجو والبر ـــ عبر مجموعة غير محدودة من المعارك المتتالية ـــ وعندما جاء القصف الذري، لم يكن إلا (طلقة الخلاص) وإلا الوسيلة لتوفير الجهد، غير أن مصير الحرب ضد اليابان كان قد تقرر وانتهى قبل ذلك ـــ بزمن طويل ـــ لقد تقرر عندما انهارت ألمانيا وأصبح باستطاعة الحلفاء زج كل قواتهم ضد اليابان.

٩ ــ المذهب العسكري الإسرائيلي

[١] **العقيدة الدينية والحرب**: عندما شرع أصحاب المشروع الصهيوني (البريطانيون بالدرجة الأولى) في التمهيد لمشروعهم الاستعماري عادوا إلى ما هو متناقل من تعاليم (التوراة) و(التلمود) لدى حاخامات اليهود، من أجل إيجاد ووضع الروابط بين (الفكر الصهيوني) و(التعاليم اليهودية). وليس مجال البحث هنا هو تحليل هذه التعاليم الموصوفة (بالدينية) مقولاتها التي لا يمكن أن تكون صادرة عن إرادة إلهية سامية ــ متفوقة على إرادة البشر وقدراتهم ــ، إذ إن مثل هذا العمل هو من اختصاص علماء الأديان، ولقد فعلوا ذلك في الواقع ضمن ركام من الأبحاث الإسلامية والمسيحية وحتى اليهودية التي أكدت أن هذه التعاليم في معظمها هي تعاليم لا سماوية ولا إلهية ولا مقدسة. والمهم في الأمر الإشارة إلى أن (التوراة) قد كتبت بعد موت موسى عليه السلام بتسعمائة سنة على الأقل ــ وهذا ثابت ومؤكد تاريخياً ــ وأن (التلمود) قد كتب بعد ألفي عام من كتابة التوراة تقريباً (بعد رفع السيد المسيح بنحو مائتي عام تقريباً). فإن ذلك برهان على أن هذه التعاليم ما هي إلا من وضع حاخامي اليهود (وفي طليعتهم يهوذا الذي وضع القسم الأكبر من التعاليم التوراتية وقام الحاخام يوضاسي بالتعليق عليها وإضافة الشروح والتفاسير والحواشي). وقد اعتبر ذلك من جانب علماء اللاهوت والمؤرخين أن هذه التعاليم قد وضعت لتلبية مرحلة تاريخية معينة تميزت بظروف محددة. وأضيفت إليها بعدئذٍ تعاليم تتناسب مع متطلبات كل مرحلة من المراحل التي عاشها اليهود في (الشتات). فماذا تضمنت تلك التعاليم الدينية؟

«إن اليهودي وحده هو الإنسان؛ وكل ما في الأرض ملكٌ له؛ وكل شيء مسخر لخدمته، خاصةً تلك الحيوانات التي لها صورة الإنسان».

«إن اليهود يشكلون جزءاً من العزة الإلهية؛ لذلك تكون الدنيا وما فيها ملكاً لهم. ولهم عليها حق التسلط ــ التلمود»[١].

---

(١) هذه فلسطين ــ حسين التريكي ــ الشركة التونسية للتوزيع ــ تونس ١٩٧١ ص ٣٦٦.

« سلَّط اللّٰه اليهود على أموال باقي الأمم ودمائهم . اقتل الصالح من غير الإسرائيليين ؛ ومحرَّم على اليهودي أن ينجي أحداً من باقي الأمم من هلاك ، ويخرجه من حفرة يقع فيها . لأنه بذلك يكون حفظ حياة أحد الوثنيين . من العدل أن يقتل اليهودي بيده كل كافر . لأن من يسفك دم كافر ؛ يقدم قرباناً إلى اللّٰه » و « إن لم تطردوا سكان الأرض من أمامكم ، يكون الذين تستبقون منهم أشواكاً في أعينكم ومناخس في جوانبكم . ويضايقونكم على الأرض التي أنتم ساكنون فيها » و « حين تقترب من مدينة لكي تحاربها ؛ استدعها إلى الصلح ، فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك ؛ فكل الشعوب الموجودة فيها تكون لك للتسخير ، وتستعبد لك ، وإن لم تصالحك فحاصرها ؛ واضرب جميع ذكورها بحد السيف . وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة غنيمة تغنمها لنفسك . وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك هؤلاء الأمم ها هنا . وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب إلهك نصيبك ، فلا تستبق منها نسمة واحدة » .

« اليهود أحب إلى اللّٰه من الملائكة . وهم من عنصر اللّٰه كالولد من عنصر أبيه . فمن صفع يهودياً فقد صفع اللّٰه » و « الشعب المختار فقط يستحق الحياة الأبدية . وأما باقي الشعوب فمثلهم كمثل الحمير » و « إذا كان الأجنبي غير اليهودي قد خلق على هيئة الإنسان فما ذلك إلا ليكون لائقاً لخدمة اليهود الذين خلقت الدنيا لأجلهم »[٢] .

وكان أعنف ما ورد في (التوراة) على لسان موسى عليه السلام ، ما تحدث به عن الشعوب الأخرى غير اليهود ، عندما قال : « وتأكل كل الشعوب التي دفعها إليك إلهك الرب . لا تشفق عيناك عليهم ؛ ولا تعبد آلهتهم ، لأن ذلك شرك لك . إن قلت في قلبك هؤلاء الشعوب أكثر مني فكيف أقدر أن أطردهم ؟ فلا تخف منهم !! » .

كذلك تضمنت (التوراة الموضوعة لليهود ــ والمحرفة) قصص حروب أنبياء اليهود ، وهي القصص التي أصبحت أساس التاريخ العسكري للكيان اليهودي (الصهيوني) ، الذي أُقيم على أرض فلسطين . ومن أبرز تلك القصص التي يعلمها قادة جيش العدوان الصهيوني لجنودهم ــ حتى يحفظوها في عقولهم وقلوبهم ــ قصة حرب طالوت وجالوت (داود وجالوت) وهي كما وردت في التوراة : « جمع الفلسطينيون قواتهم لصد العبرانيين الغزاة ــ وخرج من بين الفلسطينيين رجل اسمه جالوت ، يبلغ طوله ستة أذرع وشبراً ، تغطي رأسه قبة نحاسية ، ويرتدي درعاً مصدفة تزن خمسة آلاف قمحة نحاسية ، وساقاه مكسوتان بالنحاس ، وقد علق رمحاً نحاسياً على كتفه ،

---

(٢) المذهب العسكري الإسرائيلي ــ هيثم الكيلاني ــ وزارة الدفاع دمشق ــ ١٩٦٩ ص ١٧ ــ ١٨ .

والرمح متين الخشب ذو رأس حديدية تزن ستمائة قمحة . أخذ داود عصاه في يده ، وانتقى خمسة حصيات من السيل ووضعها في كيسه ، ثم تقدم نحو الفلسطيني والمقلاع في يده . فقال الفلسطيني لداود : أكلباً تراني لتتقدم إلي بعصا و تعال إلي لأقدم لحمك طعاماً لطيور السماء ، ولحيوان البراري . وضع داود يده في كيسه وأخرج حصاة وقذفها بمقلاعه ، فأصابت الفلسطيني في جبينه ، وانغرست فيه ، فسقط ووجهه إلى الأرض . وهكذا انتصر داود بالمقلاع والعصاة على جالوت المدجج بالدروع والسلاح» .

من المعارك البارزة أيضاً ، معركة (غموس) التي خاضها العبريون ضد اليونانيين سنة ١٦٤ق . م . حيث عسكر الجيش اليوناني المتفوق في عدده وسلاحه في أسفل جبل يهوذا . وحينما جاء القائد العبري وجد أنه غير قادر على مجابهة خصمه القوي . فأقام معسكره على بعد عدة كيلومترات من المعسكر اليوناني ، فأغرى بذلك خصمه القائد (جورجيوس) لشن هجوم عليه . وشاغل العبريون اليونانيين حتى حل الظلام . ولما كان اليونانيون غير مدربين على القتال الليلي الذي كان يتقنه العبريون ويجيدونه ، فقد قام القائد العبري بهجوم مضاد ليلي ، كان قد اتخذ العدة له ونظمه في النهار ، حيث نصب الكمائن بين الصخور ، مما أرغم جورجيوس على الانسحاب من ميدان المعركة ، بعد أن أصبح جيشه في حالة من الاضطراب والفوضى .

ومن قصص (التوراة) قصة محاربة (موسى) لأهل (مدين) للاستيلاء على أرضهم ، حيث جند موسى للحرب اثني عشر ألف يهودي : « فقتلوا كل ملوك مدين ، وقتلوا كل ذكر ، قتلوهم فوق قتلاهم . قتلوا من الملوك أوى وراقم وصور وحور ورابع وبلعام بن بعور . قتلوهم بالسيف . وسبى بنو إسرائيل نساء مدين وأطفالهم ، ونهبوا جميع بهائمهم ، وجميع مواشيهم وكل أملاكهم . وأحرقوا جميع مدنهم بمساكنهم ، وجميع حصونهم بالنار . وأخذوا كل الغنيمة وكل النهب من الناس والبهائم . وأتوا إلى موسى ، إلى المحلة . على عربات مؤاب التي على أرض أريحا . وخرج موسى ، والكاهن ألعازار ، وكل رؤساء الجماعة لاستقبالهم إلى خارج المحلة . فسخط موسى على وكلاء الجيش ، ورؤساء الألوف ، ورؤساء المئات القادمين من جند الرب . وقال لهم موسى : هل أبقيتم كل أنثى حية ؟ إن هؤلاء كن لبني إسرائيل سبب خيانة للرب في أمر . فغور فكان الوباء في جماعة الرب . فالآن اقتلوا كل ذكر من الأطفال ، وكل امرأة عرفت رجلاً بمضاجعة ذكر اقتلوها . لكن جميع النساء اللواتي لم يعرفن مضاجعة ذكر ابقوهن لكم حيات ــــ أي أحياء ــــ » .

وهكذا تذكر (التوراة المحرفة) أن (موسى) قد أمر بقتل الأطفال من أهل (مدين) . وهي التي كانت على ما يظهر وسط إقليم واسع الثراء . إذ إن جملة الغنائم ــــ كما ذكرتها التوراة ــــ قد ضمت ٦٧٥ ألفاً من الأغنام و٧٢ ألفاً من البقر و٦١ ألفاً من الحمير و٣٢ ألفاً من الفتيات غير المتزوجات . ويكون عدد القتلى من الرجال والنساء والأطفال أكثر من ١٥٠ ألفاً .

لم يكن (يشوع بن نون) الذي خلف موسى بعد التيه ، إلا منفذاً لتعاليم التوراة في الإبادة والتدمير . فعندما كان (يشوع) يحاصر مدينة أريحا ، وحتى لا يوجه إليه أي لوم أو نقد ، عمل على نسب ممارساته الحربية كلها للرب ؛ وذلك أن شخصاً سيفه مسلول بيده ، قدم نفسه على أنه (رئيس جند الرب) عمل على تنظيم عملية الغزو . وقد ورد في الإصحاح السادس من سفر يشوع ما يلي : « قال يشوع للشعب اهتفوا الآن الرب قد أعطاكم المدينة ، فتكون المدينة وكل ما فيها محرماً للرب ؛ وتدخل في خزانة بيت الرب كل الفضة والذهب وآنية النحاس والحديد لأنها قدس للرب . فهتف الشعب ، وضربوا الأبواق . وكان حين سمع الشعب صوت البوق ، أن الشعب هتف هتافاً عظيماً ، فسقط السور في مكانه . وصعد الشعب إلى المدينة ، كل رجل مع وجهه ، وأخذوا المدينة ، وحرموا (أهلكوا) كل ما في المدينة من رجل وامرأة ، من طفل وشيخ ، حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف » .

وواضح هنا أن (التحريم) . وفقاً للنصوص التي ذكر فيها يعني (القتل باسم الرب) ؛ أي أن رب إسرائيل طلب إنهاء الحياة التي كانت موجودة في مدينة أريحا ــ من إنسان وحيوان ــ . وقد أشاعت مذبحة (أريحا) وغيرها الذعر في أهل المنطقة كلها ، فاستمر زحف (يشوع) واليهود معه ، فذبحوا الناس وأحرقوا المدن التي صادفتهم ، ومنها مدن كبيرة مثل : عجلون وحبرون . وذكر في التوراة : « **ضرب يشوع كل الجبل والجنوب والسهل والسفوح ، وكل ملوكها . لم يبق شارد ، بل حرم (أهلك وأبيد) كل مخلوق ، كما أمر الرب إله إسرائيل . فلما أباد اليهود سكان صيدون العظيمة ، وحاصور التي كانت رأس جميع تلك الممالك ، وأورشليم قبل ذلك ــ استراحت الأرض من الحرب** » .

تتضمن (التوراة المحرفة) أيضاً في جملة ما تشتمل عليه ، مناقشات طويلة ومباشرة بين الرب وداود ، أو غير مباشرة عن طريق النبي (ناثان) لإنشاء بيت مستديم للتابوت . وقد أطلق داود على الرب في هذه المناقشات لقبه الجديد ، عندما قال : « وليتعظم اسمك إلى الأبد ، فيقال : رب الجنود إله إسرائيل » وتضفي التوراة على رب إسرائيل قائمة من الأوصاف العجيبة ــ فتقول : « الرب إله غيور . الرب مخيف . الرب رجل حرب . الرب يهوه ــ ليس له مثيل بين الآلهة . الرب أزعج جميع الشعوب غير اليهود . الرب يحول أنهار أعداء اليهود زفتاً ، وترابها كبريتاً يشتعل إلى أبد الآبدين . الرب عمود سحاب داخل الخيمة ، يتكلم مع موسى وجهاً لوجه . الرب ينتقم من الأبناء والأحفاد إلى الجيل الرابع . الرب يقيم في الصندوق المصفح بالذهب الذي أمر موسى بصنعه . الرب لم يصرف لوطاً عن أن ينجب من ابنتيه وهو مخمور لا يعي من السكر . الرب لم يمنع (سارة) زوجة إبراهيم و (رفقة) زوجة إسحق من تقديم نفسيهما للحكام مقابل المال . الرب اختار يعقوب وباركه رغم أنه غش أباه وأوهمه أنه الابن الأكبر . **الرب أمر اليهود أن يبيدوا سكان فلسطين : الرجال**

والنساء والأطفال الذكور والإناث والمواشي من كل الأنواع. الرب أعطى اليهود ميثاقاً بأن يملكوا ما بين النيل والفرات بما في ذلك جبال لبنان. يظهر الرب على ضرب العود والمزامير. ففي سفر الملوك: قال اليشع محارب الجنود، آتوني الآن بعواد، فلما ضرب العواد بالعود، كانت عليه يد الرب».

جاء حكماء اليهود، وأصحاب الفكر الصهيوني، فاعتمدوا على ما ورد في (التوراة) (التلمود) ووضعوا بروتوكولاتهم، ونظرياتهم التي تتوافق مع معطيات الأزمنة الحديثة ومع متطلبات الحركة الصهيونية. ولقد جعلت تعاليم (التوراة) و (التلمود) من كل يهودي محارباً، قاتلاً، إرهابياً، سفاحاً، مغتصباً، سالباً. وجعلت هذه التعاليم من اليهود بمجموعهم، قوماً لهم صفاتهم الخاصة (باعتبارهم الشعب المختار) فهم متعجرفون، متكبرون، يرفضون الاندماج بالآخرين والتعايش معهم، عنصريون، متسلطون، لا هدف لهم في الوجود إلا انتزاع الثروة ـــ بكل الوسائل والسبل ـــ واستخدامها للتحكم بالشعوب والسيطرة عليها. وهذا بدقة ما عبرت عنه بروتوكولات حكماء صهيون في مقولة لها جاء فيها ما يلي: «إن الذهب هو أعظم قوة على وجه الأرض. إنه القوة والعظمة والمكافأة والوسيلة لكل نفوذ، إنه العلم العميق الذي يهيمن على الذكاء في هذا العالم. وعندما نصبح المستحوذين الوحيدين على كل الذهب في العالم، فإن النفوذ الحقيقي سوف يتحول إلينا، وعندئـذٍ تتحقق الوعود التي أعطيت لأبينا إبراهيم: السيطرة على العالم».

وإذن، يصبح من المتوقع، ومن طبيعة الأمور، أن يأخذ المذهب العسكري الإسرائيلي روابطه من العقيدة الدينية اليهودية، وهذا ما حمل المؤرخين والباحثين ـــ حتى من غير اليهود ـــ على تفسير الممارسات الإسرائيلية من خلال مقارنتها بما تضمنته التوراة من قصص حروب اليهود وتجاربهم ـــ مثل دراسة الأرض ومعرفتها والاهتمام بالقتال الليلي؛ والتركيز على التفوق الكمي والنوعي، ونقل الحرب إلى البلاد المجاورة... إلخ. وكان على فلسطين ـــ أرضـاً وشعباً ـــ أن تعيش تجربة تطبيق الديانة اليهودية والمذهب العسكري الإسرائيلي. سواء منها النظرية (الموصوفة بالدينية) أو العملية (والموصوفة بالمذهب العسكري الإسرائيلي).

٢ الصهيونية ـــ وإسرائيل: لقد وضعت الصهيونية على عاتق اليهود المهاجرين إلى إسرائيل— أو الذين يتم تهجيرهم — مسؤولية تحقيق ما تضمنته (التوراة) و(التلمود) من تعاليم وتـوصيات. أكملتها تلك التوجيهات المعروفة باسم (بروتوكولات حكماء صهيون) والتي صدرت سنة ١٨٩٧. ووفقاً لذلك، فقد حدد هدف التدريس الديني في الجيش الإسرائيلي هو تنفيذ شعار أن: «**التوراة والسيف نزلا معاً من السماء**» وذلك من خلال دفع الجندي اليهودي لقتل الآخرين الذين لا يحملون معه (توراته) أو إلى استعبادهم. لأن ذلك الجندي هو أحد أفراد (شعب الله

المختار) الذي له وحده حق العيش في مستوى فوق مستوى بقية شعوب الأرض التي يتوجب عليها أن تخضع له، وأن تقوم على خدمته. وقد عملت القيادة الإسرائيلية على اختيار نصوص من (التوراة) لتدريسها في الجيش حملت عنوان: «**هذه هي التوراة أمام نظرك، كتاب الكتب لشعب إسرائيل ــ اقرأه وافهمه**». وينطلق التدريس الديني لأفراد الجيش الإسرائيلي من مفهوم: «إيجاد عمود فقري لهذا الشتات من اليهود». فالجيش الإسرائيلي الذي يشكل المجتمع الإسرائيلي، يضم نحواً من مائة جنسية ولغة، وعشرات الثقافات والعقليات والمفاهيم والعادات والتقاليد. ومهمة الجيش هي صهر هذه الأجناس والثقافات والعقليات جميعها في بوتقة واحدة ليخرج بعدها «الإسرائيلي الجديد». وحتى يتم ذلك، وحتى تتمكن الصهيونية من صهر التناقضات، تم اعتماد الدين اليهودي ليكون العمود الفقري في صهر اليهود ضمن بوتقة إسرائيل. ولقد جاءت أقوال قادة الكيان الصهيوني لتركز على مسألة ربط الكيان الصهيوني بالتوراة ــ ويمكن الأخذ بخطاب الصهيوني (دافيد بن غوريون) أمام الكنيست الإسرائيلي في ١٥ نيسان (أبريل) ١٩٥٦ كواحد من نماذج التفكير الصهيوني ــ حيث قال في كلمته: «**هناك أناس حقيقيون يأخذون البراهين من التوراة، يدعمون بها مبرراتهم. وأنا أيضاً أكن حباً كبيراً لهذا الكتاب. إنني أعتقد أن إشعاعه هو الذي حفظنا وأعادنا إلى وطننا وشيد دولتنا**. إن كل مثالياتي اليهودية مأخوذة من هذا الكتاب (؟) وإن المثاليات تكفيني. ولم أجد في أي كتاب آخر مثاليات أعظم وأجل. عندما يتقدم أحد بأمثال من التوراة فإنني مستعد لأن أمنحه كل انتباهي وفكري. وأنا أيضاً قرأت التوراة بكل تمعن وسوف تسمحون لي أن أقرأ مقطعاً أو مقطعين منها:

«ولقد كان بعد موت موشيه، عبد الأبدي، عندها تحدث الأبدي إلى يهوشوا بن نون خادم موشيه. قال الأبدي: موشيه عبدي قد مات، والآن تأهب عبر هذا الأردن، أنت وكل هذا الشعب، إلى هذا البلد الذي أعطيه أنا أبناء إسرائيل. كل موضع تطؤه أقدامكم أعطيته لكم ــ كما تحدثت إلى موشيه ــ من الصحراء من نهر مصر (النيل) ومن لبنان إلى النهر الكبير (الفرات) وحتى البحر الكبير، أمام غروب الشمس يجب أن تكون أراضيهم. لا أحد يستطيع الصمود أمامك كل أيام حياتك، وكما كنت مع موشيه سأكون معك. لن أتركك تغوص، ولن أتخلى عنك. كن قوياً وثابتاً لأنه عليك أن تعطي هذا البلد ملكاً لهذا الشعب، الذي أقسمت لآبائهم أن أمنحهم إياه» وعندما يقول الرب ليهوشوا بن نون: «لقد أقسمت، لا يصمد أمامك إنسان، هنا تكون الحدود». لقد كان بامكان يهوشوا أن يكون مطمئناً وواثقاً من أنه سيحقق جميع أهدافه، عند ذهابه إلى الحرب. وفي هذه الأيام، لن يتمتع إنسان ما بمهمة إلهية لها هذا الوضوح والثبات وإن الضمانات التي أعطتها لنا الدول الكبرى الثلاث: أمريكا، الاتحاد السوفييتي، بريطانيا، ليس لها هذا الوضوح وهذا الثبات.

«إن القوة التي تحدثت إلى يهوشوا كانت أعلى وأعظم قوة، وكانت كلماته واضحة جداً» ــ إن هذا موجوداً أيضاً في الفصل الأول من كتاب يهوشوا. ويوجد في الفصل الثالث عشر منه النص التالي: «... وكان يهوشوا قد شاخ وتقدم في العمر عندما تحدث إليه الأبدي فقال له: لقد أصبحت متسناً وتقدمت في العمر. ويوجد بعد أجزاء كثيرة من الوطن لامتلاكها. وعلى الرغم من هذه المساعدة التي لا تجارى، وبالرغم من هذا الوعد الثابت، لم يستطع يهوشوا امتلاك الأرض المتبقية. وفي الفصل الأول لكتاب الحكام بعد موت يهوشوا؛ نقرأ أسماء البلدان التي لم يستطع يهوشوا أن يحررها، وحررها جيش الدفاع الإسرائيلي في أيامنا هذه».

وبعد انتهاء عمليات العدوان الثلاثي ــ ١٩٥٦ ــ وجه (بن غوريون) رسالة إلى الجيش بتاريخ ٧ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٦ قال فيها:

«لقد أنجزتم أشياء ربما كانت أهم من أية مسألة في السياسة أو الدفاع. لقد أعدتمونا إلى أعظم لحظات حياتنا الحاسمة مجداً في تاريخنا. لقد أرجعتمونا إلى المكان الذي أعطينا فيه القانون، وفيه كلفنا من الرب بأن نكون شعباً مختاراً. لقد رأينا أمام أعيننا الآيات التي لا تموت وهي تحيا من جديد: الآيات التي تنبئنا عن رحيل أجدادنا عن مصر، وعن وصولهم إلى صحراء سيناء، تقول تلك الآيات:

ورحلوا من رفيديم. وأتوا إلى صحراء سيناء. واضعين رحالهم هناك.
وكانت إسرائيل تنزل على الجبل المقابل.
ولكن موسى صعد إلى الرب، عند ذلك ناداه الأبدي من الجبل، وقال له:
هكذا يجب أن تتحدث إلى بيت يعقوب، وأن تخبر أبناء إسرائيل.
لقد رأيتم ما فعلت بمصر. وكيف حملتكم على أجنحة نسر، وأحضرتكم إلى قربي.
وعندما تصغون إلى صوتي، وتحفظون وصيتي.
تكونوا عندها شعبي الخاص من بين الشعوب ــ لأن الأرض كلها لي.

وتابع بن غوريون قوله في رسالته:

لقد بدأت ملاحتنا البحرية في البحر الأحمر منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة؛ أثناء حكم سليمان ــ وكانت إيلات هي المرفأ العبري الأول للملك يودا، وحتى أواسط القرن السادس ــ أي حتى قبل أربعة عشر قرناً ــ. وكانت هناك جالية يهودية منتشرة على الجزيرة ذاتها ــ بوتفات ــ في جنوبي خليج العقبة والتي حررها جيشنا أول أمس. هذه الجزيرة تدعى اليوم تيران».

وجاء قائد سلاح الطيران الإسرائيلي الجنرال مردخاي هود، ليربط بين الماضي والحاضر،

فقال في الأمر اليومي الذي أصدره في صباح اليوم الخامس من حزيران (يونيو) ١٩٦٧ مخاطباً جنوده: **« إن الشجاعة الأبدية التي يتحلى بها جنود يشوع والملك داود والمكابيون وجند حرب الاستقلال وحرب سيناء، هي منبع قوتنا. وستتيح لنا التغلب على العدو الذي يهدد مستقبل بلدنا. إن انتصارنا سيؤمن لنا السلام، ويكفل سلامة أولادنا وأجيالنا المقبلة »**.

لقد حددت الصهيونية هدفها بإقامة (إسرائيل) على أرض (فلسطين). واستندت إلى التعاليم الدينية اليهودية لما أطلق عليه (العودة). ولكن حدود هذه الإسرائيل لم تظهر بشكل واضح منذ البداية. فقد كتب (حاييم وايزمان) سنة ١٩١٦: « إن الحدود التي نرغب في تحقيقها لدولتنا هي تلك التي ستمكننا قوة قهرنا العسكري ودهاؤنا السياسي ومناوراتنا العالمية على تحديدها مع مرور الزمن.. وبما أن الاعتراض الرئيسي على المطالب الصهيونية كان يستند إلى أن فلسطين صغيرة، ولا تكفي لإيواء جميع يهود العالم. وهذا صحيح. ولكن لنفسح لليهود المجال ليأخذوا فلسطين، وبعد ذلك يستطيعون الحصول على ما يريدون ». ولكن بعد قيام الكيان الصهيوني، أخذت مسألة (حدود المستقبل) تطرح بشكل رسمي من قبل قادة الكيان الصهيوني، ففي الخطاب الذي ألقاه (مناحيم بيغن) زعيم الإرهابيين اليهود، في نيويورك في شهر كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤٩ قال: « يجب أن نذكر كلنا أن القتال لم ينته بعد، وإننا سنواصل الحرب بأساليب جديدة، وأسلحة جديدة، حتى يتم تحرير إسرائيل بكاملها وتسقط البلاد العربية الباقية في أيدينا، ويعود جميع أفراد شعبنا إلى الوطن الموعود. وما على العرب المتوحشين إلا أن يرجعوا إلى الصحراء التي جاؤوا منها، ولا يستحقون في الحياة أكثر منها » وصرح (بن غوريون) في القدس قائلاً: **« إن خريطة فلسطين هي خريطة الانتداب، غير أن للشعب اليهودي خريطة أخرى، يجب على شبابنا ورجالنا أن يحققوها، وهي ما نصت عليها التوراة، ما بين دجلة والنيل »**. وقال أيضاً في اجتماع وزاري عقد يوم ١٥ تموز (يوليو) ١٩٤٨: « إن أجيالنا السالفة لم تتحمل الاضطهاد والآلام لترى ثمرة جهادها تنحصر في جمع مليون يهودي ضمن إسرائيل. وواجبنا يحتم علينا إذن أن نعيد إليها جميع ما تبقى من أفراد شعبنا في أنحاء العالم الأخرى »(٣). وفي مقولة أخرى صرح (بن غوريون) بما يلي: « ليس من قبيل المبالغة القول بأن بقاء يهود العالم يعتمد على بقاء دولة إسرائيل ويقوم عليه. وإن مشكلة أمن إسرائيل تعادل بالتالي مشكلة بقاء الشعب اليهودي بأكمله. لقد تم تنظيم الشعب اليهودي لخلق الدولة اليهودية، لكي يتسنى تنظيم الدولة اليهودية بدورها للحفاظ على الشعب اليهودي وحمايته. هذه هي الفلسفة الصهيونية الكلاسيكية »(٤). وهكذا

---

(٣) إسرائيل جناية وخيانة ــ سودي بسيسو ــ حلب ــ سوريا ــ ١٩٥٦ ص ١٥٤ ــ ١٥٥.

(٤) المرجع رقم ١ ــ هذه فلسطين ــ ص ٣٦٨.

اعتمد البرلمان اليهودي ــ الكنيست ــ شعاره: «حدودك يا إسرائيل من الفرات إلى النيل». ووضعت خارطة في الكنيست ــ أعدها اليهود لدولتهم ــ تشمل فلسطين وشرق الأردن وسورية ولبنان وقسماً كبيراً من العراق ومصر. ويطمع كثير من اليهود في الاستيلاء على المدينة المنورة ومكة المكرمة ومناطق أخرى، يزعمون أنها كانت لهم يوماً في الحجاز. وقد تركت مهمة توسيع هذه الحدود والوصول إليها ــ لجيش العدوان الصهيوني...

٣ المذهب العسكري الإسرائيلي: اعتمد المذهب العسكري على مجموعة من المبادئ المعروفة والأسس الثابتة لتحقيق هدف الصهيونية: (إقامة الكيان الإسرائيلي) وتوسعه. وكان في جملة تلك المبادئ والأسس:

آ ــ **ضمان التفوق النوعي والكمي**: ففي مجال التفوق النوعي ــ من المعروف أن إسرائيل حرصت منذ إقامة كيانها على الدخول في دائرة (التسلح النووي) بإقامة المفاعلات والمسرعات بهدف إعطاء الكيان الصهيوني (الواجهة الحضارية المتقدمة)، إذ اعتبر امتلاك التقانة النووية منذ نهاية الحرب العالمية الثانية هو رمز التطور الحضاري، هذا بالإضافة إلى السعي لامتلاك بقية أسرة أسلحة التدمير الشامل (من أسلحة كيميائية وبكتريولوجية ــ جرثومية) وليس المجال هنا هو مجال مناقشة إمكان استخدام هذه الأسلحة من جانب إسرائيل، وما يمكن لإسرائيل إنتاجه منها، غير أن مجرد منح الكيان الصهيوني القدرات للسير في هذا المضمار، إنما كان في مجال إظهار الكيان الصهيوني بمظهر الكيان المتفوق (نوعياً أو حضارياً على كل الدول العربية). أما في مجال التسلح فمن المعروف أن إسرائيل قد تمكنت في كل حرب من حروبها امتلاك نوع من التسلح المتفوق في خصائصه ومميزاته. وعلى سبيل المثال: ففي حرب سنة ١٩٤٨ كانت القلاع الطائرة ــ الأمريكية ــ هي رمز التفوق النوعي الإسرائيلي، وفي حرب سنة ١٩٥٦ كان التفوق الإسرائيلي واضحاً في سلاح الجو وفي سلاح المدرعات. وفي حرب سنة ١٩٦٧ أضيف إلى هذين السلاحين الأسلحة الصاروخية (المضادة للدبابات) ووسائط الحرب الإلكترونية. ولئن تحطمت موازين هذا التفوق في حرب ١٩٧٣ لغير مصلحة إسرائيل، فقد حاول جيش العدوان الصهيوني إظهار تفوقه بما يمتلكه من الذخائر دقيقة التوجيه خلال حرب لبنان (١٩٨٢) مثل الذخائر الارتجاجية والقنابل العنقودية... إلخ. أما في مجال التفوق الكمي، فمن المعروف أن القيادة الإسرائيلية كانت تحشد في حرب سنة ١٩٤٨ كل ما هو متوافر لها من القوى والوسائط القتالية على إحدى الجبهات (السورية أو المصرية أو العراقية ــ الأردنية) لتنفيذ عمليات معينة، ثم تعمل على نقل هذه القوات إلى جبهة أخرى ــ مستفيدة من المساحة الجغرافية الضيقة بين الجبهات، وبما هو متوافر لها من القدرة الحركية ــ (وهو القتال المعروف باسم القتال على الخطوط الداخلة ــ أو الخارجة) وهكذا كان نقل القوات بالتناوب على الجبهات هو وسيلة التفوق الكمي الإسرائيلي. وكانت القيادة الإسرائيلية

تستفيد من عدم قيام القيادات العربية إلا بجزء محدود من قواتها، مع عدم تنسيق التعاون بين القوات العربية (لضمان التفوق الكمي). وقد كررت إسرائيل أسلوبها هذا في حرب ١٩٦٧. كذلك فعلت في حرب ١٩٧٣ عندما كانت تنقل قواتها بالتناوب ما بين الجبهتين السورية والمصرية.

ب ـــ **التقرب غير المباشر**: ويعني على المستوى الاستراتيجي إقناع قيادات العدو بعجزها عن مقاومة الأعمال القتالية الموجهة ضدها. أما على مستوى العمليات فتعني القيام بالمناورات والتحرك للوصول إلى مؤخرات القوى المعادية وضرب خطوط إمدادها وتهديد خطوط مواصلاتها ومؤخراتها، بحيث تضطر إلى إلقاء السلاح، أو الانسحاب من ميدان المعركة(٥).

لقد ضم تاريخ فن الحرب منذ أقدم العصور أمثولات كثيرة لأساليب التقرب غير المباشر، من أجل تحقيق هدف الحرب بأقل جهد قتالي ممكن. وقد حظيت هذه الأساليب بأبحاث ودراسات كثيرة في الأزمنة الحديثة (في طليعتها نظريات الكاتب العسكري البريطاني ليدل هارت ـــ الذي أوضح مفاهيم ما أطلق عليه اسم استراتيجية التقرب غير المباشر) وعنه أخذ قادة الكيان الصهيوني هذه المفاهيم وطبقوها في حروبهم ضد العرب. سواء في حرب ١٩٤٨، أو في حرب ١٩٥٦، أو في حرب ١٩٦٧ أيضاً. وكانت معلوماتهم الدقيقة عن طبيعة مسارح العمليات، وانتشار القوات العربية وتنظيماتها القتالية، عاملاً أساسياً في نجاح الأعمال القتالية الهادفة إلى تجنب المعارك الجبهية المباشرة، والتسلل عبر الثغرات ونقاط الفصل للوصول إلى مؤخرة القوات العربية، وتهديد خطوط إمدادها ومحاور اتصالاتها وعملياتها.

ج ـــ **الحرب القصيرة والحاسمة**: لقد وضعت إسرائيل في اعتبارها ـــ حتى من قبل إقامة الكيان الإسرائيلي، أنها ستبقى أضعف من جيرانها العرب ـــ من حيث القدرة البشرية أو حتى التسلح والقدرة الاقتصادية علاوةً على ضيق الرقعة الجغرافية التي تحتلها حتى لو تمكنت من التوسع إلى أقصى حدود قدراتها العسكرية والبشرية. ولهذا اعتمدت في حروبها أساليب الحرب القصيرة والحاسمة ـــ على غرار الحرب الصاعقة الألمانية ـــ بحيث تتمكن من حسم الصراع المسلح خلال أقصر فترة زمنية ممكنة، وبأقل حد من الخسارة البشرية ومن أجل ذلك، كان لابد من الإعداد للحرب قبل وقت طويل من تفجيرها، ووضع المخططات اللازمة، مع إعادة النظر في هذه المخططات بصورة مستمرة، وفقاً لما يستجد من تطورات عسكرية على الجبهات العربية. بالإضافة إلى إعداد القوى والوسائط القتالية الضرورية لتنفيذ هذه المخططات. وتحديد الأهداف من الحرب

---

(٥) دراسات في الاستراتيجية الإسرائيلية ـــ محمود عزمي ـــ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـــ بيروت ـــ لبنان ١٩٧٩ ص ٤٣ ـــ ٧٤.

بصورة دقيقة، وبحيث لا تتجاوز الأعمال القتالية حدود هذه الأهداف ــ التي يتم عند وضعها الأخذ بالظروف الدولية والمحلية، العربية، علاوةً على الأوضاع والقدرات الإسرائيلية. ولا بد من الإشارة هنا إلى أن الدول صاحبة المشروع الصهيوني والمستثمرة له، قد وضعت في اعتبارها أيضاً الوضع الإسرائيلي الخاص، وعدم قدرة إسرائيل على خوض حرب طويلة الأمد. وقد ظهر ذلك بشكل واضح في حرب سنة ١٩٤٨ حيث أن استطالة أمد الحرب قد دفع الدول العظمى على التدخل لإيقاف القتال مرتين (بما عُرِف باسم الهدنتين الأولى والثانية) للإفادة من ذلك وإمداد إسرائيل بالقوى والوسائط القتالية التي تمكنها من خوض جولة جديدة، وبحيث يتم إعادة النظر في المخططات القتالية من أجل معالجة نقاط القوة عند العرب، والتغلب على نقاط الضعف في المخططات الإسرائيلية (من خلال عمل سياسي أكثر منه عسكري). وقد تكرر ذلك في حرب سنة ١٩٥٦ (من خلال التدخل السريع لقوى العدوان الثلاثي). وحدث مثل ذلك أيضاً ولو بصورة مختلفة نسبياً سنة ١٩٧٣، ومن الملاحظ في الحالات كلها. أن إسرائيل لا تلتزم بالقرارات الدولية الصادرة عن هيئة الأمم المتحدة ــ ومجلس الأمن ــ لإيقاف الحرب، وأنها تستثمر هذه القرارات للوصول إلى أهدافها المحددة في مخططات العمليات.

د ــ **الاستخبارات وجمع المعلومات**: قد لا تكون هناك ثمة حاجة للقول أنه ما من جيش يسير إلى الحرب وهو مغمض العينين ــ وأن الجيوش المحاربة قد حرصت منذ أقدم العصور على جمع كل ما هو ضروري من المعلومات لضمان الشروط الضرورية للنصر. ويقابل ذلك الحرص على إخفاء النوايا والمعلومات عن العدو بمختلف الأساليب (التضليل والخداع وأعمال التمويه... إلخ) وإذن فإن مسألة تنظيم شبكات الاستخبارات هو عمل ملازم لتنظيم أي عمل عسكري ــ قتالي ــ. غير أن إسرائيل قد حرصت حتى من قبل إقامة كيانها على تنظيم شبكات واسعة من عناصر الاستخبارات الجاسوسية، وهي تفخر بأنها ــ على ما تزعم ــ كانت السباقة في هذا المضمار عندما استخدمت أول جاسوسة في التاريخ (رحاب) لاستطلاع أخبار (أريحا) أيام ملوك العبرانيين. ومن المثير ملاحظة أن أول تنظيمات يهودية قد أقامها البريطانيون ــ في الحرب العالمية الثانية ــ كانت تنظيمات مخصصة لأعمال الجاسوسية على دول المحور (الألمان والإيطاليين) وقد تم استخدام عدد من المفارز اليهودية لتنفيذ أعمال الجاسوسية سواء في شمال إفريقيا أو في أوروبا. وقد عملت قيادة جيش العدوان الصهيوني ــ بعد إقامة الكيان الإسرائيلي، على تطوير شبكات جاسوسيتها، وربطت عمل هذه الشبكات بمراكز للأبحاث الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وتزعم إسرائيل أنها تمتلك أضخم مراكز للمعلومات عن (الشرق الأوسط) وهي تستخدم هذه المعلومات ــ لا سيما خلال فترة الحرب الباردة بين الدولتين العظميين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي ــ من أجل دعم الاستخبارات الأمريكية والغربية بما تحتاجه من معلومات ــ. وعلى

هذا فإن الاستخبارات الإسرائيلية، بفروعها المختلفة وتنظيماتها المتباينة، هي جزء ــ أو حلقة ــ في تنظيم عالمي (أمريكي ــ غربي)(٦) تتطابق أهدافه وأساليبه مع أهداف الاستخبارات العالمية المضادة للوطن العربي وأقاليمه المختلفة.

هـ ــ **الحرب النفسية**: وتعتمد القيادة الإسرائيلية ــ فيما تعتمده ــ على التخطيط العلمي لاستخدام أساليب الحرب النفسية في حروبها ضد العرب ــ وليست المقولات التي طرحتها إسرائيل منذ البداية (مثل إسرائيل خلقت لتبقى) و (جيش إسرائيل لا يقهر) و (الجندي الإسرائيلي المتفوق) إلا نماذج شائعة ومعروفة لإقناع المقاتل العربي ــ بالدرجة الأولى ــ وإقناع المواطن العربي بعد ذلك، بعجزه عن مقاومة (الزحف الصهيوني). وتدعم هذه الأساليب في الوقت ذاته من الروح المعنوية للجندي الإسرائيلي. ومن المعروف أن إسرائيل تستخدم أحياناً ما تحصل عليه من معلومات في إطار هذه الحرب النفسية، مثل إذاعة بعض المعلومات لأحداث تقع في مدينة عربية يوم حدوثها ــ لتؤكد بذلك أنها على معرفة دقيقة بكل أوضاع الوطن العربي وأقاليمه ومدنه وقراه. وقد لا تكون هناك حاجة للبرهان على خطأ الكثير مما تستخدمه إسرائيل في إطار حربها النفسية، وهو ما أسقطت معظمه حرب تشرين (أكتوبر) ١٩٧٣. غير أن الأمر الثابت هو أن الاستخبارات الإسرائيلية تعمل في إطار تنظيم عالمي محدد الهدف، واضح الغاية: وهو تحطيم إرادة الصمود لدى الإنسان العربي ــ والمقاتل العربي بخاصة ــ. وتمثل القصص والمنشورات التي أصدرتها إسرائيل بعد انتصارها في حرب ١٩٦٧ مثل قصة (تحطمت الطائرات في الفجر) و (قصة الجاسوس كوهين) نماذج لارتباط أساليب الحرب النفسية الإسرائيلية بمخططات الأعمال القتالية، وبالعمل المنظم لأجهزة الاستخبارات الإسرائيلية التي تشكل بدورها حلقة متكاملة مع التنظيمات الأمريكية ــ الغربية.

و ــ **العنف في الحرب (الإرهاب)**: تقترن الحرب بالعنف. وهذا الاقتران ثابت ودائم، غير أن ظاهرة العنف في حرب اليهود ضد العرب تأخذ شكل الإرهاب المنظم، وذلك نتيجة طبيعية لارتباط المذهب العسكري الإسرائيلي بالعقيدة الدينية اليهودية، الداعية إلى القتل والإبادة والاستعباد. ولعل أفضل أمثولة لهذا الإرهاب هي أمثولة مذبحة (دير ياسين) في سنة ١٩٤٨، ثم ما أعقب ذلك من مذابح إجماعية كان آخرها مذبحتي (صبرا وشاتيلا) في لبنان سنة ١٩٨٢. ويهدف جيش العدوان الصهيوني من خلال ممارسته للإرهاب تحقيق هدفين: أولهما إفراغ الأرض العربية من سكانها، قدر المستطاع، وثانيهما القضاء على الفلسطينيين حيثما كانوا ــ حتى لا يبقى

---

(٦) تاريخ إسرائيل السري (قسم الدراسات ــ الفرع ٢٥٥). جاك دبروجي ــ هنري كارمل ــ دمشق ــ ١٩٧٩ وانظر: الاستخبارات العسكرية ــ العقيد الركن عطاالله عطا الله (أبو الزعيم) ــ ١٩٨١.

هناك من يذكر (القضية الفلسطينية) أو يدافع عنها. وبالإضافة إلى ذلك، فإن القيادة الإسرائيلية تعتقد أن استخدام العنف في الحرب يساعد قواتها على تنفيذ واجباتهم القتالية دونما مقاومة تذكر — أو ضمن الحدود الدنيا من المقاومة — والتي لا تأخذ بسبب الإرهاب شكلاً منظماً وإنما تأخذ شكل مقاومات فردية لا رابطة بينها، مما يساعد القوات الإسرائيلية على التعامل مع هذه المقاومات والإجهاز عليها دونما عناء كبير. ويأخذ العنف ظاهرته أيضاً في الحروب الإسرائيلية ضد العرب، من خلال حشد القوى النارية الكبيرة ضد الأهداف والمقاومات المعادية. وقد برز ذلك واضحاً في المناطق التي احتلتها إسرائيل سنة ١٩٦٧ (تدمير القنيطرة مثلاً) وتدمير مدن القنال. كما برز في حرب لبنان (سنة ١٩٨٢) حيث استمر القصف العنيف في الليل والنهار للعاصمة بيروت طوال أيام الحرب.

ز — **الردع**: وهو اصطلاح رافق ظهور الأسلحة النووية، ولازم احتمالات استخدامها. غير أن إسرائيل استخدمت هذا الاصطلاح وطبقته منذ إقامة كيانها لمنع البلاد العربية من مساعدة الفلسطينيين — بالدرجة الأولى — كما استخدمته وطبقته ضد الجيوش العربية في إطار الإغارات المنظمة على المواقع والقوات العربية (قبل عدوان ١٩٦٧) وتابعت استخدامه وطورته على جبهة لبنان — منذ سنة ١٩٧٥ بصورة خاصة —. وتتخذ القيادة الإسرائيلية من أعمال المقاومات الفلسطينية ذريعة لممارسة عمليات الردع. كما تستخدم الردع أيضاً كأعمال انتقامية من عمليات الفدائيين — سواء تلك التي وقعت خارج حدود إسرائيل وفي أوروبا أو ما وقع منها داخل إسرائيل (مثل عملية كمال عدوان)(٧). ولقد اكتسبت المقاومة الفلسطينية — بخاصة — خبرة واسعة في هذا المضمار، إذ باتت تتوقع تصعيد عمليات الردع والأعمال الانتقامية في أعقاب كل عملية ينفذها الفدائيون في أي مكان من العالم. وتبقى عمليات الردع في النهج القتالي الإسرائيلي بمثابة عمليات (استطلاع قتالي) محدود في أهدافه، ومحدد بالمهلة الزمنية التي لا تتجاوز يوماً أو أياماً قليلة من أجل تنفيذ العملية. ويمكن اعتبار (عملية الكرامة) التي وقعت ضد قواعد الفدائيين في الأردن سنة ١٩٦٧ نموذجاً أيضاً لعمليات الردع على نطاق واسع. مثلها كمثل اجتياح الجنوب اللبناني سنة ١٩٧٨ التي زعمت إسرائيل أنها رد على عملية كمال عدوان. واستمرت ثمانية أيام. وغالباً ما تقترن عمليات الردع الإسرائيلي بأهداف سياسية أيضاً.

٤ إسرائيل من حرب إلى حرب: خاضت إسرائيل حربها الأولى ضد الجيوش العربية سنة

---

(٧) هي العملية التي نفذتها مجموعة (دير ياسين) والتي ضمت ١٢ مقاتلاً في مقدمتهم (دلال سعيد المغربي) يوم ١١ — آذار /مارس/ ١٩٧٨ وانظر (عملية كمال عدوان — العماد مصطفى طلاس) دمشق ١٩٧٨.

١٩٤٨، وخاضت حربها الأخيرة ضد لبنان سنة ١٩٨٢، وخاضت ما بينهما ثلاثة حروب (١٩٥٦) و (١٩٦٧) و (١٩٧٣) فيكون الفاصل الزمني ما بين كل حرب والحرب التي تليها بصورة متوسطة ما بين ثماني وتسع سنوات. وما من شيء يثير الغرابة أو الدهشة لكيان صغير في مساحته الجغرافية ومحدود بقدراته الاقتصادية والبشرية أن يحتمل أعباء هذه الحروب. فإسرائيل كيان يعيش على الحرب ومن أجل الحرب، اصطنعته الدول المعادية للوطن العربي من حيث تكوينها وطبيعتها وأمدته بالقدرات ودعمته بالإمكانات للقيام بهذا الدور الوظيفي المرتبط بمصالحها في المنطقة العربية. وعلى هذا قد يكون من الصعب الفصل بين الحروب الإسرائيلية، وبين الأهداف التي تضعها الدول المعادية للعرب (بمقادير مختلفة من درجات العداء وبأشكال أو ظواهر متباينة الشدة والقوة ــ غير أنها تبقى دائماً معادية للعرب بمجموعهم). وتستفيد القيادة الإسرائيلية من فترات (اللا سلم واللا حرب ــ أو الهدنة) ما بين كل حرب والحرب التي تليها، لإكمال استعداداتها القتالية، ولتطوير قدراتها الذاتية، ولحشد المزيد من القوى المقاتلة وما يناسبها من الوسائط القتالية. وهكذا تشكل المجتمع الإسرائيلي من خلال الحروب التي ساعدت على صهره في بوتقة واحدة، وتحت تهديد مزاعم (الخطر من الإبادة)[8] التي تطرحها القيادة الصهيونية لدعم أهدافها الاستيطانية التوسعية. ولقد وضعت القيادة العسكرية الإسرائيلية مجموعة من المبادئ والأسس لتنفيذ البرنامج الصهيوني ــ بصورة تحقق التوازن والتكامل بين الأهداف الصهيونية والأهداف الغربية ــ الأمريكية. ويجري التنسيق بصورة مستمرة بين الإدارات الأمريكية والقيادات الإسرائيلية لتحقيق هذا التطابق والتكامل في الأهداف والوسائل. ومن بين تلك المبادىء:

آ ــ **نظرية الأمن الإسرائيلي**: وتعتمد هذه النظرية على أن إسرائيل ــ المحدودة المساحة جغرافياً ــ لا تستطيع البقاء ولا الاستمرار إلا إذا أمكن لها دفع حدودها على حساب جيرانها الذين يمتلكون مساحات جغرافية واسعة، وهذا ما يضمن لها استيعاب المهاجرين اليهود وجمعهم في الكيان الإسرائيلي. ومن أجل ذلك تحتاج إسرائيل ما بين كل حرب والحرب التي تليها لمزيد من الأراضي لتحقيق أهداف توسعية جديدة، ولاستقدام المزيد من المهاجرين اليهود، حتى تتمكن من ضمان أمنها. وتمارس إسرائيل كل أنواع الأعمال العدوانية بحجة حماية أمنها. إذ تزعم أن غياب الاستقرار، واضطراب الأمن داخل إسرائيل سيحد من قدرتها على التوسع وعلى استيعاب الموجات المتلاحقة من المهاجرين اليهود. وتظهر هنا الحلقة المفرغة التي تدور فيها إسرائيل وهي ارتباط الأمن بالهجرة والتوسع. فضمان الأمن يتطلب التوسع وضمان التوسع

---

(٨) المجتمع الإسرائيلي ومؤسساته العسكرية (ترجمة اللواء ماجد سعيد) مركز الدراسات العسكرية ــ دمشق ١٩٨٥.

يتطلب الأمن، وهذا ما يضع الكيان الصهيوني في حالة الحرب الدائمة مع العرب. وتحدد النظرية الصهيونية (الحدود الآمنة والمعترف بها من قبل العرب) شرطاً لتحقيق السلام. وهي تحاول فرض الشروط المناسبة لها، في حال الدخول بمرحلة السلام بحجة (المحافظة على أمن إسرائيل) والمعروف أن إسرائيل كانت وبصورة مستمرة هي العامل الأساسي فيما تعيشه أقاليم الوطن العربي من اضطراب في الأمن وغياب حالة الاستقرار.

ب ــ حتمية الحرب: تضع القيادة العسكرية الإسرائيلية باعتبارها، وهي تعد للحرب وتستعد لها، أن تفجر الحرب هو ضرورة حتمية لبقاء الكيان الصهيوني ولاستمرار تطوره نحو أهدافه النهائية. فلقد ظهرت إسرائيل إلى الوجود من خلال الحرب، وتطورت قدراتها من خلال الحرب، واتسعت حدودها من خلال الحرب ومن خلال استمرار حالة العداء مع العرب. وتفترض إسرائيل أن العرب لن يقبلوا (الوجود الصهيوني على أرض فلسطين) ولن يعترفوا به. وليس من مخرج من مأزق الحرب إلا بالحرب والاستعداد لها بصورة دائمة. وتفترض القيادة الإسرائيلية ــ في جملة فرضياتها ــ أنه حتى لو اعترف العرب بالوجود الإسرائيلي نتيجة ضعفهم، أو نتيجة عوامل أخرى، فإن هذا الاعتراف لن يكون ثابتاً ولا مستقراً إلا إذا تمكنت إسرائيل من الاحتفاظ بقدرة عسكرية متفوقة على العرب. وإن تفوق إسرائيل العسكري هو دعامة للسلم، الذي قد يأتي عندما يعترف العرب بالوجود الإسرائيلي. غير أن ظروف السلم والعلاقات مع العرب قد تضطرب مما يفرض ضرورة الاحتكام إلى السلاح. إذ إن هدف إسرائيل من السلم هو فرض (الحضارة اليهودية) على العرب، وتأمين الظروف (لازدهار القيم اليهودية). ولهذا ليس من الغريب أن يفترض بعض زعماء الصهيونية أنه إذا ماتحقق السلم، وفقاً لما تطلبه إسرائيل، فسيكون هذا السلم هو (عصر إسرائيل)، إذ باستطاعة (الذكاء اليهودي) ممارسة دوره في تطوير الصناعة والزراعة والتجارة للسيطرة على مراكز القوة العربية. وتتجاهل إسرائيل عندما تطرح مثل هذه المقولات أن العرب بدورهم لن يهملوا السلاح، وأنهم يمتلكون من الخبرات في كل المجالات العلمية وفي مجالات التقانة ما يضاهي ما هو منسوب لإسرائيل من القدرات.

ج ــ نقل الحرب إلى بلاد العدو: ولئن كانت الحروب حتمية مع العرب، فإن إسرائيل، وفقاً لمذهبها العسكري، لا تستطيع انتظار وصول الحرب إلى أراضيها (المحتلة) وعلى جيش العدوان الصهيوني نقل الحرب إلى بلاد العدو، حتى يضمن الحماية للسكان (اليهود) وحتى لا تتعرض المدن لويلات الحرب ولما يرافقها من تدمير وقتل، وحتى تتمكن القيادة الإسرائيلية من ضمان أمن مؤخراتها (خطوط مواصلاتها وصناعاتها الحربية). ولهذا حرصت قيادة الجيش الإسرائيلي، وبالتعاون مع القيادة البريطانية، في حرب سنة ١٩٤٨، على تدمير وإزالة كل المقاومات العربية في المدن التي كانت مخصصة لإسرائيل (وفقاً لمخطط التقسيم) وفي حرب سنة ١٩٥٦، كانت مهمة جيش إسرائيل الوصول إلى قناة السويس، وإبعاد خطر الجيش المصري الذي كان منتشراً على

حدود إسرائيل الجنوبية (قطاع غزة) . وفي حرب سنة ١٩٦٧ ، وبحجة إبعاد الخطر عن إسرائيل تم احتلال قطاع غزة والضفة الغربية ومرتفعات الجولان . وفي حرب ١٩٧٣ حرصت القيادة الإسرائيلية على إبعاد الخطر عن قلب إسرائيل . فركزت جهدها خلال المرحلة الأولى من الحرب ضد سورية وجيشها . وفي حرب لبنان سنة ١٩٨٢ نقلت إسرائيل الحرب إلى قلب عاصمة عربية (بيروت) . ولكن هل باستطاعة إسرائيل ضمان أمن حدودها بعد أن أصبح باستطاعة الأسلحة الصاروخية والقوات الجوية العربية تهديد أية بقعة من إسرائيل ؟ تلك هي المسألة التي فرضت ذاتها على نظرية (الأمن الإسرائيلي) وعلى نظرية (نقل الحرب إلى بلاد العدو) بعد حرب ١٩٧٣ .

د ـــ الضربات الإجهاضية المسبقة : ولئن كان على جيش العدوان الصهيوني نقل الحرب إلى بلاد العدو ، فإن هذا الجيش قد يواجه صعوبات تحرمه من فرص نقل الحرب ، إذ إن تعاون جيشين عربيين كفيل بإحراز تفوق على الجيش الإسرائيلي (مثل تعاون جيشي مصر وسورية ، بالإضافة إلى أي جيش أو أية قوة عربية أخرى) ولمجابهة مثل هذا الموقف اعتمد المذهب العسكري الإسرائيلي نظرية (الضربات الإجهاضية المسبقة) والنظرية كما هو معروف هي إحدى نظريات استخدام أسلحة التدمير الشامل (الأسلحة النووية) وتعني توجيه ضربة إلى قواعد العدو وأسلحته الصاروخية الحاملة للرؤوس النووية في اللحظة التي تكون فيها هذه الأسلحة على وشك الانطلاق ، أو عند اكتشاف نوايا أو مؤشرات تتضمن احتمال استخدامها . وهكذا فإن مجرد استعداد الجيوش العربية للحرب ، أو امتلاكها لقدرات قتالية تهدد أمن إسرائيل ، تشكل حجة كافية (لتوجيه ضربة إجهاضية مسبقة) لهذه الجيوش أو القدرات . ومعروف أن إسرائيل قد شنت عدوانها سنة ١٩٦٧ بأسلوب الضربات الإجهاضية المسبقة . وركزت هذه الضربات على القوات الجوية العربية بالدرجة الأولى (المصرية والسورية والأردنية) مما ضمن للقيادة الإسرائيلية حرية العمل العسكري بالنسبة للقوات الأرضية (البرية) وبدهي القول أنه قد يكون من المحال الافتراض أن باستطاعة الجيش الإسرائيلي تكرار مثل هذه العملية ، إذا عملت الجيوش العربية على تأمين الحماية لقواتها ضد مثل هذه الضربات . كما ظهر (في حرب سنة ١٩٧٣) أن باستطاعة الجيوش العربية توجيه ضربات إجهاضية مسبقة بحيث لا تستطيع إسرائيل احتكار أية نظرية من نظريات الحرب ، أو الاستئثار بفوائدها .

هـ ـــ ربح حرب بعد حرب : تعتمد القيادة العسكرية الإسرائيلية على (الضربات الإجهاضية المسبقة) وعلى الالتزام الدقيق بمبادئ الحرب : (المباغتة والمبادأة والحشد وتأمين المؤخرات والمناورة وحرية العمل العسكري ... إلخ) من أجل كسب حرب بعد حرب للوصول بالمشروع الصهيوني حتى نهايته . ويستبعد المذهب العسكري الإسرائيلي احتمالات الفشل أو الهزيمة ، إذ تعتبر القيادة الإسرائيلية أن الكيان الصهيوني لا يحتمل أية هزيمة ، وأن أية هزيمة إنما تعني

نهاية الكيان الصهيوني ونهاية (الدولة العبرية). وهذا ماعبر عنه وزير الدفاع الإسرائيلي في حرب سنة ١٩٧٣ عندما انطلق العرب في هجومهم على جبهتي مصر وسورية. فصرح قائلاً (لقد انهار الهيكل الثالث) ويقصد بذلك انهيار إسرائيل من قبل عندما هاجمها (نبوخذ نصر) وسبى اليهود إلى بابل سنة ٥٨٧ق. م. واستولى على القدس وضمها إلى الدولة الكلدانية، وأشار بذلك أيضاً إلى أن إسرائيل لا تحتمل أكثر من هزيمة واحدة. وتستثمر القيادة الإسرائيلية هذه النظرية (نظرية ضرورة تحقيق النصر وعدم التعرض لهزيمة تضع نهاية الكيان الصهيوني) من أجل الاستعداد الدائم للحرب والقتال، ومن أجل زج قواتها في قتال فرضته ضرورة المحافظة على البقاء. وما من حاجة للقول أن هذا الوضع غير الطبيعي قد وضع اليهود أمام سؤال لا جواب له عند أصحاب النظريات الصهيونية وهو (إلى متى نقاتل في هذه البلاد؟) غير أن القيادة الصهيونية تتجاهل مثل هذه التساؤلات معتمدة على ما تقدمه موجات الهجرات اليهودية المتتالية من قدرات قتالية متجددة.

ز ــ **المذهب المتكامل وحوار** الإرادات: يظهر العرض السابق ــ على إيجازه الشديد ــ المرتكزات الأساسية للمذهب العسكري الإسرائيلي ــ وهذه المرتكزات تظهر هذا المذهب بصورته المتكاملة، وعلى أساس أن تبقى مفاتيح الحرب بصورة ثابتة ودائمة في قبضة القيادة السياسية الإسرائيلية وجيشها العدواني، متجاهلة أنه من المحال الاعتماد على فرضية غياب إرادة الحوار في عمليات الصراع المسلح. فالحرب هي حوار بين إرادات متصارعة. وقد تأكدت القيادة الإسرائيلية من هذه الحقيقية في حرب (١٩٧٣) وكان ذلك عاملاً حاسماً في (الزلزال) الذي ضرب جذور الكيان الصهيوني وهز مرتكزاته. وكان من المفروض أو المتوقع أن تعيد إسرائيل ــ وقيادتها السياسية والعسكرية ــ النظر في أسس مذهبها العسكري. غير أن الشواهد المتوافرة قد أكدت أن إسرائيل لم تتعلم شيئاً من تجربتها الذاتية. وقد أكدت ذلك من خلال تجربتها في حرب لبنان. إذ إنها حققت نصراً عسكرياً، غير أنها بقيت بعيدة كل البعد عن بلوغ الهدف النهائي للحرب ــ وهو الوصول إلى سلم ثابت ومستقر على أسس عادلة غير تلك الأسس التي تضمنتها النظريات الصهيونية القائمة على الحرب والتوسع.

إقراراً بالواقع، لقد ظهر (المذهب العسكري الإسرائيلي) وتشكل، من خلال الحروب المتتالية، ومن خلال الظروف الدولية والمحلية (العربية). وقد كان للدول الغربية (بريطانيا بخاصة) دور في تشكل هذا المذهب، كما كان للولايات المتحدة دورها الأساسي والحاسم في تطوير هذا المذهب (عبر اتفاقات التعاون الاستراتيجي). وقد بات معروفاً أن مخططات الحرب في سنة ١٩٦٧، وفي سنة ١٩٨٢ قد نوقشت في الولايات المتحدة (البنتاغون) وكان للجسر الجوي في حرب ١٩٧٣ دوره المعروف في سد الثغرات التي ظهرت في (المذهب العسكري الإسرائيلي) غير أنه ظهرت عوامل جديدة، فالدعم لإسرائيل لمتابعة أعمالها العدوانية ــ التوسعية، هو دعم

مرتبط بالظروف الدولية والعربية. ولقد غابت المنافسة بين الدولتين العظميين وانتهت أيام الحرب الباردة، وحل تنسيق التعاون بين الدولتين محل الاستقطاب والمنافسة. وخسرت إسرائيل بذلك ورقة أساسية (باعتبار أن إسرائيل قاعدة ضد الاتحاد السوفييتي) وكذلك فقد تغيرت مواقف عربية بسبب التحالف مع الولايات المتحدة الأمريكية. وقد يكون من الصعب الافتراض أن الولايات المتحدة ستستمر في دعمها لإسرائيل على نحو ما كانت تفعله من قبل. ولقد وضع (المذهب العسكري الإسرائيلي) على أسس استمرار الحرب بين إسرائيل والعرب. وهذا هو بدقة ما تجابهه إسرائيل من مأزق — إذ إن المذهب العسكري الإسرائيلي لم يضع في اعتباره مجابهة متطلبات السلم، وتجاهل المبدأ الأساسي العسكري وهو أن الحرب هي الوسيلة لبلوغ السلم. وهكذا وقفت إسرائيل أمام العرب، كما وقف نابليون بونابرت أمام أبواب موسكو سنة ١٨١٢، فالعرب يرفضون الاستسلام لمنطق الحرب ولقهر الحرب، وهم على استعداد لقبول السلام العادل. وهذا ما أكدوه في حروبهم وفي جهودهم للبحث عن السلم. ويبقى على إسرائيل أن تتحرر من النظريات الصهيونية، مما يساعدها على إعادة النظر في مذهبها العسكري الذي يجب أن يضع السلم هو الأساس في العلاقات مع المحيط العربي، وليست الحرب الدائمة والمستمرة.

الفصل الثاني

دراسات مقارنة

1 ـ المذاهب العسكرية والتقانة
2 ـ المذاهب العسكرية وعواملها المشتركة
3 ـ المذاهب العسكرية ومسألة السلم
4 ـ المذاهب العسكرية ونقل الحرب إلى بلاد العدو
5 ـ الاستراتيجيات القارية البحرية

١ ــ المذاهب العسكرية والتقانة

[١] الحرب في طبيعتها المتكاملة: هيمنت التقانة على تفكير الباحثين العسكريين ومنظريهم وكتّابهم، علاوةً على تفكير رجال التقانة ذاتهم من مصممي الأسلحة والوسائط القتالية وصانعيها، فذهبوا في تصوراتهم لأشكال الحروب القادمة مذاهب شتى، ووصلوا أحياناً في تطرف تفكيرهم إلى حد إلغاء الجيوش والاكتفاء بما وفرته التقانة من قدرات تدميرية مذهلة ــ ولا سيما بعد استخدام النار النووية. وأصبحت الحرب بالنسبة لأمثال هؤلاء مجرد (لعبة أزرار) إذ يكفي لصانعي قرار الحرب الجلوس في مقاعدهم الوثيرة في غرف عملياتهم المجهزة في أعماق الأرض، ليوجهوا أسلحتهم المدمرة نحو أهدافهم في أي بقعة من العالم وليتابعوا بعد ذلك ما حدث من تدمير هائل لقدرات العدو وقواته وبلاده، وليقرروا ما إذا كانت هناك حاجة لضغط أزرار أخرى. وهناك من احتفظ بتفكير أكثر اتزاناً، فلم يذهب في تطرفه إلى هذا الحد، لكنه لم ينكر أن التقانة في إطار حوار الإرادات المتصارعة قد جعلت من الحرب مجرد منافسة بين الأسلحة والأسلحة المضادة لها وأن الحسم تقرره الوسائط المتفوقة في تقانتها والأوفر نسبة في كثافتها، وبقيت الحرب هنا أيضاً مجرد (لعبة أزرار) في صراع بين خصوم متباعدين لا يصل بعضهم إلى بعض.

قصة (التقانة) في الواقع مرتبطة بتاريخ فن الحرب منذ أقدم العصور، فقد لجأ الإنسان باستمرار إلى العلم وإلى التقانة من أجل حل المشكلات التي تجابه القوات المقاتلة، وإذا كانت قصة (حصان طروادة) التي خلدها الشاعر هوميروس (سنة ١١٨٠ق.م تقريباً)، تمثل نموذجاً لإبداع الإنسان في اللجوء إلى التقانة، من أجل حل مشكلات الحرب. فإن قصة (رافعة أرخميدس) وصيحة (وجدتها وجدتها) ستبقى برهاناً على استخدام العلم والتقانة في الحرب[١]

(١) أرخميدس: (ARCHIMÈDE) عالم ورسام من مواليد سيراقوزه (٢٨٧ ــ ٢١٢ ق.م) وهو الذي وضع المعادلة بين السطح والحجم للأسطوانة والقطر، مما سمح له بوضع عدد من نماذج الرافعات واستخدام القدرات المائية والميكانيكية.

منذ القديم. وهل كانت عربات القتال لدى قدماء المصريين والفرس والآشوريين إلا النماذج المبكرة لاستخدام العربات المدرعة في عصر الأسلحة النارية؟ ثم هل كانت المجانيق والعرادات الضخمة إلا النماذج الأولى والبدائية لأسلحة المدفعية في عصر استخدام البارود؟ وكذلك فهل كانت (الليمات الرومانية) والقلاع المحصنة إلا تنظيمات دفاعية مبكرة مهدت لفكرة الملاجىء العميقة في عمق الأرض في عصر الأسلحة النووية؟ إن قراءة فن الحرب من خلال التقانة وحدها، هو انتقاص لفن الحرب ذاته، وإلغاء للمذاهب العسكرية المتكاملة التي شكلها الإنسان بتجاربه المتتالية، منذ بدأ صراعه على وجه الأرض وحتى اليوم. وهو إنكار لإبداع الإنسان الرائع في تحقيق الترابط والتكامل، بين الأجزاء المفككة ظاهرياً، والمترابطة بتلاحم مذهل في جوف طبيعة الحرب ذاتها. ولقد اقترن ظهور كل إبداع في التقانة بظهور نظريات تذهب في التطرف إلى حد الافتراض أن تلك التقانة ستحل مشكلات الحرب. لكن سرعان ما يظهر خطأ هذه النظريات بسبب تجاهل حقيقة أساسية وهي أن الحرب كلٌ لا يتجزأ، وعدد أصم لا يقبل القسمة (أو التقسيم). وأن تجاهل هذه الحقيقة هو تجاهل لطبيعة الحرب ذاتها. ولعل أقرب مثال اكتسب شهرة واسعة هو (نظرية دوهيه) في الحرب[٢] فقد فتن دوهيه بقدرة القوات الجوية. وعـدّها العامل الحاسم في الحرب، وافترض أن سلاح الطيران وحده قادر على حماية البلاد، وتدمير العدو بتوجيه نيران هذا السلاح إلى الأهداف المدنية المعادية. وأن عمل القوات البرية ليس أكثر من عمل دفاعي (مجرد حرس للحدود). وقام بحسابات افتراضية فزعم أن ألف طائرة مقاتلة تستطيع تدمير ٥٠ منطقة من لندن يومياً، بمساحة ٥٠٠متر مربع لكل منطقة، بحيث يتم تدمير العاصمة البريطانية، وإرغام إنكلترا على الاستسلام دونما حاجة لجيوش برية. وعندما جرب هتلر هذه النظرية وطبقها، كان الفشل من نصيب سلاح الجو الألماني، ولم يتم تدمير لندن، كما لم تستسلم إنكلترا. لقد وضع أصحاب نظريات الحرب، عبر كل القرون التي مضت وانقضت، مذاهب مختلفة للحرب، وقد عاشت هذه المذاهب عبر قرون متتالية، وعرفت تطورات مختلفة، ومع ذلك حافظت على ثباتها. واستعراض تلك المذاهب يظهر القدرة على مقارنة العوامل الثابتة فيها، بقدر ما تبرز علاقات المذاهب بعضها ببعض. ولعل أقرب الأمثلة المعروفة المذاهب العسكرية المعروفة حديثاً. فالمذهب العسكري الألماني بدأ بعصر الخيول والمدفعية والأسلحة الفردية البدائية. وانتهى بعصر الدبابات والطيران. فهل عرف المذهب

---

(٢) دوهيه: (DOUHET - GIULIO) إيطالي ومنظر لسلاح الطيران (١٨٦٩ — ١٩٣٠) بدأ حياته العسكرية ضابطاً في سلاح المدفعية في الجيش الإيطالي ووصل إلى رتبة عميد (جنرال). أظهر حماسة لسلاح الطيران سنة ١٩٠٩، وقدم إلى محكمة عسكرية ادانته لانتقاده هيئة أركان القوات الجوية الإيطالية، غير أنه تابع تبشيره بدور هذا السلاح. وعين سنة ١٩١٨ رئيساً للمكتب الجوي المركزي. وألف كتاباً عن (السيطرة الجوية) غير أنه مات قبل أن تموت نظريته.

العسكري الألماني تغيرات تذكر من حيث هدف الحرب ، وأساليب خوض القتال ؟ وهل تغيرت مبادىء الحرب وتطورت؟ وهل جاء التطور في التقانة والتسلح مضاداً لمبادىء الحرب ومذاهبها أم جاء لخدمتها واستثمار ظروف مناسبة لتطبيقها؟ لقد بقيت على سبيل المثال المباغتة (مباغتة) وكذلك المبادأة ، غير أن وسائل التقانة أتاحت تحقيقها وتطوير أساليب بشكل أفضل من السابق .

ولقد تضمنت دراسة فرنسية ما يلي : « ...**لا تخضع مبادىء الحرب لآثار التقانة : فالتسليح** ووسائل التنقل ، أو وسائط الاتصال قد فرضت مذهباً يميز استخدامها مع احترام المبادىء . وكان **بطء التطور المذهبي ذاته في الماضي هو الذي يسبب اللبس** والغموض بين المبادىء والطرق **المذهبية**. كما اتبعت نظرية الحرب التقدم التقني بكثير من الاحتراس » . وقد كتب ليدل هارت في هذا الموضوع ما يلي : «ليس الجيش مؤسسة محافظة فحسب ، بل إنه مؤسسة رجعية بالطبيعة ، وتبرهن لنا تجربة يبلغ عمرها أكثر من ألفي عام على **أن إدخال فكرة جديدة في الفكر العسكري عملية صعبة لا يفوقها صعوبة سوى محاولة تخليص هذا الفكر من فكرة قديمة . إن تطور التقدم في التقانة ذو إيقاع يدخل فيه عامل مجهول . وهذا مما يزيد التوتر بين الغريزة المحافظة والحاجة إلى الإصلاح**. وينتج عن ذلك غالباً أن هيئات الأركان تعالج موضوعات القوات المسلحة غير متجزئةٍ على المساس ببنياتها الأساسية فهي تجري بعض التعديلات من دون أن تقوم بإصلاح جذري ، وتعطي لنفسها غالباً حجة ثبات مبادىء الحرب . لهذا فمن الأمور الأساسية إذاً التفريق والتمييز بين المذهب والمبادىء . وفي أغلب الأحيان يتحدث بعضهم عن مبادىء الحرب من دون أن يتفقوا على اصطفاء بعضها ، وعلى فائدتها »(٣) .

يظهر النص السابق مجموعة من النظريات القابلة للجدل والنقاش بشأن العلاقة بين المذاهب العسكرية ومبادىءالحرب من جهة ، وبينها وبين التقانة من جهة أخرى . وعلاقة ذلك كله بتطوير الجيوش وتنظيمها وتسليحها . فالمذاهب العسكرية التي تحدد للأمة ولقواتها المقاتلة هدف الحرب ، وتطلق فعالياتها ، وتستنفر إمكاناتها تبقى ثابتة . ومثال ذلك أيضاً هدف توحيد القوة الألمانية لتكون دولة عظمى .

وكذلك الهدف الروسي الذي بدأ بتوحيد الإمارات الروسية وانتهى بإيجاد المجال الحيوي للاتحاد السوفييتي . وقد انتقل المذهب الروسي من (حماية الأرثوذكسية) إلى (حماية الاشتراكية) ، غير أن الهدف بقي ثابتاً . وهو حشد قوات الأمة لتحقيق هدف الدولة حتى تبقى (دولة عظمى) .

---

(٣) مدخل إلى التاريخ العسكري (إيريك موريز) تعريب أكرم ديري والمقدم الهيثم الأيوبي. دار الإرشاد ــ بيروت ــ ١٩٧٠ ص ٤٠ .

هناك إذاً قصور في التمييز بين مفاهيم المذاهب العسكرية، ومبادىء الحرب، وبينها وبين التقانة. فتطور التقانة، كان لا بد من أن يصطدم بما وصف بالمعارضة مما حمل على اتهام الجيوش (بالرجعية) ومثال ذلك: **ماوقع من جدل كبير عندما ظهر سلاح المدرعات للمرة الأولى، حين تصدى قادة أسلحة الفرسان ـــ في فرنسا كما في بريطانيا، وفي روسيا كما في أمريكا للمولود الجديد، وقاوموه، لكن سرعان ما تبين لهم تفوق السلاح الجديد** على سلاح الفرسان، وانتصرت التقانة على ما وصف (بالأفكار الرجعية). وكذلك الأمر بالنسبة لسلاح الجو، وما رافق ظهوره من نظريات متناقضة وأفكار متعارضة. والجيش وفقاً لذلك ليس مجرد مؤسسة رجعية، لكنه مؤسسة تسعى إلى التطور بما يتوافق مع احتياجاتها ومتطلباتها، وبما يخدم (مذهبها العسكري). وهكذا فإن بحث ألمانيا عن (الحسم العسكري) وعن (الحرب الخاطفة) كان هو الموجه لاستخدام التقانة الحديثة التي تحققت بالدبابات والطائرات من أجل تطوير حرب الحركة. ومن هنا يجب تجنب الخلط بين مفاهيم المذاهب العسكرية (الإيديولوجية) وبين ومبادىء الحرب من جهة، وبين هذه وبين التقانة من جهة ثانية، فما من سلاح داخل في خدمة القوات المسلحة إلا وتعرض للجدل في كل جيش من جيوش العالم، من حيث فائدته وأهميته ومن حيث دوره في الحرب. ولطالما تم إخضاع المبتكرات الحديثة لأبحاث طويلة وتجارب كثيرة قبل اعتمادها وتبنيها. ولكن ما من أحد من القادة ومن هيئات أركانهم قد ناقش في أهمية مبادىء الحرب وفائدتها، فهم جميعاً يركزون الجهد على تطبيق هذه المبادىء واستخدامها على أفضل وجه ممكن. وأما قضية الاصطفاء أو الانتقاء بين هذه المبادىء، فإنها ليست مسألة كيفية، بل مسألة تفرضها مخططات الحرب، فقد تعطى الأفضلية لهذا المبدأ أو ذاك في مرحلة من مراحل القتال بينما يعطى هذا المبدأ ذاته أهمية ثانوية في مراحل أخرى. وإن مثل هذا الانتقاء أو الاصطفاء، وما يرافقه من جدل، هو أمر طبيعي ومتوقع عند وضع مخططات الحرب، لكنه جدل يختلف اختلافاً تاماً بطبيعته عن ذاك المتعلق باستخدام نوع معين من الأسلحة والوسائط القتالية، أو باعتماد معين من الوسائط القتالية. والأمر مماثل في تنظيم الجيوش المقاتلة وتسليحها، بل حتى في إقامة الأحلاف العسكرية.

إن المذاهب العسكرية وهي تحدد للأمة ولقواتها المقاتلة أهدافها (سياستها الاستراتيجية) لا تحدد حجم الجيوش ولا تسلحها ولا ماتحتاجه من التقانة لكنها تحدد في الوقت ذاته العدو أو الأعداء المتوقعين وأقرب الأمثلة المعروفة، المذهب العسكري الغربي، والمذهب العسكري المقابل له (السوفييتي)، فبينما طرح الاتحاد السوفييتي وتبنى في مذهبه العسكري أساس عمل القوات المسلحة (حماية الوطن الاشتراكي) و (الدفاع عن الاشتراكية في العالم) تبنى المذهب العسكري الغربي ـــ الرأسمالي ـــ قضية (الدفاع عن العالم الحر) على حد تعبيره، وكان على القادة العسكريين في كل من المعسكرين، تحديد حجم الجيوش المناسبة واختيار أسلحتها المناسبة، في إطار ما يمتلكه

الخصم من التسلح، وما وصل إليه من التقانة. وهكذا، فقد كان ظهور أي سلاح يستدعي إيجاد تنظيم قتالي جديد. فظهور الأسلحة الصاروخية، وظهور وسائط الحرب الإلكترونية، قد أديا بصورة طبيعية إلى ظهور تنظيمات مقاتلة تستخدم هذه الوسائط القتالية المستحدثة. كذلك، فإن تحديد المذاهب العسكرية لأهدافها على المستوى العالمي، قد فرض ضرورة تنظيم الجيوش المقاتلة والتمتع بالقدرة الحركية اللازمة لها للعمل على المستوى العالمي، فتعاظم دور الجسور الجوية، والجسور البحرية، وتعاظم الاهتمام بأعمال الإنزال البرية ـــ البحرية (البرمائية) والإنزالات الجوية، حتى أصبحت الكرة الأرضية مسرحاً عالمياً متصلاً. وتظهر هذه الأمثولات، أن التقانة قد سخرت لمصلحة المذاهب العسكرية، وأن المذاهب العسكرية هذه قد أفادت من التقانة، حتى أبعد الحدود، ووظفتها لتحقيق أهدافها (سياستها الاستراتيجية) يؤكد ذلك كله صورة التكامل في طبيعة الحرب. فالتقانة والعلم من العوامل المتشابكة في صلب الحرب لا تشكل بحال من الأحوال أجزاء منفصلة عنها. وهذا مايدحض كل مقولة في هيمنة التقانة أو سيطرتها على المذاهب العسكرية. إذ إن مجرد هيمنتها سيحول الحرب إلى حرب تقانة مجردة من الهدف والغاية. وليس ذلك فحسب، بل إنه يلغي الدور الإنساني في الحرب، مما يجعل الإنسان خادماً للتقانة، وليس مسيطراً عليها لبلوغ هدفه. فهل هناك حرب بلا هدف ـــ إلا هدف التدمير المتبادل للوسائط القتالية وأجهزة الحرب؟ لقد استدعى تطور الجيوش واتساع مسارح العمليات زيادة الاعتماد على وسائل القيادة والسيطرة (أجهزة رصد ورقابة وأجهزة اتصال) ووصلت هذه الوسائل إلى تقانة متطورة جداً. فهل تكون هذه التقانة هي المسيطرة على القيادات وعلى هيئات الأركان في جيوش العالم، أم أنها ما جاءت إلا لخدمة هذه القيادات وتسهيل عملها ومساعدتها على الاضطلاع بأعبائها على أفضل وجه ممكن؟ وقد تتطور هذه التقانة يوماً بعد يوم، وسيتطلب ذلك إيجاد تنظيمات مقاتلة، ولكن هل يلغي ذلك دور القيادات أم أنه سيزيد دور القادة ـــ أصحاب القرار ـــ؟

خلاصة القول: إن التقانة هي جزء من أجزاء الحرب، وهي في تطور مستمر لكنها تبقى أبداً ـــ في إطار الطبيعة المتكاملة للحرب.

٢ **التقانة ومخططات الحرب**: لقد تطورت التقانة في الأزمنة القديمة تطوراً بطيئاً جداً، فالانتقال من العصر الحجري إلى عصر الحديد، تطلب آلاف السنين، ومثل ذلك عند الانتقال إلى العصر البرونزي والنحاسي... إلخ. **لكن إبداع الإنسان المقاتل ظهر واضحاً في مجالين على الأقل، أولهما في الاستخدام الماهر لما يصنعه من وسائط قتالية. وثانيهما الإبداع في وضع المخططات القتالية على أساس دراسة علمية ودقيقة للأرض وللعدو وللقوى الصديقة.** وتمثل موقعة (ماراتون ٤٩٠ق.م) نموذجاً لإبداع الإنسان في وضع مخططات الحرب، ففي تلك

الحروب (الفارسية ــ اليونانية) التي كانت مندلعة باستمرار. أسندت اليونان قيادة جيشها إلى القائد الشهير (ميليتياد) الذي وضع خطته لتوجيه ضربته الحاسمة إلى خيالة الفرس الثقيلة، لما كانت هذه الخيالة هي عامل التفوق في الجيش الفارسي، وهي المستفيدة من قوتها لضرب الأجنحة اليونانية الضعيفة في الحروب السابقة، فتتمكن من إلحاق الهزيمة بهم.

وهكذا عمل ميليتياد على وضع المشاة الثقيلة في مدخل وادٍ ضيق لا يزيد عرضه على كيلومتر واحد. فتمكن بذلك من تغطية أجنحة ــ جوانب ــ القوات اليونانية، بحواجز طبيعية، وكذلك رتب (ميليتياد) الكتائب ــ الفالانج ــ ذاتها على أساس دراسة عمل الخيالة الفارسية، فنظم جناحيه بعمق أكبر من عمق القلب. ثم غطاهما بالمشاة الخفيفة المتمركزة على سفوح الجبال. وعندما اقترب المهاجمون الفرس بدأ اليونانيون هجومهم، قاصدين توجيه ضربة قوية إليهم، ومن أجل اجتياز المنطقة المضروبة بالنبال بأقصى سرعة من جهة أخرى. ونجح الفرس في إيقاف قلب القوات اليونانية لكن انقضاض الأجنحة اليونانية القوية هو الذي حسم الموقعة، ودفع المقاتلين الفرس إلى الهرب، بعد أن أدركوا أن القوات اليونانية تطوقهم من الأجناب. وانتهى القتال بانتصار اليونانيين الذين خسروا ألف رجل تقريباً منهم ١٩٢ قتيلاً، بينما بلغت خسارة الفرس نحو ٦٤٠٠ رجل. وظهر في هذه المعركة أن الفرس كانوا يتفوقون برمي السهام (القوس) بينما كان اليونانيون يتفوقون باستخدام أسلحة الطعن (الأسلحة البيضاء).

وكان للعامل المعنوي دوره الحاسم، فقد كان اليونانيون يدافعون عن بلادهم. بينما كان الفرس يشنون حرباً عدوانية (توسعية).

كانت هذه الموقعة من أهم المعارك المعروفة في العالم القديم ــ عالم ماقبل الأسلحة النارية ــ ويظهر من خلالها إجراء التنظيمات المقاتلة وفقاً لمتطلبات التقانة (مشاة خفيفة ومشاة ثقيلة وخيالة خفيفة وخيالة ثقيلة) تبعاً للتسلح ودرجة الحماية والوقاية (الدروع) ونوع الأسلحة الملائمة (الأقواس وسلاح القذف والسلاح الأبيض).

جاءت بعد ذلك موقعة (ليفكترا) سنة ٣٧١ق.م التي قادها القائد اليوناني إيبامينوند، لتظهر نوعاً جديداً من التفوق في المخططات الحربية، وذلك عن طريق ماأصبح معروفاً باسم (النظام المائل) أو (التوزيع غير المتساوي للقوات على الجبهة بهدف حشد القوى من أجل توجيه الضربة الرئيسة على الاتجاه الحاسم).

كان إيبامينوند يعرف أن قوات العدو (الاسبارطية) بقيادة الإمبراطور كليمبروت، متفوقة عليه عددياً (١١ ألف رجل مقابل ٧ آلاف للتحالف اليوناني). لهذا شكل رتلاً ضارباً عمقه ٥٠ نسقاً لضرب أنساق الاسبارطيين على جناحهم الأيمن. وبذلك انتصر إيبامينوند رغم مقاومة

الاسبارطيين الضارية. وقتل إمبراطورهم وسقط منهم ألف قتيل. ووضعت هذه المعركة نهاية للدولة الاسبارطية.

جاءت حروب الاسكندر المقدوني ما بين سنة ٣٣٤ وسنة ٣٢٤ق.م. لتبرز الاقتران الوثيق بين تطور التقانة وتطور الجيوش لخدمة هدف الحرب (المذهب العسكري)، فقد أراد الاسكندر إقامة إمبراطورية عالمية تشمل القارات الثلاث للعالم القديم (أوروبا وإفريقيا وآسيا).

ونظراً لاتساع مسرح العمليات، اعتمد الاسكندر على وسائط حرب الحركة (الخيالة). فقسمها إلى ثلاث مجموعات (ثقيلة ومتوسطة وخفيفة). وكانت هي القوة الضاربة الرئيسة وتم استخدامها للعمل على أجنحة العدو ومؤخرته وللقيام بالمطاردة الحاسمة. وكان يتم وضعها على جناحي التنظيم القتالي لشن الضربة الحاسمة. ونظم الاسكندر التعاون بشكل مثير بين عمل الخيالة وعمل المشاة. وكانت معركة كـافكامل (القريبة من أربيل في العراق حالياً) من أبرز معارك الاسكندر ضد الفرس (سنة ٣٣١ق.م) ففي هذه المعركة نظم ملك الفرس داريوس جيشه الذي ضم ٨٠ ألف مقاتل من المشاة والخيالة، إضافة إلى ٢٠٠ عربة قتال و١٥ فيلاً. ولم يكن جيش الاسكندر يضم أكثر من ٤٠ ألف مقاتل، و٧ آلاف من الخيالة. وقد تمكن الاسكندر من انتزاع النصر، عندما وجه ضربة جبهية قوية لقوات الفرس، مع قيام الخيالة الثقيلة بحركة التفاف على الجناح الأيمن للفرس وأمكن الوصول إلى مؤخرتهم، وبذلك انتهت المعركة. وكانت تأكيداً جديداً لأهمية مبدأ إيبامينوند (تركيز القوى على اتجاه الضربة الرئيسة، التوزيع غير المتساوي للقوى على الجبهة).

ثم كان الصراع **بين قرطاجة وروما بعد ذلك بمائة عام، برهاناً على ما أمكن إحرازه من تطور في التسلح خلال مائة عام**. فلم يعد الرمح هو السلاح الأساسي للمقاتل الروماني الثقيل. ولا السيف القصير العادي سلاحه الثانوي. وإنما أصبح السيف القصير ــ بطول نصف متر ــ ذو الطرفين الحادين والنهاية الحادة هو السلاح الأساسي والمفضل للمقاتل الروماني. وتميز هذا السيف بأنه سلاح للطعن والبتر (القطع) في آن واحد. كما بدأ تجهيز الجيش الروماني برمح جديد قصير يستخدم للقذف فقط، وهو مؤلف من قناة من السنديان ــ الخشب القوي ــ وقد انتهى رأسه بحربة حديدية طويلة ــ ووزنه ٢ كغ وطوله الكامل ١٫٥ متر (وعرف هذا الرمح باسم بيلوم) وجهزت المشاة الخفيفة (فيليت) بالسيوف وبأسلحة القذف المختلفة (قوس، مقلاع، رماح قصيرة مقذوفة). وكان أفراد هذا النوع من المشاة الخفيفة يتميزون عن أفراد المشاة الثقيلة بأنهم لا يحملون أي تسليح للحماية سوى ترس صغير مدور. أما الخيالة الرومانية، فكانت مسلحة برماح عادية أكثر طولاً وأكثر تسطيحاً من مثيلاتها عند المشاة.

استخدم الجيش الروماني كذلك الأسلحة الجماعية (المجانيق والعرادات والأبراج) لمهاجمة القلاع والحصون. وقد تعد هذه التطورات في التقانة التي تمت عبر عشرات السنين ومئاتها أمراً مثيراً للشفقة عند مقارنتها بما يحدث من تطورات مذهلة في الأزمنة الحديثة. غير أن وضع تلك التطورات في إطارها الزمني يظهر مدى أهميتها وتأثيرها في الجيوش. وعلى كل حال، **فقد كانت معركة (كاني) الشهيرة سنة ٢١٦ق.م من أشهر المعارك، فقد استطاع الجيش القرطاجي بقيادة هاني بعل ــ بعد مسيرة شاقة عبر جبال الألب. أن ينصب كميناً على مستوى الجيش في ممر ضيق بين شواطيء بحيرة تازمين. وأمكن له تدمير الجيش الروماني الذي ضم ٨٦ ألف رجل (منهم ٦ آلاف خيال). بينما لم يكن جيش هاني بعل يزيد على ٤٠ ألف رجل (منهم ١٠ آلاف خيال)**(٤).

يمكن التعرض هنا إلى ظاهرتين مثيرتين: أولاهما اقتران عمل القوات البرية بالقدرة البحرية، حيث جرى القتال في البر والبحر، وكان التعاون وثيقاً بين القوات البرية والبحرية. والثانية استخدام استراتيجيات مناسبة ومتطورة. **فقد ظهرت في هذه الحرب (استراتيجية فابيوس) أو استراتيجية المماطلة، والهادفة إلى تجنب الصدام المباشر مع هاني بعل، واستنزاف قدرته، ثم مهاجمته في عقر داره، ونقل الحرب بعيداً عن إيطاليا، حيث وقعت معركة زاما الشهيرة.** وانتهت سنة (١٤٩ ــ ١٤٦ق.م) **بالقضاء على دولة قرطاجة.** ومن الملاحظ في هذه المعارك الحاسمة أن استخدام الخيالة الثقيلة للوصول إلى مؤخرة العدو، كان هو الوسيلة للحسم، وكانت مناورة التطويق الكامل (كما في معركة كاني) هي المناورة التي يبحث عنها القادة لتدمير جيوش أعدائهم.

لقد كانت قوات الخيالة الفرسان ــ قبل عشرين قرناً ــ تضطلع بالواجبات التي قامت بتبنيها القوات المدرعة في القرن العشرين. فكانت الفرسان الخفيفة تضطلع بواجبات الاستطلاع أمام كتلة القوات الرئيسة، وكانت قوات الفرسان الثقيلة تشكل سلاح الصدمة فكانت تدعم المشاة، وتقوم بمناوراتها لاختراق تنظيمات العدو والوصول إلى مؤخراته وتطويق أجنحته ومن ثم مطاردته. وهذا أيضاً ما تضطلع به قوات الدبابات في القرن العشرين، وهي تجمع بين قوة الصدمة وقوة النار (القذف). كذلك فقد كانت القوات البحرية تضطلع بواجبات القتال البحري ــ وبإنزال القوات وتأمين الإمداد والدعم للقوات. وتنسيق التعاون مع القوات البرية، وهو ما تضطلع به القوات البحرية في الأزمنة الحديثة. ويظهر ذلك حقيقة ثابتة وهي أن الفكر

---

(٤) الأسلحة والألبسة ــ حتى القرن الثامن عشر ــ (بالإنكليزية) ليليان آند فريد فونكن إنكلترا ــ ١٩٧٢ ص ٣٠ ــ ٥٤. وانظر تاريخ فن الحرب ــ ستروكوف ــ ترجمة العميد الركن صباح الدين الأتاسي ــ وزارة الدفاع ــ دمشق ــ ١٩٦٨ ص ٤٨ ــ ٧٤ (المجلد ١).

العسكري قد أحرز تطوراً مثيراً في مجال تنظيم القوات واستخدامها في إطار ما هو متوفر من التقانة : بصورتها البسيطة والأولية ، وأن واجبات الأسلحة قد حددت بوضوح قبل عشرين قرناً . ويمكن **عد ذلك تأكيداً ثابتاً على أن تطور التقانة في التسلح والوسائط القتالية قد جاء لدعم** مبادىء الحرب وليس **لإلغاء دورها ، وأن هذا التطور في التقانة قد دعم قيمة المذاهب العسكرية ، ولم ينتقص من أهميتها أو يضعف من دورها .**

وفي مجال التنظيم الدفاعي في العالم القديم ، كان نموذج (الليمات الرومانية) يمثل تنظيماً دفاعياً عميقاً . وكانت هذه الليمات مواقع دفاعية ــ هجومية في آن واحد ، فقد كانت الحاميات المدافعة عنها تقوم بالدفاع لإيقاف القوات المتقدمة ، مدة معينة ، ريثما تتقدم القوات الصديقة فتستخدم هذه القلاع (الليمات) قواعد للهجوم . ومقابل ذلك ، فقد كان الهجوم على هذه القلاع يتمثل بتطويقها وعزلها ، واستنزاف قدرتها ، وقطع المياه والمواد التموينية عن حاميتها وسكانها حتى تستسلم ، مع مهاجمتها بالأبراج والنقب والمجانيق إذا ما توفرت وسائط الحصار . وترسم هذه الصورة المبسطة شكل الدفاع في الأزمنة الحديثة وارتباط الدفاع بالهجوم ، وواجب الحاميات المدافعة ، بل وحتى أساليب الهجوم على المواقع المحصنة ، وأما الاختلاف فيتمثل بتبدل أشكال التنظيمات الدفاعية (بالانتقال من القلاع البارزة فوق سطح الأرض إلى الملاجىء المشيدة في باطن الأرض) مع تباين الأسلحة والوسائط المستخدمة سواء للدفاع عن التحصينات أو مهاجمتها واقتحامها .

لقد كان الوصول إلى مؤخرة قوات العدو ، وتطويقها ، وتدميرها . هو الهدف الأول لقادة الجيوش المتحاربة ، وكان (حوار الإرادات المتصارعة) هو الذي يبرز الإرادة الأقوى والأكثر تصميماً والأوفر كفاءة . وكان يتم الوصول إلى ذلك إما عن طريق الاختراق ، أو عن طريق الالتفاف العميق على أحد الجناحين ، أو الجناحين معاً ، حسب ما هو متوفر من القوى ، وحسب طبيعة الأرض ذاتها وما تقدمه من المساعدات ومن حرية العمل . ولقد جاءت التقانة الحديثة لتضمن الظروف المناسبة لعمليات الاختراق العميق وعمليات الالتفاف علاوةً على عمليات الإنزال الجوي ــ أو حتى البحري ــ على مؤخرة القوات ، فهل كانت التقانة هنا أيضاً إلا الوسيلة المساعدة لدعم مبادىء الحرب ، ولتنفيذ متطلبات المذاهب العسكرية . وهكذا ، ومنذ أزمنة الخيالة الثقيلة والخفيفة (خيالة الرمح والسيف والقوس) وحتى أزمنة (المعركة الحديثة للأسلحة المشتركة) حافظت مبادىء الحرب على ثباتها ، وحافظت المذاهب العسكرية على دورها ، فيما كانت التقانة تتطور باستمرار . ويتطور معها تنظيم الجيوش وتسليحها وأساليب عملها في إطار من العلاقات الثابتة والملازمة لكل تطور . وبذلك انتقل فن الحرب من صورته البسيطة الأولية إلى صورته الشديدة التعقيد ، سواء على مستوى العمليات أو على المستوى التكتيكي ، إذ ثمة فارق كبير بين ممارسة القتل أو التدمير بالسهام وبين القتل بالأسلحة النارية متوسطة المدى أو بعيدة المدى . ولكن القتل يبقى قتلاً ، والتدمير يبقى

تدميراً. وهل ثمة فارق من حيث النتائج بين ماأحدثه المغول ــ التتار ــ من تدمير هائل أثناء زحفهم الشهير في القرنين الثالث عشر والرابع عشر عبر أوروبا وآسيا، حيث أزالوا الحياة من كل موقع وطئته أقدامهم، وبين التدمير بالنار النووية؟ وهل ثمة فارق كبير بين التدمير بالأسلحة التقليدية مثل ماحدث في عمليات (القصف الاستراتيجي) في أوروبا ــ في الحرب العالمية الثانية، والتدمير بالأسلحة البيولوجية والكيميائية في فييتنام؟

٣ **تجارب التقانة الحديثة:** قد يكون بالمستطاع تجاوز المراحل التاريخية لتطور تقانة الأسلحة، بدايةً من السيف والترس. وحتى النار النووية والملاجىء المطمورة. والتوقف عند بعض الشواهد الحديثة والمعروفة.

ففي بداية الحرب العالمية الأولى، اصطدمت النار بالملجأ، وتوقفت الحركة، **وتحولت الحرب إلى ماعرف باسم (حرب الخنادق) أو (حرب المواقع)**وظهر للقادة العسكريين أنهم يواجهون مأزقاً صعباً من مآزق الحرب. وتعطلت (مبادئ الحرب). فكان من الصعب تحقيق المباغتة أو الإمساك بالمبادأة، أو البحث عن الحسم العسكري، أو ضمان أمن القوات... إلخ. وكان لا بد من البحث عن مخرج لهذا المأزق الذي وصف بأنه **(وصول الأسلحة إلى مرحلة الممانعة)**. وجاءت التقانة لتخرج الحرب من مأزقها، **فظهرت الدبابة والطائرة لتعيد للقوات قدرتها الحركية، ولتعيد لمبادىء الحرب** دورها في حوار الإرادات المتصارعة. وظهر لفترة قصيرة أن هذا السلاح المركب (الدبابة والطائرة) هو سلاح الحسم الذي لا يقاوم. ولكن سرعان ماأخذت الأسلحة المضادة للدبابات والطائرات في العمل بفاعلية كبيرة، وإذ ذاك لم تعد الدبابات والطائرات وحدهما سلاح الحسم، فعادت **(معركة الأسلحة المشتركة)** تمارس دورها على نحو ما كانت عليه التنظيمات القديمة جداً في عصور الفرسان والمشاة المسلحة بالسيوف والرماح. وبرز دور تنظيم التعاون بين القوى المشتركة أساس كل نجاح في المعركة الحديثة. وجاءت تجارب الحروب المتتالية لتبرهن على صحة المعادلات الجديدة. حتى إذا ما كانت حرب سنة ١٩٧٣ عادت التقانة ذاتها لتواجه مأزقاً جديداً. فقد وقفت الدبابة عاجزة عن التقدم أمام شبكة الأسلحة المضادة للدروع. ووقفت الطائرة وهي عاجزة عن اختراق الفضاء والوصول إلى أهدافها في العمق الاستراتيجي، وتبين مرة أخرى أن الأسلحة والأسلحة المضادة لها قد وصلت إلى ما أُطلق عليه أيضاً اسم (**الممانعة**). وكان لا بد للتقانة من أن تجد حلاً لما ظهر من مآزق الحرب.

كانت المسألة الأولى التي جابهتها إسرائيل في هذه الحرب هي مسألة (المباغتة). وجاءت الشبكات الإلكترونية ووسائط الاستطلاع والإنذار المبكر (طائرات الأواكس) والطائرات المجهزة (بدون طيار) لتقدم الوسائط الضرورية لكشف أي تحركات فيما وراء الحدود. جرى في الوقت

ذاته تطوير الحماية للدبابات، وإضافة دروع داعمة، مع تجهيز الدبابات بوسائط تشويش إلكترونية، مما أعاد للمركبات المدرعة دورها في حرب الحركة. وظهر من خلال هذه التجربة القتالية ضعف الجسور البحرية والجوية، فجرت زيادة قدراتها وسرعاتها وإعادة تنظيمها حتى تكون أكثر فاعلية في حالة انفجار حروب محدودة في أي بقعة من العالم. وتبين من نتيجة الاستهلاك الكبير للقوى والوسائط ضرورة الاحتفاظ باحتياطات ضخمة في القواعد المنتشرة في كل أرجاء العالم. كما تبين من نتيجة التطورات المتسارعة للأعمال القتالية ضرورة وجود قوات جاهزة للعمل فور تلقي الإنذار فظهرت تشكيلات (**قوات التدخل السريع**) في كثير من جيوش العالم الكبرى، مع زيادة الاعتماد على وسائط الحركة الجوية (**القوات المحمولة والمنقولة جواً**). ورافق ذلك كله زيادة مثيرة في القدرة التدميرية للأسلحة، وفي دقة توجيهها، وتوجيه مقذوفاتها. بفضل تطوير وسائط الحرب الإلكترونية.

إن ما حدث من تطور في التقانة عبر العقدين الماضيين ــ ومنذ حرب سنة ١٩٧٣ حتى اليوم تحديداً ــ يزيد على ما حدث من تطور منذ أقدم العصور وحتى هذه الحرب. ولقد أذهل هذا التطور كل عقل ــ ويمثل (**مشروع حرب الفضاء ــ أو الكواكب) في الواقع ذروة هذا التطور المتسارع. فهل يمكن الافتراض بأن هذا التطور قد جاء في الاتجاه المضاد للمذاهب العسكرية ولمبادئ الحرب، أم أنه جاء لدعمها ولتثبيت وجودها، ولمنحها ظروفاً أفضل أمام التطبيق العملي والممارسة الواقعية؟ لقد انطلقت هذه التطورات بمجموعها على ما هو واضح من قاعدة إيجاد الحلول للمشكلات التي أعاقت تنفيذ مبادئ الحرب في الإطار الثابت للمذهبين العسكريين، اللذين كانا يخوضان الصراع على أرض العالم (قبل الاتجاه نحو النظام العالمي الجديد)**.

ولقد اقترن ذلك بنضج في الفكر العسكري أبرز بشكل واضح الحدود المميزة بين المذهب العسكري من جهة، ومبادىء الحرب من جهة ثانية، وبين ما يحدث من تطور في فن الحرب على مستوى العمليات وعلى المستوى التكتيكي بتأثير التطور المتسارع للتقانة. وبذلك تراجع الجدل المستمر بين رجال العلم والتقانة من جهة وبين رجال السياسة ورجال الحرب من جهةٍ ثانية. فليست المسألة هي مسألة انتقاص من دور التقانة ومن مكانة العلم في الحرب، كما أنها **ليست انتقاصاً من الدور الذي تمارسه المذاهب العسكرية، وإنما هي مسألة مجموعة العوامل المتكاملة والتي تسهم جميعها في نجاح الحرب أو فشلها، في صنع النصر أو الهزيمة**. وهل هناك من ينكر في الأزمنة الحديثة فاعلية الأسلحة النارية والأسلحة الصاروخية ويفضل عليها الأسلحة البدائية والتي باتت من ممتلكات المتاحف الحربية؟ ومقابل ذلك: **هل هناك من ينكر دور العامل**

الإنساني في الحرب، مثل دور صانعي القرار أو العامل المعنوي في الوصول إلى النصر أو التردي في مهاوي الفشل والهزيمة؟

لقد أصبحت الكرة الأرضية بكاملها، ببحارها وقفارها، بمحيطاتها وقاراتها، بأعماق مياهها وبفضائها الخارجي، مسرحاً متكاملاً للحرب. ويتطلب ذلك بداهة المحافظة على مبدأ (وحدة القيادة والسيطرة) فهل كان بالمستطاع ضمان تحقيق هذا المبدأ لولا التطور المذهل في وسائط الحرب الإلكترونية، ولولا التقدم المثير في وسائط الاتصال؟

يمكن بعد ذلك التعرض للأحلاف، ودور المذاهب العسكرية فيها، وعلاقة التقانة بهذه الأحلاف. فالمعروف عبر التاريخ أن التحالفات كانت تقوم على أساس التشابه والتماثل في المذاهب العسكرية. ذلك أن المذاهب العسكرية هي التي تحدد أهداف الحرب وتحدد الخصم أو الخصوم المتوقعين، وتحدد في الوقت ذاته ما يمكن تسميته بالقوى الصديقة التي يمكن التحالف معها، أو القوى المحايدة التي يمكن لها التحرك بين الأطراف المتحاربة.

وهكذا على سبيل المثال تحالفت الأنظمة النازية والأنظمة الفاشية (ألمانيا وإيطاليا) كما تحالفت الأنظمة الرأسمالية الاستعمارية التي انتحلت **لنفسها حق الدفاع** عن الحريات والديموقراطيات؛ أي أنها سارت على الاتجاه المضاد للأنظمة الديكتاتورية.

ولكن وهنا تكمن بعض المفارقات والتناقضات التي تلازم تطورات الحرب. فقد تحالفت ألمانيا (النازية) مع الاتحاد السوفييتي (الاشتراكي) في مطلع الحرب. وعندما تمزق هذا التحالف: تحالف الاتحاد السوفييتي مع دول الحلفاء (الرأسمالية) ولكن هذا التحالف المرحلي سرعان ما تمزق مع انتهاء الحرب. وتحول حلفاء الحرب إلى خصوم ألداء. ويمكن على هذا الأساس عد كل تحالف يناقض المذاهب العسكرية في أهدافها هو تحالف مرحلي لا بد له من الانهيار. واستناداً إلى هذه الحقيقة، فقد كان لزاماً أن يتم تحالف طبيعي بين المذهبين العسكريين الاشتراكيين السوفييتي والصيني، ضد المذاهب العسكرية المضادة (الرأسمالية). ومن المعروف أن العلاقات بين القطبين الاشتراكيين قد تدهورت في بعض المراحل لا لتصل إلى حد المنافسة وعدم التحالف فحسب، بل إنها وصلت إلى حافة الحرب، فيما ظهر أن العدو المشترك (الرأسمالي) أقرب إلى كل من النظامين الاشتراكيين. فهل ينفي ذلك علاقة المذاهب العسكرية بالأحلاف؟ وإلا فما هو دور المذاهب العسكرية في صنع الأحلاف؟

من المعروف أن أكبر حلفين عرفهما العالم في القديم والحديث هما: حلف وارسو وحلف شمال الأطلسي. وقد استند هذان الحلفان إلى قاعدة وحدة المذهب العسكري لكل من الحلفين المتصارعين، مما حدد لدول الحلفين الأصدقاء والأعداء والمحايدين بطريقة واضحة، ويمكن على هذا

الأساس الافتراض أن وحدة المذهب العسكري تشكل الأساس الثابت في إقامة الأحلاف، غير أن الحرب بطبيعتها المتلونة والمتقلبة، قد تدفع إلى إقامة تحالفات لا مذهبية — إذا ما جاز التعبير — تأخذ على الأغلب صفة المرحلية أو المؤقتة. وهنا يبرز دور التقانة في تنظيم الأحلاف. فلقد استند الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة إلى قاعدة تفوقهما في التقانة لإقامة الأحلاف، ووجدت الدول المتحالفة في المعسكرين المتصارعين أنها عاجزة عن تأمين التقانة لضمان الدفاع القوي، فخضعت للدولتين العظميين وكان لوحدة التقانة دورها في دعم الحلفين وتطوير قدراتهما القتالية. ومن المعروف أن دولاً كثيرة في العالم — خارج الحلفين السابقين — قد تحالفت مع هذا المذهب العسكري أو ذاك — بحكم الحاجة للتقانة، وبحكم وحدة المذهب العسكري (كالتحالف الاستراتيجي الأمريكي — الإسرائيلي). ومن هنا يظهر التطابق في وجهات النظر بين طرفي الحلف والذي يتم الإعلان عنه وتأكيده في كل مناسبة، بحكم العداء المشترك للشعب العربي.

وتبرز من خلال هذه الأمثولات في إقامة الأحلاف وتنظيمها العلاقة الثابتة بين التقانة والمذاهب العسكرية، فإذا كانت المذاهب العسكرية قد وجهت التقانة واستخدمتها لتحقيق أهدافها، فإن هذه التقانة قد مارست دورها بالمقابل لدعم الأحلاف وتقويتها وزيادة فاعليتها. ولعل من الظواهر الطبيعية والمثيرة في الوقت ذاته هو تقارب مستويات التقانة في دول الأحلاف بنسبة طردية مع تباعد المذاهب العسكرية. إذ تكاد تقانة التسلح والوسائط القتالية — بدايةً من الأسلحة التقليدية ونهايةً بأسلحة التدمير الشامل، تكاد تكون واحدة في دول الحلفين (وارسو والناتو)، بينما كان الصراع بين الحلفين يسير بصورة متباعدة ومتزايدة، وهذا بدوره تأكيد جديد على دور التقانة في خدمة المذاهب العسكرية ودعمها، وعدم هيمنة التقانة على هذه المذاهب.

٤ المذاهب العسكرية والعصر النووي: ارتبط التسارع المذهل لتطور التقانة في الأزمنة الحديثة، بظهور السلاح النووي واستخدامه — في نهاية الحرب العالمية الثانية — وذلك قدر ارتباطه بتعاظم دور المذاهب العسكرية المتصارعة، وعملها على المستوى العالمي. وما من حاجة لاستقراء تفاصيل هذا التطور، وحوافزه وعوامله فقصته معروفة بدقائقها — لقرب العهد بها —. وبصورة عامة، فقد كان كل تطور في مجال من مجالات التقانة حافزاً لتطور مماثل في مجال موازٍ له وكانت الحاجة مثلاً لنقل السلاح النووي حافزاً لتطوير الطائرات القاذفة والصواريخ عابرة القارات. وكانت الحاجة للوقاية حافزاً لتطوير وسائط الحرب الإلكترونية، حتى وصل الأمر إلى ظهور مشروع حرب الفضاء — أو حرب الكواكب —. وانعكست هذه التطورات بصورة طبيعية على وسائط الحرب التقليدية وأسلحتها المتنوعة — البرية منها والبحرية، الفردية منها والجماعية. وكان التطور واضحاً في سيره على ثلاثة اتجاهات:

١ ــ زيادة سرعة عمل الأسلحة.
٢ ــ زيادة قدرتها النارية ــ الكثافة والقدرة التدميرية.
٣ ــ زيادة الدقة في الإصابة.

وبذلك اقتربت قدرة الأسلحة التقليدية من عتبة أسلحة التدمير الشامل. وأصبح التكامل والارتباط وثيقاً بين هذين النوعين من الأسلحة. ومن الواضح هنا ارتباط ذلك بزيادة الإنتاج الكمي للوسائط القتالية، بحيث تحولت بعض مناطق التوتر في العالم إلى غابات كثيفة من الأسلحة ــ مثل ما هو عليه وضع أقاليم الوطن العربي ــ. وما من حاجة هنا لتأكيد ارتباط هذا التطور كله، بالمذاهب العسكرية، إذ إن ما عُرف باسم (سياسة الاستقطاب) ما هو إلا تعبير عن الانحياز إلى أحد المذهبين العسكريين العالميين. وأدى ذلك كله إلى وضع العالم كله على حافة الانفجار المدمر. والمهم في الأمر، هو أن هذا الانتشار في التسلح التقليدي، والتعاظم المستمر في مخزون أسلحة التدمير الشامل، مع الاستمرار في تسارع السباق في دائرة تطوير التقانة قد استنزف قدرة الدول العظمى، ولئن ظهر هذا الاستنزاف بشكل واضح في الاتحاد السوفييتي فإن معاناة الولايات المتحدة الأمريكية من التدهور الاقتصادي قد يتفاقم خلال سنوات متتالية ــ رغم مكابرة الولايات المتحدة ومحاولات تغطية ضعفها الاقتصادي بطرائق مختلفة. وعلاوةً على ذلك، فإن هذا الاستنزاف قد اقترن بالعجز عن استخدام مخزون من الأسلحة لا يستطيع أحد التكهن بنتائجه أو معرفة ما يسبب استخدامه من كوارث ودمار شامل. ومن هنا بدأت الدولتان العظميان ــ ومعهما بقية الدول العظمى ــ في إعادة تقويم المواقف من مسألة التسلح وسباق التقانة، وأخذت الاتجاهات السلمية التي كانت ترسم مساراتها في الخفاء في الظهور إلى العيان، وإذا كان الزعيم السوفييتي (غورباتشيف) قد عبر عن هذا الاتجاه عبر سياسته المعروفة (البيروسترويكا)، فإنه ما كان لهذا الاتجاه أن يحقق نجاحه العالمي بمثل هذه السرعة المذهلة لو لم تكن بقية دول العالم العظمى على استعداد كامل لقبوله، وتبنيه، وهكذا بدأت الأحاديث المكررة عن (النظام العالمي) الذي ما زال مجهولاً في كثير من أهدافه، ومن طرائق الوصول إليه.

لقد عبرت أوروبا عن رؤيتها لهذا الاتجاه من خلال ما أُعلن في ختام (مجلس الأمن والتعاون الأوروبي) والذي عقد في باريس (١٨ ــ ٢٠ تشرين الثاني ــ نوفمبر ــ ١٩٩٠) وأصدر بيانه الذي أكد فيه النقاط التالية:

١ ــ تخفيض التسليح التقليدي ونزع التسلح النووي.
٢ ــ حل المشكلات بالطرائق السلمية وتجنب الحرب والاحتكام للسلاح.
٣ ــ التأكيد على أن ما تعيشه أوروبا هو نتيجة لنهاية الحرب الباردة، ولانفتاح الشرق على الغرب.

وفي مؤتمر القمة الأوروبي (في روما) يوم ٢٨ / ١٠ / ١٩٩٠ . أعلن عن اعتبار يوم ٣١ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٩٣ (مطلع العام ١٩٩٤) موعداً لإقامة السوق الأوروبية الموحدة والشاملة ، مع تصديق اتفاقية الوحدة النقدية (وهو ما عارضته بريطانيا وحدها) . وإذاً ؛ فالواضح من تصور الدولتين العظميين ، ومعهما الدول الأوروبية لما يطلق عليه اسم (النظام العالمي) إنه نظام يجب أن يقوم على أساس إقرار السلام العالمي ، وتجنب الحروب ، وإيقاف سباق التسلح ، والتحرر من مخاوف استخدام أسلحة التدمير الشامل وتوجيه الجهد العالمي نحو التنمية الاقتصادية .

هكذا ، انهارت المذاهب العسكرية ، وانهارت معها الأحلاف القائمة على تلك المذاهب ولم يكن تطور التقانة هو السبب في هذا الانهيار ، ولكنها المسألة الاقتصادية التي تبقى دائماً من العوامل الثابتة في تكوين المذاهب العسكرية ، وفي تحديد أهدافها . وقد يكون الوقت مبكراً جداً لمعرفة المذهب العسكري الذي سيقوم على أنقاض المذاهب المنهارة . كما قد يكون الوقت مبكراً جداً لمعرفة أو توقع ما سيصل إليه (النظام العالمي) من النشوء والتطور . فهل سيكون هذا النظام مجرد اتحاد للدول الغنية والقوية ضد الدول الفقيرة ؟ وهل سيكون شكلاً استعمارياً جديداً ؟ وإذا كان ذلك فهل سيعني ذلك العودة إلى المنافسة الاستعمارية أم أنه سيأخذ شكل اتحاد (تروست) لاحتكار خيرات العالم وتقسيمها وإعادة توزيعها بصورة جماعية لضمان مصالح الدول الغنية والقوية بالدرجة الأولى ؟ ليس المجال هنا مجال طرح ما يرتسم على القارة الأوروبية من تحولات ، ولكن المهم في الأمر هو أن أوروبا الموحدة عادت لتشكل من جديد (قلب العالم) . بل إنها زادت ثقلاً بتشكل محور موسكو — برلين — باريس . فهل سيكون ذلك بداية التحرر من هيمنة المعسكر الأنكلوسكسوني المعارض ؟ وإذا ما تحقق ذلك ، فهل سيؤدي ذلك بالضرورة إلى تجدد الصراع على محاور جديدة ؟ المثير في الأمر هو أن العالم يرحب (بالنظام الجديد) دون أن يعرف شيئاً عن طبيعة — أو ديناميكية — سير هذا النظام . غير أن هذا الترحيب غير محروم من المضمون على كل حال ؛ فهو ترحيب بسلام يلغي سباق التسلح ، ويقضي على مخاوف التدمير بأسلحة التدمير الشامل . ويبشر بسلام ثابت ومستقر على أرض الدنيا . وإذا ما تحقق ذلك فإنه لن يعود هناك حاجة لا لمذهب عسكري عالمي ، ولا لجيوش جرارة ، ولا لامتلاك ترسانات ضخمة من الأسلحة . وآنئذٍ سيتحقق حلم الإنسانية بتحقيق الأمن والسلام على سطح الكرة الأرضية التي طالما ضجت بصخب الحروب .

٢ ــ المذاهب العسكرية وعواملها المشتركة

[١] المذاهب العسكرية وأبعادها العالمية: تظهر الدراسة المقارنة بين المذاهب العسكرية في العالم أن ثمة عوامل مشتركة (أو قاسماً مشتركاً) تجمع بينها، على الرغم من خصوصية كل مذهب. فهل يمكن الافتراض أن هناك مذهباً عسكرياً عالمياً واحداً، تأخذ منه كل أمة ما يناسبها؟ وبوضوح أكبر: هل خصوصية كل مذهب عسكري هي الأقوى أم أن العوامل المشتركة هي الأساس المكون له؟ إن هذا السؤال يقود البحث بداهةً نحو مسألة التفاعل المستمر بين المذاهب العسكرية في مراحل نشوئها وتطورها، إذ إن هذه المذاهب هي التي تحدد هدف الحرب، وهي التي تحدد العدو أو الأعداء المتوقعين، وهي التي تستنفر وتحشد القدرات والإمكانات لبلوغ هذا الهدف وتحقيقه. وتؤكد التجربة التاريخية لفن الحرب أن ظهور مذهب عسكري عند أمة من الأمم، قد أدى بصورة طبيعية إلى ظهور مذهب آخر ــ قد يكون مضاداً في الاتجاه ومعادلاً في القوة ــ بحيث تتوافر الظروف لنشوب الصراعات المسلحة ولتفجر الحروب. فكيف يمكن افتراض وجود عوامل مشتركة بين المذاهب العسكرية، وهي تعتمد في نشوئها وتطورها على التناقض وعلى قانون العداء؟ وكيف يمكن أن يكون ثمة تشابه بين المذاهب العسكرية، وهي تعتمد على مبدأ التضاد بين أهداف الحرب، التي هي أساس الحرب والمحرض لها والموجهة لأعمالها؟

لا بد من القول قبل كل شيء: أن نشوء أي مذهب عسكري لأمة من الأمم، قد شكل حافزاً لظهور مذهب عسكري أو أكثر لدى أمم أخرى. وكثيراً ما اعتمدت هذه المذاهب الأخرى أفكار المذهب العسكري الحافز ومبادئه وحددت أهدافاً مضادة له. وأقرب الأمثلة وأكثرها وضوحاً، المذهب العسكري الألماني الذي أخذ أهدافه التوسعية من وجود النظام الاستعماري التوسعي ذاته. والذي تطور إلى صراع بين (أنظمة ديكتاتورية) و (أنظمة موصوفة بالديموقراطية ــ أو أنظمة العالم الحر). وكذلك الصراع الذي أعقب الحرب العالمية الثانية بين (النظام الاشتراكي) و (النظام الرأسمالي). وقد تكون هذه الأمثولات كافية للعودة بالبحث إلى

التجارب القديمة في تاريخ فن الحرب. حيث تبرز الحقيقة الأولى التي تشكل العامل المشترك الأول في المذاهب العسكرية وهو **البعد العالمي**. وقد يكون من الصعب، على ضوء ما هو متوافر من المعلومات عن حروب العالم القديم، تكوين فكرة واضحة وكاملة عن مضمون المذاهب العسكرية القديمة، وتحديد مرتكزاتها الأساسية، غير أنه من الصعب، وبالمقدار ذاته، الافتراض أن تلك الحروب التي عرفها العالم الموغل في القدم، قد جرت من دون فكر عسكري واضح يوجه أعمالها ويحرك نشاطها وفعالياتها. ولقد جرت العادة على تبني الرأي القائل إن الحرب كانت نتيجة نزعات فردية، مرتبطة بشخص الملك، وبطموحه وكفاءته. ولكن ألم ينتحل الفراعنة من أمثال تحوتمس (١٥٤٠ ــ ١٥٠٥ق.م) ورمسيس الثاني (١٢٩٢ ــ ١٢٢٥ق.م) ورمسيس الثالث (١١٩٨ ــ ١١٦٧ق.م) ألقاب **أبناء الإله الشمس ــ ملوك العالم**)؟[1].

تظهر التطبيقات العملية للأعمال العسكرية، في كل الأحوال، الاتجاه أو الأبعاد العالمية، فقد كان ملوك الفراعنة يعملون لإقامة إمبراطورية عالمية (في حدود العالم القديم) مما استدعى خوض حروب لا نهاية لها، كان النصر فيها متناوباً بين الأطراف الرئيسة المتحاربة ــ وخاصة ضد الفرس. والأمر مماثل بالنسبة للفرس. فقد تولى الملك سرخس الأول (٤٨٥ ــ ٤٦٥ ق.م) قيادة جيوشه ليحقق حلم أبيه داريوس الأول. بإقامة إمبراطوريته العالمية، فأخضع مصر لحكمه ــ واجتاز بعد ذلك أرخبيل اليونان. ودمر أثينا، لكنه هزم في سالامين على يد القائد اليوناني ثيميستوكل (سنة ٤٨٠ق.م). وكان داريوس الأول (٥٢١ ــ ٤٨٦ق.م) ابن هيستاسبي. قد فتح الهند، وأخضع تراقيا في مقدونيا ولكن ميليتياد هزمه في معركة ماراتون (٤٩٠ق.م) ولم يكن نهج داريوس الثالث يختلف عنْ نهج أسلافه، فقد حاول الاستيلاء على آسيا الصغرى، غير أن القائد اليوناني ألكسندر، انتصر عليه في معركة غرانيك الشهيرة (سنة ٣٣٤ق.م) وكان الجيش الآشوري قد نجح في غزو مصر، واستولى على عاصمتها (طيبة) سنة ٦٦٢ق.م. وجاء في الوصف التاريخي لهذا الجيش: «**من هم أولئك المحاربون الذين لايمكن لأحد أن يقف في وجههم؟ إنهم يشكلون يقيناً أقوى جيش في العالم، في وحدته وفي تدريبه وفي كل أساليبه العسكرية التكتيكية: ينتظمون كالغابة في الهجوم، وينظمون الحصار بصورة منهجية ولا أحد يستطيع إيقافهم، مهما كان شكل الأرض وطبيعتها، وبذلك يمكن للجيش الآشوري، فرض سيطرته على أوسع نطاق، بوحداته الخاصة**»[2]. ويظهر واضحاً أن الآشوريين لم يشكلوا إمبراطوريتهم إلا بفضل (جيشهم العالمي). كذلك الأمر بالنسبة لدول الفرس التي بدأت انطلاقتها سنة ٥٤٩ق.م بقيادة سرخس لتوحد ميديا وبلاد فارس ولتتوسع نحو الشرق. وكان على

---

(1) Arms and Uniforms-Liliane. And Frep Funcken London. U.N. 1977-p.10.
(2) Ibid - 16.

سرخس مجابهة ثلاث قوى حتى يتمكن من بناء إمبراطوريته العالمية وهذه الدول هي مملكة بابل. والمملكة المصرية الفرعونية والمملكة الليدية ــ بقيادة أغنى ملوك عصره (قارون). وما كان يحدث في الشرق القديم، كان يحدث مثله في الغرب القديم أيضاً: **وقصة (حصان طروادة) لا تمثل في الواقع أكثر من فصل صغير في فصول الصراع لتكوين بعد عالمي للحرب. وكان هذا الفصل هو السابقة المبكرة لظهور الدولة المقدونية (دولة الاسكندر المقدوني) التي اتسعت بعد معركة إيسوس سنة ٣٣٣ق.م لتصل حتى حدود الهند، ولتكون أول إمبراطورية تضم أرجاء القارات القديمة الثلاث (أوروبا وآسيا وإفريقيا)** وعلى الرغم من أن هذه الإمبراطورية لم تعمر أكثر من سنوات قليلة، إذ اقتسم ورثة الاسكندر المقدوني إمبراطوريته، ثم ظهرت الإمبراطورية الرومانية التي كان عليها بدورها أن تجابه أكثر من عدو، مثل اليونانيين والفرس والقرطاجيين ولم تكن معركة (زاما) الشهيرة سنة ٢٠٢ق.م. والتي هزم فيها هاني بعل، سوى الفصل النهائي في مجموعة الحروب التي أدت إلى ظهور الإمبراطورية الرومانية التي أحاطت حدودها بالبحر الأبيض المتوسط بكامله ــ والتي شكلت أضخم إمبراطورية عالمية في الأزمنة القديمة.

لقد امتصت أقطار أوروبا موجات الغزو المتتالية: غزوات الجرمان والغول والقوط والهون والغرانك. فهل كانت هذه الغزوات ــ التي عرفت باسم غزوات البرابرة ــ أكثر من فتوحات ذات أبعاد عالمية، وهل كان اسم (اتيلا) أكثر من اسم واحد من كبار قادة الحرب القدماء، الذين أعطوا لتلك الحروب شكلها ومضمونها العالمي؟ على كل حال، وإذا كان اسم (المذهب العسكري) غائباً في حروب الأزمنة القديمة. فقد جاءت حروب العرب المسلمين لتبرز بشكل واضح ومتكامل البعد العالمي للمذهب العسكري العربي ــ الإسلامي ــ فقد كانت الفتوحات المذهلة التي جرت في حدود قرن واحد من عمر الزمن (١٢ ــ ٩٢هـ = ٦٣٣ ــ ٧١٠م) قد أزالت من الوجود إمبراطوريات ودولاً كثيرة، وحصرت الإمبراطورية البيزنطية ضمن حدود ضيقة اقتصرت عملياً على العاصمة (القسطنطينية) وعلى محيط يتسع أحياناً ويضيق في أحيان أخرى. ولئن أعقب ذلك عهد من الهدوء النسبي. فإن هذا الهدوء كان المرحلة التي سبقت ما يمكن أن يعرف بحق (ظهور مذهب عسكري صليبي ــ غربي) إذ إن اشتراك معظم دول الغرب تحت علم واحد، ولتحقيق هدف واحد (هو محاربة العرب والإسلام) قد برز واضحاً في كل معارك الحملات الصليبية التي عرف منها المشرق العربي الكثير طوال قرنين من عمر الزمن (٤٩١ ــ ٦٩٠هـ = ١٠٩٧ ــ ١٢٩١م) وهنا لا بد من الإشارة إلى أن تاريخ الحروب الصليبية، قد أبرز في مرات كثيرة اعتماد المذهب العسكري الصليبي ــ الغربي على المفاهيم والأسس التي توافرت للمذهب العسكري العربي ــ الإسلامي (وحتى الأسماء والمصطلحات مثل الجهاد والشهادة والغفران ــ والإيمان والكفر ... إلخ).

ويعطي ذلك الصورة المبكرة للمحاكاة فيما بين المذاهب العسكرية العالمية.

لقد عاشت أوروبا ما بين القرن الثالث عشر والقرن السابع عشر، مرحلة من الحروب المتتالية (عُـرفت باسم حروب الملوك)، لكن هذه الحروب بمجموعها لم تكن بعيدة عن مفاهيم المذاهب العسكرية، فقد كان منها حروب ذات طابع ديني، وأخرى ذات مفاهيم قومية، غير أن تفجر الثورة الفرنسية في الواقع، هو الذي حدد بشكل واضح الأبعاد العالمية (للمذهب العسكري الفرنسي). فقد كانت حروب الثورة والحروب النابوليونية بعد ذلك (١٧٩٢ ــ ١٨١٥) تتم تحت شعارات الثورة (الحرية ــ المساواة ــ الإخاء). ولم يكن نشيد الثورة (المارسييز)، إلا تعبيراً عن مضمون المذهب العسكري الفرنسي الجديد والذي أعطى لهذا المذهب أبعاده العالمية (التي تجسدت في دعم فرنسا للثورة الأمريكية) وقد يكون بالمستطاع، بدءاً من هذه المرحلة التاريخية ملاحظة تشكل المذاهب العسكرية الغربية في الأزمنة الحديثة، وسعيها المستمر لإعطاء مذاهبها العسكرية أبعادها العالمية، وهل كان المذهب العسكري الألماني ــ على سبيل المثال ــ ليأخذ مجالاته التطبيقية، لو لم يتوافر لهذا المذهب البعد العالمي؟ ثم هل هناك من ينكر أن المذهب العسكري الروسي ــ ثم السوفييتي ــ لم يكن ليأخذ بعده العالمي لو لم يتخذ من حماية الأرثوذكسية في البداية، ثم حماية الاشتراكية بعد ذلك، هدفاً له؟

٢ التوسع ــ أساس ثابت: يظهر العرض السابق أن المذاهب العسكرية العالمية، القديمة منها والحديثة، هي مذاهب ذات مضمون توسعي. إذ إن البحث عن البعد العالمي لاستخدام القدرة العسكرية لا بد أن يقترن بصورة حتمية بعمليات التوسع، وما من مذهب عسكري عرفه تاريخ فن الحرب إلا من خلال دوره التوسعي، وإلا من خلال ما يحققه من سيطرة عسكرية بالدرجة الأولى ومن هنا تظهر عملية التلاحم الثابت بين عقيدة الدولة، أو فكرها، أو مبادئها ومفاهيمها وبين مذهبها العسكري. وإذا كان هذا المذهب هو الموجه لفعاليات الأمة ونشاطها فإن عقيدة الدولة هي الإطار العام لتكوين المجتمعات الجديدة، وتكوينها (وهو ما يعرفه بعض الفلاسفة من أمثال البريطاني توينبي باسم صراع الحضارات) وقد تكون عقيدة الدولة مميزة بخصوصيتها مثل أن تكون دينية (إسرائيل) وقد تكون فكرية إيديولوجية (الاشتراكية) وقد تكون قومية عنصرية (النازية والفاشية) وقد تكون اقتصادية (النظام الرأسمالي) وتعمل المذاهب العسكرية في الدول المختلفة على تنفيذ عقيدة الدولة وفرضها من خلال أعمالها القتالية التوسعية التي تحمل لشعوب العالم الأخرى هذه العقيدة وهكذا فكلما كانت عقيدة الدولة ذات مفاهيم شاملة، كلما كان المذهب العسكري أكثر قوة وأوفر قدرةً على دعم عقيدة الدولة وإتاحة ظروف نجاحها. وعلى سبيل المثال ــ فإن اعتماد النازية على المبدأ القومي ــ العنصري ــ ومثله النظام الفاشي، كان في جملة العوامل التي أجهضت فاعلية المذهب العسكري الألماني ــ النازي ــ

والمذهب العسكري الإيطالي ــ الفاشي ــ ولقد كانت مفاهيم (الحضارة الغربية) وحتى مبادىء الثورة الفرنسية ــ ذات بريق محدود بالنسبة للشعوب الأخرى. وكان فرض هذه المبادىء بالقوة العسكرية، وبأساليب القهر والطغيان، يتناقض مع عقيدة الدولة الاستعمارية ذاتها. وهذا مما حد من قدرة المذاهب العسكرية الغربية، عندما أخذت جيوشها في التوسع. إذاً لا بدَّ من أن يكون هناك تطابق نسبي على الأقل، إن لم يكن تطابقاً مطلقاً بين عقيدة الدولة وبين مذهبها العسكري وهو ما يعرف أيضاً باسم التطابق بين السياسة الاستراتيجية للدول، وبين العمل العسكري (على مستوى العمليات وعلى المستوى التكتيكي).

لقد كانت معظم الحروب في التاريخ القديم والحديث حروباً توسعية، مما دفع الفلاسفة والمؤرخين والمنظرين والباحثين في العلوم الإنسانية المختلفة إلى دراسة هذه الظاهرة وتفسيرها وتعليل أسبابها ونتائجها. وقد تباينت نتائج الأبحاث واختلفت تبعاً لتباين زاوية النظر من موضوع البحث، ومايخص الموضوع هنا هو التعرض لظاهرة التوسع من خلال ارتباطها بالمذاهب العسكرية، فقد حرصت معظم المذاهب العسكرية في العالم على أن ترى في القوى المعادية العقبة الأساسية أمام تحقيق الهدف السياسي (عقيدة الدولة)، وأن تدمير هذه القوى المعادية هو السبيل الوحيد لبلوغ هذف الحرب (وبمثل هذا المفهوم تم تدمير قوات ألمانيا النازية، وبمفهوم مماثل أيضاً تم تدمير القوات العسكرية اليابانية).

ولكن هل انتهى هذا التدمير بالتوسع لمصلحة المنتصرين؟ وهل كان القضاء على القوات المقاتلة المعادية بالقضاء على مقومات الأمم المعادية؟ صحيح أن الأهداف السياسية (أو عقيدة الدولة) قد فرضت على الأطراف التي تم تدمير قدراتها العسكرية. فتم تطبيق النظام الاشتراكي على دول أوروبا الشرقية، فيما تم تطبيق النظام الاقتصادي الغربي على ألمانيا واليابان.

ولكن ألم تحاول الدول المنتصرة. إعادة بناء مكونات الأمة المهزومة بناءً جديداً يعيد لهذه الأمة قدراتها: الاقتصادية والاجتماعية والسياسية؟ فهل يمكن وصف ذلك مناقضاً لمتطلبات المذاهب العسكرية التي تحدد هدفها بتدمير قدرات العدو العسكرية والاقتصادية؟ وبوضوح أكبر هل هناك من تناقض بين معطيات المذاهب العسكرية وبين معطيات العقائد التي تحاول الدول تطبيقها على المستوى العالمي؟ إن هذا التناقض قد برز في الواقع عبر حروب الأزمنة الحديثة بروزاً تجاوز كثيراً حدود ما كان معروفاً من التناقضات. وهذا مما دفع المفكرين والباحثين العسكريين بخاصة، إلى إعادة تقويم شامل لمسألة العلاقة بين عقيدة الدولة (السياسية والفكرية الإيديولوجية) وبين (مذهبها العسكري).

فلم يعد من المهم التوسع على حساب البلاد المهزومة. ولم يعد من المهم احتلال البلاد

المعادية. وإنما المهم هو الوصول إلى تغييرات سياسية واقتصادية مناسبة. وتبعاً لذلك تغير هدف المذهب العسكري وهو تدمير القوى المعادية، وإنما شل قدراتها عبر ما حمل اسم **استراتيجية التقرب غير المباشر[٣] أو (حروب الحذق والمهارة) كما كان يعرفها العرب القدماء وتعني ببساطة وضع العدو تحت ظروف مادية ونفسية، تسلبه إرادة القتال، وتحرمه من إرادة حوار القوى المتصارعة، وترغمه على تقديم الحد الأدنى من الجهد القتالي. وأصبحت الهيمنة السياسية والاقتصادية البديل عن التوسع والسيطرة العسكرية، وأصبح اعتماد المذاهب العسكرية على تظاهرة القوة أكثر من اعتمادها على القوة ذاتها.**

لكن، وفي حال اللجوء إلى القوة، لا بد من استخدامها بأقصى أشكال العنف والتدمير للوصول إلى هدف الحرب بأسرع ما يمكن. ويتناسب هذا التطور في الواقع مع تعاظم قدرة الأسلحة التدميرية ولا سيما أسلحة التدمير الشامل.. وهذا ما يفسر بدوره الانتشار الكبير لمختلف أنواع صنوف الأسلحة في معظم أرجاء العالم، وهو الانتشار الذي خلق صعوبات جديدة أمام إمكانات الحسم العسكري السريع ــ وفي الحدود الدنيا من الجهد الحربي ــ بحيث بات من الصعب تحقيق الهدف السياسي للدول العظمى ــ أو فرض الهيمنة التي حلت محل التوسع التقليدي. فجاء الحل البديل في مفاهيم (الحروب المحدودة) و (الحروب المحلية وتطبيقاتها) الذي يحقق أهداف التوسع من دون استخدام الدول القادرة على التوسع للقوة الهادفة إليه. فهل انتهى دور المذاهب العسكرية في العالم؟ وهل تم تجريد القوى العسكرية للدول العظمى ومذاهبها العسكرية من مفهوم التوسع؟

إذا كان الأمر كذلك، فلماذا تحتفظ الدول العظمى بتلك المخزونات الضخمة من وسائط الحرب ــ ذات التدمير الشامل أو الأسلحة التقليدية ــ؟ أو هل يعد هذا المخزون الوسيلة لمنع الدول الأخرى من التوسع ــ كمثل مواقف الدولتين العظميين في مواجهة عدد من المشكلات

---

(٣) التقرب غير المباشر: «Indirect-Approach» إصطلاح قصد منه التعبير عن مجموعة الأساليب والطرائق التي تؤدي إلى إلحاق الهزيمة بالعدو بأقل جهد ممكن. ويتم ذلك عسكرياً بأعمال الاختراق العميق أو التطويق والحصار وضرب المؤخرات. أما على المستوى الشامل للصراع فيتم ذلك بأعمال التخريب المعنوي والشائعات والحصار الاقتصادي والعزل السياسي والاجتماعي واستخدام كل الوسائل المتاحة لتدمير الجبهات الداخلية للعدو. وتبعاً لذلك اعتمدت الدول العظمى في تنظيماتها الحديثة على تكوين زمر اختصاصية بأساليب الحرب النفسية والأعمال التدميرية ويتم دفعها للتسلل إلى داخل بلاد العدو ــ أو إنزالها جواً أو بحراً ــ للقيام بأعمالها. والاصطلاح ظهر في كتابات الكاتب العسكري البريطاني «ليدل هارت» في الثلاثينيات من هذا القرن ثم أصبح شائعاً في الكتابات العسكرية؛ فيما بعد الحرب العالمية الثانية.

الدولية خلال العقدين الماضيين على الأقل ــ؟ إن حرمان الأطراف الدولية المختلفة من التوسع هو في حد ذاته وسيلة للتوسع بالنسبة لدول أخرى ومثال ذلك الأكثر وضوحاً هو تعاون الدولتين العظميين، الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة ــ على إزالة الاستعمار الغربي من العالم ــ فقد كان هذا التوسع قد شمل معظم أرجاء العالم. ولم يكن باستطاعة الدولتين العظميين احتلال مواقعهما العالمية بوجود ذاك التوسع الغربي ــ وكذلك الأمر بالنسبة لهما ذاتهما، إذ إن تصدي كل واحدة منهما للأخرى ومنعها من التوسع هو الوسيلة للمحافظة على المواقع المكتسبة وتعزيزها. وهذا ما أكدته مجموعة من التجارب العالمية التي أبرزتها الحرب الأهلية اللبنانية والحرب في القرن الإفريقي. حيث أدى امتناع التدخل المباشر لأي من الدولتين العظميين إلى عدم بروز ظاهرة (التوسع الإقليمي) أو (الاستعمار العسكري). وحلت الهيمنة الاقتصادية والسياسية محل هذا التوسع أو الاستعمار، مما أدى بالتالي إلى تأكيد الحد من مفهوم التوسع في المذاهب العسكرية العالمية. ولئن ظهرت بعض الانحرافات (مثل التدخل المباشر في أفغانستان مثلاً) فسرعان ما جرى تصحيح هذه الانحرافات من قبل الدول التي زجت قواتها العسكرية للتدخل والتوسع. وهذا ما عبر عنه الزعيم السوفييتي غورباتشيف بقوله: «لقد كان التدخل السوفييتي في أفغانستان خطأً تاريخياً». وهذا يعني ببساطة أن التوسع بمفهومه التقليدي قد أصبح في ذمة التاريخ، وأن عودة التوسع إلى الظهور هو استطالة خاطئة أو منحرفة عن تيار التاريخ.

لقد كان احتلال ألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية، تعبيراً في الواقع عن بقاء النزعة التوسعية المتلاحمة مع المذاهب العسكرية التقليدية. ولكن تنازل الدول العظمى الأربع (الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي وبريطانيا وفرنسا) عن حقها في هذا الاحتلال، وإعادة توحيد ألمانيا (ابتداءً من منتصف ليل ٣/١٠/١٩٩٠) كان تعبيراً عن تجريد تلك المذاهب العسكرية عن العامل التوسعي. فماذا يبقى من هذه المذاهب بعد هذا التجريد؟ وهل يمكن تثبيت مبدأ الدفاع ــ والدفاع فقط ــ ليحل محل العامل الهجومي التوسعي و أم أن هذا التحول هو البداية لاعتماد سياسة استراتيجية دولية جديدة، تستند إلى تعاون سياسي دولي يزيل من الخارطة السياسية العالمية مبدأ (التوسع)؟ وهل هذا يعني ببساطة ظهور الحاجة إلى مذهب عسكري عالمي جديد، يوحد بين المعطيات المشتركة للمذاهب العسكرية، ويزيل ما بينها من التناقض؟ قد يكون الجهد الذي تبذله الدولتان العظميان وبخاصة في مجال الحد من سباق التسلح (الشامل والتقليدي)، هو التعبير الواضح لهذا الاتجاه. ولكن هل بالمستطاع القول إن هذا الاتجاه قد أصبح ثابتاً ومستقراً ولا عودة عنه. بحيث تنتفي معه الحاجة إلى خيار الحرب؟

٣ **الاعتماد على القدرات الذاتية ودعمها**: إن عامل التوسع والسيطرة الذي ارتبطت به

المذاهب العسكرية جميعها، ما هو إلا نتيجة طبيعية لعامل آخر هو الاعتماد على القدرات الذاتية ودعمها وتطويرها. فقد بدأت المذاهب العسكرية في التشكل منذ أقدم الأزمنة، انطلاقاً من قاعدة الاعتماد على القدرات الذاتية ودعمها. ولم تكن عمليات الغزو في عصر القبائل المسلحة، إلا من أجل التوسع والسيطرة وزيادة قدرة الجماعة ـــ أو القبيلة ـــ المسلحة، وكانت هذه القدرة الذاتية تشمل بدهياً العامل البشري ـــ القدرة المقاتلة ـــ والعامل الاقتصادي وتطور العلاقات بين الدول على القاعدة ذاتها. فالحروب بين الفراعنة ومن جاورهم من الأمم والشعوب، لم تكن إلا لزيادة القدرة المقاتلة (جلب النوبيين وسواهم للقتال، والحصول على الأخشاب من بلاد الشام). وكان الفرس بدورهم يعملون على بناء قدراتهم الذاتية من خلال الحصول على موارد بشرية مقاتلة والموارد الضرورية من البلاد المجاورة. كذلك لم تكن هجمات الشعوب البرابرة (الآلامان والقوط والهون والسلاف وسواهم) واجتياحها للغرب إلا من أجل بناء القدرات الذاتية ودعمها.

غير أن زيادة التوسع قد أدت إلى نتائج معاكسة في معظم الحالات ـــ إن لم يكن في مجموعها ـــ فقد استنزفت الحروب قدرة الشعوب المحاربة، وسلبتها انتصاراتها العسكرية.. وهكذا، وعلى سبيل المثال: «فعندما تحطم بوق أتيلا ـــ الذي كان يحشد قبائل الهون للحرب» لم يكن ذلك نهاية لحروب الهون بسبب تحطم القرن ـــ أو البوق ـــ العتيد ـــ وإنما لأن تلك الحروب قد استنزفت قدرات شعب الهون المحارب. والأمر مماثل في قصة الصراع بين روما وقرطاجة والفينيقيين. فالقصة. ـــ أو الفصل الأخير منها ـــ لم يكن صراعاً بين «هاني بعل من جهة وسيبيون الإفريقي وأباطرة روما من جهة ثانية». وإنما كان صراعاً بين القدرات الذاتية القوية لدولة ناشئة، وبين القدرات الذاتية لأمة مستنزفة، ولعل هذا ما عبر عنه المؤرخ العربي (ابن خلدون) بقوله: «**لكل دولة حصة من الممالك والأوطان لا تزيد عليها.. وإن عظم الدولة واتساع نطاقها وطول أمدها، هي على نسبة القائمين بها في القلة والكثرة**»(٤).

ويعتمد ابن خلدون في تحليله على ما تمتلكه الدولة في توسعها وفي حكمها على ما هو متوافر لها من القدرة البشرية المقاتلة، لحماية الحكم وللدفاع عن الدولة ـــ ومن الممكن التشكيك بهذا المبدأ، لكن هل زال الاستعمار الغربي إلا بسبب توسعه توسعاً زاد على حدود قدراته البشرية والاقتصادية؟ وهل تمكنت الدولتان العظميان ـــ الولايات المتحدة ـــ والاتحاد السوفييتي ـــ من فرض هيمنتها إلا بفضل ما هو متوافر لهما من القدرات البشرية مع ما يتبع هذه القدرات من قدرات اقتصادية وعلمية وتقانة؟ وهل سعي ألمانيا نحو الوحدة طوال العقود الخمسة الماضية إلا من

---

(٤) مقدمة ابن خلدون ـــ تاريخ ابن خلدون ـــ دار الكتاب اللبناني ـــ بيروت ١٩٦٧ ص ٢٨٥ ـــ ٢٨٧.

أجل بناء قدراتها الذاتية ودعمها؟ ولقد استطاعت ألمانيا النازية بناء قدراتها الذاتية حتى أضحت تمتلك أقوى قدرة على الساحة الأوروبية. وحمل المذهب العسكري الألماني هذه القدرة وذهب لتطويرها. فأمكن له احتلال أوروبا كلها بضربة عاصفة ولكن ألم تكن هذه القدرة هي التي دمرت ذاتها عندما تجاوزت حدودها، واصطدمت بقدرات أكبر؟ أليس في ذلك صورة مجسدة لصراعات القبائل المسلحة البدائية ولكن على نطاق أكثر اتساعاً وعلى شكل مجسم «بانورامي»؟

المسألة في أساسها إذاً هي مسألة التوازن الدقيق والمحكم بين القدرة الذاتية المطلوبة لبناء الأمة، وبين التجاوز المفرط لاستخدام هذه القدرة في الحروب التوسعية. ولكن كيف يمكن تحقيق هذا التوازن؟ وكيف يمكن رسم الحدود المناسبة للقدرة الذاتية؟ ألم تبرهن تجربة المذاهب العسكرية في نشوئها وتطورها أنه من الصعب جداً إذا ما انطلقت للحرب التحكم بمساراتها ونهاياتها؟ ألم تدفع شهوة النصر والرغبة في زيادة القدرة الذاتية لتجاوز الحدود المطلوبة لبناء علاقات ما بعد الحرب؟ أليست الحرب هي حوار بين الإرادات المتصارعة بحيث يصعب في كثير من الحالات بلوغ هدف الحرب؟ وهل كانت المذاهب العسكرية لتتطور إلا عبر حوار الإرادات المتصارعة؟ تلك مسألة، والمسألة الثانية أن هناك مفاهيم جديدة قد تشكلت في مجال «التوسع»، حيث حلت الهيمنة الاقتصادية والسياسية وحتى الفكرية والعلمية محل الاحتلال العسكري ولقد استلب هذا التطور أحد العوامل المشتركة للمذاهب العسكرية، فهل يمكن وضع حدود للهيمنة الجديدة للحؤول دون إسهامها في تشكيل بؤر متفجرة تؤدي إلى تجدد الحروب، ودون إعادة المذاهب العسكرية لعاملها المدمر «التوسع»؟ هذا ما تحاول السياسات الاستراتيجية المستحدثة، فيما تحاول، طرحه تحت شعار «إقامة النظام العالمي».

ومن الواضح حتى الآن أن إقامة النظام العالمي المنشود لم تتجاوز حدود إعادة توزيع المواقع لضمان بناء القدرة الذاتية ولدعمها من خلال توجهات الدول العظمى ومصالحها فقط. وهذا لا يعني إقامة نظام عالمي جديد تنتفي من قاموسه فكرة بناء القدرة الذاتية لكل مجتمعات العالم. وإنما يعني تكوين نظام عالمي يعزز القدرة الذاتية للدول العظمى وبوضوح أكبر تشكيل اتحاد «تروست» عالمي. يقسم العالم بشكل مميز بين المجموعة القوية «اقتصادياً» وبين مجموعة ضعيفة لا تمتلك المقومات الكافية من القدرة الذاتية. والمهم في الأمر كله هو أن البحث عن القدرة الذاتية والعمل الدؤوب والمستمر لدعم هذه القدرة وتطويرها، سيبقى عاملاً ثابتاً من العوامل المكونة للمذاهب العسكرية، بل إن هذا العامل قد تزايد أهمية بسبب تعاظم دوره في الهيمنة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية وهو التعاظم الذي أخذ شكلاً يعوض عن عامل التوسع العسكري.

قد يكون من المناسب هنا العودة إلى ما تضمنه عرض المذاهب العسكرية من معطيات في مجال مفاهيم التوسع مثل «المجال الحيوي في المذهب العسكري الألماني» و «التبادل التجاري

والصناعي » ــ للحصول على المواد الخام وتصدير السلع الصناعية في المفهومين الإنكليزي والفرنسي ــ وتغطية ذلك بنشر غطاء الحضارة الغربية على العالم. والانتقال بعد ذلك إلى مفهوم « الوصول إلى المياه الدافئة في المذهب الروسي ثم حماية الاشتراكية في العالم بالنسبة للمذهب السوفييتي » وحماية المصالح الأمريكية في كل مكان من العالم بالنسبة للمذهب العسكري الأمريكي وتغطيته بالدفاع عن الديموقراطية أحياناً وعن النظام الحر العالمي في أحيان أخرى والدفاع عن الحلفاء عند الضرورة.

ومن الواضح في هذه الحالات كلها أن الهدف الأساسي هو ضمان دعم القدرة الذاتية من خلال تطوير العلاقات بالعالم ــ أو البعد العالمي كما سبق ذكره ــ وعبر توجيه سياسة التوسع الجغرافي. ومعروف أن الثمن الباهظ الذي كانت تدفعه الدول التوسعية (الاستعمارية) لتثبيت مرتكزات توسعها، كان عاملاً أساسياً في جملة عوامل تصفية الاستعمار وإزالة نزعاته التوسعية. لكن عامل دعم القدرة الذاتية، قد أخذ في رسم مجالات جديدة له، عبر تطوير مجالات التبادل الاقتصادي والصناعي ذاتها، إذاً فقد بات لزاماً على المذاهب العسكرية أن تطور مفاهيمها الدفاعية ضمن هذا الاتجاه ذاته، بحيث تتمكن من تحقيق التوازن بين بناء القدرة الذاتية، وبين المحافظة على هذه القدرة في حدود عدم التورط في صراعات وحروب تستنزف هذه القدرة وتدمرها. **ولقد تم الوصول إلى معادلة بهذا الصدد تتلخص بالتوازن بين (نفقات الحرب) وبين (هدف الحرب أو ما يمكن تحقيقه بنتيجة الحرب من المغانم). وقد برز هذا العامل في عددٍ من الحروب المعاصرة، فانسحاب فرنسا من فييتنام (سنة ١٩٥٤) لم يكن بسبب سقوط ديان بيان فو ــ ولو أن هذا السقوط كان عاملاً حاسماً في خط مسار حرب الهند الصينية ــ وإنما بسبب تحول الحرب إلى عبء ثقيل أرهق خزانة فرنسا.** والأمر مماثل بالنسبة لانسحاب فرنسا من الجزائر (سنة ١٩٦٢). وحتى الولايات المتحدة قد اضطرت للخضوع لهذا العامل، فانسحابها المهين من فييتنام، لم يكن في الواقع إلا نتيجة ارتفاع ثمن الحرب على كل المكاسب السياسية والاقتصادية والجغرافية التي يمكن تحقيقها. ولقد عبرت القيادات السوفييتية بدورها عن عقم محاولات التدخل في أفغانستان بسبب الثمن الاقتصادي الكبير الذي وقع على كاهل الاقتصاد السوفييتي بسبب الحرب على أرض أفغانستان. وقد عملت الدول العظمى بعد استخلاص الدروس من كل هذه التجارب على إعادة تقويم سياساتها وبالتالي إعادة صياغة مذاهبها العسكرية بما يتوافق مع التوجهات الجديدة، وبرز ذلك بعدئذٍ في عدد من الأزمات والحروب ــ مثل تجربة التدخل الأمريكي في لبنان وتدمير السفارة الأمريكية في بيروت سنة ١٩٨٢ ــ.

إن إعادة تقويم المذاهب العسكرية للدول العظمى من خلال « متطلبات بناء القدرة الذاتية ومن خلال المحافظة عليها » وكذلك من خلال التوازن بين « هدف الحرب » و « ثمن الحرب ».

يفرض بالضرورة على الدول التي تفتقر أصلاً لمفاهيم واضحة للمذاهب العسكرية أن تعيد بناء قدراتها الذاتية من خلال هذه المفاهيم ذاتها. بحيث تبقى عمليات بناء القدرات الذاتية لمثل هذه الدول محددة وموجهة للمذهب العسكري الخاص بها. ويتطلب ذلك ببساطة تكوين التعاون الإقليمي ودعمه في مجال بناء القدرة الذاتية لتشكيل قدرة ذاتية تحد من الهيمنة الخارجية، مما يسهم بالتالي في تكوين مذهب عسكري مشترك للدول الضعيفة يتيح لها حماية بناء القدرة الذاتية. وهذا ما يتوقع حدوثه على الأغلب بعد إعادة تقويم التجارب التي عاشتها هذه الدول، سواء في مجال صراعاتها المسلحة الخاصة أو من خلال التجارب التي تعيشها بقية الدول ذات الأوضاع المشابهة لأوضاعها.

٤ **الروح الهجومية في المذاهب العسكرية:** تشترك كل المذاهب العسكرية كذلك بعامل ثابت ــ أو بقاسم مشترك ــ وهو اعتماد هذه المذاهب على «الروح الهجومية». إذ تبدأ هذه المذاهب جميعها بالتشكل من خلال الحروب الداخلية، حيث تتولى قوة أو أكثر مهمة إخضاع القوى المجاورة والمكونة بمجموعها لأمة من الأمم، فيما يتم توحيد قوى أخرى بالطرق السياسية، وبذلك تمتلك الأمة متطلبات بناء القدرة الذاتية للأمة بمجموعها. وليس ذلك حسب التجارب التاريخية إلا مرحلة من مراحل التطور، حيث تبدأ الأمة بالبحث عما يزيد من قدراتها الذاتية وتنطلق لشن الحرب على الدول المحيطة بها والتي قد لا تكون بالضرورة مرتبطة قومياً أو دينياً أو اقتصادياً بالدولة الصاعدة ــ مثل حروب الثورة الفرنسية ضد النمسا، ثم ضد ألمانيا وضد إنكلترا وأخيراً ضد روسيا ــ ومثل حروب النازية ضد السويديت ثم ضد النمسا وضد بولونيا وبعد ذلك ضد الغرب بكامله «بلجيكا وفرنسا وهولندا والنروج»، ثم ضد بريطانيا وضد الولايات المتحدة الأمريكية. والأمر مماثل أيضاً بالنسبة لروسيا التي بدأت بالظهور منذ تم توحيد إمارة موسكو مع الإمارات المجاورة «في عهد بطرس الأكبر» ثم انطلقت بشن الحروب على ما حولها في إطار «سياسة توسعية» فكانت حروبها الشهيرة والمستمرة ضد الدولة العثمانية والسويد وبقية الدول. حتى تم لها وصل جبهة الغرب «أوروبا» بالمحيط الهادي في أقصى الشرق. فهل كان بالمستطاع تحقيق ذلك لو لم تتوافر الروح الهجومية للمذاهب العسكرية التي قامت بتحقيق أهداف التوسع؟ المهم في الأمر هو أن اشتراك المذاهب العسكرية جميعها في عامل الروح الهجومية، قد شكل نوعاً من التشابه والتماثل في إدارة الحروب وتنفيذ أعمالها القتالية. وليس ذلك إلا نتيجة طبيعية لما تتطلبه الأعمال الهجومية ذاتها من شروط ولما تتقيد به من المبادىء المعروفة باسم «مبادئ الحرب». فالهجوم يتطلب قبل كل شيء تحقيق المباغتة والإمساك بالمبادأة، وضمان أمن القوات، وحشد القوى في المكان والزمان المناسبين، والتأمين الإداري للقوات وحماية المؤخرات... إلخ. إذاً فقد يكون من طبيعة الأمور أن تتنافس القيادات العسكرية المتصارعة على الأخذ بهذه المبادئ،

وتنفيذ ما هو ضروري منها حسب متطلبات الموقف، وضمن إطار حوار الإرادات المتصارعة. وهذا مما أسهم عبر تجارب الحرب التاريخية، في تطوير مبادىء الحرب ذاتها، وتطوير الوسائل والسبل التي تضمن تطبيقها واستخدامها بنجاح. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، إن تلاحم الروح الهجومية بالمذاهب العسكرية، قد أدى إلى تحقيق متطلبات الهجوم وتطويرها لنقل الحرب. فكان البحث عن تطوير القدرة الحركية للجيوش الهدف الثابت للقيادات، منذ أقدم العصور حتى اليوم، وسيبقى هذا الهدف ثابتاً وملازماً لأي مذهب عسكري. وإذا كانت القدرة الحركية في الأزمنة القديمة مرتبطة بالقدرة على السير الطويل، وبما يتوافر من الوسائط الطبيعية، كالخيول والجمال والفيلة وعربات القتال. فقد جاء عصر البخار ليقدم القاطرات والوسائط المشابهة إلى أن انتهى الأمر باستخدام الدبابات وعربات القتال المدرعة والمركبات المتنوعة، علاوةً على تطوير القدرات الحركية البحرية والجوية، مما سمح بنقل الحروب والهجوم على أي موقع في كل مكان من العالم.

يعود هنا السؤال التقليدي: هل يمكن للمذاهب العسكرية أن تلتزم بروح دفاعية، بمعنى أن يبقى هدف الحرب لكل دولة من دول العالم محدداً بالدفاع عن حدود الدولة، وألا يتجاوزها إلى ما وراء الحدود؟ لقد أكد عرض المذاهب العسكرية في العالم. المرة بعد المرة، إن بناء القدرة الذاتية، وحماية الحدود، والدفاع عن البلاد، ما هو إلا مرحلة زمنية محددة لاستكمال بناء القدرة الذاتية ودعمها، حيث يتم الانتقال بعدها وبصورة مباشرة إلى مجال الحروب الخارجية «التوسعية». سواء تحت شعار المجال الحيوي، أو المصالح الحيوية، أو حتى لتلبية المتطلبات الأمنية «الحالة الإسرائيلية». وليست هذه الشعارات كما هو معروف إلا الذرائعية المعبرة عن استخدام القدرة الحركية للجيوش في حروب خارجية. **وقد يستخدم شعار الحريات والديموقراطيات وسواه كذريعة أيضاً، بحيث تسير الجيوش تحت رايات الحرية لفرض أبشع أنواع الاستعمار «الحالة الإسرائيلية أيضاً والتي تستخدم شعار الحرية لليهود من أجل استعباد الشعب العربي والهيمنة عليه»**.

فهل يمكن عزل المفهوم الهجومي ــ العدواني ــ بعد ذلك عن المذاهب العسكرية؟

إن الإجابة عن هذا السؤال تتطلب العودة إلى ظهور المذاهب العسكرية وتطورها عبر البعد العالمي، ففي القديم أدى ظهور المذهب **العسكري الفرعوني، إلى ظهور المذهب العسكري الفارسي**، وهذا مما أبرز، في الوقت ذاته، ظهور مذاهب عسكرية أخرى «الآشوري والبابلي... إلخ». وكان ظهور المذهب العسكري الروماني مقترناً بالمذهب العسكري اليوناني والقرطاجي. وفي الأزمنة الحديثة ظهر المذهب العسكري الفرنسي مقترناً بالمذهب العسكري البريطاني، مع ظهور مذاهب أوروبية أخرى «الاسباني والبرتغالي والهولندي». كذلك اقترن ظهور المذهب العسكري

الألماني بظهور المذهب العسكري الروسي مع وجود المذهب العسكري العثماني والنمساوي. ثم الإيطالي. وبعدئـذٍ، برز المذهبان العسكريان الأمريكي والسوفييتي اللذان أسهما في استيعاب معظم المذاهب العسكرية في العالم «الغربية والشرقية مثل اليابان». وليس من المهم هنا البحث عن المذهب الذي كان سبباً في ظهور المذهب الآخر وتطوره، في الحدود الزمنية ــ كذلك ليس من المهم البحث في العلاقة المتبادلة بين هذه المذاهب. وإنما المهم التوقف عند عامل معين وهو «الروح الهجومية في هذه المذاهب». التي أدت إلى اقتران المذاهب العسكرية بالهجوم والتوسع. والملاحظة الهامة هي أن وجود مذاهب عسكرية ــ مميزة بروحها الهجومية عند دولة ــ أو حتى بعض الدول ــ قد أدى إلى تطور مذاهب عسكرية مماثلة في عدد من الدول الأخرى. وقد كان ذلك كله قبل التطور الحديث للتقانة المعاصرة والذي جعل من الكرة الأرضية بمجموعها مسرحاً متصلاً للأعمال القتالية «في البر والبحر والجو، كما في أعماق المحيطات وفي الفضاء الخارجي البعيـد. إذاً فالمسألة هي وجود مذهب عسكري دفاعي مقترن بإرادة عالمية، وليس مسألة وجود مذهب عسكري واحد هجومي أو أكثر. كذلك من المحال اعتماد مذهب عسكري دفاعي ــ عالمي ــ مع بقاء حوافز تدفع لتشكيل مذاهب عسكرية هجومية. حتى لو كان ذلك في حدود إقليمية.

٥ **نحو مذهب عسكري عالمي**: جاءت التطورات الحديثة ــ وأهمها الرعب من الأسلحة الدفينة «الأسلحة النووية» والانتشار الكبير لأسلحة التدمير الشامل «الكيميائية والبكتريولوجية علاوةً على النووية» والتعاظم الكبير للقدرة التدميرية للأسلحة التقليدية، لتدفع الدول العظمى نحو البحث عن مخرج لأزمة الحرب. وتمثل هذا الاتجاه في الحد من سباق الأسلحة الاستراتيجية «النووية والكيميائية». وبذل جهود لسباق الأسلحة التقليدية، وبالتالي الحد من المنافسة للسيطرة العالمية «والتي أصبحت بمضمونها البديل عن التوسع الاستعماري التقليدي». وقد طرحت هذه التحولات بالضرورة مسألة إعادة النظر في المذاهب العسكرية، ومثال ذلك الموقف بالنسبة لحلفي شمال الأطلسي ووارسو. فهل سيتم دمج الحلفين في حلف واحد؟ وإذا ما زالت المنافسة، فما هي الحاجة للأحلاف. ولماذا لا يتم تفكيكها؟ وتتجاوز المسألة بعد مسألة الأحلاف ومسألة الانتشار العالمي للقواعد «البحرية والجوية» لتصل إلى قوى الدولتين العظميين وبقية الدول العظمى. فإذا ما أمكن تحويل العداء والمنافسة، فما هي فائدة الجيوش الضخمة، وضد من؟ أليست المذاهب العسكرية هي التي تحدد أهداف الحرب، وهي التي تفرز الأعداء والأصدقاء؟ فإذا لم تكن هناك حالة من العداء، فما هو دور المذاهب العسكرية؟ كذلك يمكن تجاوز هذه الأسئلة والمناقشات بشأن الإجابة عنها للوصول إلى بعض الأفكار المطروحة في موضوع «النظام العالمي». فهذا النظام الوليد، يفترض تعاون دول العالم في ظل مجلس الأمن وهيئة الأمم المتحدة، لحل مشكلاتها

بالوسائل السلمية وبالحوار السياسي. وهذا أمر جيد يمثل حلماً من أحلام الإنسان على الأرض منذ أقدم العصور. وهذا يعني انتفاء الحاجة للجيوش، والابتعاد عن الاحتكام للسلاح وتجنب ويلات الحروب. إذاً لم تعد هناك حاجة للبحث عن وضع مذاهب عسكرية. لكن أصحاب النظرية «نظرية النظام العالمي» لا يستبعدون حدوث تفجرات إقليمية أو حتى قارية تستدعي استخدام القوة على المستوى العالمي، بحيث يتم اللجوء إلى مجلس الأمن لتكوين قوة عالمية تعمل تحت راية الأمم المتحدة. فما هو المذهب العسكري الذي ستعتنقه هذه القوات؟ إن هذا المذهب يتلخص «بالمحافظة على السلام العالمي» و «حماية الأمن العالمي».

ولكن ألا يعني ذلك أن هذا «النظام العالمي» المنشود سيبقى بؤراً متفجرة في أرجاء العالم، وسيتجنب معالجة أسباب هذه البؤر وعوامل تكونها وتفجرها؟ وهل يمكن أن يسمى النظام عالمياً ما دام لا يستوعب الأوضاع الخاصة لأقاليم العالم، وقد تجاهل معالجتها حتى وصلت إلى مرحلة الانفجار؟ وهل يمكن فصل الأمن العالمي عن أمن الأقطار التي يضمها هذا العالم؟ ثم ألا يكون استخدام القوة ضد قطر أو أكثر من أقطار العالم ـــ حتى لو كانت تحت علم هيئة الأمم المتحدة بموافقة مجلس الأمن ـــ تطويراً عالمياً للاستعمار والتوسع والسيطرة؟ ألم تتدخل هيئة الأمم المتحدة ومجلس الأمن في الحرب الكورية فماذا كانت النتيجة؟ ألم تتحول هذه الحرب إلى حرب أمريكية ـــ كورية، ثم وصلت إلى مرحلة الصدام المباشر مع الصين وكادت تفجر حرباً عالمية ثالثة؟ إذاً فمسألة النظام العالمي الوليد تحتاج إلى أكثر من مجرد البحث عن مذهب عسكري جديد.

فمسألة «النظام العالمي» ليست إذاً مسألة اتحاد «تروست» تقيمه الدول العظمى وتتفق عليه لإعادة تنظيم الهيمنة على العالم، وفي إطار اتفاق بدلاً من المنافسة، وليست مسألة تحويل «مجلس الأمن» و «هيئة الأمم المتحدة» إلى هيئة وصاية عالمية، مثلها مثل «عصبة الأمم» التي فشلت في منع الحروب بسبب تجاهلها لمشكلات دول العالم، وبسبب حرصها على تحقيق مصالح الدول العظمى فقط، وعملها لتنسيق التعاون بين تلك الدول ـــ العظمى ـــ مثل مؤتمر الدول الاستعمارية سنة ١٩١٧ والذي نظمته بريطانيا لتنسيق التعاون بين الدول الاستعمارية ضد بقية دول العالم التي تم إخضاعها للاستعمار. وإنما المسألة في معالجة مشكلات الدول الصغرى قبل الكبرى، والفقيرة قبل الغنية، للقضاء على أسباب الحروب، وبالتالي دمج المجموع في إطار النظام العالمي. وإذا لم يتحقق ذلك فقد تستمر معظم دول العالم في التمسك بمقولتها التي ترددها الآن وهي: وما فائدة النظام العالمي ـــ إذا لم يضمن لكل مجتمعات العالم السلم والأمن؟ وليذهب العالم كله إلى جهنم ما دامت مجتمعات الدنيا تعيش في جحيم جهنم.

إن مسألة « المذهب العسكري العالمي » هي مسألة « حروب المستقبل » . وبالإمكان تكوين مذهب عسكري عالمي يستجيب لمتطلبات الدول العظمى ، ويحقق لها أهدافها المشتركة في الهيمنة والسيطرة العالمية . ويحول المنافسة بينها إلى تعاون ، لكن مثل هذا المذهب إذا ماظهر للوجود ، لن يكون عالمياً ، لأنه سيكون ضد بعض دول العالم على الأقل إن لم يكن ضد معظمها ، إذ إن الدول العظمى ستبقى في حجمها وفي عدد سكانها وفيما تشغله من المساحة الجغرافية ، ستبقى أقل من مجموع بقية دول العالم .

يظهر من خلال ذلك كله أن المسألة ليست في البحث عن « مذهب عسكري عالمي » وإنما في البحث عن أسباب وعوامل تمنع تشكل « مذهب عسكري عالمي » وذلك بإقرار نظام سلم عالمي يستند إلى مبادىء الحق والعدل ، ويعتمد على نفي الظلم والاضطهاد ، ويحقق للشعوب تطلعاتها المشروعة لبناء مستقبلها في ظل الأمن والسلام . وإذا لم يتحقق ذلك ، فإن « المذهب العسكري العالمي » المنشود ، سيلد ميتاً ، وسيتفتت عند أول صدام عسكري ، بين أي مذهبين عسكريين متصارعين ، حتى لو كان ذلك في أقصى بقاع العالم ، لاسيما وقد برهنت تجارب الحروب الحديثة « المحدودة » أنه من المحال فصل أي صراع إقليمي عن مجموع الصراعات العالمية ، كما برهنت هذه التجارب ذاتها أنه لم يكن هناك مجال لتفجر الحروب لو لم يكن هناك ظلم ، ولو لم يكن هناك عوامل للتفجر ، تستثمرها القوى العظمى ذاتها لضمان مصالحها . وإذا ما كان باستطاعة الدول العظمى تفجير الحروب فإن باستطاعتها أيضاً إزالة عواملها وليس مجرد معالجة ظواهرها . عند ذلك فقط لن يكون مجال لتشكل مذاهب عسكرية جديدة ، لا على المستويات القطرية الإقليمية . ولا على المستوى العالمي . وعندها يتحقق حلم الإنسانية في العيش بأمن وسلام تنعم فيه كل شعوب الأرض ــ ودونما استثناء ــ بالخير والرفاه والأمن والاستقرار .

٣ ــ المذاهب العسكرية ومسألة السلم

١ أمثولات تاريخية: لم تهمل المذاهب العسكرية المختلفة على ما بينها من تباين مسألة السلام الذي يعقب الحرب، ولكنها لم تتمكن من تحديد نوع هذا السلام أو شكله، بل تركته حراً طليقاً، على أن يكون مطابقاً قدر المستطاع لهدف الحرب. ولقد كان حل هذه المسألة سهلاً إلى حدٍ ما، في الأزمنة القديمة، عندما كانت تخوض الجيوش المحترفة حروبها بالنيابة عن مجموع الأمة، ودفاعاً عن مصالحها، وفقاً لما يحدده الملك أو الإمبراطور. إذ كان باستطاعة المنتصر، بعد أن يدمر جيوش عدوه، أو حتى جيوش أعدائه أن يفرض إرادته على الشعوب الأخرى التي لم يكن أمامها إلا الخضوع للمنتصر، وإلا التكيف مع الأوضاع الجديدة التي يفرضها. لكن منذ أن حلت جيوش المواطنين محل الجيوش المرتزقة، لم تعد قضية الحروب هي قضية الحكام، بل أصبحت قضية الشعوب المتحاربة بأكملها. فتزايدت مسألة البحث عن السلام تعقيداً. وبات، من الضروري الموازنة بإحكام بين هدف الحرب وهو الانتصار على الخصم، وبين وضع سلام ما بعد الحرب. وبكلمة أكثر وضوحاً، بات من الضروري معالجة أسباب الحرب، لا ظواهرها فقط، وهذا مما أدى بدوره إلى زيادة ارتباط الصراع المسلح، في كل أدواره ومراحله.

لقد تناقل رجال الحرب والساسة ورددوا مقولة كلاوزفيتز الشهيرة: «إن الحرب ليست شيئاً آخر غير استمرار السياسة بوسائل أخرى... وإن تعلق الحرب بالسياسة يجعلها تأخذ بالضرورة صفتها، فإذا كانت السياسة عظيمة قوية، كانت الحرب كذلك، وقد تبلغ في بعض الحالات ذروتها آخذة شكلها المطلق». ولعله بالمستطاع تجاوز ذلك الجدل العقيم على ما قصده كلاوزفيتز «بالشكل المطلق للحرب»[١] والتوقف عند الحقيقة الثابتة من حيث ارتباط الحرب بالسياسة،

---

(١) الوجيز في الحرب «الجنرال كارل فون كلاوزفيتز» ترجمة أكرم ديري ــ الهيثم الأيوبي ــ دمشق ــ ١٩٧٢ ص ٤٧٥ ــ ٤٧٧.

ارتباطاً وثيقاً، فالعمل السياسي على ماهو معروف يسبق الحرب أو العمل العسكري، ويمهد له، بل إنه يتدخل أحياناً في تحديد مساراته واتجاهاته، لينصرف بعد ذلك لتوظيف نتائج الحرب «الانتصار» في خدمة هدف الحرب، حتى تكون النتائج مطابقة للهدف.

ومن هنا ظهرت أهمية العمل السياسي لمراحل ما بعد الحرب والتي تتزايد تعقيداً، حتى أصبح اصطلاح «حروب ما بعد الحرب» من المصطلحات الشائعة والمعبرة بدقة عن مجموعة الصراعات السلمية التي تعقب الحرب والتي تتشابه بضراوتها وشدتها وظروفها الحرب ذاتها، لكن من دون الاحتكام إلى السلاح. وكانت الجيوش تدرك منذ أقدم العصور أن دورها في الحرب هو تدمير قدرة العدو القتالية من أجل إقامة نظام جديد، يكون فيه للفاتح المنتصر دور الهيمنة والسيطرة ولكن مع الأخذ بالحسبان حقوق الشعوب الأخرى، وتحقيق العدالة والمساواة. من خلال الاندماج بالشعوب المقهورة أو المغلوبة. ولعل أفضل أمثولة واضحة هي **خطة الاسكندر المقدوني للاندماج** بشعوب البلاد الأخرى والتعايش معها.

ففي سنة ٣٢٤ق.م. وفي أثناء عودة الاسكندر من فتوحاته الكبرى في بلاد الفرس والهند، توقف في «سوسا» لمدة ثلاثة أيام «حيث أقام وليمة كبرى احتفالاً تم فيه عقد قرانه وعدد من ضباطه، على نبيلات فارسيات. كما عقد عدد أكبر من جنوده مقتدين به ــ قرانهم على فارسيات. وقد أتاحت له كنوز بلاد فارس إمكان منح ألفي وزنة للمجندين التساليين، ولمن انضم إلى جيشه من غيرهم، وعشرين ألف وزنة لتسديد ديون الضباط والجنود... ومائتات، مهر ــ للنساء الفارسيات اللواتي تزوجن من عشرة آلاف مقدوني. وإن محاولات الاسكندر لدمج المغلوب بالغالب ــ والتي حذا حذوها يوليوس قيصر، فيما بعد، هي من أبهى سمات عبقريته، كرجل دولة فكر عالمياً وعلى صعيد الكرة الأرضية. ومنح الاسكندر وزنة واحدة لكل محارب قديم من العشرة آلاف مقدوني الذين سرحهم في أومبيس. وقد وزع أيضاً الأراضي وأقام المستعمرات العسكرية، معيداً بذلك للحياة الاقتصادية نشاطها، ساهراً في آن واحد على نظامه ــ وهو مثال آخر حذا حذوه الرومان فيما بعد ــ»(٢).

من المعروف ــ تاريخياً ــ إن فتوحات الاسكندر قد انهارت بموته، وإن حلمه بإقامة إمبراطورية عالمية لم يعمر طويلاً، غير أن نهجه في دمج الشعوب على أسس من العدالة والمساواة قد حقق نجاحاً مذهلاً، ما زالت آثاره باقية حتى اليوم، ليس فيما يعرف باسم «الحضارة الهيلينية» أو

---

(٢) الاسكندر الكبير المقدوني ــ مجموعة مشاهير قادة العالم ــ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ــ بيروت ١٩٨٠ ص٨٩. ويمكن في هذا المجال أيضاً الإشارة إلى «قصة كليوباترة» الشهيرة وزواجها «بأنطونيو» من قصص الزواج السياسي الهادفة إلى تأكيد المساواة بين الشعوب المنتصرة والشعوب المهزومة.

«الحضارة البطلمية في مصر ــ نسبة إلى بطليموس». وإنما في عدد المراكز الحضارية والمدن التي احتفظت باسم الاسكندر رغم مرور آلاف السنين، إذ إن سكان البلاد احتفظوا بأسماء تلك المدن والمراكز، على أنها جزء من وجودهم لأن نصيبهم في إقامتها كان أساسياً وحاسماً. ولم يكن مثل ذلك ليتحقق يقيناً لو لم ينظم الاسكندر علاقات ما بعد الحرب، على أسس بعيدة كل البعد عن أساليب الحرب المعروفة بالقهر والقتل ومشاعر الحقد والكراهية. فكان بناء السلم هو هدف الاسكندر في حروبه. وهذا ما ضمن له النصر الحقيقي.

لقد تميزت الحروب العربية الإسلامية بعد ذلك بالمحافظة على التوازن الدقيق بين هدف الحرب وغاية السلم. فكانت الحروب مرحلة عابرة للقضاء على المقاومات المعادية لبناء المجتمع العربي ــ الإسلامي. والأمثولات التاريخية لا يطالها بيان ولا يحيط بها جمع أو إحصاء، منها ــ موقف عبد الرحمن الداخل «صقر قريش» يوم دخل الأندلس. فاصطدم في «المصارة» بالقيسية، وأراد اليمانية الفتك بأعدائهم ــ وأفنائهم ــ فوقف عبد الرحمن الداخل محذراً بمقولته الشهيرة:

«لا تستأصلوا شأفة أعداء ترجون صداقتهم واستبقوهم لأشد عداوة منهم»[٣].
واستطاع عبد الرحمن الداخل بذلك، اكتساب تأييد اليمانية، وضمن الاستقرار والسلام على أرض الأندلس.

لقد تضمن مسلسل حروب العرب المسلمين مع الروم البيزنطيين، أمثولات لا نهاية لها عن العلاقات المعقدة بين هدف الحرب وغاية السلم، فقد تمسك كل من الطرفين بمواقعه عبر الصراع المستمر على الحدود، وأحياناً في قلب بلاد الطرفين، غير أنهما حرصا على استمرار العلاقات السلمية بينهما، عبر اتفاقات فرضتها ظروف الحرب ذاتها. من ذلك ما حدث سنة ٤٦٣هـ = ١٠٧٠م في المعركة الشهيرة التي عرفت باسم **ملازكرد**، حيث قاد ملك الروم (أرمانوس) جيشاً ضخماً من الروم والفرنج والغرب والروس والبجناك والكرج وغيرهم، فبلغ عددهم مائتي ألف.

وعلم السلطان السلجوقي «ألب أرسلان» بالهجوم، فأرسل إلى «أرمانوس» يطلب الهدنة. ورفض أرمانوس طلب ألب أرسلان وأجابه «لا هدنة إلا بالري ــ عاصمة السلاجقة». فكان لا بد من الحرب. وعندما انتصر ألب أرسلان. وحمل إليه ملك الروم أسيراً، ضربه السلطان ثلاثة

---

(٣) عبد الرحمن الداخل ــ مجموعة مشاهير قادة الإسلام ــ دار النفائس ــ بيروت ١٩٨٠ ص٦١.

مقارع بيده، وقال له: «ألم أرسل إليك في طلب الهدنة فأبيت؟ فقال أرمانوس: دعني من التوبيخ. وافعل ما تريد. فسأله السلطان: ما عزمت أن تفعل بي إن أسرتني؟ فأجاب أرمانوس: افعل القبيح. وقال له السلطان: فما تظن إنني أفعل بك؟ قال: إما أن تقتلني، وإما أن تشهرني في بلاد الإسلام، والأخرى بعيدة وهي العفو، وقبول الأموال واصطناعي نائباً عنك. قال السلطان: ما عزمت على غير هذا، **ففداه بألف ألف دينار وخمسمائة ألف دينار. وأن يرسل إليه عساكر الروم أي وقت طلبها. وأن يطلق كل أسير في بلاد الروم. واستقر الأمر على ذلك، وأنزله في خيمة، وأرسل إليه عشرة آلاف دينار يتجهز بها، وأطلق له جماعة من البطارقة ــ الأسرى ــ وخلع عليه. وهادنه السلطان خمسين سنة، وسيره إلى بلاده، وسير معه عسكراً أوصلوه إلى مأمنه وشيعه السلطان فرسخاً»**(٤).

حدث مثل ذلك أيضاً، عندما انتصر الجيش العثماني على بطرس الأكبر، وحاصر جيشه عند «نهر البروت» سنة ١١٢٣هـ = ١٧١١م. حيث قبل الصدر الأعظم «بلطه جي محمد باشا» الفدية التي قدمتها الإمبراطورة كاترينا الأولى، وسمح للجيش الروسي وقائده بطرس الأكبر بالانسحاب والتراجع، بعد أن كان قادراً على تدميره. وقد ظهرت تفسيرات كثيرة لعل أقربها إلى الصحة والدقة هي بحث الدولة العثمانية ــ آنذاك ــ عن سلام ثابت ومستقر على حدودها الشمالية مع دولة روسيا القيصرية. وإيقاف مطامع روسيا التوسعية.

كانت أوروبا تعيش خلال ذلك حالة «الحروب الدائمة» وكانت هذه الحروب مميزة بقسوتها ووحشيتها وبعدها عن الإنسانية، فكانت كل حرب تقود إلى حرب أقسى من سابقتها وأشد هولاً. وكان لا بد من ظهور مفكرين وباحثين يعالجون مسألة السلم، من خلال ضباب الحرب، ويجتهدون في تحديد العلاقة بين هدف الحرب وغاية السلم.

كان «هوغو غروبتوس» من أشهر الحقوقيين في عصره (١٥٨٣ ــ ١٦٤٥) وقد شن حملة قوية في أثناء حرب الثلاثين عاماً ضد الفوضى الدولية، وضد قوة التدمير التي تسببها الحرب. وأوصى في كتابه الذي عالج فيه القانون الدولي «اعتراف بالحرب والسلم» بالاعتدال في المعارك وفي الغزو، وفي نهب البلاد المعادية، وفي المعاملات المفروضة على سكانها المدنيين... ثم جاء «توماس هوبس» (١٥٨٨ ــ ١٦٧٩) فكتب بعد الحرب مباشرة «**هناك أمر واقعي وقاعدة عامة تحتم أن يفتش كل امرىء عن السلم بكل الجهود، طالما كان يأمل في الحصول عليه، وعندما لا يستطيع الحصول عليه، يصبح من الجائز بالنسبة إليه أن يفتش عن كل الوسائل التي**

---

(٤) الكامل في التاريخ ــ ابن الأثير ــ أحداث سنة ٤٦٣ هـ.

تستطيع مساعدته، وتمهد السبيل أمامه في الحرب ليستخدمها». وهكذا رأى الباحثون ورجال الفكر والقانون، في القرنين السادس عشر والسابع عشر، إن الحرب قد تكون مخرجاً لا بد منه لمجابهة مأزق سياسي، ومن هنا كان اتجاههم، لوضع الحرب في خدمة مسألة السلم، من خلال الحد من غلوائها وتطرفها وعنفها. وهذا ما طالب به (امريخ دوفاتيل ١٧١٤ ــ ١٧٦٧) الذي طرح في كتابه (حق الافراد) السؤال التالي: «بما أنه ليس هناك حكام، فينبغي أن نستعين بالمبادىء التي يمكن بفضلها الحد من غلواء الحرب وعنفها... وأن القاعدة الأولى ــ من الحق الاختياري للأمم ــ هي أنه **ينبغي أن ينظر للحرب من حيث أن تكون متمشية مع القوانين فيما يتعلق بنتائجها، كحرب عادلة بالنسبة للطرفين. وهذا أمر ضروري جداً، إذا أردنا أن نتيح بعض النظام، وأن نضع شيئاً من التناسق في وسيلة عنيفة عنف وسيلة استخدام الأسلحة، ووضع حدود للمآسي التي تسببها، وأن نترك الباب مفتوحاً دوماً أمام عودة السلم، ومن غير الممكن أيضاً العمل بطريقة مختلفة بين أمة وأخرى لأنهما لا تعترفان أبداً بالحكام**. وبهذا الشكل، فإن الحقوق المستندة إلى حالة الحرب، وشرعية نتائجها أو آثارها، وصحة المكاسب التي تمت بوساطة السلاح، لا ترتبط أبداً ــ من الناحية الخارجية ــ بعدالة القضية التي يؤمن بها الرجال، بل ترتبط وتتعلق بشرعية الوسائل في حد ذاتها؛ أي بكل ما هو مطلوب لحرب نظامية متمشية مع القواعد والقوانين. وإذا استثنينا الحالة التي ينبغي فيها معاقبة خصم لنا، فإن كل شيء يعود إلى القاعدة العامة التالية: **كل ضرر نسببه للعدو بلا ضرورة. وكل عداء لا يستهدف تحقيق النصر وإنهاء الحرب، هو سلوك يدينه القانون الطبيعي للحرب، غير أن هذا السلوك لا يتلقى بالضرورة أي عقاب، وتتسامح فيه الدول إلى حدٍ ما. فكيف نحدد بدقة، في الحالات الخاصة، إلى أي مدى كان من الضروري نقل العدوان للتوصل إلى نهاية سعيدة للحرب؟** إن الأمم لا تعترف بحكم مشترك، حتى عندما يمكن تحديده بدقة، إذ إن لكل أمة منطقها في الحكم على ما ينبغي أن تفعله للقيام بواجباتها. فإذا ما أفسح المجال للاتهامات المتواصلة والمبالغة فيها في الاعتداءات والانتهاكات، فإنه لا ينتج عن ذلك شيء سوى زيادة عدد الشكاوى فقط، وشحذ الأفكار، لتوليد نكبات جديدة، ولن يتخلى أي من الطرفين عن السلاح حتى يدمر أحدهما الآخر.

ينبغي إذن، في الحرب بين أمة وأخرى، أن يتمسك الطرفان بقواعد عامة، مستقلة عن الظروف، وأن يكون تطبيقها مؤكداً وسهلاً، غير أن هذه القواعد لا يمكن أن تكون بهذا الشكل، إلا إذا لم تؤخذ الأمور بالحسبان في حد ذاتها وبطبيعتها بشكل مطلق. **وهكذا يكون الاعتدال هو السمة السائدة، ولا ينبغي أن نفعل شيئاً لمنع عودة السلم. وإن التوجه والعمل لنهاية سلمية، ليست له وسيلة إلا تساهل الطرفين في المطالب، وعدم مبالغتهما بالمظالم. وإزالة كل الخلافات**

باتفاق تتحقق فيه أكبر مساواة ممكنة. ويحرص الطرفان على عدم التعرض في هذا الاتفاق إلى السبب الأصلي للحرب ذاتها. ويتحاشيان التعرض للمواضيع التي تثير الجدل، أو تدين أي طرف من الأطراف بالظلم وانتهاك الحرمات، لأن كلا الطرفين يرفضان إدانتهما بأي عمل من الأعمال. وكل ما يحدث أنهما يتوصلان في الاتفاق على ما ينبغي أن يحصل عليه كل منهما للتنازل عن مطالبه والقضاء على ادعاءاته. إضافة إلى ذلك. وبما أن نتيجة اتفاق السلم هي وضع حد للحرب والقضاء على كل أسبابها. **فإن عدواً ظالماً وشرهاً يخضع أمة من الأمم، ويفرض عليها قبول شروط قاسية ومخجلة وثقيلة، فإن الضرورة تضطرها إلى الخضوع. غير أن هذا الهدوء الظاهر لا يعد سلماً، إنه ظلم تعانيه، على حين تفتقر إلى الوسائل التي تسمح لها بالتخلص منه. وسيهب الرجال الأقوياء لدى أول فرصة ملائمة ضده**[٥].

إن اتفاقية السلم لا يمكن أن تكون إلا مصالحة، إذ من المحال الوصول إلى السلم إذا ما أصر كل طرف على التمسك بمواقعه، أو الحصول على كل ما يريد. وعلى سبيل المثال: فبالنسبة للموضوع الذي تفجرت الحرب بسببه، ينبغي أن يعترف أحد الطرفين بخطئه، وأن يدين ادعاءاته غير الصحيحة. وهذا ما يصعب عليه عمله إلا إذا وصل إلى الرمق الأخير. وكذلك فإن عليه إذا ما اعترف بخطئه، وعدم عدالة قضيته، فإن عليه أن يقر بإدانة كل الأعمال التي قام بها لدعمها، ولوجب أن يعيد إلى خصمه ما أخذه بصورة غير عادلة، وأن يدفع تكاليف الحرب، وأن يصلح الأضرار التي سببها. وكيف يمكن حساب كل هذه الأضرار بصورة صحيحة؟ وبماذا يحدد ثمن الدم المراق، وموت عدد كبير من المواطنين، ودمار عائلات كثيرة؟ ليس هذا هو كل شيء أيضاً. فالعدالة السديدة تتطلب فوق ذلك أن يخضع مسبب الحرب الظالمة إلى عقاب يتناسب مع النكبات التي سببها، والتي يدين بالتعويض عنها وترضية الطرف الآخر، وأن يكون قادراً على تدارك الأمن في المستقبل للطرف الذي هاجمه. فكيف يمكن تقدير طبيعة هذا العقاب المفروض عليه، وتحديد درجته بدقة؟ وأخيراً، فإن الطرف الذي استخدم السلاح دفاعاً عن العدل، ربما تجاوز حدود دفاع عادل عن النفس، وتجاوز حدود النزاع الذي كان يقوم على أساس شرعي حتى أصبح مذنباً، فارتكب كثيراً من الأخطاء التي تتطلب العدالة السديدة إصلاحها. وقد يكون هذا الطرف قد قام بغزوات وحصل على غنائم تتجاوز القيمة التي كان يطالب بها، فمن ذا الذي سيقوم بالحساب الصحيح والتقدير الدقيق؟ يصبح من المخيف إذاً إبقاء حالة الحرب، ودفعها إلى حد تدمير أحد الطرفين تدميراً تاماً. فلا بد إذاً من إعادة استتباب السلام، مهما كانت عدالة القضية التي وقعت الحرب بسببها».

---

(٥) إدارة الحرب «الجنرال. ج. ف. س. فوللر» ترجمة أكرم ديري ــ دار اليقظة العربية ــ بيروت ١٩٧١ ص١٦ ــ ٢٠.

٢ **الحرب في معاهدات السلام**: لعل من أفضل النماذج للتسويات السلمية، التي تحمل في شروطها وبنودها عوامل الحرب، هي التسويات السلمية التي عرفتها أوروبا والتي أدت إلى تفجر الحربين العالميتين الأولى ثم الثانية، والتي انطلقت من الحرب البروسية ــ الفرنسية ١٨٧٠. فالمعروف أن فرنسا كانت تعارض بقوة تحقيق (الوحدة الألمانية)، حرصاً منها على تحقيق التوازن في أوروبا، ولمنع ألمانيا من دخول دائرة المنافسة الاستعمارية. مما أدى إلى اندلاع الحرب، وفشل كل الجهود السلمية التي بذلت لمنع انفجارها. وانتصرت ألمانيا، وانهارت الجيوش الفرنسية. وفي يوم ١ أيلول (سبتمبر) ١٨٧٠، تسلم ملك بروسيا (غليوم الأول) رسالة من الإمبراطور الفرنسي (نابليون الثالث) في ميدان المعركة في (سيدان) جاء فيها: (**سيدي الأخ: لم أتمكن من الموت وسط قواتي، ولم يبق لي إلا أن أضع سيفي بين يدي جلالتكم**). وتبع ذلك مفاوضات في اليوم التالي فرض فيها ملك بروسيا المنتصر شرطه: (**الاستسلام بلا قيد ولا شرط**).

واستسلمت فرنسا. وسارت جحافل الجيش الألماني المنتصر إلى عاصمة فرنسا ــ باريس ــ التي قاومت قدر استطاعتها إلى أن اضطرت لتوقيع وثيقة الاستسلام يوم ٢٨ كانون الثاني (يناير) ١٨٧١، وتبع ذلك تتويج ملك بروسيا فريدريك الأول إمبراطوراً على ألمانيا في قاعة المرايا ــ في قصر فرساي (يوم ١٨ كانون الثاني (يناير) ١٨٧١؛ أي قبل عشرة أيام من استسلام حامية باريس). وتم تتويج الصراع البروسي ــ الفرنسي أخيراً بالتوقيع على (معاهدة فرانكفورت) يوم ١٠ آذار (مارس) ١٨٧١. وصادق عليها المجلس الوطني الفرنسي يوم ١٨ آذار (مارس) وكانت بنود المعاهدة (شائنة ــ مهينة) من وجهة نظر الفرنسيين. و(معتدلة بعيدة عن روح الثأر والانتقام) من وجهة نظر البروسيين، إذ تضمنت ما يلي:

١ ــ أن تدفع فرنسا غرامة قدرها ٢٠٠ مليون جنيه أسترليني.
٢ ــ أن تعترف فرنسا بحق ألمانيا في التعامل معها بوصفها الأمة التي لها الأفضلية على بقية الدول.
٣ ــ ضم الألزاس وشرقي اللورين إلى جرمانيا (ألمانيا).

لقد رأت القيادة الجرمانية (الألمانية) أن شروط هذه المعاهدة معتدلة وعادلة، وتتوافق ورغبة ألمانيا في إقامة سلام ثابت ومستقر مع جارتها (فرنسا)، في وقت كانت فيه أصوات ألمانية تطالب (بالثأر والانتقام) من فرنسا. وهذا ما عبرت عنه الصحيفة الألمانية (ناشنال زيوتنغ) في عدد أيلول (سبتمبر) ١٨٧٠ في تصديها للنقمة على وجهات النظر الكامنة وراء المعاملة الطيبة التي منحت للإمبراطور الفرنسي الأسير. وتصدى بسمارك رئيس وزراء بروسيا آنذاك للموقف وعالجه بقوله: «يأخذ الرأي العام للجمهور دائماً هذا الاتجاه، منساقاً خلف مشاعره، وإن من طبيعة الشعب في الصراعات ما بين الدول

مطالبته للمنتصر بفرض إرادته على الخصم المهزوم، ذلك لأن القوانين والأعراف في قبضته. وإن إنزال العقوبة عليه لقاء ما قام به من الأعمال ليس مجرد طلب من مطالب المنتصر، وإنما هو أيضاً ما تطالب به أطراف أخرى.

غير أن هذه كلها مطالب مرفوضة **إذ إنه لا علاقة للسياسة بأعمال الثأر والانتقام. ولا علاقة أيضاً للسياسة التي تطالب بها آلهة الانتقام اليونانية ــ فيميسيس ــ كما يجب ألا تستوحي السياسة أعمالها من قضاة المحاكم.** فالمقياس الصحيح للقضية هو في تقويمنا للموقف من خلال الإجابة عن السؤال التالي: أيهما أفضل لنا وأكثر فائدة: معاملة نابليون معاملة حسنة أم الإساءة في معاملته؟ أليس من الممكن أن يعود نابليون مرة أخرى إلى سطح الأحداث؟»[٦].

لقد ظن الإمبراطور الألماني (غليوم الأول) ورئيس وزرائه (بسمارك) أنه بمعاملته للإمبراطور المهزوم (نابليون الثالث) معاملة حسنة، بعيدة عن روح الثأر والانتقام، يستطيعان ضمان سلم ثابت ومستقر بين بلاده وبين فرنسا، وتجاهل دور الشعوب، التي أصبحت تعتقد أنها معنية بأمور السلم والحرب أكثر من عناية الحكام بها، لأنها هي التي تدفع ثمن الحروب من دمائها وتضحياتها ومعاناتها. وأنه منذ أن انفجرت الثورة الفرنسية لم تعد الحروب هي حروب الملوك وإنما هي حروب الشعوب. وهكذا كانت مسألة (الاستسلام بلا قيد ولا شرط) هي في حد ذاتها مهينة لكرامة الشعب الفرنسي وكبريائه. كما كانت الغرامات التي فرضت على فرنسا امتهاناً للشعب الفرنسي وإذلالاً له. وبعد ذلك أيضاً فلماذا يتم اقتطاع الألزاس واللورين الشرقية من فرنسا؟ لقد وجد العدد الأكبر من الأمراء الألمان أن قضية إلحاق (الألزاس) بألمانيا هي قضية حق وقضية عادلة نظراً إلى أن سكان الأقليم هم من العرق الجرماني في معظمهم. ولكن ماذا بشأن (شرقي اللورين) الذي معظم سكانه من الفرنسيين؟ لقد أخذت قضية ضم الألزاس وشرقي اللورين في الواقع إلى ألمانيا حيزاً كبيراً من الجدل والنقاش، ولربما كان من الأفضل لألمانيا (غليوم الأول) لو أمكن، تجاوز النظرة إلى المميزات الاستراتيجية التي حصلت عليها بضمها لشرقي اللورين، فوضعت الآراء السياسية، ومسألة استقرار السلام في المستقبل، الموضع الأول، عندما اتخذت قرارها بضم الإقليمين لبلادها، ذلك لأنها بعملها هذا قد استثارت كبرياء الأمة الفرنسية، ليس ذلك فحسب، بل إنها أفسحت المجال الرحب لوضع اللغم المدمر

---

(٦) فون مولتكه «مشاهير قادة العالم» المؤسسة العربية للدراسات والنشر ــ بيروت ــ ١٩٨١ ص١٣٤ و١٤١ ــ ١٤٢.

الذي سيتفجر في المستقبل. ذلك أن كل عدو خارجي للإمبراطورية الجرمانية، قد أخذ منذ التوقيع على (معاهدة فرانكفورت) السلمية، بتحريض فرنسا على ألمانيا ــ مظهراً استعداده لوضع قدراته من أجل دعم فرنسا، والذهاب إلى حد التحالف معها لاسترجاع حقها في (الألزاس واللورين). وهكذا بات ضم هذين الإقليمين هو الشبح الذي بقي يؤرق السلم الأوروبي، الذي أمكن له. بعد نصف قرن، من أن يجد له تعبيراً في الحرب العالمية الأولى.

لقد استثارت ظاهرة فشل ألمانيا في تحقيق السلم: برغم ماحققته من انتصار عسكري، اهتمام المؤرخين والباحثين، في مختلف المجالات، وتباينت التفسيرات والاجتهادات في محاولات تفسير هذه الظاهرة. فكتب المؤرخ الإيطالي (غاغلييمو ــ فيرورو)[(٧)] ما يلي: «**كانت قدرة ــ صنع الحرب ــ وقدرة ــ صناعة السلم ــ قبل الحرب البروسية ــ الفرنسية، مجمعة في قبضة واحدة، غير أن هاتين القدرتين انفصلت كل منهما عن الأخرى وظلت كذلك من سنة ١٨٧٠ حتى سنة ١٩١٤، فأصبحت ــ صناعة الحرب ــ محصورة باختصاص هيئة الأركان، فيما أصبحت صناعة السلام من اختصاص المدنيين والدبلوماسيين، ولكن ماذا يستطيع هؤلاء المدنيون والدبلوماسيون أن يعملوا؟ ولا سيما بعد أن أصبحت القواعد القديمة لصنع السلام هي قواعد غير عملية؛ ولا يمكن الأخذ بها أمام الأساليب الجديدة التي جاء بها رجال صنع الحرب؟** لقد عمل الجندي على تطوير تقانة الحرب ففقد الديبلوماسي فن صنع السلام. ولما وجد الديبلوماسيون أنفسهم في حالة عجز عن ممارسة دورهم في صنع السلام؛ أخذوا في تمهيد الطريق للحرب عن طريق إقامة ــ الأحلاف ــ أو رفض الانضمام إلى الأحلاف ومقاومتها. وقد قامت قدرتان بتوقيع معاهدة السلام في سنة ١٨٧١، ولكن عندما استؤنفت الحرب في سنة ١٩١٤ كانت هناك مجموعتان هائلتان؛ ضخمتان؛ من مجموعات القدرات؛ وقد وقفتا كل في مواجهة الثانية؛ وكل منهما مدججة بالسلاح. وبكلمات أخرى: فكلما تعاظمت التقانة وكلما تزايد ثقلها في كفة الحرب، وكلما تكاملت اتقاناً وتطوراً؛ كان ذلك على حساب الدور السياسي الذي يتقلص دوره؛ وتضيق حدود عمله، وتتحدد آفاقه، بحيث يصبح العالم كله عبارة عن كتلة متفجرة؛ تكفيها انطلاقة رصاصة واحدة في إحدى زوايا العالم المظلمة؛ حتى تتفجر عن حرب شاملة.

---

(٧) غاغلييمو ــ فيرورو Guglieimo-Ferrero» مؤرخ إيطالي وعالم اجتماعي «١٨٧١ ــ ١٩٤٢» من أشهر مؤلفاته «صعود روما وسقوطها» و «مشكلة السلام».

ولقد بات من المتوقع أن تفسح ـــ الحروب الوطنية بدورها مجالاً رحباً لحروب الأحلاف . إذ سيكون من المحال في المستقبل على أية دولة الاعتماد على مواردها الخاصة وإمكاناتها الذاتية للاضطلاع بأعباء حرب ناجحة ولا بد لها من أن تكون عضواً في تحالف من التحالفات » .

وقد لا تكون هناك حاجة للبرهان على دور الاقتصاد في الحرب ، كما أنه ليست هناك حاجة للبرهان على دور التقانة في الحرب . ولكن هل إرادة الاقتصاد أو تطوير التقانة منفصلة عن الدولة التي تصنع سياسة السلم أو تتبنى سياسة الحرب ؟ وفي نطاق الأحلاف ذاتها ، هل تنتظم هذه الأحلاف بلا هدف أو أنها تحدد مسبقاً هدف الحرب ، ثم تنصرف لإعداد متطلبات الحرب ؛ وإذن فقد يكون من غير الطبيعي تحميل هذه العوامل التي تتداخل في صنع السلام وفي صنع الحرب بمقدار متعادل ، وفقاً لمشيئة الدول وشعوبها وأهدافها . مسؤولية الفشل في صنع السلام وترجيح كفة صناعة الحرب عليها . غير أن حقيقة تبقى ثابتة وهي أن فشل (معاهدة فرانكفورت) في صنع سلام ثابت ومستقر إنما يعود إلى فرض شروط على فرنسا ـــ استثارت كرامة الشعب الفرنسي من جهة ؛ وسمحت للدول الأخرى التي تتحرك وفقاً لمصالحها الوطنية والاقتصادية لاستثمار هذا العامل من أجل بذر بذور الحرب في رماد معاهدة فرانكفورت .

٣ تجربة الحرب العالمية الأولى : انفجرت الحرب العالمية الأولى بذريعة (مقتل ولي عهد النمسا) على أيدي فدائي من الصرب . ولكن ما كان لهذه الحرب لتنفجر لو لم تكن أوروبا كلها مستعدة لها ومدججة بالسلاح . ولو لم تكن أوروبا منتظمة في أحلاف متعادية ؛ وأخيراً ما كان لها أن تنفجر لو لم تدخلها بريطانيا العظمى ـــ التي كانت آنذاك أعظم إمبراطورية في العالم . وكان لكل دولة أهدافها من الحرب ، وكانت المنافسة الاستعمارية والتوسع هو القاسم المشترك الذي حشد كل الدول المتحالفة وزجها في أتون الحرب . وهذا ما عبر عنه بدقة الرئيس الأمريكي وودرو ويلسون في حديث ألقاه في سان لويس يوم ١١ أيلول (سبتمبر) ١٩١٩ عندما قال : « **أيها المواطنون ! هل هناك بيننا هنا رجل أو امرأة ، بل هل هناك طفل أيضاً لا يعرف بأن سبب الحرب في عالمنا المعاصر هو التنافس الصناعي والتجاري ؟. إن هذه الحرب كانت منذ بدايتها حرباً تجارية وصناعية . إنها ليست حرباً سياسية** » . ويمكن أن يضاف إلى ذلك ما كتبه الأمريكي (جون ماينارد كين) عن النتائج الاقتصادية لاتفاقات السلم سنة ١٩٢٠ ما يلي : « لا يمكن تجنب سياسات القوة ؛ وليس هناك من شيء جديد جداً يمكن أن نتعلمه من هذه الحرب أو من هدفها : فقد دمرت إنكلترا منافساً تجارياً ، كما فعلت في القرون السابقة » .

لقد كانت حدود الإمبراطورية البريطانية ، يوم انفجرت الحرب العالمية الأولى تشمل كل شواطئ المحيطات والبحار في العالم . وكانت روسيا القيصرية متأخرة من الناحية الاقتصادية ؛ إلّا

أنها كانت تملك طاقة هائلة ؛ أما ألمانيا وفرنسا فكانتا إمبراطوريتين يسود فيهما الرخاء ؛ وإن لم يكن التفاهم سائداً بينهما ؛ غير أن هذا التفاهم لم يكن سائداً بين الدول الأوروبية منذ أكثر من ألف عام . ولكن هذه الحرب التي نشبت سنة ١٩١٤ وانتهت سنة ١٩١٨ ، دمرت كل ذلك البناء الضخم للدول الأوروبية . ولم يصمد من الدول التي اشتركت في الحرب سوى الولايات المتحدة التي خرجت من الحرب وقد أصبحت قوة عالمية . أما بريطانيا فكانت مفلسة تماماً ؛ فيما كانت فرنسا تنزف آخر قطرة من دمها . وتعرضت روسيا وألمانيا لأهوال الثورة المدمرة ؛ واختفت الإمبراطورية النمساوية ــ الهنغارية من عالم الوجود ، وتمزقت الدولة العثمانية وزالت من الوجود . وتقوض بنيان إيطاليا ، وتعرضت الدول الأوروبية الأخرى للمصير المدمر ذاته ، واختفى عصر بكامله بين ركام الحرب . **ولو أن رجال الدولة العسكريين استطاعوا التنبؤ بالمصير الذي ستقودهم إليه مكائدهم ودسائسهم ومنافساتهم وأحلافهم ؛ فهل كانوا يتعجلون النزاع ، ويعزفون عن بذل الجهود السلمية؟ إنه سؤال جدير بالطرح ، لأنه ليس سؤالاً لا فائدة منه . فحتى لو كانت المشكلات التي كان من الواجب حلّها معقدة جداً عليهم ؛ وحتى ولو أنه كانت هناك ظروف قاهرة لا يستطيعون منعها ، أرغمتهم على اللجوء إلى السيف لحلها ، أفلم يتمكنوا من التعلّم من صفحات التاريخ ، كيف يحلونها بشيء من المهارة؟ ألم يكن بالمستطاع لو تم بذل جهود على اتجاه السلم معادلة للجهود التي بذلت على اتجاه الحرب ؛ حتى ينتصر السلم على الحرب؟**

مهما كان عليه الأمر ، فإن قادة أوروبا من سياسيين وعسكريين ، وهم الذين يزعمون أنهم يتخذون من التاريخ استاذاً عظيماً هادياً لهم ومناراً لتوجهاتهم ، لم يتعلموا شيئاً لا من التاريخ ولا حتى من تجربتهم الذاتية . وكانت مشاعر الحقد والكراهية هي الغشاوة التي حرمتهم من رؤية الأمور بمنظار يختلف عن منظار الحرب ، ومنعتهم من فرصة بناء ثابت ومستقر . فعندما اقتربت الحرب من نهايتها ، وفي يوم ٨ كانون الثاني (يناير) ١٩١٨ «تحديداً» أعلن الرئيس الأمريكي ويلسون النقاط الأربعة عشر لإقامة عالم السلام لما بعد الحرب .

وكانت كالتالي :

١ ــ تبرم معاهدات السلام بصورة علنية ، ولا يعقد بعدها أية اتفاقات دولية خاصة ، مهما كانت طبيعتها . وعلى الديبلوماسية أن تلجأ إلى المفاوضات بصورة علنية وصريحة .
٢ ــ احترام الحرية المطلقة للملاحة في البحر خارج المياه الأقليمية ، في السلم وفي الحرب .
٣ ــ إزالة الحواجز الاقتصادية بين الشعوب قدر المستطاع .
٤ ــ اتخاذ كل الضمانات الكافية بخفض التسلح إلى القدر الكافي للمحافظة على الأمن الداخلي للبلاد .

٥ ــ تسوية المنافسات الاستعمارية، مع مراعاة رغبات السكان ومصالحهم بصورة متجردة.

٦ ــ الجلاء عن كل الأراضي الروسية، وردها إلى روسيا، ومنح روسيا فرصة تثبيت استقلال تطورها الخاص السياسي والوطني بلا حواجز أو معوقات، واستقبالها بصورة صادقة في منظمة الأمم الحرة «عصبة الأمم» وتقديم أكبر عون لها مهما كانت طبيعته إذا كانت راغبة فيه.

٧ ــ الجلاء عن بلجيكا والمحافظة على سيادتها.

٨ ــ تحرير كل الأراضي الفرنسية، وإعادة كل الأجزاء التي تم احتلالها «إعادة الألزاس واللورين إلى فرنسا».

٩ ــ تعديل الحدود الإيطالية بما يتفق مع توزع القوميات الإيطالية.

١٠ ــ تقسيم النمسا والمجر تقسيماً يتفق مع توزيع قوميات الإمبراطورية.

١١ ــ الجلاء عن رومانيا، وصربيا، ومونتينيغرو، وإعادة الأجزاء المحتلة منها. ومنح صربيا منفذاً إلى البحر.

١٢ ــ منح أجزاء الإمبراطورية العثمانية الحالية السيادة والأمن، وقصر حكم الأتراك على رعايا من جنسهم. ومنح القوميات الأخرى التي تعيش في ظل الإمبراطورية حق الحكم الذاتي، وتقرير حرية الملاحة في مضيق الدردنيل بضمانات دولية.

١٣ ــ تشكيل دولة بولونية تشتمل على الأراضي التي يسكنها البولونيون، يكون لها منفذ إلى البحر.

١٤ ــ إنشاء جمعية عامة للأمم بموجب مواثيق خاصة، تهدف إلى إتاحة ضمانات متبادلة لتحقيق الاستقلال السياسي والإقليمي لكل هذه الدول الصغيرة.

لم تكن القضية «قضية السلم» في أعقاب حرب طاحنة قضية مبادىء فحسب، بل كانت قضية نيات ومقاصد وقضية استخلاص واقعي للدروس التي أبرزتها تجربة الحرب ذاتها. ويظهر أن الرئيس الأمريكي ويلسون قد أدرك ذلك، فعمل، بعد شهر من إعلان مبادئه، على إصدار إعلان جديد قال فيه: «**لن يكون هناك ضم، ولا جزية، ولا تعويضات انتقامية. إن حق تقرير المصير سيكون مقبولاً كمبدأ إلزامي، وكل تسوية إقليمية ستتم لفائدة الشعوب المعنية، ولمصلحتها**». وعبر عن ذلك بالمبادئ الأربعة التي أصدرها يوم ١٨ شباط (فبراير) ١٩١٨ وهي:

١ ــ يتطابق كل جزء من التسوية النهائية بصورة وثيقة مع الشروط التي تفرضها العدالة في كل حالة خاصة.

٢ ــ ينبغي ألا تكون الشعوب والمقاطعات هدفاً للأخذ والرد، تتبادلها الحكومات كما يتبادل الأفراد الأملاك المحجوزة.

٣ ــ لا تتم أية تسوية إقليمية في هذه الحرب لا تتجاوب مع مصالح الشعوب المعنية بها، ولا تكون شرطاً بسيطاً للتسوية بين دول متنافسة.

٤ ــ تحقيق مصالح كل قومية من القوميات في حدود الإمكان، بما يتجنب أسباب الفتنة والصراع.

وعاد الرئيس ويلسون فأعلن توجيهاته الخمسة يوم ٢٧ أيلول (سبتمبر) ١٩١٨:

١ ــ يؤكد التوجيه الأول على اتباع عدالة متجردة بين الأمم الصديقة والمعادية.

٢ ــ يستنكر التوجيه الثاني كل المصالح الفردية والخاصة.

٣ ــ يوصي التوجيه الثالث بعدم إبرام اتفاقات خاصة ضمن إطار عصبة الأمم.

٤ ــ يمنع التوجيه الرابع كل تعاون إقتصادي ذو مصلحة خاصة ضمن إطار عصبة الأمم.

٥ ــ يؤكد التوجيه الخامس تحريم إبرام المعاهدات السرية (٨).

ما من مجال هنا للتأكيد أنه لو تم الالتزام بهذه المبادىء والتوصيات والتوجيهات لكان بالمستطاع إقامة سلم ثابت ومستقر، لا بالنسبة لأوروبا وحدها وإنما للعالم كله. غير أن الحقيقة الثابتة هي أن الرئيس الأمريكي ويلسون «لم تكن لديه خطة ولا مشروع ولا أفكار بناءة لكي يحول الأوامر التي كان يصدرها من البيت الأبيض إلى مبادىء حية». وكان شريكاه في صياغة عالم ما بعد الحرب هما الرئيس الفرنسي جورج كليمانصو، والرئيس البريطاني دافيد لويد جورج. ولكل منهما مفاهيمه الخاصة تجاه تسوية قضايا ما بعد الحرب.

كان كليمانصو في سنة ١٩١٨ كهلاً قد بلغ من العمر ٧٧ عاماً، عندما علم بأن ألمانيا قد قبلت مكرهة، وبتأثير المجاعة والثورة ــ شروط الهدنة، فصاح وفرحة الانتصار على شفتيه: «**وأخيراً، جاء اليوم الذي كنت أنتظره منذ نصف قرن! لقد حان هذا اليوم، حان يوم الثأر**». وعندما عقد مؤتمر الصلح، لم يقدم طوال فترة إنعقاده سوى الحقد والكراهية والرغبة الوقحة في تدمير ألمانيا ومنعها من التقدم إلى الأبد. وكان هو الذي سيطر على هذا المؤتمر ــ لا الرئيس ويلسون ــ وكان ميثاق الرئيس في رأيه ــ نكتة مضحكة ــ فقد علق عليه بقوله: «**أربعة عشر أمراً! إنه لشيء قاس حقاً، إن الله لم يصدر إلّا عشرة أوامر فقط**». وكان يردد ذلك بسخرية واستهزاء. وهكذا وضع كليمانصو بذور الحرب العالمية الثانية عندما أطلق شعاره: «**لقد انتهت الحرب؛ والحرب مستمرة**».

---

(٨) إدارة الحرب ــ ص٥٢٣ ــ ٥٢٥.

لم يكن البريطاني ـــ دافيد لويد جورج ـــ أقل حقداً، ولاأكثر انحطاطاً من صاحبه الفرنسي كليمانصو. فكانت رائحة الدم تنبعث كريهة من تصريحاته أمام الجمهور البريطاني.. فأعلن يوم ٢٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٨: «**إن على ألمانيا أن تدفع نفقات الحرب حتى أقصى إمكاناتها**». وفي بيان انتخابي له يوم ١١ كانون الأول (ديسمبر) وعد الناخبين المعتوهين: «**بإعدام قيصر ألمانيا، وبعقاب المسؤولين عن أعمال العنف، وبتعويضات كبيرة ينبغي أن تدفعها ألمانيا**».

وهكذا تحكم قانون (الحقد البدائي) بمؤتمر السلام الذي عقد يوم ١٨ كانون الثاني (نوفمبر) ١٩١٩. فأعيدت الألزاس واللورين إلى فرنسا، وتخلت ألمانيا لبولونيا عن الجزء الأكبر من أقليم بوتزن (الممر البولوني) مع ٦٠٠ ألف ألماني. وتحويل مدينة دانتزيغ ذات الأكثرية الألمانية إلى مدينة حرة ووضعها تحت حماية عصبة الأمم، والتخلي عن ميمل لليتوانيا وعن (دوبين ـــ والميدي) إلى بلجيكا. وكانت هذه التغييرات الجغرافية تعني اقتطاع ٧٢٥٠٠ كم مربع من الأرض الألمانية، كان يقطنها ٧ ملايين ألماني. وفرضت غرامات مالية قدرت بمبلغ ١٣٢ مليار مارك ذهبي، أي ما يعادل التعويضات التي طالبت ألمانيا فرنسا بها في العام ١٨٧١ مضروبة بثلاثة وثلاثين ضعفاً. **وكانت الإهانة الثانية التي وجهت إلى الشعب الألماني هي فرض قيود على تسلحه. واتخاذ قرار بمحاكمة زعماء ألمانيا وأمرائها بتهم (مجرمي الحرب). وكانت آخر إهانة ألحقت بالألمان هي ما نصت عليه المعاهدة من مطالبة ألمانيا بالاعتراف بمسؤولياتها عن اندلاع الحرب.**

أما بالنسبة لبقية العالم، فقد أهمل مبدأ (حق تقرير المصير) إهمالاً تاماً، وفرض الانتداب على أقاليم الوطن العربي (العراق ـــ سورية ـــ الأردن ـــ لبنان ـــ فلسطين). وأقرت عصبة الأمم الاتفاقات السرية (اتفاق سايكس ـــ بيكو). وأسندت إلى بريطانيا مهمة (إقامة الكيان الصهيوني في فلسطين). وهكذا زرع الحلفاء الأوضاع المتفجرة في العالم. ولم يعد من غير الطبيعي أن تبحث ألمانيا، بمجرد امتلاك القدرة، عن مخرج من أزمتها، وأن تحاول نفض غبار العار عن كاهلها. وسرعان ما وجدت في (هتلر) رجلها المنشود فسارعت للالتفاف حوله، وألقى أستاذ في إحدى محاضراته سنة ١٩٣٠ الكلمة التالية: «إن في وسع حضارتنا ـــ الغربية ـــ أن تشن الحرب، غير أنها نسيت أسلوب إرساء السلم». وما تعرض له الغرب، عاشه الوطن العربي منذ نهاية تلك الحرب ـــ الحرب العالمية الأولى ـــ إذ جاءت جحافل الغزو الغربي، حاملة معها مشاريعها المناقضة لكل أسس العدل والسلام وحق تقرير المصير، فمزقت أقاليم الوطن العربي وفتحت أبواب فلسطين أمام جحافل اليهود، وأوقعت الشعب العربي في حالة من الفوضى والاضطراب لا مثيل لهما في العالم. وغاب السلام عن أرض السلام. ولم يكن الشعب العربي

ـــ بالتأكيد ـــ ووفقاً لكل الشواهد ـــ هو المسؤول يوماً عن السعي للحرب، والابتعاد عن نعمة السلم.

٤ الحرب العالمية الثانية: كان (جون ماينارد كينز) الممثل الرسمي للخزينة البريطانية في مؤتمر السلام. ولهذا لم ينظر إلى ما تصنعه الحكومتان البريطانية والفرنسية (لمعاهدات السلام) من نواحي الحق، أو العدالة، وإنما نظر إليها من الناحية الاقتصادية، فوصل إلى النتائج التي تتطابق مع مبادىء الحق والعدالة، والتي تضمن تحقيق السلام الثابت والمستقر، وكتب ما يلي: «لو تابعنا إفقار أوروبا الوسطى عن تصميم وتعمد، لوجدنا أن الثأر واني لأجرؤ على التنبؤ به، لن يتأخر طويلاً، فلا شيء يستطيع أن يؤخر لفترة طويلة هذه الحرب الأهلية الحاسمة بين القوى الرجعية، والاضطرابات الثورية اليائسة، والتي ستسمو على أهوال الحرب الأخيرة مع ألمانيا، وستدمر المنتصر أياً كان... إن الوسيلة الوحيدة للحصول على كل التعويضات هي في تنمية تجارة ألمانيا وصناعتها خلال خمس أو ست سنوات، ومنحها قروضاً ضخمة، وجعلها أقوى دولة صناعية في أوروبا. وعندما تستعيد ألمانيا قوتها وعزتها، وهذا ما سيحدث في يوم ما، فستنقضي سنوات عديدة قبل أن تحول عينيها نحو الغرب. **إن مستقبل ألمانيا اليوم هو باتجاه الشرق ـــ باتجاه الاتحاد السوفييتي ـــ وفي هذا الاتجاه ستنتقل بالتأكيد آمالها ومطامحها عندما ستنبعث من جديد**».

وهكذا تابع المنتصرون في العام ١٩١٨ مبدأ التفتيت السياسي والاقتصادي، في فترة كانت تتطلب مزيداً من الوحدات الكبرى السياسية والاقتصادية، فخسروا بذلك السلم، وكان بالمستطاع أن يكون هدف معاهدات السلام تحقيق سلام ثابت وحقيقي ـــ لا مجرد مؤقتة ـــ ولو لسبب بسيط، هو القضاء على الأسباب والشروط الاقتصادية للحرب.

مهما كان الأمر. فقد ناءت ألمانيا بالأعباء والغرامات التي فرضت عليها وأشهرت إفلاسها، وسارع الحلفاء للأخذ بنصيحة البريطاني (كينز) وأخذت القروض والمساعدات الضخمة في التدفق على ألمانيا، وشرعت عجلة الصناعة الأوروبية في الدوران المتسارع، ونامت أوروبا المنتصرة آمنة مطمئنة، وهي تحلم بتوجيه طاقة الدولة الألمانية الجديدة نحو (الشرق) غير مستفيدة من دروس التاريخ، ولا من تجربتها القريبة، بأنه إذا انطلقت الحرب من عقالها. فستحرق أصابع العابثين بها، قبل سواهم.

وجاء هتلر وحزبه النازي إلى السلطة، وشرع في تنفيذ السياسة التي كان قد حدد أسسها ومبادئها في كتابه (كفاحي) والتي كان ما جاء في المقدمة هو التالي:

«**كم نحن مقتنعون اليوم بضرورة تسوية الحساب مع فرنسا**، وسيبقى الوضع في نظرنا

عديم الفاعلية إذا اقتصرت أهداف سياستنا الخارجية على هذا القدر ولا يمكن تفسير هذا العمل إلّا لتغطية مؤخراتنا من أجل توسيع رقعة الوطن في أوروبا .

إن علينا ، نحن الوطنيين الاشتراكيين ، أن نسعى لتبديل سياسة ألمانيا الخارجية ، وأن نبدأ حيث انتهى أجدادنا منذ ستمائة سنة . ويجب أن نعمل على وقف الزحف الجرماني نحو جنوب أوروبا وغربها ، ونوجه أنظارنا إلى الشرق ، ونضع حداً لسياسة ما قبل الحرب الاستعمارية والتجارية ، ونفتتح سياسة المستقبل الأقليمية ، **فمنذ قرون ، كانت روسيا تعيش على حساب النواة الجرمانية لطبقاتها العليا الحاكمة . ولكن اليهود أخذوا مكانها ، ولن يستطيع اليهودي ، بمرور الزمن ، المحافظة على الدولة القوية . فهو نفسه ليس عنصراً منظماً ، إنه ليس إلّا خميرة من خمائر التفتت ، إن دولة الشرق الكبيرة ناضجة للإنهيار ، وقد اختارنا القدر لنشاهد مصيبة ، ستكون أقوى دليل على صحة النظريات العنصرية فيما يتعلق بالعروق البشرية »** .

شرع هتلر في مناهضة النظام الرأسمالي الذي تحتكره بريطانيا والولايات المتحدة ؛ والذي وصفه بما يلي : « لم تكتف الرأسمالية العالمية بإثارة المشاعر من أجل الحرب ؛ بل إنها تعمل الآن أيضاً ؛ وقد انتهت الحرب ؛ لتحويل الحياة إلى جحيم لا يطاق . إن النضال ضد الرأسمالية المالية ورأسمالية القروض ، أصبح أهم نقطة في كفاح الأمة الألمانية من أجل استقلالها وحريتها الاقتصادية . وطالما أن النظام النقدي الدولي بقي مستنداً إلى الذهب ؛ فإن في وسع الدولة التي تحتكره أن تفرض إرادتها على الدول التي تفتقر إليه ؛ ومن الممكن الحصول على هذه النتيجة باستنزاف مصادر التبادل وبإجبار الدول الأخرى بهذا الشكل على قبول قروض أجنبية بفائدة كي تستطيع المفاوضة على إنتاجها ؛ وبناء على ذلك فلا بد من :

١ ــ رفض القروض الأجنبية ذات الفوائد ؛ واستناداً للعملة الألمانية إلى الإنتاج بدلاً من الذهب .
٢ ــ أن تتم عمليات الاستيراد بالتبادل المباشر في البضائع بمقايضة السلع مع دعم عمليات التصدير كلما كان ذلك ضرورياً .
٣ ــ إيقاف ما يسمى ــ بحرية التبادل ــ أي السماح في التلاعب بالعملات ؛ ونقل الثروات من بلد إلى بلد آخر ؛ تبعاً للوضع السياسي .
٤ ــ تأمين الربح للمال عن طريق العمل ــ الإنتاج وعمل اليد العاملة ــ واستثمار المواد الأولية بدلاً من الاستدانة بوساطة القروض » .

ولم يكن باستطاعة بريطانيا والولايات المتحدة السكوت عن هذا التحدي لاقتصادهما ولأسس بنائهما ، غير أنهما كانتا عاجزتين عن مجابهة النهج الألماني بإعلان الحرب . وأخذتا ــ كما هي عادتهما ــ في إنضاج الظروف على نار هادئة . وكان هتلر يعمل في الوقت ذاته على إعادة

توحيد ألمانيا، فأمكن له ضم النمسا في ١٢ آذار (مارس) ١٩٣٨ وتبع ذلك ضم أقليم السوديت وتشيكوسلوفاكيا في ٣٠ أيلول (سبتمبر) ١٩٣٨ ثم قامت القوات الألمانية باحتلال أقليم (ميمل) في ٢ آذار (مارس) ١٩٣٨. وطالب في الوقت ذاته بإعادة دانتزيغ إلى ألمانيا، وبناء خط حديدي، وطريق بري دولي عبر الممر البولوني. وجاءت اللحظة؛ وخرجت بريطانيا عن صمتها. وأعلن رئيس وزرائها ـــ تشرشل ـــ أمام مجلس العموم: «تعد حكومة جلالة ملك بريطانيا نفسها ملزمة بتقديم الدعم المستطاع للحكومة البولونية؛ فيما لو تم أي عمل يهدد بصورة واضحة استقلال بولونيا؛ وتقرر الحكومة البولونية لأسباب حيوية مقاومته بكل قواها الوطنية. وقد أعطت حكومة جلالته إلى الحكومة البولونية تأكيدات في هذا المجال». وانضمت فرنسا إلى بريطانيا في تقديم الضمانات إلى بولونيا وتم توسيع هذه الضمانات فشملت رومانيا واليونان (في ١٣ نيسان (أبريل) ١٩٣٩). وتحركت ألمانيا على الاتجاه المضاد. فتم في موسكو توقيع معاهدة عدم اعتداء يوم ٢١ آب (أغسطس) و «انفجر الخبر المشؤوم في العالم كقنبلة» كما وصفه تشرشل وحصل ستالين على ما يريده وهو: «**الحرب في أوروبا الغربية والسلم في الاتحاد السوفييتي**» وانطلقت الجحافل الألمانية لاجتياح الغرب ـــ وبولونيا ـــ في الأول من أيلول (سبتمبر) ١٩٣٩. وانتهت هدنة العشرين عاماً. وتفجرت الحرب العالمية الثانية.

لم يكن المذهب العسكري الألماني أكثر فهماً أو إدراكاً لضرورة التوازن بين غاية السلم وهدف الحرب، مثله في ذلك مثل بقية المذاهب العسكرية الغربية؛ وقد استطاعت القوات الألمانية أن تجتاح الغرب بسرعة مذهلة بفضل ما توافر للجهاز العسكري الألماني من مخططات محكمة؛ ومن قيادات ذات كفاءة عالية، ومن قوات تمتلك درجة عالية من التدريب والروح المعنوية. غير أن ما أحرزه المقاتلون من انتصارات مثيرة؛ لم يحقق السلم في أوروبا. فالنزعة العنصرية الألمانية قد استثارت الشعوب الأوروبية المقهورة، وحرضتها على المقاومة؛ التي لم تلبث أن تعاظمت وتطورت بفضل التحريض الخارجي لقيادات الحلفاء حتى انتشرت في كل مكان من فرنسا إلى بلجيكا، ومن يوغوسلافيا إلى اليونان. غير أن صورة المقاومة أخذت شكلاً أكثر وضوحاً عندما اجتاحت القوات الألمانية أقاليم الاتحاد السوفييتي. ولقد حفظ (أدب الحرب) فيما حفظه عن الحرب العالمية الثانية مقولات كثيرة تؤكد هذه الحقيقة. منها المقولة التالية: «لو أن الألمان حملوا معهم إلى روسيا شيئاً مشابهاً للنقاط الأربعة عشر لعام ١٩١٨ والتي كان قد وضعها ويلسون، لتجزأت روسيا كما تجزأت ألمانيا في ذلك الوقت... ولو فعل هتلر ذلك لما احتاج أبداً إلى نقل جيوشه من موسكو ليضمن أوكرانيا. لأن الأوكرانيين في هذه الحالة سيقدمون له هذه الضمانة. غير أن هتلر أعلن أن سكان الاتحاد السوفييتي هم بشر أقل قيمة من غيرهم من الأجناس، وقرر القيام بحرب الإبادة».

لقد بدأ الغزو الألماني السوفييتي في ٢٢ حزيران (يونيو) ١٩٤١ وفي المعارك التي دارت

حتى ٢٦ أيلول (يوم انتهاء معركة كييف الكبرى) كان عدد الأسرى الروس يتجاوز المليون ونصف المليون أسير. وانضم إليهم مليون أسير قبل عيد الميلاد. وقد كتب القائد العام للجيش البولوني الحر (الجنرال أندرز) معللاً هذه الظاهرة: «هناك عدد كبير من الجنود يرون في الحرب فرصة لتغيير النظام في روسيا. وكانوا يرغبون في انتصار ألمانيا. ولهذا كانوا يستسلمون بأعداد كبيرة. وقد انضم عدد كبير من الضباط السوفييت الكبار إلى الألمان، وعرضوا عليهم أن يقاتلوا معهم ضد السوفييت».

وكتب ضابط صف في حرس هتلر (إيريخ كيرن) ما يلي: «كان هناك في كل أنحاء مدينة روستوف أناس ينتظرون في الشارع؛ وهم مستعدون لتحيتنا والترحيب بنا، ولم أر قبل ذلك أبداً تغييراً مفاجئاً مثل هذا التغيير. كنا نصادف أناساً يضحكون ويؤشرون لنا. وكانت مفاصل الإمبراطورية السوفييتية تتداعى في كل مكان».

ثم جاء (هتلر) ومصلحة الأمن المخجلة، فتعاملت مع الروس الأوكرانيين بقسوة وعنف تجاوزت كل الحدود. مما أيقظ روح الحرب الوطنية من رقادها. ونظراً لأن القضاء على البلشفية قد بدأ فوراً وبكل بساطة بشكل التصميم على إبادة السلافيين واستعبادهم. فقد كان من الطبيعي أن تتعاظم المقاومة للغزو الألماني. وهذا ما ذكره ضابط ألماني عندما تحدث إلى صحفي أمريكي بعد الحرب فقال له: «هل تعرف أين خسرنا الحرب في روسيا... لقد خسرناها في كييف — قبل ستالينغراد بزمن طويل — وذلك عندما رفعنا علم الصليب المعقوف بدلاً من العلم الأوكراني».

ومقابل ذلك؛ ارتكبت قيادات الحلفاء أخطاء مماثلة؛ عندما حددت للحرب أهدافاً لا علاقة لها بسلم ما بعد الحرب. وكان باستطاعة قيادات الحلفاء أن تفعل ذلك بأن تقدم للاتحاد السوفييتي ما يحتاجه من دعم لمقاومة العدوان الألماني، مع عدم تعريض ألمانيا لأضرار هامة حتى ترغمها على إيقاف الحرب. ولكن تشرشل أضاع هذه الفرصة؛ عندما وجه رسالة مفجعة إلى الشعب الإنكليزي يوم ٢٢ حزيران (يونيو) ١٩٤٢ ذكر فيها: «**ليس لنا إلّا هدف واحد؛ وغرض وحيد لا رجعة فيه؛ فقد صممنا على تدمير هتلر ومحو كل آثار النظام النازي؛ ولا شيء سيحولنا عن هذا الهدف؛ لا شيء أبداً؛ فنحن لن نتفاوض مع هتلر أبداً، ولن نتحدث معه أبداً، ولا مع أي شخص من جماعته فكل رجل؛ وكل شعب، سيتابع المعركة ضد النازية؛ سيحظى بدعمنا، هذا هو خط سلوكنا؛ وهذا هو قرارنا؛ وبناء على هذا فإننا سنقدم كل العون الممكن لروسيا وللشعب الروسي**».

لقد كان باستطاعة تشرشل، أن يفعل؛ كما فعل سلفه؛ في تشجيع المعارضة المعادية لهتلر في ألمانيا؛ وهي المعارضة التي حاول عدد كبير من أعضائها الحصول على دعم إنكلترا؛ غير أن

تشرشل كان يعد الألمان حيوانات مفترسة؛ لأن حقده على هتلر أعمى بصيرته؛ وهكذا ارتكب الحماقة التي ارتكبها هتلر عندما رفض التمييز بين الشعوب الموالية لستالين والشعوب المعادية له في الاتحاد السوفييتي. وبدلاً من أن يقدم تشرشل عروضاً لدعم هذه المعارضة؛ سعى جهده لتحطيم الروح المعنوية للشعب الألماني عبر ما حمل اسم (القصف الاستراتيجي لألمانيا).

إن مثل هذا التفكير؛ قد حرم بريطانيا والولايات المتحدة من فرصة تنظيم التعاون مع ستالين على أسس واضحة لتنظيم أسس السلم لما بعد الحرب. وقد انتقل حقد (تشرشل) على هتلر ونظامه إلى روزفلت «الذي لم يعد له من هم إلّا في تحقيق الانتصار على هتلر».

الأمر مماثل بالنسبة لاندلاع الحرب في الشرق الأقصى، فقد كانت هناك مفاوضات يابانية ـــ أمريكية لإجراء تسوية سلمية تحول دون اندلاع الحرب. وكتب تشرشل إلى روزفلت في ٥ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤١ رسالة جاء فيها: «لم يتخذ اليابانيون حتى الآن أي قرار لا ينقض؛ ويبدو أن الإمبراطور يتمهل؛ وعندما تحدثنا عن هذا الموضوع في بلاسنتيا؛ كان رأيكم أن نكسب الوقت؛ وقد حصلت هذه الطريقة على نجاح رائع حتى الآن. غير أن الحظر الذي فرضناه على التصدير، سيضطر اليابانيين بالتأكيد إلى الاختيار بين السلم والحرب».

ويظهر أن المسألة كانت من وجهة نظر المعسكر الأنكلوساكسوني (مسألة كسب وقت) وأن القرار متخذ لفرض الحرب على اليابان، عبر سلسلة من الإجراءات المتتالية التي تحرمها حتى من الخيار بين السلم والحرب. وعلى الرغم من ذلك؛ فقد أعلنت اليابان قرارها في ٢٠ تشرين الثاني (نوفمبر). لإجراء تسوية سلمية عامة تقوم على الأسس التالية:

«إنسحاب القطعات اليابانية من الهند الصينية الفرنسية ـــ فييتنام حالياً ـــ بعد توقيع معاهدة متكافئة لمنطقة المحيط الهادي. إعادة العلاقات التجارية المتبادلة بين اليابان والولايات المتحدة الأمريكية. قبول الولايات المتحدة بتموين اليابان بالبترول. تعهد الولايات المتحدة بالامتناع عن اتخاذ أية تدابير أو أعمال تسيء إلى عودة السلام بين اليابان والصين». واجتمع وزير الحرب هنري. ل. سيمون ورئيس الأركان جورج مارشال بالرئيس روزفلت: «لمناقشة ما يجب عمله. وكيف يمكن جر اليابانيين لإطلاق الطلقة الأولى؛ لتجنب التورط في وضع خطير». وكان هؤلاء يعرفون أن الاقتراحات اليابانية هي كل ما يستطيعون تقديمه. وبدلاً من قبولها أو حتى التفاوض بشأنها، أعدت إدارة روزفلت مذكرة من عشرة نقاط ـــ تضمنت: «مقابل معاهدة جديدة للتجارة؛ ولرفع الحظر عن أرصدة الشعبين؛ تتعهد اليابان بتوقيع معاهدة عدم اعتداء مع واشنطن وموسكو والبلاد المنخفضة وتشونغ كينغ وبانكوك، وتتعهد بسحب قواتها المسلحة من الصين والهند الصينية، وبعدم مساعدة أية حكومة في الصين غير حكومة تشانغ كاي شيك». ولم يكن

أمام اليابان غير خيار واحد هو خيار الحرب؛ الذي أعلنته بهجومها المباغت والشامل على بيرل هاربر وماليزيا وتايلاند وهونغ كونغ (يوم ٧ كانون الثاني (يناير) ١٩٤٢) ويومها قال تشرشل كلمته الشهيرة: «انتصرنا أخيراً؛ لقد ختم مصير هتلر؛ وختم مصير موسوليني؛ أما اليابانيون فسيتحولون إلى رماد، وأنا ذاهب لأنام، نوم رجل ضمنت سلامته، وقلبه مشبع بالعرفان؛ بعد أن امتلأت وشبعت من الانفعالات والأحاسيس».

لقد كان تشرشل رجل حرب ــ بالتأكيد ــ ولكنه لم يكن رجل سلام. ولعل الشعب الإنكليزي قد أدرك ذلك فأسقطه من سدة الرئاسة يوم انتهت الحرب؛ ولم يكن روزفلت أفضل منه في تطلعاته السياسية. ومقابل ذلك كان هناك رجل يعرف ما يريد حقاً ويضع مخططاته لعالم السلم من خلال الحرب؛ ذلك هو الزعيم السوفييتي ستالين رجل الدولة؛ الذي لم يرتكب أبداً خطيئة جعل الحرب شيئاً مغايراً لكون الحرب أداة من أدوات السياسة. فوضع منذ نهاية سنة ١٩٤١ رؤيته لكيان أوروبا ما بعد الحرب: تقسيم ألمانيا إلى عدد من الدول الصغيرة المستقلة. إعادة دول البلطيق إلى الاتحاد السوفييتي. إعادة فنلندا وبسارابيا لما كانت عليه قبل غزو هتلر للاتحاد السوفييتي. الاعتراف بخط كورزون حداً بين روسيا وبولونيا.

وبدلاً من أن يناقش روزفلت وتشرشل مشروع ستالين لما بعد الحرب. طرح روزفلت (هدفه الكبير) في إقامة تنظيم دولي وفقاً لمبادئ أطلق عليها أسم (حلف ميثاق الأطلسي) والذي حمل بعدئذٍ أسم (منظمة الأمم المتحدة).

ووفقاً لهذا الميثاق، عدت الهزيمة التامة لألمانيا واليابان شيئاً أساسياً، ثم حددت في إطار مرفوض «الاستسلام بلا قيد ولا شرط». بحيث لم يبق أمام الشعبين الألماني والياباني إلَّا متابعة القتال حتى الرمق الأخير. وأما أوروبا وأمريكا والحلفاء الذين ربحوا الحرب، فلم يلبثوا أن استيقظوا على هول ما أطلقوا عليه صفة (الكارثة). ولم يتحقق حلم روزفلت في أن يتحول ستالين إلى النظام الجمهوري الأمريكي قبل نهاية الحرب. وهو ما أشارت إليه صحيفة أمريكية بقولها: «**كان روزفلت يعمل على دعم ستالين، وهو يأمل في ارتداد ستالين عن خطه، بإعطائه كل ما كان يطلب دون حدود؛ ودون أية تحفظات، ويدفعه إلى الانضمام إلى أهداف ميثاق الأطلسي. وذلك بالالتقاء به بصورة شخصية.. وبإقناعه بتطبيق الطرق المسيحية والمبادىء الديموقراطية**»(٩).

ولا ريب أن ستالين المعروف بتجهمه، وبعده عن المرح؛ قد قهقه كثيراً عندما اطلع على هذا الحلم الساذج. ولكن المهم هو أن مثل هذه السذاجة هي التي حرمت عالم ما بعد الحرب من

---

(٩) مجلة «لايف» الأمريكية عدد ٣٠ آب (أغسطس) ــ ١٩٤٨.

السلم والاستقرار. إذ تحول الحلفاء مجدداً نحو التنافس، وبرزت سلسلة من السياسات الاستراتيجية (الحرب الباردة) التي بقيت باردة على جبهة أوروبا، ولكنها استمرت ساخنة في أرجاء كثيرة من معظم قارات العالم.

لقد اتفقت معظم المذاهب العسكرية في العالم؛ على ضرورة تحقيق التوازن بين (هدف الحرب) وبين (غاية السلم). وظهرت سياسات استراتيجية (مثل استراتيجية التقرب غير المباشر) والتي تدعو إلى الحد من عنف الحرب، ومن التطرف في التدمير ومن تجنب القهر والإذلال والنيل من الكرامة القومية للشعوب، وتجنب فرض الغرامات، ومحاولة إنهاء الاقتتال (بمصالحة) تتوجه لمعالجة أسباب الحروب لا للنظر إلى مجرياتها وظواهرها فقط. غير أن غريزة (الحقد البدائي) تبقى هي المهيمنة على الأغلب، فهل بالمستطاع صرف الرجال الذين يقودون الحرب؛ واستبدالهم بآخرين من دعاة السلم وأنصاره، فور توقف الحرب، من أجل إقامة بناء سلمي بعيد عن هيجانات الحروب وإنفعالاتها، وبحيث يتم توظيف الدروس المستخلصة من الحرب بخدمة قضية السلام؛ وفقاً لما تتطلبه معظم المذاهب العسكرية في العالم.

٤ ــ نقل الحرب إلى بلاد العدو

١ تجارب العالم القديم: يُظهر استعراض تاريخ فن الحرب منذ أقدم العصور وحتى اليوم: إن ظاهرة (نقل الحرب إلى بلاد العدو) قد لازمت تطبيق المذاهب العسكرية جميعها (تقريباً) سواء كانت تلك الحروب توسعية، أو كانت وقائية، أو كانت ذات أهداف مختلفة (عادلة أو غير عادلة). ولعل غريب ما في الأمر هو أن أياً من المذاهب العسكرية لم يضع في أساسه بصورة واضحة ومحددة، قاعدة (نقل الحرب إلى بلاد العدو). كذلك لم يضع أحد من كبار القادة والمفكرين العسكريين وكتابهم وباحثيهم، والذين اهتموا بتحديد مبادىء الحرب المعروفة (الأمن، المباغتة، المبادأة، الحشد، حماية المؤخرات إلخ...)، في جملة هذه المبادىء، مبدأ (نقل الحرب إلى بلاد العدو) فهل يعود السبب في ذلك إلى عدم توافر الإمكانات بصورة ثابتة وأكيدة ودائمة لتدمير جيوش العدو واحتلال بلاده؟ أم يعود إلى حرص الأطراف المتحاربة على تجنب فرض تحديات ثقيلة ومسبقة، تضع الجيوش المعادية وقياداتها أمام مواقف تدفعها للقتال، حتى أقصى درجات العنف والتطرف، تجنباً للمأساة الحقيقية التي تنتظرها إذا ما هزمت في المعركة؟ مهما كان السبب، فإن نقل الحرب إلى البلاد المعادية قد لازم الحروب بصورة ثابتة، ولا ينتقص من قيمته أو أهميته عدم ذكره بين مبادىء الحرب، أو تحديده أساساً ثابتاً من أسس المذاهب العسكرية.

لقد أبرز الكاتب العسكري الألماني (كارل فون كلاوز فيتز) قضية نقل الحرب إلى بلاد العدو، من خلال ربطها بهدف الحرب وهزيمة العدو. فكان مما ذكره بهذا الصدد: «إن هزيمة العدو تعني تدمير قواته المسلحة، وتحقيق انتصار كبير عليها وسحقها. وكلّما تم هذا العمل بسرعة أكبر، أي كلما تم قريباً من حدودنا إزدادت سهولة تحقيقه بعد ذلك داخل بلاد العدو، وأصبح الانتصار بذلك أكثر حسماً... وما إن يتم تحقيق النصر الكبير، حتى يختفي مجال الحديث عن الراحة والتقاط الأنفاس، ولا يبقى أمام المهاجم سوى متابعة تسديد الضربات الجديدة في المكان الملائم، والاستيلاء على عاصمة العدو، ومهاجمة القوات الثانوية المعادية، وتحطيم كل ما قد يدعم

قدرة دولة العدو » [1] وتدمير جيوش العدو والاستيلاء على عاصمة بلاده هو الشكل الأسمى للحرب. لكن قد يكون هدف الحرب أكثر تواضعاً، مثل فرض شروط سياسية واقتصادية أو حتى الحصول على مكاسب جغرافية أو مادية. وهذا ما ذكره كلاوزفيتز أيضاً ــ وعندها لا تصل الحرب إلى ذروة عنفها، وتقف عند حدود قبول الطرف المهزوم أو المغلوب لشروط المنتصر لتقع عندئذٍ على تخوم الدولتين. غير أن هذه التخوم قد تكون متباعدة ــ مثل وجود أقاليم فاصلة بين الطرفين المتحاربين وهنا تصبح هذه الأقاليم نفسها مسرحاً للحرب، وليس على سكانها إلَّا احتمال ويلات الحرب وشرورها، وإن لم يكن لهم علاقة بها ــ وكل ما لهم من علاقة هو ترك بلادهم بين طرفين قويين ــ في حين أنهم ــ أي أصحاب البلاد التي تقع الحرب على أرضهم ــ لا يمتلكون القدرة على حماية حدودهم، والمحافظة على سلامة أراضيهم.

لعل من أفضل الأمثلة على نقل الحرب إلى بلاد العدو، قصة الحروب الفارسية ــ المصرية ــ عندما كانت الإمبراطوريتان العظيمتان تتنازعان السيطرة والنفوذ، وتهدد كل منهما الأخرى. ولم تكن حملات (تحوتمس الثاني) [2] إلى بلاد الشام، والتي بلغت سبع عشرة حملة، إلَّا برهاناً على رغبة فراعنة مصر في ابعاد الحرب عن بلادهم. كذلك فإن انتصار (رعمسيس الثاني) [3] قرب (قادش) على بحيرة حمص. ما هو إلَّا تأكيد لسياسة (الفراعنة) الثابتة في إبعاد الحرب عن بلادهم، ونقلها إلى بلاد الشـام (سورية وفلسطين). وإذا كان فراعنة مصر لم يرغبوا في التوغل إلى أبعد من حدود بلاد الشام، فإن ملوك الفرس كانوا على استعداد لنقل الحرب إلى ما هو أبعد من ذلك، ففي سلسلة الحروب التي شنوها، تمكنوا من إخضاع بلاد الشام ومصر لحكمهم. حتى إذا ما تمردت مصر على السيطرة الفارسية، قام (سرخس الأول) [4] بقيادة جيوشه، فاجتاح بلاد الشام، وأخضع مصر. وتجاوز ذلك أيضاً فقاد جيوشه لاجتياح بلاد الأغريق، لتنفيذ المشروع

---

(١) الوجيز في الحرب (الجنرال كارل فون كلاوزفيتز) ترجمة أكرم ديري ــ الهيثم الأيوبي. الإدارة السياسية ــ دمشق. ١٩٧٣ ص٤٩٥ و ٤٩٦.

(٢) تحوتمس الثاني: اسم أربعة فراعنة من الأسرة ١٨ حكم من سنة ١٥٠٤ حتى سنة ١٤٥٠ ق. م. وقد سجل انتصاراته في نشيد النصر. على حجر الغرانيت الأسود في الكرنك.

(٣) رعمسيس الثاني Rams'es II حكم من سنة ١٣٠١ حتى سنة ١٢٣٥ ق. م. وهناك عشرة فراعنة من الأسرة العشرين يحملون اسم رعمسيس (الرعامسة).

(٤) سرخس الأول (Xerxes) ملك الفرس من ٤٨٥ ــ ٤٦٥ ق. م. وهو ابن داريوس الأول.

الذي كان والده قد بدأ بتنفيذه والإعداد له، غير أن الهزيمة كانت تنتظره في (سالامين)[٥] فعاد إلى بلاده مدحوراً.

تُظهر هذه الأمثلة، وهي ليست أكثر من كلمات قليلة في سفر من الملاحم التي امتدت على صفحة الزمن مئات السنين وآلافها، إن نقل الحروب إلى خارج البلاد، وأبعادها قدر المستطاع لم يكن إلَّا المقدمة أو البداية لما عرف باسم (الحروب التوسعية). والتي أدت بصورة طبيعية إلى زوال ممالك، واندثار أقوام، وانهيار حضارات ومدنيات. فالملوك والأباطرة لم يكونوا يعرفون بدقة، كما يبدو، قدرة عدوهم بالموازنة مع قدرتهم، لهذا كان نقل الحرب إلى ما وراء حدود الدولة هو المرحلة الأولى التي تتوقف عندها الحرب إذا لم تصل إلى مرحلة الحسم، فإذا حسمت الحرب لمصلحة هذا الطرف أو ذاك، كان ذلك مقدمة لتطوير الأعمال القتالية نحو التوسع حتى احتلال بلاد العدو.

لعل أفضل أنموذج يبرز هذه الحقيقة هو قصة الحروب الفارسية ــ اليونانية، ففي مطلع القرن الخامس ق. م. حققت بلاد فارس انتصارات متتالية أخضعت بوساطتها كل بلدان آسيا الصغرى، واحتلت المدن اليونانية على امتداد الشاطىء اليوناني الغربي، وفي سنة ٤٩٠ ق. م. أنزل الفرس قوات كبيرة في سهل ماراتون. فدفعت اليونان جيوشها بقيادة القائد الشهير (ميليتياد)[٦] الذي تمكن من تطويق الفرس فشرعوا في ركوب البحر والفرار، بعد أن خسروا ٦٤٠٠ رجل، فيما خسر اليونانيون ألف رجل منهم ١٩٢ قتيلاً. ولم يكن انتصار اليونانيين في (ماراتون) إلَّا البداية لتطوير الصراع ضد الفرس، حيث شرع خطباء اليونان وفلاسفتها في استثارة الشعب اليوناني وقياداته للعمل ضد (البرابرة) وكان من ذلك مناشدة الخطيب والفيلسوف اليوناني (أيسوقراط ٤٣٦ ــ ٣٣٨ ق. م) للقائد فيليب (والد الاسكندر المقدوني) لتحقيق الدعوة التي لم يمل من ترديدها على مدى نصف قرن تقريباً (وفحوى هذه الدعوة هي أن خير وسيلة لإنقاذ بلاد الأغريق هي الثأر من البرابرة ــ الفرس ــ والسيطرة عليهم بحق سمو الحضارة الأغريقية على ما عداها. وإنشاء مدن في الأقاليم التي يتم قهرها). وكان هذا الموقف يتطابق مع موقف الفيلسوف أفلاطون الذي كان يقول: «**إن البرابرة هم أعداء بالفطرة، ومن الضروري أن يشن عليهم الأغريق الحرب، حتى ولو أدى الأمر إلى استخدامهم أرقاء أو إبادتهم**» أما الفيلسوف أرسطو، فكان يعد: «أن الحرب ضد البرابرة هي حرب عادلة وطبيعية ــ ونصح تلميذه القائد الاسكندر

(٥) سالامين (Salamine) جزيرة يونانية؛ على الساحل الغربي من البرزخ اليوناني، اكتسبت شهرتها من انتصار الأسطول اليوناني على سرخس الأول سنة ٤٨٠ ق. م.

(٦) ميليتياد (MILITIADE) قائد اثيني؛ انتصر على الفرس في معركة ماراتون Marathon سنة ٤٨٩ ق. م.

المقدوني ــ أن يعامل البرابرة كما يعامل الأرقاء [٧]. ويظهر أن هدف الحرب كان واضحاً لليونانيين، وهو احتلال بلاد العدو، وتدمير قواته، واستعباده. ولكن بلوغ هذا الهدف كان يتطلب القضاء على الجيوش التي كان قد أعدها ملك الفرس (داريوس الثالث الذي حكم بلاده من سنة ٣٣٦ حتى سنة ٣٣٠ ق. م). ولقد حاول داريوس إبعاد الحرب عن بلاده، فدفع جيوشه لقتال اليونانيين عند حدود بلادهم فكانت معركة (الغرانيك في آسيا الصغرى ٣٣٤ ق. م). واستثمر الاسكندر هذا النصر. لينتقل إلى بلاد الشام. حيث وقعت معارك (إيسوس ــ قرب خليج الاسكندرونة سنة ٣٣٣ ق. م). ولم يكن غريباً أن يتوجه الاسكندر نحو ساحل بلاد الشام حتى وصل إلى مصر ــ مستهدفاً عزل الفرس وانتزاع مجال عملهم. حتى إذا ما أعاد داريوس الثالث حشد قوات جديدة في أربيل (كافكامل أو جاوجميلا) توجه الاسكندر بجيشه لقتاله، وانتصر عليه سنة ٣٣١ ق. م. وبذلك أمكن تدمير جيوش الفرس على أرض بلاد الشام والعراق، فاستطاع الاسكندر المقدوني اجتياح بلاد الفرس، بل الوصول حتى حدود الهند. **ويظهر أن كلا من الطرفين المتصارعين كان يحرص على نقل الحرب إلى أبعد ما يمكن من حدود بلاده.** فكانت آسيا الصغرى وبلاد الشام والعراق هي مسرح الأعمال القتالية، فلما تم للاسكندر حسم الصراع والقضاء على جيوش (داريوس) لم يعد هناك ما يعيقه عن اجتياح بلاد خصمه، والوصول إلى عاصمة العدو. وتقدم الحروب القرطاجية ــ الرومانية بعد ذلك الأنموذج الأكثر وضوحاً عن محاولات نقل الحرب ليس بعيداً عن البلاد الصديقة فحسب، بل الوصول إلى قلب بلاد العدو. ففي الحرب اليونانية الأولى (٢٦٤ ــ ٢٤١ ق. م) جرى الاقتتال بين القرطاجيين والرومان في البحر، وعلى تخوم الدولتين (في البحر وصقلية بصورة رئيسة). وجاءت بعد ذلك فترة السلم المسلح (٢٤١ ــ ٢١٩ ق. م) فانصرف كل من الطرفين لإكمال استعداداته بعد أن تبين أن من المحال تجنب الحرب. ووقعت أعباء الحرب على عاتق القائد القرطاجي الشهير هاني بعل الذي صمم على نقل الحرب إلى بلاد الرومان ذاتها. فقام بمسيرته الشاقة (عبر جبال الألب) التي احتلت مكانة مميزة في تاريخ فن الحرب (سنة ٢١٨ ق. م) وضمت هذه المسيرة ٥٠ ألف مقاتل من المشاة و٩ آلاف من الفرسان، إضافة إلى ٣٧ فيلاً.

قد يكون من المناسب معرفة بعض الملامح التي تميزت بها مسيرة الجيش القرطاجي الشاقة، لإبراز ما جابهه هذا الجيش وما اعترضه في نقل الحرب إلى بلاد العدو: «فقد أخذ القرطاجيون في شق طريقهم بصعوبة وسط ممرات الألب الوعرة، وكان ذلك في النصف الثاني من تشرين الأول

---

(٧) الاسكندر الكبير المقدوني (٣٥٦ ــ ٣٢٣ ق. م) مجموعة مشاهير قادة العالم ــ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ــ بيروت ــ ١٩٨٠ ــ ص٥٩.

(أكتوبر) ٢١٨ ق . م . والثلوج تغطي المسالك في طبقات سميكة حتى أنه لم يكن بالمستطاع رؤية معالم الطريق في كثير من الأحيان، وزاد الأمر سوءاً عندما أخذت بعض قبائل الغاليين الجبلية بالتعرض لقوات هاني بعل ومهاجمتها... وكان من الصعب على هاني بعل الحصول على الطعام والمأوى لجيشه الكبير، لكنه سار أمام كتائبه غير هياب ولا وجل، ولم يثن القرطاجيين عن قصدهم برد ولا جوع. وكانت القبائل المعادية تحرس كثيراً من المضائق الجبلية التي كان الجيش القرطاجي مرغماً على المرور منها. فكانوا ينقضون على القرطاجيين من كل فج عميق، ويعملون على سلبهم ما يحملون، مما كان يؤدي إلى حدوث الاضطرابات عند الممرات الضيقة، فتتعثر المواشي والدواب المثقلة بما تحمله من العتاد وتسقط على الأرض، بينما تجرح الخيول بحراب البرابرة الجبليين. فتجمح من شدة الذعر، وتسيخ أقدامها في الأعماق. وبعد مسيرة تسعة أيام، بلغ الجيش القرطاجي قمم الجبال فعسكر فيها يومين، ليتمكن جنده من أخذ قسط من الراحة بعد الصعاب التي تحملوها والمشقات التي تعرضوا لها ولم يكن الجنود القادمون من إفريقية والأندلس، معتادين على العيش وسط الثلوج والصقيع، فأخذ التذمر في الانتشار بينهم، ولكن سرعان ما أيقظ هاني بعل الروح المعنوية في رجاله، عندما أراهم سهل (البو) الغني وأشار إلى أن هذا الوادي هو إيطاليا، وهناك الطريق إلى روما...» [٨].

خسر الجيش القرطاجي في مسيرته نصف قوته تقريباً ولكن ما بقي منه كان كافياً لاحراز النصر الحاسم على الرومان في معركة تراز يمين الشهيرة (بحيرة بيروس حالياً) وغريب **ما في الأمر وهو ما بقي سراً من أسرار التاريخ، ولغزاً غامضاً يحير عقول الباحثين هو أن هاني بعل لم يستثمر انتصاره للانقضاض على روما التي أصبحت محرومة من الدفاع مما أتاح الفرصة لها أن تعيد تنظيم دفاعها وتحشد قدراتها، مع تجنب الصدام** المباشر مع الجيش القرطاجي... واستمر ذلك حتى سنة ٢١٦ ق . م . حيث وقعت معركة كاني الشهيرة، التي انتصر فيها هاني بعل أيضاً. غير أن انتصاره افتقر إلى الحسم لأنه لم يصل إلى عاصمة بلاد عدوه — روما — واستمر الصراع المرير حتى أمسك القائد الروماني (سيبيون الإفريقي) المبادأة، فقرر نقل الحرب إلى إفريقية، ومهاجمة القرطاجيين في بلادهم (٢٠٤ ق . م) مما أرغم هاني بعل على العودة بجيوشه إلى إفريقية للدفاع عن قرطاجة، فلما وقعت معركة (زاما) (سنة ٢٠٢ ق . م) كان ذلك إيذاناً بانتهاء دور قرطاجة وبداية للقضاء عليها. ولئن تأخر استيلاء الرومان على قرطاجة وتدميرها حتى سنة ١٤٦ ق . م فإن معركة زاما التي نقلت القوات الرومانية إلى إفريقية، كانت هي النهاية العملية لوجود دولة قرطاجة.

---

(٨) هاني بعل (القرطاجي) ٢٤٧ — ١٨٣ ق . م (مشاهير قادة العالم) المؤسسة العربية للدراسات والنشر — بيروت — ١٩٨٠ ص٦٨ — ٦٩.

[٢] **الحروب على أرض أوروبا :** عاشت أوروبا حياة الحروب الدائمة على أرض القارة الأوروبية ، من حروب دينية ، إلى حروب أهلية (مثل حرب الوردتين ١٤٥٥ ــ ١٤٨٥) . إلى حروب بين الأسر الحاكمة (أو حروب الملوك) مثل حروب الوراثة الاسبانية أو النمساوية ... إلخ . وقد كانت أشد الحروب ضراوة هي الحروب الفرنسية ــ الإنكليزية . التي برزت من خلالها سياسة بريطانية الواضحة والثابتة لإشغال أوروبا بشؤونها ، ونقل الحروب باستمرار إلى أرض القارة الأوروبية ، وإبعادها عن أرض الجزيرة الإنكليزية وإقامة التوازن على أرض القارة ، بحيث تستطيع إنكلترا أن تدعم أياً من الكتل ــ وغالباً ضد فرنسا ــ لانتزاع مكاسب على حساب الجميع ، وتعود جذور هذه الحرب إلى أزمنة بعيدة لعل من أبرزها وضوحاً الحرب بين (ريتشارد قلب الأسد ١١٥٧ ــ ١١٩٩ م) وملك فرنسا (فيليب الثاني ــ أو فيليب أوغست ١١٦٥ ــ ١٢٢٣ م) فرغم اشتراك الملكين في الحملة الصليبية الثالثة ، إلّا أن ريتشارد قلب الأسد الذي عاد إلى بلاده وتولى الملك سنة ١١٨٩ لم يلبث أن شن الحرب على فرنسا ، واستمر في حربه على أرض فرنسا حتى مات تحت أسوار شالو (سنة ١١٩٩) . لكن الحرب لم تتوقف بموت ريتشارد قلب الأسد . فقد حاول أخوه (جان بلا أرض ١١٦٧ ــ ١٢١٦ م) الاستيلاء على مناطق حكم ابن أخيه في فرنسا (أرتور حاكم بريتانيا * ــ) وعمل على اغتياله (سنة ١٢٠٣) فما كان من ملك فرنسا فيليب أوغست ــ إلّا أن اغتنم الفرصة ، فشكل محكمة قضت بتجريده من حق حكم المناطق الفرنسية (مين ، والنورماندي ، وبريتانيا ... إلخ) . فتحالف جان بلا أرض مع الإمبراطور الألماني ــ الجرماني ــ (أوتون) في محاولة لاستعادة حكم المناطق الفرنسية . ولكن فرنسا هزمت القوات المتحالفة في معركة بوفان (سنة ١٢١٤) مما اضطر جان بلا أرض للعودة إلى إنكلترا وعُدَّ ملكاً لها في الفترة (١١٩٠ ــ ١٢١٦)م .

ولقد عانت فرنسا وشعبها من وقوع الحروب على أراضيها مما حمل الشعب الفرنسي على اختزان الغضب ضد الإنكليز ، والذي تفجر في عهد ملك فرنسا شارل السابع (١٤٠٣ ــ ١٤٠٦) فقد قام الإنكليز باجتياح فرنسا كلها تقريباً ، ولم يحرك ملك فرنسا شارل السابع الذي تولى الملك سنة ١٤٢٢ ساكناً ، حتى أيقظته صيحات جان دارك (بطلة أورليان ١٤١٢ ــ ١٤٣١) . والتي قادت المقاومة ، وتمكنت من رفع الحصار الإنكليزي عن أورليان (سنة ١٤٢٩) . ورغم نجاح الإنكليز في شراء بعض أنصار جان دارك الذين سلموها للإنكليز ، فحاكموها وأعدموها حرقاً . إلّا أن روح المقاومة التي فجرتها جان دارك قد أخذت في التصاعد ،

(*) مقاطعة فرنسية .

وتمكن الفرنسيون من الانتصار على الإنكليز في معركة فورميني سنة ١٤٥٠، ثم انتصروا مرة أخرى في معركة كاستيلون (أو كاستيون) سنة ١٤٥٣، وتم طرد الإنكليز من فرنسا، — باستثناء كاليه — التي بقيت شوكة إنكليزية في جانب فرنسا.

جاءت بعد ذلك حرب الوراثة الاسبانية (١٧٠٠ — ١٧١٣) لتقدم في جملة ما قدمته، الأنموذج المتطور لنقل الحرب إلى البلاد المعادية. فقد انصرفت إنكلترا طوال القرنين السابقين لتوسيع استعمارها فيما وراء البحار، وشاركتها فرنسا واسبانيا في هذا التوسع، غير أن اهتمام فرنسا كان أكبر في بسط نفوذها على القارة الأوروبية. حيث شن ملك فرنسا (لويس الرابع عشر) حرباً طاحنة على الأقاليم المتحدة (هولندا) في الفترة من سنة ١٦٧٢، حتى سنة ١٦٧٨، كما تدخل ملك فرنسا ضد الإمارات الجرمانية (١٦٧٩ — ١٦٨٥م)، وفرض قيوداً على التجارة الإنكليزية، كما فرض قيوداً على تجارة الرقيق مع المستعمرات الاسبانية، وشرعت إنكلترا في التحرك على الاتجاه المضاد. فأقامت حلفاً أوروبياً مناهضاً لفرنسا، لم يلبث أن كبر بصورة طبيعية، فضم النمسا وبعض الإمارات الهولندية والدانمارك والبرتغال، إضافة إلى إنكلترا — ووقفت فرنسا في مواجهة هذا الحلف ومعها اسبانيا وبافاريا وكولونيا ونابولي وسردينيا، ولم يبق بعد ذلك إلّا إيجاد الذريعة لتفجير هذه الحرب، وكانت هذه الذريعة هي الخلاف بين فرنسا وإنكلترا على حق وراثة العرش الاسباني (الذي أصبح شاغراً بوفاة شارل الثاني سنة ١٧٠٠ م) وانفجرت الحرب، ولم يكن مسرح عملياتها في إنكلترا، أو فرنسا، وإنما كان مسرحها في أوروبا، بداية من البلاد المنخفضة: هولندا وبلجيكا، ومروراً بالأراضي الجرمانية، ونهاية بإيطاليا واسبانيا، وقد حددت إنكلترا مسبقاً أهداف الحرب: حمل فرنسا على تقديم تنازلات تجارية لمصلحة هولندا وإنكلترا، وإقامة سد من التحصينات على الحدود الهولندية، وتقديم فرنسا لتنازلات في إيطاليا والأراضي المنخفضة لمصلحة الإمبراطورية الجرمانية المقدسة (النمسا) وأخيراً اعتراف فرنسا بحق الوراثة البروتستانية في إنكلترا. ومن الواضح أن هذه الشروط كانت لدعم مطالب حلفاء إنكلترا في أوروبا — وتوزيع المغانم عليهم على حساب فرنسا — أما المغانم الخاصة بإنكلترا والتي انفردت باكتسابها فهي انتزاع مستعمرات فرنسا فيما وراء البحار (جبل طارق وجزيرة مينورقة وجزيرة سانت كيت ونيوفونلاند وأركاديا وخليج هدسون). وقد نظمت إنكلترا حربها ضد فرنسا في إطار حملات سنوية (حملة إيطاليا — شياري) (سنة ١٧٠١) حملة البلاد المنخفضة وهوشستت(١٧٠٢ و١٧٠٣) حملة الراين والدانوب — معركة بلنهايم (١٧٠٤) حملة راميليه (١٧٠٦) حملة مالبلاكيه (١٧٠٩) وتظهر دراسة مواقع هذه الحملات أن الحرب البرية كانت بعيدة كل البعد عن حدود البلدين المتصارعين (إنكلترا وفرنسا). وكان على البلاد التي وقعت الحرب على أرضها أن تحتمل ويلات الحرب، وما يرافقها من استنزاف للموارد الاقتصادية (الزراعية). وتدمير للممتلكات. مما اضطر فرنسا في النهاية للتسليم بمطالب إنكلترا. والانصراف لبناء التحصينات غلى

حدودها، وكان لهذه الحرب إنعكاساتها على الشعوب الأوروبية التي وجدت أن ما حققته من المغانم لا يتناسب لا مع الجهود التي قدمتها للحرب، ولا مع المغانم التي حققتها إنكلترا من الحرب.

كانت بروسيا من أكثر الأقاليم الأوروبية التي عانت من جراء وقوع الحرب على أراضيها. ففي حرب الثلاثين عاماً (١٦١٨ ــ ١٦٤٨ م) اجتاحت الجيوش الفرنسية والسويدية والداناركية والاسبانية الإمارات الألمانية، وتركت بروسيا في حالة من الدمار الكامل، والفقر المرعب. وجاءت حرب الوراثة الاسبانية، ولما تتمكن بروسيا من التخلص من الآثار المدمرة للحرب السابقة. وقد عاش فريدريك الكبير تجربة هذه الحرب، فقد تم تتويجه ملكاً على بروسيا سنة ١٧٠١م. وكان على بروسيا أن تقدم أبناءها وقوداً لحرب لا علاقة لها بها. مما زاد من نقمة بروسيا على تبعيتها للإمبراطورية الجرمانية المقدسة (النمسا) قدر نقمتها على فرنسا التي اشتركت في كل حرب مدمرة أصابت بروسيا وشعبها، وإذن فقد كان من طبيعة الأمور أن يحاول فريدريك الكبير أن يتحرر من نفوذ (النمسا) وأن يعمل على ضم الإمارات الجرمانية، ويوحد قوتها، حتى لا تبقى مسرحاً للاقتتال في حروب لا تعود على الشعب الجرماني ذاته بالفائدة. وكانت الحروب السليزية (ضد النمسا) وحرب السبع سنوات (١٧٤٠ ــ ١٧٤٥) ثم (١٧٥٦ ــ ١٧٦٣ م) ضد التحالف المناهض لبروسيا، الوسيلة التي حقق بها فريدريك الكبير أهدافه الكاملة. وكان ذلك هو السبيل لإقامة (بروسيا) التي لم تلبث أن اتسعت لتضم كل الإمارات الجرمانية.

أبرزت حروب الثورة الفرنسية والحروب النابوليونية بعدئذٍ كل خصائص نقل الحرب إلى بلاد العدو. فقد أدى انفجار الثورة الفرنسية إلى تحالف كل القوى الأوروبية ضد فرنسا. وقاد نابليون حملته الأولى إلى إيطاليا (سنة ١٧٩٦ ــ ١٧٩٧ م) ليبعد الحرب عن فرنسا، وكان هدف نابليون في حملته:

«ملاحقة العدو وإبادته في المعركة، وقد خرق في هذه الحملة حرمة الأراضي المحايدة، وعاش على حساب الأرض التي اجتاحها، وغطى نفقات الحرب من السلب والغنائم. واستثمر انتصاراته إلى أقصى الحدود بمطاردته لخصمه دونما هوادة ولا شفقة وتسببت هذه الأعمال في صدم معاصريه الذين عدوا نشاطه غير شرعي» (٩).

تعرضت حملة نابليون بونابرت على مصر (١٧٩٩ م) لأبحاث كثيرة عالجت أسبابها، وظروفها وأهدافها. ومن المعروف أن إنكلترا كانت أول وأقوى دولة جابهت الثورة الفرنسية، وكانت بريطانيا تعتمد اعتماداً كبيراً على مستعمراتها في الهند وعلى نفوذها لحماية تجارتها بالتعاون مع الدولة

---

(٩) إدارة الحرب ــ فوللر. ترجمة أكرم ديري ــ دار اليقظة ــ بيروت ــ ١٩٧١ ص٦٠.

العثمانية، ولما لم يكن باستطاعة فرنسا الثورة، وهي في مراحلها الأولى، التعرض لإنكلترا مباشرة، فقد كانت حملة نابليون على مصر هي شن الحرب على (الاقتصاد الإنكليزي)، بنقل الحرب إلى أرض بعيدة عن مسرح العمليات في فرنسا أو حتى أوروبا.

وهذا ما أكده باحث غربي بقوله: «كان نابليون يرى في كفاحه ضد إنكلترا أعماق كل المسائل التي تحرك العالم والأفراد. وبناء على هذا، فقد كانت إنكلترا عدوه الأول، فهو لم يطارد إلّا إنكلترا. ونظراً لأن تجارتها كانت ممثلة في كل مكان، وتحت كل الأشكال، فقد كان مضطراً لمتابعتها في كل مكان.

ومن هذه الأهداف انبعثت فكرته لإقامة إمبراطورية عالمية. وقد تحول الحصار القاري، من سلاح مخصص لتدمير إنكلترا، إلى أداة يتحقق بفضلها تصميم جديد للعالم: مشروع أوروبا الموحدة بالاتفاق» (١٠).

لقد حاول نابليون إقامة الأحلاف ضد إنكلترا، غير أن (الذهب الإنكليزي كان أقوى من مخططاته ومشاريعه ــ كما قال هو). فكانت إنكلترا تحطم كل تحالف يقيمه ضدها. وكان عليه حسم الصراع السياسي بالصراع المسلح، ولم يكن باستطاعته إلّا أن ينقل الحرب إلى الدول التي تقف ضد مشاريعه.

وهذا ما تبرزه مواقع المعارك الشهيرة التي خاضها نابليون ضد خصومه والتي كان من أشهرها معركة مارنغو ــ في إيطاليا ــ أقليم بييمونت، حيث انتصر نابليون على النمسا سنة ١٨٠٠ وبعد ذلك معركة (أولم) ومعركة (أوسترليتز) الشهيرة سنة ١٨٠٥ حيث دار القتال على أرض تشيكوسلوفاكيا (مورافيا) وانتصر نابليون على النمساويين والروس (ولهذا سميت معركة أوسترليتز بمعركة الأباطرة الثلاثة). وجرت معركة يينا على أرض ألمانيا (سنة ١٨٠٦)، وانتصر فيها نابليون على بروسيا. أما معركة فريدلاند، فقد وقعت على أرض ليتوانيا سنة ١٨٠٧ وانتصر فيها نابليون على الجيش الروسي كذلك انتصر فيها نابليون على النمساويين في معركة إيكموهل في بافاريا سنة ١٨٠٩ وسجل انتصاراً آخر على النمساويين في السنة ذاتها في معركة واغرام ــ القريبة من فيينا، ومن المعروف أن نابليون بونابرت قد أعد مشروعاً لغزو إنكلترا غير أن تدمير الأسطول الفرنسي في معركة الطرف الأغر سنة ١٨٠٥ قد حال دون نقله الحرب إلى بلاد عدوه وقد عملت إنكلترا بدورها على منازلة نابليون على أرض أوروبا وبعيداً عن بلادها. فبدأت بإسبانيا، ثم زجت جيوشها مع جيوش الحلفاء في معركة ليبزيغ سنة ١٨١٣ (في إقليم ساكس في ألمانيا) وكذلك في

(١٠) المرجع السابق ص٨١.

معركة واترلو، حيث جرت المعركة على أرض بلجيكا ــ وانتصرت فيها القوات البروسية والروسية على القوات الفرنسية (سنة ١٨١٥) وكانت هذه هي آخر الحروب النابوليونية. يمكن هنا الإشارة إلى أن حملة نابليون على روسيا (سنة ١٨١٢) لم تكن بدورها إلّا حملة لنقل الحرب بعيداً عن فرنسا. وقد جرت وقائع الحرب الفرنسية ــ البروسية سنة ١٨٧٠ في الإطار ذاته. فقد وقعت معركة سيدان (في منطقة الأردين) على تخوم الدولتين المتصارعتين. فلما انتصر الألمان على نابليون الثالث، لم يبق أمام الجيش الألماني إلّا أن يطور مسيرته نحو (باريس)، وسقطت الإمبراطورية الفرنسية الثانية، وتبع ذلك قيام الجمهورية الثانية. فكانت هذه النتيجة مطابقة لأقدم تجارب الحروب، في مجال نقل الاقتتال قدر المستطاع إلى بلاد العدو حيث يستطيع المنتصر تطوير أعماله القتالية لبلوغ هدف الحرب.

٣ **الحروب العالمية**: عندما تفجرت الحرب العالمية الأولى، كانت ألمانيا والنمسا تجدان أنهما في موقع متوسط، بين أعداء يحيطون بهما من كل جانب، فروسيا شرقاً، وفرنسا وبلجيكا وبريطانيا العظمى غرباً، إضافة إلى بلاد الصرب من الجنوب فكان عليهما إبعاد الحرب عن أرض بلادهما قدر المستطاع. وفي الواقع، كان مثل هذا الموقف متوقعاً قبل وقوع الحرب بزمن طويل، وعلى هذا الأساس كان الكونت شليفن، الذي تولى منصب رئيس هيئة أركان حرب الجيش الألماني من سنة ١٨٩١ حتى سنة ١٩٠٦، قد وضع مخططاته على أساس خوض حرب دفاعية في الشرق ــ ضد روسيا ــ بينما تندفع الكتلة الرئيسية من القوات الألمانية بحركة استدارة واسعة حول ميتز عبر اللوكسمبورغ وبلجيكا، حتى تصل إلى غرب باريس ليتابع بعدئذٍ حركة استدارته نحو الشرق، وينقض على مؤخرة الجيوش الفرنسية التي تكون مشتبكة وقوات ألمانية في إقليمي الألزاس واللورين.

مقابل ذلك، أقدم الجنرال جوفر الذي عين قائداً عاماً للجيوش الفرنسية سنة ١٩١١ على تعديل مخططات سلفه التي عرفت باسم (الخطة ١٧)، بما يتناسب مع مزاجه العنيف، وبما يتفق مع هدفه وهو الهجوم، والهجوم فقط، وهو ما عبّر عنه بصورة واضحة في سنة ١٩١٢ بقوله: «نحن مصممون على المسير مباشرة نحو العدو، دون نيات مسبقة، فالهجوم هو وحده الذي يلائم مزاج جنودنا». وأما هدف الهجوم، فهو سحق مركز الخصم، وشل المواصلات الألمانية في اللورين. وهكذا، عندما انفجرت الحرب، شرع الطرفان الأساسيان، الألمان والفرنسيون في التحرك لنقل الحرب إلى بلاد العدو، وبينما كان الجيش الألماني الأول يشق طريقه بصعوبة عبر تحصينات لييج البلجيكية، كان الجيش الفرنسي في الوقت ذاته (يوم ١٤ ــ آب (أغسطس) ١٩١٤) يقوم بعملية اختراق واسعة (أطلق عليها الفرنسيون اسم معركة الحدود) واستمر ذلك حتى يوم ٢٥ ــ آب (أغسطس) ــ وهزم الفرنسيون في كل مكان. وتعرضوا لخسائر كبيرة جداً وصلت حتى ٣٠٠ ألف قتيل وجريح ومفقود. واضطرت القوات الفرنسية للتوقف، أما الألمان فبعد

العمليات الناجحة الأولى التي حققوها، ارتكبوا أخطاء مميتة بسحب بعض الفرق لدعم جبهتهم الشرقية المقابلة لروسيا، وتوقف الهجوم على جبهة الغرب، ولم تلبث الحرب أن تحولت إلى (حرب مواقع وخنادق). ولم ينجح أي من الطرفين في نقل الحرب إلى بلد الطرف الآخر.

لم يكن الموقف، على الجبهة الألمانية الشرقية، بأفضل منه على الجبهة الغربية، فعلى الرغم من الحجم الضخم للجيوش الروسية على هذه الجبهة، تمكنت القوات الألمانية (بقيادة لودندورف) من إنزال خسائر كبيرة بالقوات الروسية، ومنعتها من التقدم داخل الأراضي الألمانية. ودفعت الخسائر الكبيرة القيادة الروسية بطلب عاجل من حلفائها لإعطاء الأفضلية لجبهة القوقاز (القفقاس) لتخفيف الضغط عن القوات الروسية في ٢ كانون الثاني (يناير) ١٩١٥. وهكذا بدأت حملة الدردنيل التي كان هدفها النهائي احتلال استنبول، لكن القوات التركية تمكنت من مقاومة الغزو وإحباطه. وبذلك فشلت هنا أيضاً عملية نقل الحرب إلى قلب بلاد العدو، وتحولت الحرب إلى حرب استنزاف على كل الجبهات وقررت التحولات الناجمة عن هذا الاستنزاف وانعكاساتها على الجبهات الداخلية، إلى انتهاء الحرب بخروج روسيا من الحرب، ثم انهيار ألمانيا.

حدثت في الفترة ما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية تطورات مثيرة في مجال تقانة التسلح، لعل من أبرزها تطور الطائرات والدبابات وكان لذلك دوره الحاسم في دعم إمكانات نقل الحرب إلى بلاد العدو، وهو ما استثمره الألمان حتى أبعد الحدود في اجتياح بولونيا ١ ـــ ١٧ أيلول (سبتمبر) ١٩٣٩، وفي اجتياح هولندا وبلجيكا وفرنسا ١٠ أيار (مايو) حتى ٢٢ حزيران (يونيو) ١٩٤٠، وفي الواقع فقد ظهر ثمة تباين في إدراك ما تقدمه التقانة، في مجال تطوير حرب الحركة، مما يتيح نقل الحرب إلى بلاد العدو واجتياحها بسرعة مذهلة. ولقد كان لدى الحلفاء من الوسائط القتالية الحديثة (الطائرات والدبابات) أكثر مما كان لدى الألمان، وكانت التقانة عندهم تعادل التقانة الألمانية إن لم تكن متفوقة عليها في بعض المجالات. ورغم ذلك، فقد اعتمد الحلفاء على الدفاع الذي تمثل بالتحصينات على الحدود البلجيكية (في لييج ونامور)، وعلى (خط ماجينو) على الحدود الفرنسية الغربية، بينما اعتنق الألمان مبدأ نقل الحرب إلى بلاد العدو والإفادة من تطورات التسلح حتى أبعد الحدود. ولما كانت بريطانيا الدولة الأوروبية الوحيدة التي بقيت مصممة على الاستمرار في الحرب ضد ألمانيا، فقد قررت ألمانيا نقل الحرب إلى الجزيرة الإنكليزية وحشدت أربعين فرقة مقاتلة، وتم وضع مخطط للإنزال يتم بموجبه إنزال ١٣ فرقة في الموجة الأولى و٢٧ فرقة في الموجة الثانية، وعرف هذا المخطط باسم (سيلوفه).

وتقرر التمهيد لعملية الغزو بقصف جوي كثيف. وبدأت القوات الجوية الألمانية هجماتها ابتداءً من يوم ١٠ تموز (يوليو) ١٩٤٠، وتركزت هذه الهجمات على القوافل البحرية البريطانية في إطار خطة للحصار العام. وبعد شهر قام سلاح الجو الألماني بالإغارة على موانىء: بورتلاند

وإيمارث ودوفر وبورتسموث وجزيرة وايث واستمر الهجوم بموجات متعاقبة. ثم قامت مئات الطائرات الألمانية يوم ١٥ تموز (يوليو) بالإغارة على الجنوب الشرقي وعلى الشمال الشرقي من إنكلترا في وقت واحد. وتعرّض سلاح الجو الألماني لخسائر كبيرة. مما أرغم قائد سلاح الجو الألماني إلى توجيه هجمات قواته إلى الطيران البريطاني وحده، وضد مصانع الطائرات. فتم في الفترة من ٢٤ آب (أغسطس) حتى ٣ أيلول (سبتمبر) توجيه ٣٥ هجوماً جوياً، وخسر الطيران الألماني فيها ٦٨٠ طائرة مقابل ٢٨٦ طائرة خسرتها القوات الجوية البريطانية... وعلى الرغم من ذلك لم تتخل ألمانيا عن مشروع الغزو، وتابعت هجماتها الجوية النهارية على لندن، فتم في فترة شهر من ٦ أيلول (سبتمبر) حتى ٥ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٤٠ شن ٣٨ هجوماً جوياً وعد هذا التكتيك الجوي ضد المدن الإنكليزية خطأً كبيراً، لأنه رفع التهديد الجوي عن مطارات القوات الجوية الإنكليزية، مما أتاح لطائراتها أن تواجه الطائرات الألمانية، وتنزل بها خسائر فادحة، حتى أنها قامت بالإغارة على بعض الزوارق الألمانية المحتشدة في خليج — أوستند يوم ١٣ أيلول (سبتمبر). فأعلن قائد البحرية الألماني في اليوم التالي: «بأن حالة القوات الجوية الحالية لا تتيح الشروط الضرورية لتنفيذ العملية» وتبع ذلك تأجيل عملية الغزو (سيلوفه) في يوم ١٧ «إلى تاريخ آخر». ثم أجلت العملية يوم ١٢ تشرين الأول (أكتوبر) «إلى ربيع ١٩٤١» وألغيت بعد ذلك نهائياً.

استمرت الهجمات الجوية الألمانية على إنكلترا؛ وهدفها إخضاع إرادة القتال لشعب تعرض سكانه المدنيون خلال ثلاثة أشهر إلى خسارة (١٤٢٨٠) قتيلاً، و (٢٠٣٢٥) جريحاً، إضافة إلى الخسائر المادية الضخمة إذ قامت الطائرات الألمانية بالإغارات الليلية على لندن، وعلى مراكز الانتاج فيها؛ وخسرت القوات الجوية الألمانية خلال ذلك ١٧٣٣ طائرة مقابل ٩١٥ طائرة بريطانية وحليفة. واستمرت الغارات الجوية حتى شهر نيسان (أبريل) ١٩٤١، حيث تم تتويج هذه الإغارات بهجوم جوي بالقنابل الحارقة على لندن يوم ١٠ أيار (مايو) ١٩٤١. لكن إنكلترا لم تستسلم، ولم تضعف مقاومتها، وتمكنت من إعادة تنظيم جيشها ودعمته بقوة ١٣ فرقة جديدة وكانت قوة كافية لتحطيم موجة الغزو الأولى لو أنها ظهرت (١١).

عمل الحلفاء بعد ذلك على الاتجاه المضاد، ونقلوا الحرب إلى أوروبا، ورافق ذلك ما عرف (بالقصف الاستراتيجي) الذي شمل أهدافاً عسكرية وصناعية، فدمرت مدن بكاملها تقريباً. ولقد حفظ الأوروبيون في ذاكرتهم أهوال الحرب الطاحنة؛ وإذن فلم يكن غريباً أن تعتمد استراتيجيتهم الدفاعية على مبدأ (نقل الحرب إلى بلاد العدو) وإبعادها عن (البلاد الصديقة).

---

(١١) فن الحرب (الجنرال أميل وانتي) ترجمة أكرم ديري؛ المقدم الهيثم الأيوبي — دار القلم — بيروت — لبنان — شباط — فبراير — ١٩٧٣ ص٩٨ — ١٠٠.

استطاعت ألمانيا أن تنقل الحرب إلى أوروبا كلها. وتجاوزت ذلك إلى الشمال الإفريقي (المغرب العربي) وإلى آسيا. ووقع العبء الأكبر ثقلاً على كاهل الاتحاد السوفييتي الذي عرف من أهوال الحرب على أرضه ما لم يعرفه شعب من شعوب الدنيا، فزالت مدن كثيرة من عالم الوجود؛ وتعرّض السكان لأشد أهوال الحرب، وأكثرها قسوة ووحشية، وقد حفظ أدب الحرب السوفييتي أمثلة لا نهاية لها عما عاناه الشعب السوفييتي. وكان مما ذكره القائد السوفييتي جوكوف ــ بهذا الصدد:

«عندما قمت بالتجول في شارع أعرفه جيداً ــ من شوارع كييف ــ هو شارع كريشاتيك، الذي كان يمثل قطاعاً رائعاً من المدينة. لم أتمكن من تعرف أي شيء، فقد كان يحيط بي الحطام والركام حيثما توجهت. هكذا كان منظر مدينتنا القديمة ــ كييف ــ بعد ذهاب الهتلريين». وذكر في موضع آخر ما يلي:

«قضى الشعب في روسيا البيضاء أعواماً ثلاثة تحت نير الاحتلال المعادي؛ عانى خلالها كل صنوف الإرهاب والعذاب، فقد حطم الهتلريون ودمروا منجزات الشعب كلها؛ فخربوا المدن، وأحرقوا مليون ومائتي ألف بناء في القرى، وحولوا ٧ آلاف مدرسة إلى حطام. كما قتلوا أكثر من ٢ر٢ مليوناً من السكان المدنيين ومن الأسرى العسكريين، ولم تنج أسرة واحدة من التعرض بشكل قاس لمآسي الحرب» (١٢).

كان الشعب الألماني يعيش في ترف ولا يتعرض لأي معاناة؛ باستثناء غياب أبنائه في ميادين الحروب والذين ذهبوا ليسجلوا له الانتصارات، ليحملوا إليه أبناء الشعوب المغلوبة (للعمل وتحقيق رغد العيش) ولكن اتساع دائرة الحروب لم تلبث أن استنزفت موارد الشعوب كلها، وأولها الموارد البشرية والاقتصادية، وبدأت عجلة التاريخ في التحرك على الاتجاه المضاد. وكان على الشعب الألماني أن يدفع الثمن، وجاءت جيوش الاتحاد السوفييتي من الشرق، وجيوش الحلفاء من الغرب. واجتاحت ألمانيا، ونقلت الحرب إلى قاعدة العدوان. وعندما استولت قوات الحلفاء على العاصمة (برلين) كانت ألمانيا كلها قد تحولت إلى مجموعات من الانقاض والخرائب.

تميزت التحولات المثيرة، التي برزت خلال الحرب العالمية الثانية، بالتوسع الكبير في نقل الحروب عبر عمليات الإنزال البرمائي المقترنة غالباً بعمليات إنزال جوي. سواء على مسرح أوروبا (النورماندي وجنوب فرنسا بعد شمال إفريقيا وصقليا). أو على مسرح الشرق الأقصى (الفيليبين وسواها)، ولكن مع هذه التحولات ارتفع ثمن الحرب إلى درجة مذهلة، فعمليات النقل البحري،

---

(١٢) مذكرات وآراء (غ. ك. جوكوف) وزارة الدفاع ــ دمشق ــ ١٩٧٢ ص٥٠٢ و ٥٣٩.

وعمليات النقل الجوي باتت تحتاج لموازنات ضخمة وطاقات جبارة (صناعية واقتصادية). وصحيح أن عمليات نقل الحرب عبر الإنزالات البحرية، كانت معروفة منذ أقدم العصور، إلَّا أن التحولات الحديثة جعلت من المحال، إجراء مثل هذه العمليات، إلَّا إذا توافرت قدرات لا تمتلكها عادةً إلَّا دول قليلة في العالم.

تمكنت اليابان من نقل الحرب إلى مساحات كبيرة من الشرق الآسيوي، ووصلت إلى (سنغافورة) بعد اجتياحها للأقاليم الصينية والهندية والكورية وسواها. وكان ثمن الحرب المفروض على هذه الأقاليم باهظاً، وعندما حدثت التحولات، كان على اليابان أن تدفع الثمن وكان الثمن باهظاً أيضاً. وكان من بعضه احتراق (هيروشيما) و (ناغازاكي) بالنار النووية. أليس ذلك برهاناً كافياً لتأكيد خلاصة التجربة التاريخية، من أن نقل الحرب إلى بلاد العدو قد يكون حلاً مرحلياً؛ مرتبطاً بفترة زمنية معينة، ولكنه يترك من النتائج الخطيرة، أكثر مما يتحقق من المكاسب والمغانم.

٤ ثمن الحرب والمغانم: تعتمد رغبة الأطراف المتحاربة في نقل الحرب إلى بلاد العدو؛ على تحقيق مجموعة من الأهداف التي أوجزها الباحثون والمؤرخون والكتاب العسكريون بما يلي:

أولاً: إبعاد شبح الحرب، وأهوالها وويلاتها عن البلاد الصديقة؛ أو عن بلاد الأصدقاء، مما يضمن حماية الموارد البشرية والاقتصادية والصناعية، وهو الأمر الذي يساعد على تطوير الأعمال القتالية، والاستمرار في الحرب لفترات أطول، إذا تطلب الأمر.

ثانياً: وضع قيادات العدو ـــ السياسية والعسكرية ـــ أمام مواقف متتالية تحرمها من حرية العمل السياسي والعسكري، وبالتالي تجريدها من إرادة القتال.

ثالثاً: استنزاف قدرة العدو العسكرية والاقتصادية والبشرية، وتحميل العدو أعباء الحرب، وإرغامه على الخضوع والاستسلام.

رابعاً: الاقتصاد بنفقات الحرب من خلال البحث عن الحسم بسرعة؛ ومن خلال الحصول من بلاد العدو على الموارد التي تدعم الجهد الحربي للدولة التي تنقل الحرب إلى بلاد العدو.

خامساً: تدمير الروح المعنوية للعدو، وإرغامه على قبول الشروط التي تفرض عليه؛ والتي لم يكن ليقبلها لو لم تحتل القوات المعادية بلاده وتستولي على أرضه.

ويظهر أن العامل الاقتصادي يحتل المرتبة الأولى بين مجموعة العوامل المحرضة علي نقل

الحرب إلى بلاد العدو، سواء كان هذا العامل الاقتصادي تعويضات وغرامات ــ كما كان في الأزمنة القديمة ــ أو كان بالحصول على مكاسب جغرافية أو سياسية.

ولكن هل يمكن تحقيق هذه الأهداف، بنقل الحرب إلى بلاد العدو ــ بصورة أكيدة؟ قد يتحقق ذلك لفترات زمنية قصيرة ــ وهذا ما أكدته التجارب التاريخية ــ غير أن الشعوب المقهورة بقوة السلاح، قد تغتنم أول فرصة للتحرر من سيطرة العدو؛ ثم تتحول لتغريم العدو ما كان قد كسبه.

وقد ينجح أحد الأطراف المحاربة بنقل الحرب إلى بلاد العدو، في فترة من عدم التوازن في التسلح أو في موازين القوى، لكن ذلك لا يعني نهاية سعيدة للحرب. فقد نقل نابليون بونابرت الحرب إلى بلاد روسيا (سنة ١٨١٢) ووصل إلى أبواب موسكو. لكنه لم يتمكن من إرغام الشعب الروسي على الخضوع؛ ولم يتحقق أمله بتقدم وفد عن الحكومة يقدم له مفاتيح أبواب عاصمة روسيا على طبق من ذهب (مثل ما كان يفعل الأقدمون). واضطر نابليون في النهاية للخروج من روسيا مدحوراً وقد خسر (جيشه الكبير). وتكررت هذه التجربة في الحرب العالمية الثانية. كذلك فقد تعرضت بريطانيا لقصف عنيف طوال فترة غير قصيرة؛ غير أن ألمانيا عجزت عن إضعاف إرادة القتال لدى القيادة البريطانية؛ وبقي الشعب الإنكليزي مصمماً على متابعة الحرب حتى النهاية ــ بانتزاع النصر ــ وقد تحقق له ذلك.

لقد جاءت تطورات التقانة الحديثة لتجعل من الصعب تجنب ويلات الحرب عن طريق نقل الحرب إلى بلاد العدو. فالقوات الجوية والأسلحة الصاروخية تستطيع بلوغ أهدافها السياسية والعسكرية والاقتصادية. ويتزايد هذا الخطر بإمكان اللجوء إلى أسلحة التدمير الشامل. ويظهر أن بريق الانتصارات العسكرية من جهة والخوف من الدمار، قد زاد رغبة الدول العظمى في نقل الحرب إلى مسارح العمليات في بلاد العدو. ولم تكن فكرة (حرب النجوم ــ أو مشروع حرب الكواكب) إلَّا محاولة لدعم الدفاع عن البلاد الصديقة ــ أو الحليفة ــ. ولنقل الحرب إلى بلاد العدو بأسرع ما يمكن؛ وبأقوى قدرة تدميرية ممكنة. وقد حققت الدولتان العظميان تطوراً كبيراً في مجال امتلاك هذه القدرة لنقل الحرب إلى بلاد العدو. ولكن وبالمقدار ذاته، تزايدت الرغبة في تجنب اللجوء إلى هذا الخيار الصعب ــ خيار نقل الحرب إلى بلاد العدو ــ إذ أن إمكان التدمير المتبادل قد تجاوز حدود ما يمكن احتماله من ويلات الحرب وكوارثها. مما دفع بالتالي إلى السير على الاتجاهين معاً: اتجاه تطوير قدرة الأقمار الصناعية والمركبات الفضائية في إطار مشروع حرب الكواكب. واتجاه البحث عن تخفيض أسلحة التدمير الشامل عبر اتفاقات متتالية، بحيث يمكن في النهاية القضاء على هذا الخطر المدمر (خيار الصفر).

عودة إلى بداية البحث؛ إن التصميم على نقل الحرب إلى بلاد العدو؛ هو تصميم مرتبط

بالحرب ذاتها، وبطبيعتها، وإمكان تطورها. إذاً فالتخلي عن هذا التصميم، مرتبط بدوره بالتخلي عن انتهاج سياسة الحرب ذاتها. ومن هنا يظهر المأزق الإسرائيلي تجاه السلام. فقد أقامت الصهيونية والدول صاحبة المشروع الصهيوني والمستثمرة له، الكيان الإسرائيلي على قاعدة الحرب والعدوان وجاءت التطبيقات الإسرائيلية ونظرياتها لنقل الحرب إلى البلاد العربية؛ تنفيذاً لتلك السياسة العسكرية العدوانية والتوسعية. وقد أبرزت (حرب ١٩٦٧) وما تبعها من تطورات أن الشعب العربي الفلسطيني؛ والشعب العربي في الأقاليم المجاورة، لم يستسلم للرغبة الإسرائيلية؛ ولم يحمل المفاتيح الذهبية للقيادة الإسرائيلية؛ وكان موقف العرب من إسرائيل مطابقاً تماماً لموقف الشعب الروسي من غزو نابليون وجيشه الكبير. وقد مضت سنوات وعقود من عمر الزمن؛ ولما تتعلم إسرائيل شيئاً لا من تجربتها الذاتية؛ ولا من التجارب التاريخية؛ بأن أمنها لا يرتبط بنقل الحرب إلى البلاد العربية؛ ولا بالقضاء على الوجود العربي الفلسطيني؛ وإنما بالتخلي عن سياستها العدوانية التوسعية؛ وأن نقل الحرب إلى البلاد العربية لن يحقق لها السلام والأمن حتى لو تمكنت من تحقيق توسع في حدودها ـــ أو خارطتها الجغرافية ـــ لفترة مؤقتة. وذلك هو الخيار الصعب الذي تقف أمامه إسرائيل وتجابهه. والذي سيتحدد بشكل أوضح مع تطورات المستقبل.

٥ ــ الاستراتيجيات القارية ــ البحرية

[١] حروب العالم القديم: شغلت مسألة الحروب بين القوى المتصارعة للسيطرة على العالم، تفكير المؤرخين والباحثين منذ أقدم العصور وحتى اليوم. وكان المؤرخ العربي المسلم ــ ابن خلدون ــ في طليعة المؤرخين العالميين الذين حاولوا وضع أسس تحرك المجتمعات الإنسانية وأسباب انتصاراتها في الحروب، وعوامل هزائمها وزوالها. كذلك فعل المؤرخ البريطاني (توينبي) الذي حاول بدوره تفسير أحداث التاريخ تفسيراً مقبولاً في بعض جنباته، والمهم في الأمر هو أن معظم المحاولات تتركز على تحديد العوامل ــ ومنها عامل البيئة الجغرافية والبيئة السكانية والمناخية... إلخ. ومدى تأثيرها على المجتمعات، فتدفع بعضها للتفوق في الحروب ــ وإقامة الإمبراطوريات العالمية؛ فيما تحرم بعضها الآخر من فرص التفوق ومن عوامل السيطرة. وقد يكون من المثير حقاً أن الصراع للحصول على السيطرة العالمية قد تركز منذ القدم ــ بين قوتين رئيسيتين أو أساسيتين إحداهما بحرية والثانية قارية. وكان النصر على الأغلب للقوة التي تركز جهدها على بناء القدرة البحرية ــ بحكم تكونها البحري بصورة طبيعية ــ واستخدام هذه القدرة هجومياً لتحقيق السيادة العالمية. هكذا كان شأن اليونان والرومان في العالم القديم: وهكذا كان شأن إنكلترا، وكذلك هو شأن الولايات المتحدة الأمريكية.

قد يكون من غير الصعب ولا العسير تجاوز تلك المراحل الموغلة في القدم، والتي أدت إلى تشكل ما يمكن تسميته بالدول العظمى؛ مثل دولة الفراعنة في مصر ودولة البابليين والأشوريين في بلاد الرافدين ودولة الصين في جوف آسيا. فالحروب التي أدت إلى تشكل هذه الدول هي حروب تفتقر إلى المعلومات الدقيقة والصحيحة. ولقد تميز العرب عن سائر شعوب الدنيا بحفظهم للتاريخ، وبتسجيلهم لأحداث حروبهم في قصصهم وأشعارهم (أو ما يسمى بأدب الحرب) ورغم ذلك فإن ما أمكن معرفته لا يتجاوز النذر اليسير من المعرفة بأسباب تلك الحروب والقوى المشتركة فيها، ونتائجها. ومسيرة الأعمال القتالية فيها... إلخ. كذلك لولا تلك المنحوتات القليلة على (المسلات) وعلى جدران المعابد والأهرامات، لما وصل إلى الأزمنة الحديثة شيء عن تلك الحروب

التي خاضها ملوك الفراعنة مع أعدائهم من الفرس وسواهم . وإذن فبالمستطاع تجاوز تلك الحروب التي يمكن وصفها بالحروب الأهلية أو الداخلية والتي أدت إلى تشكل تلك الدول العظمى . سواء منها القارية مثل مصر وبابل والفرس والصين أو البحرية مثل فينيقيا (قرطاجة) أو اسبارطة أو اليونان ثم الرومان . مع العلم أن هذا التحديد للدول القارية أو البحرية ، غير دقيق تماماً ، فقد كان لمصر بحارها (البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط) . وكان لبلاد الفرس بحارها الجنوبية (المحيط الهندي) . كذلك كان للدول البحرية أقاليمها القارية ، فاليونان ومقدونيا وإيطاليا محيطها القاري (البري) . وبالإضافة إلى ذلك ؛ فقد كانت حروب تلك الإمبراطوريات ، ومعاركها الحاسمة ؛ حروباً قارية ــ برية ــ على الأغلب . والمقصود بالتالي من التمييز بين الدول القارية والدول البحرية هو الاعتماد وبالدرجة الأولى على الاستراتيجية البحرية وعلى القدرة البحرية وعلى الموقع الجغرافي البحري أو ما يقابلها من محيط قاري . ومن الملاحظ أن هذا التمييز يبدو أكثر وضوحاً في الأزمنة الحديثة ، فالاتحاد السوفييتي دولة قارية رغم انتشار أساطيله في معظم بحار العالم ومحيطاته . بينما تعتبر الولايات المتحدة الأمريكية دولة بحرية رغم اتساع قارتها ما بين المحيطين : الأطلسي والهادي .

لعل الصراع اليوناني الفارسي : هو أول صراع ظهرت معالمه الواضحة في الحروب القارية ــ البحرية القديمة . فاليونان كما هو معروف تمتد بسواحلها على طول ألفي كيلو متر تقريباً ؛ وتزدحم الجزر في بحر إيجه والبحر الأيوني ؛ شأن الحجارة التي تسهل عبور المخاضة في جدول مائي ــ وهكذا الإغريقيون بطبيعة تكونهم بحارة وتجاراً . وقد جابهت بلاد الإغريق منذ نشأتها مطامع الفرس في بحر إيجه . فنتج عن ذلك ما عرف باسم (الحروب الميدية) [١] . وبدأت هذه الحرب عندما أرسل (سرخس الأول) [٢] جيشه لمحاربة الإغريق ، وفتح بلادهم . فتصدى القائد اليوناني

---

(١) الحروب الميدية : (Guerre-Médique) هي مجموعة الحروب التي تفجرت بين اليونان والفرس في القرن الخامس قبل الميلاد . وبدأت الحرب الميدية الأولى سنة ٤٩٠ ق . م . وانتهت بهزيمة الفرس في ماراتون Marathon . أما الحرب الثانية فقد بدأت سنة ٤٨٠ ق . م وكان انتصار اليونان في معركة سالامين Salamine البحرية ومعركتي بلاتيه Platées وميكال Mycale من أشهر معارك هذه الحرب وحصل الإغريق على انتصار مزدوج سنة ٤٦٨ ق . م عندما هزموا الفرس في معركة برية ثم في معركة Eurymédon البحرية . وتفجرت الحرب الميدية الثالثة سنة ٤٥٠ ق . م . واضطر الفرس للقبول بمعاهدة سلم سيمون Paix-Cimon التي اشترطت عدم تقدم جيوش الفرس من آسيا الصغرى ، وبعدم إرسال أسطولهم إلى مياه بحر إيجه .

(٢) سرخس الأول : (Xérxés I) حكم بلاد الفرس في الفترة ٤٨٦ ــ ٤٦٥ ق . م وهو ابن دارا (أو داريوس الأول Darius-I) الذي كان قد حكم من سنة ٥٢١ حتى سنة ٤٨٦ ق . م واحتل تراقيا ومقدونيا ، وهزم في معركة ماراتون .

(ثيميستوكل) [٣] للغزو، ونصح مواطنيه بتوجيه كل نشاطهم الحربي نحو البحر لهزيمة أعدائهم الفرس. ونظم أسطولاً من مائتي سفينة من السفن التي عرفت باسم (الغراب) فأمكن الانتصار في معركة سالامين البحرية سنة ٤٨٠ ق. م. فكان هذا الانتصار دعماً لذاك الانتصار الذي كان قد حققه القائد (ميليتياد) [٤] على قوات الفرس في معركة (ماراتون) سنة ٤٨٩ ق. م. فقد عمل الفرس على إنزال قواتهم؛ وحشدوها في سهل ماراتون الواقع على بعد ثلاثين كيلو متراً تقريباً من أثينا. فدفعت أثينا عشرات الألوف من رجالها إلى منطقة الإنزال. ونجح ميليتياد في تطويق الفرس من الجناحين، ودمرهم. وكان انتصار اليونان البحري، مقدمة لانتصارات متتالية أدت إلى إرغام الفرس على التخلي عن مطامعهم التوسعية، والامتناع عن إرسال قواتهم إلى الأناضول (آسيا الصغرى) أو إرسال أسطولهم إلى مياه بحر إيجه. ولم يكن حرمان الفرس من حرية عملهم في البحر إلّا مقدمة لإزالة الخطر عن بلاد الإغريق. ومن ثم حصولها على حرية العمل الكاملة في البحر مما مهد لفتوحات القائد المقدوني الشهير (الاسكندر) الذي قرر أن يضع حداً نهائياً لمطامع الفرس؛ باحتلال بلادهم؛ والانتقام منهم. فقاد جيشه؛ وانتصر على الفرس في ثلاث معارك كبيرة (الغرافيك سنة ٣٣٤ ق. م) و (إيسوس سنة ٣٣٣ ق. م) وأربيل (أو كافكامل سنة ٣٣١ ق. م). وتجدر الإشارة إلى أن الاسكندر المقدوني لم يندفع من فوره؛ وبعد انتصاره في معركة إيسوس، نحو الداخل، لكي ينقض على خصمه دارا (داريوس) المنهزم بل أراد استثمار عدم امتلاك داريوس لأسطول بحري، أن يضمن سلامة مؤخرة جيشه بالاستيلاء على الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط، فيتمكن بذلك من حرمان خصمه الفارسي من كل فرصة للوصول إلى البحر. كما أنه لم يندفع عقب معركة (غوغامل) لمطاردة داريوس، إلّا بعد أن احتل العواصم الكبرى مثل بابل وسوز وبيزار غادس وبيرسيمبوليس (شيراز حالياً) ثم نظم قواعده وانطلق منها نحو الشرق. فشكل (الاسكندر المقدوني) أول إمبراطورية عالمية؛ غير أن هذه الإمبراطورية المترامية الأطراف ــ ما بين أقاصي الهند واليونان تمزقت فور موت الاسكندر إلى أربع دول [٥] عاشت لبعض الوقت، غير أنها

---

(٣) ثيميستوكل: (Themistocle): قائد حربي ورجل دولة أثيني. عاش في الفترة (٥٢٥ ــ ٤٦٠ ق. م) ويعود له الفضل في توجيه الجهد الحربي لبلاده نحو البحر.

(٤) ميليتياد: (Militi ade) قائد أثيني، انتصر على الفرس في معركة ماراتون.

(٥) عندما توفي الاسكندر المقدوني، تشكلت في موطن الاسكندر ــ مقدونيا ــ دولة حملت اسم الانتيغونية، بينما تشكلت في مصر دولة البطالمة (نسبة إلى أول ملك أسسها وهو بطليموس Ptolémée) وهناك ١٦ ملكاً من هذه السلالة يحملون اسم بطليموس. أما في سورية فقد تشكلت الدولة السلوقية نسبة إلى اسم أول ملك فيها وهو سلوقس Seleucos، وهناك ستة ملوك من هذه السلالة الحاكمة حملوا اسم سلوقس. أما الدولة الرابعة فهي بلاد الفرس التي استعادت استقلالها.

لم تلبث أن خضعت للدولة الرومانية التي كانت تشق طريقها بدورها لتشكيل إمبراطوريتها العالمية.

كانت دولة قرطاجة قد برزت للوجود منذ القرن السابع قبل الميلاد، وانطلقت من مدينة صور الفينيقية، ثم أقامت قاعدتها في قرطاجة (قرب تؤنس) وفي صقليا، كما في الأندلس، وكانت سفنها تعبر المحيط لتصل إلى إنكلترا. وكانت هذه الدولة بحرية بالدرجة الأولى، وتجارية؛ وكان اهتمامها ببناء القدرة العسكرية البحرية مرتبطاً بالتحديات التي كانت تجابهها في تجارتها. وكانت روما هي أول دولة تصدت لقرطاجة، فأخذ هذا الصراع شكل مجموعة من الحروب عرفت باسم (الحروب البونية) (٦) وكانت صراعاً بين دولة بحرية، وبين دولة تقع مستعمراتها على البحر غير أنها ليست دولة بحرية (هي قرطاجنة ــ أو قرطاجة). وكان لدى قرطاجة سنة ٢٥٦ ق.م أسطول حربيضخم ضم ٣٥٥ سفينة حربية كبيرة. فكان هذا الأسطول يمتلك القدرة لحمل ١٥٠ ألف محارب؛ أي بمعدل ٣٠٠ مجذف أو بحار و ١٠٠ جندي محارب في كل سفينة من ذوات الخمسة صفوف من المجاذيف. ومما لا شك فيه أن قرطاجة كانت تستخدم المرتزقة والمأجورين من غير مواطنيها لحشد مثل هذا العدد الضخم من المحاربين ــ علاوة على استخدام الرقيق. وكان الرومانيون يجهلون في البدء كل شيء عن شؤون الحرب في البحار. ولهذا طلبوا من صناعهم في حربهم الأولى ضد قرطاجة أن يقلدوا صناعة مركب كبير من مراكب الأعداء كان قد وقع في أيديهم واستطاعوا إيجاد حل مؤقت لمعالجة سوء خبرتهم البحرية وهو صنع سفن خفيفة وسهلة القيادة. كما ابتكروا (الخطاطيف) وهي كلاليب كبيرة يمكن لها تشكيل جسور طولها ثمانية أمتار تقريباً. فكانت السفن الرومانية لدى اقترابها من مراكب العدو، تلقي عليها هذه الجسور الخشبية؛ وتجمد سفن العدو بسقوط الجسور عليها؛ فيستخدمها الجنود الرومان للعبور وللوصول إلى العدو وقتاله على متن سفنه. وكان لدى الرومان ١٣٠ مركباً من هذه السفن عندما خاضوا معركتهم ضد ٢٦٠ سفينة قرطاجية؛ في مياه جزر ليباري مقابل ميليا (بالقرب من صقلية) سنة ٢٦٠ ق.م. وانتصر الرومان على القرطاجيين؛ في أول معركة بحرية. غير أن التفوق البحري الكبير بقي في مصلحة القرطاجيين الذين أفادوا من هذا التفوق لتوجيه تهديداتهم إلى السواحل الإيطالية. مع القيام بنهب المدن الرومانية أو الحليفة لروما؛ وإثارة الرعب في قلوب سكانها. وتعرض الرومان

---

(٦) الحروب البونية: (Guerres-Puniques) هي مجموعة الحروب التي خاضتها روما ضد قرطاجة وانتهت بانتصار الإمبراطورية الرومانية وهزيمة قرطاجة وتدميرها. وشغلت الحرب البونية الأولى الفترة (٢٦٤ ــ ٢٤١ ق.م) وانتهت بانتصار روما واستيلائها على صقلية ثم الحرب البونية الثانية (٢١٨ ــ ٢٠٢ ق.م) وانتهت بانتصارات هاني بعل الذي نجح في تدمير جيش روما. وأخيراً الحرب البونية الثالثة (١٤٩ ــ ١٤٦ ق.م) وانتصرت فيها روما على قرطاجة. وتم تدمير قرطاجة. وانظر: هاني بال ــ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ــ بيروت ــ ١٩٨٠.

لخسائر كبيرة في البحر قبل أن يتمكنوا من بناء قدرة بحرية كافية، حيث أمكن لهم بعد ذلك إحراز بعض الانتصارات الحربية على القرطاجيين؛ قرب سواحل صقلية بين سنة ٢٦٠ و ٢٥٧ ق. م. ولكن هذه الانتصارات لم تحسم الصراع، فقرر حكام روما نقل الحرب إلى إفريقية، ومهاجمة قرطاجة في عقر دارها، وأعدوا لهذه الغاية أسطولاً من ٣٣٠ سفينة حربية. والتقى هذا الأسطول بعد انطلاقه من صقلية بالأسطول القرطاجي الذي ضم ٣٥٠ سفينة حربية. وتمكن الرومان من تمزيق الأسطول القرطاجي وإغراق عدد من سفنه ـ بعد استعمال الخطاطيف ـ. واستولى الرومان على ٩٥ سفينة قرطاجية مع ملاحيها. وتابعوا مسيرتهم بعد ذلك نحو إفريقية. حيث دارت معارك كثيرة خلال سنتي ٢٥٦ ـ ٢٥٤ ق. م. انتهت بتمزيق الجيش الروماني، وإرغامه على العودة إلى إيطاليا. فتم سحب بقاياه باستخدام الأسطول الذي ضم يومها ٣٣٥ سفينة. لكن هذا الأسطول جابه عند وصوله إلى صقلية عاصفة شديدة حطمت عدداً كبيراً من سفنه. فاستعادت قرطاجة بذلك سيادتها البحرية، وأرسلت دعمها وإمداداتها إلى حامياتها في صقلية، واستعادت السيطرة على مدينتي (أغريغنتوم وليليبابوم). وأعاد الرومان تنظيم قواتهم، ووجهوا قوة من مائتي سفينة فاستولوا ٢٥٤ ق. م على مدينة بانهورموس (في صقلية). ووجهت روما أسطولاً من مائتي سفينة للاستيلاء على مدينة (ليلبيايوم) سنة ٢٥٠ ق. م. ولكن الأسطول القرطاجي المتفوق تمكن من شل حركة الأسطول الروماني. فعملت روما على تشكيل أسطول حربي جديد، صنعت سفنه على شكل مراكب أسطول قرطاجة. فتمكن هذا الأسطول من الاستيلاء على مدينة (دريبانوم) سنة ٢٤٩ ق. م. بصورة مباغتة، أذهلت القرطاجيين الذين لم يكونوا يتوقعون مثل هذا الهجوم. غير أن الأسطول القرطاجي تحرك بسرعة، وسار بسفنه نحو المرفأ الثاني. فتوجهت السفن الرومانية لمطاردته. ولكنها ارتطمت بالصخور المغمورة بالمياه، فحاصرها القرطاجيون؛ وأغرقوها؛ وأسروا رجالها. وقرر مجلس الشيوخ الروماني تقليص عدد سفن الأسطول، بعد هذه الكوارث البحرية المتتالية؛ وحدد عددها بستين سفينة فقط، كما حدد مهمتها بالدفاع عن السواحل الإيطالية. ولكن استمرار الحرب دفع روما لتغيير قرارها، وتبرع الأغنياء والتجار لبناء وتجهيز مائتي سفينة جديدة ذات مجاذيف على خمسة صفوف مماثلة للمراكب القرطاجية في قدرتها. وتوجه هذا الأسطول سنة ٢٤١ ق. م إلى (دريبانوم) وهاجمها بصورة مباغتة. وعندما اقترب الأسطول القرطاجي من ميناء المدينة، باغته الأسطول الروماني بالهجوم، وأغرقوا له خمسين سفينة، واستولوا على مائة وسبعين سفينة أخرى كانت محملة بالأرزاق والعتاد على متنها عشرة آلاف رجل. فاستطاعت روما بذلك احتلال صقلية؛ وإخراج القرطاجيين منها. وساعدت هذه الانتصارات على تطوير الصراع في البر والبحر. ولقد تمكن القائد القرطاجي (هاني بعل) بعد ذلك من تحقيق عدد من الانتصارات الحاسمة على روما. غير أن هذه الانتصارات لم تتمكن من وضع

نهاية للصراع الذي كان لا بد له من أن يستمر حتى القضاء على أحد الطرفين. وتمكن الرومان في النهاية من إحراز النصر النهائي؛ وإزالة قرطاجة من الوجود.

٢ التجربة البريطانية الفرنسية: لم يكن لإنكلترا؛ ولا لفرنسا؛ ثقلهما الدولي في العصور الوسطى؛ ولم تكونا في عداد الإمبراطوريات العالمية. ورغم ذلك كانت الحروب بينهما ولم تكن فترات الهدنة التي فرضتها الكنيسة على دولتي إنكلترا وفرنسا للتفرغ للحروب الصليبية إلَّا فترات مؤقتة ومحدودة. وقد كشفت المصادر التاريخية ما كان بين ملوك الدولتين من عداء دفين حتى عندما اشتركتا في توجيه حملة صليبية واحدة (ريتشار قلب الأسد وفيليب أوغست في الحملة الصليبية الثالثة ١١٨٩ ــ ١١٩٢ م) حيث ظهر العداء واضحاً بين ملكي إنكلترا وفرنسا. ولم تكن قصة بطولة (جان دارك ١٤١٢ ــ ١٤٣١ م) إلَّا رمزاً لذاك الصراع الدموي بين دولة بحرية (إنكلترا) ودولة قارية (فرنسا). إذ على الرغم من إطلالة فرنسا على البحر الأبيض المتوسط جنوباً؛ وعلى المحيط الأطلسي غرباً (علاوة على بحر المانش شمالاً) فإنها بقيت في استراتيجيتها دولة قارية (وتجربة حروب الثورة الفرنسية والحروب النابوليونية أفضل نموذج لتأكيد هذه الحقيقة). فيما بقيت الاستراتيجية البريطانية استراتيجية بحرية (وأفضل نموذج لذلك أيضاً معركة أبي قير ١٧٩٩ وموقعة الطرف الأغر ١٨٠٥ في إطار الحروب النابولونية ذاتها). ولا بد من أن يضاف إلى ذلك مجموعة الحروب ما بين القرنين الثالث عشر والسابع عشر؛ والتي كانت تنصرف فيها فرنسا بكل جهدها لحروب القارة الأوروبية بينما كانت تتوجه إنكلترا بجهدها نحو عالم ما وراء البحار. غير أن الصراع القاري ــ البحري لم يأخذ أشكاله الواضحة بينهما إلَّا مع تفجر الثورة الصناعية التي قدمت لحروب التوسع الاستعمارية ما تحتاجه من قدرة لغزو المحيطات والبحار. **وكان البحر الأبيض المتوسط؛ وباستمرار؛ هو مركز الثقل، ومركز التوازن، للقدرة البحرية بسبب موقعه الفاصل والواصل بين قارات العالم القديم الثلاث (أوروبا وإفريقيا وآسيا) علاوه على خوانقه البحرية ومحاور اتصاله (البحر الأحمر والبحر الأسود).** عندما أظهرت بريطانيا للمرة الأولى اهتمامها بالبحر الأبيض المتوسط، كان الموقف مختلفاً كل الاختلاف عما هو عليه اليوم. ففي بداية القرن السابع عشر كانت اسبانيا تهيمن على النصف الغربي من البحر الأبيض المتوسط؛ وكانت ممتلكاتها تضم جزر الباليار وسردينيا وميلانو وصقلية (بشطريها التي كانت تحمل اسم جزيرة صقلية ومملكة نابولي). وإلى جانب ذلك كان لاسبانيا نفوذ على جمهورية جنوه القوية. وكانت مالطة قاعدة لحماية المصالح الاسبانية. وكانت مالطة قد أعطيت إلى فرسان سانت جون (فرسان الاسبتارية) من قبل إمبراطور هابسبورغ (شارل الخامس) في سنة ١٥٣٠ م. وذلك بعد أن أخرجهم الأتراك العثمانيون من جزيرة رودس. وكانت هذه الجبهة المسيحية تقف ضد الجبهة الإسلامية في تلك الفترة. ومقابل ذلك؛ كان الأتراك يهيمنون على

النصف الشرقي من البحر الأبيض المتوسط، ولم يكن يتحدى هيمنتهم إلّا دولة البندقية (فينيسيا) التي وصلت أنذاك أوج عظمتها وقوتها. فكان الأتراك يحتلون القسم الشمالي من إفريقية (المغرب والجزائر وتونس وليبيا) وكان بحارة هذه الأقاليم يهاجمون البواخر التجارية الأوروبية المحملة ببضائع الشرق الثمينة، ويستولون عليها ويأسرون بحارتها. فعملت بريطانيا على تنظيم أول حملة في محاولة لانتزاع السيطرة من قبضة الأتراك المسلمين ودعم الجبهة الصليبية. ووجهت هذه الحملة سنة ١٦٢٠ ـــ ١٦٢١ م. غير أن البحرية الجزائرية دمرت هذه الحملة (التي تولى قيادتها الأميرال سيرروبرت مانسيل). وشعرت اسبانيا بالفرح لفشل الحملة البريطانية؛ إذ كانت تجد فيها منافساً لها في منطقة اعتبرتها خاصة بها. وفي الوقت ذاته؛ كانت فرنسا قد بدأت بتحدي السيادة البحرية الاسبانية؛ فأعادت تنظيم بحريتها سنة ١٦٢٦ م. وشيدت قاعدة بحرية في طولون (في البحر الأبيض المتوسط). ولم تلبث أن اشتبكت في صراع بحري مع اسبانيا، كان من أهم أحداثه هزيمة الأسطول الاسباني سنة ١٦٤٣ في البحر الأبيض المتوسط. ولم تكن نتائج الصراع حاسمة على كل حال، غير أنها أدت إلى إضعاف البحريتين الاسبانية والفرنسية؛ فيما كانت بريطانيا تتابع تطوير بحريتها، والتي يعود الفضل الأول في تنظيمها ودعمها للملك شارل الأول؛ الذي وضع هدفه الأول في بناء بحرية متفوقة على البحرية الفرنسية والبحرية الاسبانية، فأمر ببناء قطعة بحرية من ثلاث طبقات زنتها ١٥٠٠ طن؛ ويضم تسليحها ١٠٢ مدفع؛ وفي العام ١٦٣٨ بدأ العمل في بناء أول قطعة بحرية من ثلاث طبقات (حملت اسم سيدة البحار). وجابهت كل الدول البحرية التطورات البريطانية بالعداء ـــ وكانت هولندا ـــ في طليعة هذه الدول. نظراً لما فرضته بريطانيا من قيود على التجارة الهولندية، وعلى الأسطول الهولاندي وانفجرت الحرب سنة ١٦٥٠. وانتهت سنة ١٦٥٣ بخضوع هولندا للشروط البريطانية. أما فرنسا واسبانيا فوصلتا في حربهما لمرحلة الاستنزاف مما دفعهما للمنافسة في طلب رضى بريطانيا التي طلبت منحها حرية التجارة في جزر الهند الغربية، وضمان الحصانة بعدم التعرض للسفن التجارية البريطانية وعدم تفتيشها من جانب السفن الاسبانية ودعمت بريطانيا طلبها هذا بإرسال قوة بحرية من ١٤ سفينة إلى جزر الهند الغربية. وبذلك أصبحت سيادة بريطانيا على البحر الأبيض المتوسط ثابتة وقوية. وكان ظهور البحرية البريطانية بمثل هذه القوة صدمة لفرنسا التي وجهت أسطوليها (أسطول بريست وأسطول طولون) لحرمان بريطانيا من فرض هيمنتها على نابولي وجنوه، ونظم الأسطول البريطاني سفنه عند المضائق لتدمير الأسطول الفرنسي، ولكن الأسطول الفرنسي فضل العودة إلى قواعده دون قتال. وعمل الأسطول البريطاني على قصف تونس (سنة ١٦٥٥) وإحراقها، وفرض شروط على الجزائر وليبيا ـــ منها إطلاق سراح الأسرى الصليبيين ـــ...

أعلنت اسبانيا الحرب على إنكلترا في ربيع سنة ١٦٥٦ م. بسبب استياء ملكها (فيليب

الرابع) من وقاحة الإنكليز واستغلال أسطولهم وبحارتهم للضيافة الاسبانية استغلالاً سيئاً؛ واستيلاء السفن البريطانية على جزيرة (جامايكا) التي كانت من الممتلكات الاسبانية. فوجهت بريطانيا أسطولاً من ٤٥ سفينة نحو قادس؛ بهدف الاستيلاء على الأسطول الاسباني الذي كان ينقل الكنوز من مستعمرات العالم الجديد إلى اسبانيا، فقام الأسطول البريطاني بمحاصرة (قادس) لمدة ستة أشهر، وتمكن من الاستيلاء على سفينتين اسبانيتين (تجاريتين وحربيتين في آن واحد، من النوع الذي كان معروفاً باسم الغليون) قادمتين من (البيرو) حاملتين ما قيمته ثلاثة ملايين جنيه استرليني. وأرسلت الغنائم إلى لندن. كما تم إغراق أربع سفن أخرى، مما تسبب في خسارة الاسبانيين ما يعادل عشرة ملايين جنيه استرليني. وفي السنة التالية (١٦٥٧) علمت القيادة البحرية البريطانية أن سفناً اسبانية (تجارية حربية من نوع الغليون أيضاً) قد تحركت من المكسيك وهي محملة بالغنائم الثمينة. وأنها توقفت في ميناء سانتا كروز؛ من جزر تينيريف؛ التابعة لمجموعة جزر الكاناري، فتحرك الأسطول البريطاني وهاجمها وهي في الميناء وأغرقها. وشعرت فرنسا بالخطر من التفوق البحري البريطاني. والذي اعتبره ملك فرنسا لويس الرابع عشر: «أن طعمه كالشراب المر الذي لا تسمح له مكانته بابتلاعه» فحاولت فرنسا منافسة بريطانيا، ووجهت أسطولها سنة ١٦٦٦ م للاستيلاء على (جيغري) بين الجزائر وتونس. ودفع الأسطول الفرنسي ثمن هذه المحاولة الفاشلة غالياً — من الأموال والرجال — وعادت في سنة ١٦٦٩. فحاولت الاستيلاء على (فينيتيان) في كريت. وخشدت سفناً وقوات ضخمة؛ غير أن هذه المحاولة انتهت بالفشل أيضاً. واستسلمت فينيتيان للأتراك المسلمين. واتجهت فرنسا للتوسع القاري في البلاد المنخفضة فخاضت حرب الوراثة الإنكليزية وحرب الوراثة الاسبانية (١٦٨٩ — ١٧١٣). وحددت بريطانيا استراتجيتها في هذه الحرب، بتوصية الملك ويليم الثالث إلى قائد البحرية البريطانية — داسل — والتي جاء فيها: «العمل على إحراق الأسطول الفرنسي وتدميره في قاعدته — بريست — ومطاردته في حال انتقاله إلى البحر الأبيض المتوسط، والهجوم عليه». وقد يكون بالمستطاع تجاوز الأعمال القتالية — البحرية والبرية — للوصول إلى نتائج هذه الحرب التي أخرجت فرنسا واسبانيا من البحر الأبيض المتوسط، وحلت البحرية البريطانية محلها، وامتلكت قاعدتين لأسطولها (جبل طارق وجزيرة مينورقة). واستمرت بريطانيا في تطوير قدرتها البحرية، وإحباط كل جهد فرنسي أو اسباني أو هولندي يهدف لمنافسة القدرة البحرية البريطانية. وكانت بريطانيا تستثمر كل خلاف قاري بين الدول الأوروبية لضرب بعضها ببعض مع الاحتفاظ بهدفها الثابت «وهو حماية تجارتها مع الشرق». كما خاضت حروباً لا نهاية لها؛ ضد فرنسا وضد اسبانيا بخاصة. وبقي جهدها مركزاً لتطوير قدرتها البحرية. فكان لدى بريطانيا في سنة ١٧٤٦ ثلاثة أنواع من السفن الحربية:

١ ــ السفن الحربية (البوارج) التي كان يطلق عليها في الماضي اسم (سفن الخط) وهي سفن مسلحة بخمسين مدفعاً وأكثر.

٢ ــ الطرادات: وتستخدم في المرافقة والحراسة وأعمال المراقبة والاستطلاع وتحمل من ٢٨ حتى ٥٠ مدفعاً.

٣ ــ الفرقاطات وتحمل ٢٨ مدفعاً فأقل.

ولكن فرنسا لم تكن متخلفة عن مضمار التطور؛ فقد أخذت في الفترة ذاتها ببناء سفن حربية أكبر وأسرع من السفن البريطانية. وظهرت أول سفينة من هذه السفن وقد حملت اسم (مدينة باريس) نظراً لأن جمهور باريس هو الذي دفع ثمن تكاليف صنعها. واستشعرت بريطانيا خطر تعاظم القدرة البحرية الفرنسية. غير أنها لم تكن مستعدة للذهاب للحرب من أجل إيقاف هذا التعاظم. غير أن فرنسا ذهبت في تحديها مسافة أبعد عندما احتلت جزيرة كورسيكا سنة ١٧٥٦ ــ بالاتفاق مع جنوه وبالتعاون معها ــ. وزاد من ثقل هذا التحدي إقدام فرنسا على تشكيل حلف مناهض لبريطانيا (ضم النمسا واسبانيا وتوسكانيا وبارما وسردينيا ونابولي) علاوة على فرنسا. وباتت بريطانيا تنتظر الفرصة المناسبة، ولكن الرياح بقيت مستمرة في الاتجاه ضد بريطانيا التي جابهت أصعب الظروف سنة ١٧٧٥ م عندما تفجرت الثورة في الولايات المتحدة. وأعقب ذلك انتصار (جورج واشنطن) في معركة (ساراتوغا سبرينغ) في تشرين الأول (أكتوبر) ١٧٧٧ م. واستعدت فرنسا لإلقاء ثقلها مع الثورة الأمريكية التي أعلنت استقلال الولايات المتحدة عن إنكلترا. وأفادت فرنسا من تعاظم قدرتها البحرية التي أصبحت تضم ٦٥ بارجة و٦٢ فرقاطة. وأعادت إنكلترا تنظيم قدراتها البحرية بسرعة. وانطلقت للهجوم، وحصلت على أول ثمرة لها في نهاية سنة ١٧٧٩ عندما استولت على سبع سفن حربية اسبانية و ١٦ سفينة تجارية محملة بالإمدادات. وبعد أسبوع واحد استولى الأسطول البريطاني على ٦ بوارج اسبانية ودمر بارجة (في معركة اشتهرت باسم معركة ضوء القمر ــ مون لايت). وتمكن الأسطول البريطاني من حصار قاعدة الأسطول الفرنسي (بريست) كما تمكن من عزل الموانىء الهولندية. وخرجت بريطانيا من الحرب وقد احتفظت بمواقعها وبجزر الهند الغربية. وجاءت بعد ذلك الثورة الفرنسية لتؤكد تفوق بريطانيا وسيادتها على البحار. بداية من تدمير الأسطول الفرنسي في أبي قير ١٧٩٩، ثم في الطرف الأغر. ثم في الحصار البحري الذي فرضته بريطانيا على القارة الأوروبية، إلى أن تم إسقاط نابليون بونابرت (سنة ١٨١٥). وانتهت بذلك فترة الحروب الطويلة بين إنكلترا وفرنسا والتي استمرت من العام ١٦٨٩ حتى سنة ١٨١٥. ووصلت بريطانيا إلى السيادة المطلقة على البحار. وأصبح باستطاعة بريطانيا أن تفرض لا بقوتها الحقيقية، وإنما بهيبتها البحرية؛ الحلول المناسبة لها لكل التسويات الدولية والأقليمية. ومعروف دور بريطانيا مثلاً في تدمير الأسطول العثماني المصري في نافاران (سنة

١٨٢٧) بالتعاون مع الأسطولين الفرنسي والروسي. كذلك معروف ما هو دور بريطانيا في دعم الدولة العثمانية ضد حاكم مصر (محمد علي باشا وابنه ابراهيم باشا) والذي كانت تدعمه فرنسا للاستقلال عن الدولة العثمانية والاستقلال بسورية. كذلك كان دور بريطانيا معروفاً في حرب القرم (سنة ١٨٥٤) حيث وقفت مع فرنسا ضد روسيا التي كانت تريد الاستيلاء على الدولة العثمانية. ولم تعد بريطانيا تخشى منافسة فرنسا، بل بات باستطاعتها التعاون معها، ولكن في إطار عدم التعرض للمصالح البريطانية وعلى سبيل المثال: فعندما احتلت بريطانيا مصر سنة ١٨٨٢ وحصلت من الدولة العثمانية على جزيرة قبرص قبل ذلك (سنة ١٨٧٨) سمحت لفرنسا باحتلال تونس. ولقد شعرت بريطانيا بالحاجة للاعتماد على بحريتها اعتماداً مطلقاً للمحافظة على إمبراطوريتها المترامية الأطراف. فأصدرت في سنة ١٨٨٩ قانون الدفاع البحري؛ الذي نص على زيادة الأسطول البريطاني بما يعادل (قوة دولتين بحريتين تقليديتين) مثل فرنسا واسبانيا. وكانت موارد المستعمرات البريطانية ــ تستطيع في جزء منها ــ تغطية نفقات هذه الزيادة.

[٣] **التجارب المعاصرة**: بدأ هذا القرن بنموذج آخر من الحروب البحرية ــ القارية، فقد اصطدمت عمليات التوسع الروسي القارية في أقصى الشرق؛ بالمطامع التوسعية لليابان. وكانت مدينة بورت ــ آرثر وقاعدتها البحرية هي البؤرة المركزية لهذا الصراع (١٩٠٤ ــ ١٩٠٥) حيث كانت اليابان قد خططت لتدمير القوات البحرية الروسية في هذه القاعدة؛ مما يضمن لها حرية العمل للسيطرة على منشوريا وكوريا؛ مستفيدة من تفوقها البحري. ووجهت اليابان ضربتها المباغتة للأسطول الروسي في بورت آرثر يوم ٨ شباط (فبراير) ١٩٠٤. ثم أتبعت ذلك بحصار الميناء حصاراً محكماً (براً وبحراً). وحاول الأسطول الروسي التدخل في ١٠ آب (أغسطس) فوقعت معركة (البحر الأصفر) والتي نجحت فيها البحرية اليابانية بتمزيق الأسطول الروسي. ثم وقعت بعد ذلك مجموعة من المعارك؛ دفع اليابانيون ثمنها غالياً من أرواح جنودهم لا سيما في هجومهم الأخير الذي استولوا بنتيجته على بيرل هاربور في ٢٧ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٠٤. ودارت بعد ذلك مجموعة من المعارك البرية الدامية، والمعارك البحرية التي كان من أشهرها معركة مضيق تسوشيما في ٢٧ أيار (مايو) ١٩٠٥. والتي اصطدم فيها أسطول بحر البلطيق الروسي مع الأسطول الياباني. وكان الأسطول الروسي يضم ٨ سفن حربية و٨ طرادات و٩ مدمرات بالإضافة إلى عدد من القطع البحرية الصغيرة والمتنوعة. أما الأسطول الياباني فكان يضم ٤ سفن حربية و٨ طرادات و٢١ مدمرة و٦٠ زورق طوربيد. وعندما انتهت المعركة بين الأسطولين، لم يكن قد بقي من الأسطول الروسي إلّا ٥ مدمرات وطراد واحد. بينما لم يخسر اليابانيون إلّا ثلاث زوارق طوربيد. وكانت هذه النتيجة؛ علاوة على خسارة بورت آرثر، عاملاً أساسياً في إقناع روسيا بالصلح مع اليابان. وتنازلت روسيا عن منشوريا وبورت آرثر لليابان. وتفوقت الاستراتيجية البحرية وانتصرت على

الاستراتيجية القارية؛ فقد تم حسم الصراع المسلح في البحر: وعندما حاولت اليابان التوسع في منغوليا (سنة ١٩٣٩) واعتمدت على استراتيجية قارية، فشلت في إحراز نصر حاسم؛ وكان النصر لمصلحة الاتحاد السوفييتي.

لقد كانت المنافسة البحرية بعد ذلك هي العامل الرئيسي في تفجير الحروب العالمية التي عرفها هذا القرن. ففي سنة ١٨٩٨ م. شرعت ألمانيا في تنفيذ مخططها لبناء ٣٤ بارجة و ٥٢ طراداً بالإضافة إلى عدد كبير من السفن الحربية الصغيرة. وأثار ذلك اهتمام بريطانيا التي كانت قد طبقت سياستها الاستراتيجية طوال ثلاثة قرون على أساس ثلاثة مبادىء هي:

١ ــ المحافظة على التفوق البحري في مواجهة أي قوات بحرية مشتركة.
٢ ــ القضاء على كل تهديد قد تتعرض له البلاد المنخفضة.
٣ ــ تحقيق التوازن في القوى الأوروبية.

وجاء تعاظم القدرة البحرية الألمانية ليتهدد هذه المبادىء بقوة. واستشعرت روسيا الخطر من تعاظم القدرة البحرية الألمانية ــ أيضاً ــ. فوجهت الدعوة لعقد مؤتمر سلمي في (هاغ) هدفه وضع حد لسباق التسلح البحري الذي لم يكن باستطاعة روسيا السير فيه بسبب ظروفها الاقتصادية الصعبة. وقد عقد هذا المؤتمر في سنة ١٨٩٩. وانتهى إلى الفشل. غير أنه من المناسب هنا التوقف عند رد بريطانيا عندما طرحت مسألة (تمدين الحرب ــ أو إنسانيتها) عبر الحد من سباق التسلح الحربي ــ البحري فكان مما قاله ممثل بريطانيا في المؤتمر: «... **من المحال تمدين الحرب، إلَّا إذا أمكن الحديث عن مراعاة إنسانية الإنسان في جهنم. إن فكرة الحرب فكرة كريهة، ولكن وعندما تظهر ضرورة خوض الحرب؛ فإنه لا بد من خوض غمارها بشجاعة ووحشية. وإن هذه المعرفة لطبيعة الحرب هي في حد ذاتها قوة الردع التي تعمل على إيقاف العدوان من أجل هذا أطالب بالسيادة البحرية، بأنني أعمل من أجل السلام وسيادة البحرية البريطانية هي أفضل ضمان للسلام العالمي**». وأعادت بريطانيا تنظيم قواتها البحرية، فشكلتها في ثلاثة أساطيل:

١ ــ أسطول الأطلسي.
٢ ــ أسطول القنال الإنكليزي.
٣ ــ أسطول البحر الأبيض المتوسط الذي كان أقوى هذه الأساطيل الثلاثة.

ثم شرعت في بناء القطع البحرية الحديثة. فأنزلت إلى البحر في سنة ١٩٠٦ أكبر بارجة عرفها العالم حتى ذاك التاريخ. وحملت اسم (دريدنوت). وكانت هذه البارجة أول قطعة حربية مجهزة بالتوربينات (المحركات) التي تدفع البارجة بسرعة ٢١ عقدة. وكانت إزاحة البارجة تبلغ

١٧٩٠٠ طن وتم تصفيح أقسامها الرئيسة بدروع من سمك ١١ إنش على شكل نطاق يحيط بالسفينة علاوة على تصفيح الأبراج بالدروع. وقد سلحت البارجة بعشر مدافع من عيار ١٢ إنش. ولم تمض فترة طويلة على إنزال هذه البارجة، حتى دعمت بريطانيا أسطولها بثلاث طرادات حديثة (إيندو ميتابل) و (إينغلاكسيبل) و (إينفينسيبل) وحولت هذه الطرادات سنة ١٩١٢ إلى طرادات قتال، وحددت لها واجبات الاستطلاع القتالي. وسارت ألمانيا على هذا الاتجاه ذاته؛ فأنزلت إلى البحر في سنة ١٩٠٧ — البارجة (تاسو) المماثلة للبارجة البريطانية (دريدنوت). ثم صنعت في سنة ١٩٠٩ سفناً حربية من فئة (هيلفر لاند) المتفوقة في بعض مميزاتها على السفن البريطانية المماثلة لها مثل (نيبتون وكولوسوس وهيركوليس) لا سيما في مجال التصفيح وفي مجال التسلح. واستمر سباق التسلح في مجال صناعة السفن، ورافقه عداء مكشوف بين ألمانيا وبريطانيا. وعندما عقد مؤتمر (هاغ) الثاني سنة ١٩٠٧. كان نصيبه من الفشل كمثل نصيب المؤتمر السابق إذ رفضت ألمانيا مناقشة أي نوع من القيود التي يمكن فرضها على التسلح البحري. وعبرت ألمانيا عن أملها في التفوق على بريطانيا خلال مدة عشر حتى ١٢ سنة. ولم يلبث الطرفان الآخران في (الحلف الثلاثي) وهما النمسا وإيطاليا، أن انطلقا في مجال صناعة السفن الحربية المدرعة. وكان لذلك دوره الحاسم في تفجير الحرب العالمية الأولى؛ إذ كان باستطاعة بريطانيا وحدها إيقاف تلك الحرب، ومنعها. غير أنها رغبت في تفجر الحرب على أمل توفير الفرصة لتدمير القوى المنافسة وكان هذا هو ما حدث في الواقع ولو أن الثمن الذي دفعته بريطانيا كان غالياً جداً؛ بسبب اضطرارها لخوض الحرب القارية — البرية — إلى جانب حليفتها فرنسا.

استخدمت ألمانيا في الحرب العالمية الغواصات لضرب السفن البريطانية (التجارية والحربية) وتمكنت من إنزال خسائر كبيرة في السفن البريطانية. وكانت هذه التجربة عاملاً مشجعاً لألمانيا من أجل تطوير هذا السلاح، بحيث شكلت في الحرب العالمية الثانية أسطولين: أسطول للسطح وأسطول للأعماق (الغواصات). ولكن ذلك لم يمنع من هزيمة ألمانيا — في البحر — قبل إلحاق الهزيمة بقواتها البرية. وقد كانت الحرب العالمية الأولى حرباً برية بالدرجة الأولى، رغم استخدام الأساطيل على نطاق واسع، لنقل القوات والجيوش، وللأعمال القتالية البحرية. ولقد ظهرت من خلال الحرب العالمية الأولى الملامح الأولى للتطور البحري، فقد اشتركت الولايات المتحدة في هذه الحرب؛ وأدركت ما تحققه بريطانيا من مغانم عبر سيادتها البحرية، فتضمنت نشرة هيئة الأركان الأمريكية في سنة ١٩١٨ ما يلي: «**لقد ظهرت أربع دول عظمى في العالم؛ وهي اسبانيا وهولاندا وفرنسا وألمانيا. وأخذت في منافسة بريطانيا العظمى في سيادتها التجارية واستطاعت بريطانيا العظمى إلحاق الهزيمة بكل واحدة من هذه الدول على التعاقب. ثم اتخذت منها حلفاء تلجأ إليهم. وقد برزت الآن قدرة تجارية خامسة هي أعظم القدرات على الإطلاق. وأخذت في دخول المنافسة لتحقيق المساواة التجارية على الأقل...**». لم تكن هذه القدرة التجارية

الخامسة إلّا قدرة الولايات المتحدة الأمريكية ـــ أعظم القدرات على الإطلاق ـــ. التي تقرر لها دخول المنافسة ضد بريطانيا؛ وكلمة تحقيق المساواة هنا هي كلمة مجازية ويقصد منها بدقة التفوق لا مجرد المنافسة من الموقع الأضعف أو حتى من موقع المساواة. وقد تعلمت الولايات المتحدة من بريطانيا كيف تقهر منافسيها وتتغلب عليهم ثم تتخذ منهم حلفاء، وهذا ما فعلته بعدئذٍ عندما عزلت بريطانيا واليابان عن موقعهما المتفوق، وحولتهم إلى (حلفاء) أو بالأحرى (تابعين). وكان التفوق الأمريكي الساحق هو وسيلة الإقناع لحمل الدولتين البحريتين: اليابان وإنكلترا، على التنازل عن سيادتهما البحرية؛ وتسليم علم السيادة للحليف الأقوى والأكثر تفوقاً. ولقد مرت هذه التحولات عبر لهيب الحرب العالمية الثانية، فلقد ألقت الولايات المتحدة بكامل ثقلها البحري ـــ التجاري والحربي ـــ في أتون الحرب. فكانت هذه الحرب في الأطلسي وأوروبا حرباً بحرية تميزت بأعمال إنزال كبيرة ومتتالية. بداية من شمال إفريقية (المغرب والجزائر) ومروراً بصقلية وإيطاليا (إنزال أنزو) ونهاية بالنورماندي وجنوب فرنسا. وقد أسهمت بريطانيا إسهاماً كبيراً في وضع جهدها البحري تحت تصرف الحلفاء. غير أن الجهد الرئيسي بقي جهداً أمريكياً. ولم يكن باستطاعة أية دولة أخرى في العالم حشد وتأمين مثل هذا الجهد البحري الضخم، سواء لنقل القوات من وراء المحيط وحتى مسارح العمليات، أو من أجل خوض الأعمال القتالية البحرية. علاوة على ما تطلبته الأعمال القتالية من تأمين دعم وإمداد مستمرين لكل الجبهات ـــ بما في ذلك الجبهة السوفييتية. أما على جبهة المحيط الهادي ـــ الباسيفيكي ـــ فقد كانت الأعمال القتالية أعمالاً بحرية بالدرجة الأولى، إذ لم تبدأ أية عملية من العمليات إلّا بإنزال للقوات ـــ بحري أو بحري جوي ـــ. كما تميزت الأعمال القتالية البحرية بالعنف الشديد فيما بين الأسطول الياباني والأسطول الأمريكي.

لقد ظهر تطور جديد وحاسم في مجال بناء القدرة البحرية؛ وهو التوسع الكبير في استخدام الطائرات؛ لزيادة مجال عمل القوات البحرية ولدعم قدرتها القتالية. ولقد اعتبرت الطائرات في بداية ظهورها أنها العدو الأول والأكثر خطراً على السفن الحربية البحرية ـــ السطحية ـــ فتم تسليح البحرية بالمدفعية المضادة للطائرات، وما لبثت الطائرة أن تحالفت مع القطعة البحرية الحربية، فتم بناء مسطحات على ظهر البوارج لاستخدام طائرات الاستطلاع، وليتبع ذلك الطائرات المقاتلة بأعداد محدودة، وأدى هذا التطور بصورة طبيعية إلى ظهور حاملات الطائرات الجبارة. وقد دعم ذلك من القدرة البحرية، وأسهم في تطورها، فأصبحت الأساطيل الحديثة وهي تضم القوات البحرية ومعها قوات المشاة البحرية والقوات الخاصة وانتهت الحرب العالمية الثانية بظهور دولتين عظميين جديدتين وهما الولايات المتحدة الأمريكية؛ والاتحاد السوفييتي. وكانت أولاهما بحرية والثانية قارية. ولقد حرصت روسيا من قبل والاتحاد السوفييتي من

بعد على امتلاك قدرة بحرية ضخمة؛ إدراكاً منها لأهمية امتلاك القدرة البحرية لتكوين الدولة العظمى. وأمكن للاتحاد السوفييتي تحقيق منجزات ضخمة في مجال بناء القدرة البحرية وتطورها؛ وفي مجال صناعة القطع البحرية المتنوعة وذات الاستخدامات المتباينة. ولكن رغم ذلك، فستبقى السياسة الاستراتيجية السوفييتية قارية، على نحو ما كانت عليه ألمانيا وفرنسا من قبل، والأمر مماثل بالنسبة للدولتين الآسيويتين الكبيرتين: اليابان والصين. حيث ستبقى اليابان مميزة بقدرتها البحرية، فيما ستبقى الصين ذات سياسة استراتيجية قارية. فلمن سيكون التفوق في النهاية: هل للسياسة الاستراتيجية القارية أم للسياسة الاستراتيجية البحرية، في هذا العصر النووي؟ الأمر الثابت هو أنه لن يكون هناك متفوق إذا ما تفجرت الحرب النووية؛ بل سيكون هناك فناء للأطراف المتصارعة بالدرجة الأولى وللعالم كله بالدرجة الثانية. ولكن الحقيقة الأكيدة أيضاً هي أن الغواصات النووية والمسلحة بالصواريخ العابرة للقارات ستضمن للدول البحرية دعماً مذهلاً ضد الفناء، أما في حياة السلم؛ فمن الواضح أن الدولة ذات السيادة البحرية: الولايات المتحدة ومن بعدها اليابان قد حققت من النجاح على المستوى العالمي ما لم تتمكن من تحقيقه الدول القارية، رغم كل ما بذلته هذه الدول القارية من جهود لمنافسة الدول البحرية، سواء في المجالات التجارية أو الاقتصادية. أو في مجالات الهيمنة السياسية. ولقد استأثرت الأبحاث في مجال القدرة البحرية باهتمام الباحثين في مجالات السياسات الاستراتيجية وفي مجالات التقانة والتسلّح، كما في المجال الاقتصادي، خلال العقود القريبة الماضية. وظهرت وجهات نظر متباينة وأفكار مختلفة ذكر في أحدها ما يلي:

«**ليس من الضروري بقاء القدرة البحرية في قبضة الأمة المتفوقة في عددها وذلك بحسب ما برهنت عليه مسيرة التاريخ في مرات كثيرة**... ولقد كانت هذه القدرة في قبضة بريطانيا، مما حمل نابليون على النطق بمقولته الشهيرة: «تلك القطع البحرية التي تنطلق من بعيد كالعاصفة المدمرة، بحيث لا يستطيع الجيش الكبير الصمود أمامها؛ ومنعها من الهيمنة على العالم»(٧). **وإن درجة القوة أو القدرة البحرية التي يجب بلوغها في كل إقليم؛ لا تتعلق فقط بمجموعة العوامل المعروفة لبناء القوة مثل الموقف الوطني ومعطيات الموقف العالمي والبنية الاقتصادية وإنما تتعلق أيضاً بالعامل الجغرافي**... إن الدرس الكبير الذي يعطيه التاريخ هو أن الأمة التي تسلم نفسها لاستراتيجية برية ــ قارية ــ وتهمل الاستراتيجية البحرية؛ تعرض نفسها في النهاية للهزيمة. ويعتبر البحر الأبيض المتوسط هو البحر الذي عرف أكثر التطبيقات العملية لهذا الدرس؛ وليست الحروب النابوليونية والحروب الهتلرية بعد ذلك سوى الشواهد النموذجية للتجربة التاريخية»(٨).

(٧) القدرة البحرية في البحر الأبيض المتوسط (س. باك) دار الشورى ــ بيروت ــ ١٩٨١ ص١٦٦.

(٨) المرجع السابق. ص١٩ و ٢١.

يمكن بعد العرض الوجيز السابق استخلاص أهم المبادىء المرتبطة بعامل التفوق في الاستراتيجية البحرية وفي القدرة البحرية. ومن تلك المبادىء ما هو مستنبط من مبادىء الحرب ذاتها؛ كالمباغتة والمبادأة والحشد والمرونة في التحرك، والمناورة واستخدام القدرة القتالية هجومياً. والأهم من ذلك كله الجرأة والسرعة في اتخاذ القرار. ويُظهر تاريخ الحروب البحرية منذ القديم وحتى اليوم أن النصر لم يكن إلّا من نصيب القادة الذين ركبوا البحر ولا هدف لهم إلّا القتال، وانتزاع النصر. ولقد تميزت المعارك البحرية الحديثة بمثل المميزات التي اكتسبتها المعارك القديمة؛ فهي معارك قصيرة وحاسمة، تعتمد على الضرب بأقصى العنف وبأقصى السرعة. وإذن فليست مسألة القدرة البحرية هي مسألة حشد ضخم للأساطيل بقدر ما هي مسألة الكفاءة العالية في استخدام هذه الأساطيل للهجوم. ولقد عرفت الحروب بين فرنسا واسبانيا وإنكلترا هذه الميزة، فقد كانت الأساطيل الفرنسية والاسبانية متفوقة في عددها وفي قدرتها على الأسطول الإنكليزي، غير أن قادة الأسطول الإنكليزي (من أمثال بلاك ونيلسون) تميزوا بالجرأة وبالروح الهجومية. فسار النصر في ركابهم، وتمكنوا من التغلب على عامل التفوق العددي الذي كان في مصلحة أعدائهم. وهنا يأتي التفوق في التقانة ليدعم الطرف الذي يصمم على استخدامه لمصلحته. فالتقانة تكاد تكون متشابهة بين القطع البحرية ــ في القديم والحديث ــ ويستفيد من هذه التقانة بدرجة أكبر من يوظفها ــ أو يسخرها ــ لخدمة مبادىء الحرب البحرية بصورة صحيحة. لقد اتصلت حدود العالم في الأزمنة الحديثة؛ وتعاظم بالتالي دور القدرة البحرية للدفاع عن المصالح الوطنية والقومية. لا بالنسبة للدول العظمى، وإنما بالنسبة لكل الدول كبيرها وصغيرها، لا سيما تلك التي تكتسب أهمية بحكم موقعها الجيو استراتيجي. وفي طليعتها الأقطار العربية في المشرق والمغرب، لأنها تمسك بأهم وأخطر المسطحات المائية؛ وما يتصل بها من عقد وخوانق بحرية.

دار النفائس
للطباعة والنشر والتوزيع
شارع فردان - بناية صفي الدين
ص.ب ١١/٦٣٤٧ أو ١٤/٥١٥٢
برقياً: دانفايسكو - ت ٨١٠١٩٤
أو ٨٦١٣٦٧ بيروت - لبنان

الطبعة الأولى: ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م

بسّام العسلي

المذاهب العسكرية في العالم

(دراسات مُقارنة)

دار النفائس